كريستوف رانْسْماير

أطلسُ رجلٍ يتوخّى الدقة



ترجمة

د. نبيل الحفّار

كريستوف رانْسْماير

أطلسُ رجلٍ يتوخّى الدقة

ترجمة
د. نبيل الحفّار

مراجعة
مصطفى السليمان

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PT2678.A65 Z4612 2015

Ransmayr, Christoph, 1954-

[Atlas eines ängstlichen Mannes]

أطلس رجل يتوخّى الدقة / كريستوف رانْسماير ؛ ترجمة نبيل الحفار ؛ مراجعة مصطفى السليمان.– أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة، كلمة، 2015.

442 ص. ؛ 12,5 × 21,5 سم.

ترجمة كتاب : Atlas eines ängstlichen Mannes

تدمك : 978–9948–17–396–0

1– Ransmayr, Christoph, 1954

أ– حفار، نبيل. ب– سليمان، مصطفى. ج– العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:

Christoph Ransmayr

Atlas eines ängstlichen Mannes

Originally published as: "Atlas eines ängstlichen Mannes"

KALIMA

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

أطلسُ رجلٍ
يتوخّى الدقة

الحكايات لا تحصل، الحكايات تُروى

في حكايات هذا الأطلس السبعين، أحكي فحسب عن أمكنة عشت فيها، رحلت إليها، أو تجولت فيها. وعن بشر التقيتهم أثناء ذلك فحسب، عن أناس ساعدوني، حموني، هددوني، أنقذوني وأحبوني. ثمة استثناء واحد: مرة واحدة سأحكي هنا عن مكان لم أطأه قط، لكنه بات مألوفاً لدي، من أوصاف زوجتي له. القصد من احتفاظي باسم هذا المكان لنفسي هو التذكير بأن كثيراً مما نظن أننا نعرفه عن عالمنا، نعرفه من خلال ما روي لنا فحسب، وأن (تقريباً) كل حكاية في هذا الكتاب، كان يمكن أن تروى من قبل إنسان آخر، جَرؤ على الخروج إلى العراء، إلى الأماكن النائية، أو إلى الجوار القريب، قرب ما هو غريب.

أهدي هذا الأطلس إلى زوجتي يوديت- التي لولا حبها لما عدتُ، على الأقل من إحدى الرحلات- وإلى ذكرى يوهانّا، رفيقة حياتي ورحلاتي على مدى سنوات كثيرة: فربما لولاهما، ما كنت قد بدأت الترحال قط.

كولْمَنْزبِرْغ ألْم، ربيع 2012 Kollmannsberg Alm

ك. ر

فهرس

1 الأرض الأبعد، جزيرة سالاس ي غوميز/ تشيلي 11

2 تغريد المنطقة، الصين 20

3 هِرتْسفِلد، البرازيل 28

4 قاطفو النجوم، الولايات المتحدة الأمريكية 35

5 جسر السماء، المغرب 40

6 موت في إشبيلية، إسپانيا 43

7 أشباح، إيسلندا 48

8 انطفاء مدينة، اليونان 53

9 على حافة الغابة، النمسا 58

10 محاولات طيران، نيوزيلندا 65

11 الطاووس، الهند 70

12 الاغتيال، نيپال 74

13 غارة جوية، بوليڤيا 80

14 شاطئ موحش، البرازيل 87

15 رجل على النهر، النمسا 90

16 سيد الأبطال، اليونان 93

17 درب الصليب، الولايات المتحدة الأمريكية 99

18 زيارة من مكان بعيد، المكسيك 105

19 تغيير القبر، جزيرة روبِنْسُن كروزو/ تشيلي 111

20 صيد غير مرغوب فيه، إيرلندا 117

21 في العمق، الدومِنيكان الكاريبية 121

22 ملكة الغابة، البرازيل........................ 127
23 التسليم، لاوس 136
24 وداع، النمسا........................ 144
25 في الفضاء، نيوزيلندا 150
26 ضربة غولف في القطب الشمالي، روسيا القطبية.......... 156
27 عودة إلى الديار، كندا 162
28 تيار، كمبوديا 165
29 شغل الملائكة، تشيكيا........................ 173
30 غابة الأعمدة، تركيا 179
31 جمال الظلمة، النمسا 186
32 سقوط من الليل، الهند 192
33 عازف البيانو، اليابان........................ 198
34 الحظ والمحيط الهادئ، تشيلي 203
35 قواعد الجنة، بيتكيرن/ جنوب الباسيفيكي 209
36 ظل إنقاذ، موريشيوس 226
37 اللاميّت، روسيا........................ 232
38 زائر البرلمان، ألمانيا 238
39 عارٍ في الظل، اليونان........................ 244
40 قرشٌ في الصحراء، اليمن........................ 248
41 دم، النمسا........................ 254
42 قوس ضوئي، أستراليا 259
43 عيد ميلاد ثان، روسيا القطبية 264
44 إله الجليد، إيرلندا........................ 273
45 الواعظ، بولندا........................ 278
46 مصور، جمهورية الدومنيكان 284
47 باسيفيكي، أطلسي، كوستاريكا 287

48 حب بلا جدوى، سومطره / إندونيسيا 292
49 الأحد الأبيض، النمسا 297
50 صيادة السمك، نيبال 303
51 التهديد، ماليزيا 306
52 قيد الاشتباه، جنوب أفريقيا 311
53 القاز الصينية، تشيلي 317
54 خطاطون، الصين 323
55 حجاج، سري لانكا 329
56 عزاء المكروبين، النمسا 340
57 التينور، شبه جزيرة كولا / روسيا 348
58 رجل بلا شمس، إيرلندا 356
59 بالحركة البطيئة، كوستاريكا 363
60 صياد الوَرَل، جافا / إندونيسيا 368
61 أضرار العاصفة، النمسا 373
62 هلاك عالم، هونغ كونغ / الصين 378
63 كلب الراعي، تركيا 383
64 في ظل الرجل الطائر، جزر الفصح / تشيلي 389
65 مشاهد صيد، پَراغواي 401
66 الكاتب، التيبت 405
67 خرق قانوني، بالي/ إندونيسيا 414
68 ليلة هادئة، سري لانكا 420
69 فتاة في عاصفة شتوية، النمسا 428
70 الوصول، نيبال 436

الأرض الأبعد

رأيت موطن أحد الأرباب، عند تلاقي الدرجة 26,28° من خطوط العرض جنوباً، مع الدرجة 105,21° من خطوط الطول غرباً: كان هناكَ جزيرةً صخرية غير مأهولة بالبشر، تحلق في أجوائها أسراب من طيور البحر، في مكانٍ ناءٍ من المحيط الهادي. كانت المساحة بين هذه الصخور المحاطة بالأمواج المتلاطمة، بلا شجرة أو غصن، بلا ماء حلو، بلا عشب أو نبات مزهر، أو حتى طحالب، وبين الشاطيء التشيلي الذي أقلعت منه سفينتي قبل أسبوع باتجاه رابا نوي، جزر الفصح، ما يزيد على ثلاثة آلاف ومئتي كيلومتر.

منذ ساعة، وأنا متكئٌ على حاجزِ سطح السفينة، متمسك به بشدة بسبب ارتفاع الموج، كنت أراقب هيكل الجزيرة، الذي لا يرتفع أكثر من ثلاثين متراً عن سطح الماء، وهو يندفع عالياً من بين جبال الأمواج ليغرق فيها ثانية، ولترتسم ملامحه أخيراً في الأفق مقترباً من السفينة، إلى درجة أن الرذاذ المتطاير مع الريح ليصطدم بالصخور، قد غشى زجاج نوافذ السفينة المستديرة كأعين الثيران وعدسات المناظير.

والفضل في رؤيتنا لهذه الأرض القفر المتأججة تحت شمس

آذار/ مارس، يعود إلى مناورة التفافٍ بطول مئات من الأميال البحرية، أراد بها القبطان تجنب استطالات منخفضٍ جويٍّ عاصفُ وهائلُ، منطلقٍ من كاپ هورن. فارتفاع الموج، حتى هنا تحت السماء المشرقة، ما زال يبلغ ثمانية حتى عشرة أمتار، ما يدفعنا إلى استنتاجات مرعبة، حول مداه صعوداً وهبوطاً، في مسارنا الأصلي.

كان القبطان كل صباح، عبر مكبرات الصوت على السطح والتي تبلغ حتى الأَسرَّة وطاولات الطعام المثبتة بالبراغي، ينهي إعلانه عن موقع السفينة والضغط الجوي وارتفاع الموج وخط السير، بقوله إن تسمية المحيط المسالم أو الهادئ منذ عبوره أول مرة من قبل بحارة أوروبيين لم تكن أكثر من صفةٍ لأملٍ يائسٍ. فالباسيفيكي هنا في الجنوب أو على امتداد آلاف الأميال البحرية في جميع اتجاهات البوصلة، ليس أقل هدوءاً أو مسالمة من بحارٍ أخرى، عُمِّدت بأسماء أقل جمالاً، ولا يختلف ارتفاع الموج فيه عن البحار الأخرى تحت ضغط العواصف وجاذبية القمر إلى جبال مائية. فيفضل ألا يعبرها المرء إن لم يكن مضطراً.

من وجهة نظر علم الخرائط ليس هذا التشكيل الصخري البركاني سوى قمة تلاطم الأمواج لجبل يتتصب بارتفاع ثلاثة آلاف وخمسمئة متر من عمق البحر، يشار إليها على الخرائط البحرية باسم سالاس وغوميز، للتذكير بقبطانين إسبانيين منسيين. أولهما كان أول أوروبي رأى هذا التشكيل الصخري الذي لا تتجاوز مساحته بضع مئات من الأمتار، أما الثاني

فقد وطأها بعد عمرٍ، وثبّت وجودها على الخارطة.

أما الرجل الناحل بصورة مرعبة، الواقف إلى جانبي، متشبثاً مثلي بحاجز السطح، فقد كان له رأي آخر، إذ قال إن شعب رابا نْوي الغامض، الذي جازف بوجوده كله لقاء تزيين جزر الفصح بنحو ألف تمثال حجري، وقبل هذين المكتشفين المزعومين بمئات السنين قد عبروا هذه المنطقة على مسافة أربعمئة كيلومتر بأطوافهم المجدولة من الحلفاء وذات الأشرعة والمجاذيف، ذهاباً وإياباً، وأطلقوا على هذا المكان اسماً أجمل بكثير: Manu Motu Motiro Hiva. وقد ترجم هذا الاسم تارة بـ **جزيرة الطيور على الطريق إلى الأرض النائية** وتارة أخرى بـ **جزيرة على الطريق إلى اللانهاية**. وتابع الرجل النحيل قائلاً: ولا أحد يعرف الجهة التي جاء منها شعب رابا نوي أصلاً، من عمق عالم جزر بولينيزيا، فقد ضاعت من تراثهم أية ذكرى ترتبط بمكان أصلهم وبأي برٍ آخر على الإطلاق، ما ولّد القناعة بأنه لم يوجد سواهم من البشر في ذاك العالم، ولم يوجد غير جزرهم في ذلك المحيط الشاسع الواسع تحت السماء اللا متناهية.

كنت أبذل جهداً لفهم الرجل النحيل. ليس فقط بسبب تلاطم المياه وصوت الريح، ولا لأن المزيج الفريد من الإنجليزية والإسبانية الذي كان يتكلمه، كان يتضمن أيضاً مفردات من عدة لغات أخرى لم أسمع بها حتى الآن، بل وقبل كل شيء لأنه الآن، كما في لقاءاتنا خلال الأيام الماضية، كان في حالة تأرجح دائم، أتراه يخاطبني أم يخاطب نفسه

فحسب، أم يلقي الكلام من فوق الحاجز في عرض البحر؟

لا بد وأنها كانت صدمة لشعب رابا نوي خلال إحدى حملات صيدهم الطويلة، أو ربما خلال إحدى رحلات ضياعهم القسرية بسبب التيارات أو العواصف، عندما اصطدموا بجزيرة الطيور هذه. صدمة جعلتهم في نهاية المطاف يعتقدون بأنهم قد عثروا على موطن أحد الأرباب. ففي هذا المدى اللا نهائي، إذا وجِدتْ أرض ثانية، فلا بد من أن يعيش فيها، مرئياً أم لا مرئياً، ذاك الذي بفضله وُجد الوطن البعيد والسماء والأرض وكل ما يحيا في الماء والهواء، رب كلّي للقدرة، سمّوه ماكِ ماكِ.

كان الرجل النحيل في طريقه من پورتو مونتْ إلى وطنه هَنْغا روا، المكان الوحيد، الذي بقي مأهولاً من جزر الفصح، بعد تاريخ من التهجير استمر مئات السنين. في الأمسية الأولى بعد الإقلاع من پورتو مونت، وفي البار على سطح مؤخرة السفينة، حكى لي، أو ربما لنفسه فحسب، أن أباه كان أرجنتينياً قضى عمره في جزر التنقيب عن النفط، أما أمه فهي من شعب رابا نوي.

قميص الرجل النحيل المطبوع بصور أسماكٍ بحرية في قاعٍ أزرق قاتم، كان واسعاً فضفاضاً، يرفرف حول جسمه رغم أنهَ مبتل برذاذ الأمواج، الذي يبلغ أحياناً ممسَك حاجز السطح. وأحياناً عندما تلْصق الريح القماش المبتل بصدره للحظة، تتبدى هيئته أكثر هشاشة وهزالاً. لفت الرجل النحيل نظري في صالة الإفطار منذ الصباح الأول عقب إقلاعنا، عندما

وضع في صحنه بالتتالي شريحة سلمون ثم شريحة فخذ خنزير، ثم قطعة شمّام عسلي، حبس أنفاسه برهةً ثم أعاد الشمام وفخذ الخنزير والسلمون إلى صِحاف البوفيه المترعة، ولم يأكل سوى قطعة خبز أسمر مع فنجان شاي.

صحيح، قال لاحقاً، أثناء مساء طويل، في اليوم الثالث أو الرابع على تعارفنا، إن الأكل بالنسبة إليه فرضٌ مؤلم، فهو في الواقع لا يشعر بالجوع أبداً، ويجبر نفسه أحياناً على الشرب. ومع ذلك يلاحقه شعور بكونه ثقيلاً وضخماً مثل أحد الموآي، من تماثيل جزر الفصح الحجرية الهائلة، والتي من أجل نحتها ونقلها استنزف شعب رابا نوي عبر مئات السنين كل طاقاته، وضحّى بغابات نخيله ومناطق صيده وبساتينه وحقوله، وأخيراً حتى بالسلام بين قبائل الجزر.

التماثيل جميعها تدير ظهورها إلى البحر، وتحدق بلا استثناء إلى داخل الجزيرة، بل ربما إلى دواخل سكانها، وهي تُعدّ منذ زمن بعيد صروحاً لديانة عبادة الأسلاف، التي يُفترض أنها تعمل على ربط الحاضر بالأبدية. لكن التماثيل انحطت تدريجياً إلى رموز للسلطة والمكانة، ونمت وتضخمت شيئاً فشيئاً إلى أن أخذت أخيراً تفترس الحياة على الجزيرة.

في مكسر الصخر البركاني في رانو راراكو، حيث نُحت معظم تماثيل الموآي ثم نُقل إلى منصات الاحتفال الشعائري آخو، المتوزعة في جميع أنحاء الجزيرة، قال الرجل النحيل، ما زالتَ تُشاهد هناك حتى اليوم، تماثيل عملاقة مصطفة إلى جانب بعضها أو فوق بعضها أو مولودة من الصخر بارتفاع

عشرين متراً. وبإمكانها أن تبقى هناك منتظرة إلى الأبد تحررها من الصخر، لتنتصب واقفة، ثم لتُجر في مواكب مضنية على جذوع النخيل إلى منصاتها. ففي نهاية المطاف بعد أن استُعبِد شعب راپا نوي من قبل مخلوقاته الحجرية، قام بتحويل أرضه إلى قفر بلا شجر أو غصن، ولم يعد لديه وسائل ولا طاقة لإنجاز المزيد من الأرباب القادرين، الذين ليسوا في الواقع سوى عمالقة حجرية.

الجوع!، كان الرجل النحيل مقتنعاً بأن الجوع هو قدر هذا الشعب، شعبه. فبعد أن قُطع وحُطب كل ما يمكن أن يُقطع ويُحطب، وبعد أن صيد كل ما يمكن أن يصاد من سمك وطرائد، وبعد أن اختفت بيارات النخيل ولم يتبقَ من الخشب ما يكفي لصنع قوارب الصيد، كانت القبائل، التي تقاسمت فيما بينها سابقاً عالم الجزر، قد غزت بعضها وأسقَطت تماثيل هذا أو ذاك الجار، والتي نُصبت بجهد جهيد، وقَطعت رؤوسها. وفي نهاية المطاف قتل الغزاة بعضهم بعضاً، ليس هذا فحسب، بل افترسوا بعضهم بعضاً. وما زاد الطين بلّة هو قدوم السادة المستعمرين ليدبّوا بين آثار عالم الراپا نوي مع قطعانٍ هائلة من الغنم والبقر، عبر أرض أُفرغت من سكانها، وليحتجزوا ما تبقى منهم في مناطق مسوَّرة أو ليشحنوهم عبيداً إلى سواحل الپيرو الجبلية الوعرة لجمع زَرَق طيور البحر. لكن هذا كله ما هو إلا تتويج للكارثة المشؤومة التي بدأت في قلب الجزر وليس في مكان ناءٍ عنها.

قال الرجل النحيل إن أمه قد ماتت قبل أربع سنوات نتيجة

تسمم في الدم حسب التشخيص الطبي، لكنها في حقيقة الأمر ماتت جوعاً. فهي منذ سنوات طويلة تتقيأ خفية، تقريباً كل ما تتناوله بنفسها أو ما يجبرها أبي على أكله أثناء زياراته القليلة. وحتى الآن ما زال يسمع في أذنه أحياناً صوت ذلك الاختناق الذي يتبع كل وجبة، والذي كان يسمعه عندما يتسلل وراءها عبر دهليز طويل إلى المرحاض في دار أبويه في هَنْغاروا.

ولكن يحتمل أن يكون هذا الجوع، هذا الصوم لا أكثر من محاولة يائسة للانعتاق من مصير قومها، وللعودة، حسب تعبيرها، إلى جسدٍ روحيّ يتحرر أخيراً من الارتباط المشؤوم بلقيماتِ خبز. فمن لا يجوع للخبز، لن يجوع أيضاً للحقول وللمراعي وللسلطة، ولن يبغي أن يتسلط على أحد أو يقتل أحداً أو يفترس أحداً. ربما كان هذا هو ما رآه الموآي، عندما أداروا ظهورهم للپاسيفيكي، أقوى عناصر هذه الأرض، لينظروا فقط إلى داخل الجزيرة وإلى قلوب سكانها.

وقال الرجل النحيل إنه بعد موت أمه، دون أن يريد ذلك أو يعيه، قد ورث عنها فقدان الشهية، فحقق لها بذلك، ربما، حلم حياتها الطويل. فخلافاً عنها، هي التي كان النهم إلى الأكل يتمكّن منها أحياناً، فتنسل ليلاً إلى المطبخ المعتم، شبه نائمة، لتلتهم كل ما تجده أمامها، ولتتقيأ من ثم كل شيء، فقدَ هو وربما إلى الأبد كل رغبة في الطعام.

تشبث الرجل النحيل بممسك الحاجز بشدة، بحيث ابيضت سلاميات أصابعه. عندما بلّل الرذاذ سطح يديه فتلألأ، بدت بشرته على درجة من النعومة، بل الشفافية مثل

الذبابة الشبكية الجناح التي يُظهر جناحاها أدق عروقها.

ما الأجدر بواحدنا أن يفعل- قال وهو يتمايل إلى الأمام والخلف دون أن يفلت ممسك الحاجز- في أوقات الشدة وفي أوقات الجوع، سوى أن يذهب إلى موطن الرب ليلتمس العون والخلاص، أن يذهب إلى الجزيرة على طريق اللا نهاية، والتي من بعدها تبدأ اللا نهاية؟ كم عدد الذين اختفوا من شعب الراپا نوي في مثل رحلة الحج هذه يا ترى؟ حتى وإن كانوا ضالعين في قراءة النجوم وطيّات الأمواج وألوانها ومعرفة التيارات وقوة الريح وحتى تشكيلات أسراب الطيور، واستخدام ذلك كله في حساباتهم الملاحية، فقد كانت وسيلتهم أطوافاً، من الحلفاء المجدول، من خصل البوص، في حالة من ارتفاع الموج كالآن هنا!

سنونو سخام البحر، قال الرجل النحيل مشيراً إلى طيور صامتة، تشبه النوارس، ذات أجنحة بيضاء وسوداء، طارت من برج صخري مغطى بالزَرَق وحامت حول سفينتنا بفضول، كان الراپا نوي يقدسون هذه الطيور، فمع ظهورها يبدأ الربيع أو الفصل الذي يحتفلون في جزر الفصح بقدومه، باعتباره ربيعاً. السنة كلها، بل الزمن نفسه كان يجري مرتبطاً بهذه الطيور. وربما كان سنونو سخام البحر المقدس الذي يتكاثر هنا، هو الذي ولّد الاعتقاد بأن إلهاً ما يعيش هنا. ألا يسترعي الانتباه نوع الحياة على هذه الصخور البركانية، وألا تسترعي الانتباه الأسماء العجيبة التي أُسبغت على أنواع هذه الحياة؟ غطّاس عاصفة الميلاد، قناع المهبول، مشاة البحر،

سنونو جنيّات البحر... كلها تحتضن بيضها هنا.

عندما مد الرجل النحيل يده إلى جيب قميصه وأخرج منها قطعة خبز أسمر مغمّسة برذاذ البحر، ظننت أنه سيحاول إطعام سنونو سخام البحر الذي قد لا يعرف البشر ولا السفن في هذا المكان القصي عن المسارات الملاحية. لكن الرجل النحيل وضع الخبز المبلول في فمه وبدأ يأكل ببطء ونظرته ثابتة على الجزيرة السوداء المتراقصة صعوداً ونزولاً.

●●●

تغريد المنطقة

رأيت هيئةً بعيدةً أمام برج حراسة متساقط من ذلك السور الدفاعي الذي يبلغ طوله تسعة آلاف كيلومتر، والذي يسمى في بلد مَن بنوه وانْلي تْشانغ تشِنغ أي **السور الذي لا يُعقل طوله**، فيما تسميه بقية الدنيا سور الصين.

أثلجت صباح اليوم، وقد مضت عدة ساعات على تجوالي على سطح السور، بين سيماتاي وجينْشانْلينغ في مقاطعة هِباي عبر جبال يان. يتثنى السور هنا بأبراج الحراسة وأبراج إنذار الحريق وأسنان تاجِه، مثل أوراق زينةٍ ذرتها الريح، فحطت على الذرى وحواف الصخور عبر منطقة جبلية غير مأهولة، لينحدر على سلسلة من المرتفعات الخشنة إلى وديان خالية من البشر، وليصعد منها متسلقاً ومغيّراً اتجاهه حسب مسار ظهر المرتفع، ليعود فيميل بعد تغيير تالٍ إلى خطه المثالي الذي رسمه مهندسون وجنرالات منسيون.

لو أن الثلج المبكر لم يُبرِز بحدة كل ما هو قاتم من معالم السور والأطلال والصخور، لما انتبهتُ إلى وجود الهيئة من هذه المسافة. أما الآن فقد بت أظن أن مَن يقف هناك، أياً كان، قد رفع منظاراً إلى عينيه ونظر في اتجاهي.

مضى نحو ساعتين على مسيري على هذا المقطع من السور

غير المطروق عادة بسبب انحداره الشديد وبعض أجزائه المتساقطة، ولم ألتق أحداً، لأفاجأ الآن بوجود شخص يبدو قادماً نحوي من الاتجاه المعاكس؛ فطبقة الثلج الرقيقة أمامي كانت خالية من آثار أقدام.

لم تتحرك الهيئة من موضعها، فيما نزلتُ في الظل إلى وهدة، عبرتُها خائضاً في الثلج المبلول، لأصعد ثانية، تراودني الخشيةُ من الالتقاء في برج الحراسة بجندي، قد يمنعني من متابعة جولتي، بسبب وضع السور المتدهور. فأضخم صرح معماري في تاريخ البشرية، خدم سكان المناطق المجاورة بين الآونة والأخرى باعتباره مقلع حجارة. وحتى جيش التحرير الشعبي بقيادة ماوتسي تونغ استخدم أحجار السور لبناء جسور وطرق إمداد. ولكن منذ أن بات السور مشمولاً بقانون حماية الآثار، صار هناك مراكز حراسة ومراقبون متطوعون، حتى في أبعد المناطق أحياناً.

سمعت في بكين عن مسابقات بين **عدّائي السور**، يفوز فيها من يقطع المسافة الأطول دون توقفٍ عند الأجزاء الممنوعة أو المحظورة. ولكن مقابل الخمسمئة كيلو متر من طول السور ذات الوضع الجيد أو المرممة جيداً، والمفتوحة للجميع دائماً، هناك آلاف الكيلومترات من أطلال السور التي رُدمت في القفر أو الغابات، ولم يعد من الممكن تمييزها معمارياً.

ولكن بعد تسلقٍ مجهدٍ لمقطع من السور شديد الانحدار، كسلم مائلٍ على جدار، وصلتُ أخيراً إلى مكان الهيئة. غير أنني لمَ ألتقِ بجندي أو عدّاءٍ، بل بأوروبي أشيب الشعر، لا

يرتدي طاقية رغم البرد، وما أن حياني بود حتى أخذ يلعن الثلج.

كان السيد فوكس مراقب طيور أي صديق طيور، من منطقة سْوانْسي في ويلْز، وكان يتجول منذ الصباح الباكر على سطح السور ليراقب الطيور الغرّيدة ويصورها، ويلتقط بمسجلته الرقمية البالغة الصغر تغريدها ونداءات تحذيرها أو أصوات حنقها. وكان الآن في المقطع الحادي والأربعين من السور الذي جال على طوله بهذه الطريقة.

ولكن، قال السيد فوكس، ما المهم الذي سأراه أو أسمعه في هذا الثلج؟ فهو يفهمها: معظم الطيور الغريدة تكره الثلج، مثله، وتجلس الآن مرتاحة في مخابئها، لتوفير طاقاتها في يوم يصعب فيه الوصول إلى الغذاء المطمور تحت طبقة من الأبيض البارد. وكل ما رآه هذا الصباح كان قُبَّرَةً آسيوية قصيرة المخالب **Calandrella Cheleensis** ودَجّاً ذا حنجرة حمراء وخطّاف ذباب الجنة.

حتى إعادةِ مستعمرةِ التاج إلى جمهورية الصين الشعبية، عملَ السيد فوكس مؤلفاً ومترجماً لإرشادات استخدام الآلات. وبعد تقاعده انتقل مع زوجته إلى مسقط رأسها في شانغهاي، وهي عالمة آثار أولَت اهتماماً كبيراً للسور العظيم. وقبل ثلاثة أيام وصَل من هناك في قطار الليل إلى بكين، حيث انطلق من محطة دونغ جي مِن، دون استراحة، إلى هذا الجزء من السور، آخر جزء لم يزره بعدْ في مقاطعة هِباي. واليوم بدأت تثلج. ثلج في أكتوبر!

كانت رغبة السيد فوكس أن يستكمل في هذه الأيام مجموعة أصواته، وهي ألبوم يُفترض أن يشتمل بشكل مثالي على جميع أنواع الطيور الغريدة التي تعيش في ظل السور: سرب هائل من الطيور التي تحوّم مرفرفة حول التنين العظيم. ففي الصين يقارَن السورُ أحياناً بتنينٍ، يغمسُ لسانه في مياه البحر الأصفر، فيما يثير بضربات ذيله كثبان صحراء غوبي إلى عواصف رملية.

وانْلي، قال السيد فوكس، هو التعبير الصيني عن طول السور العظيم، ويعني حسب وحدة القياس القديمة، التي اختلف تعريفُها حسب السلالات الحاكمة، ثلاثمئة متر تماماً، مثلما قد تعني ستمئة متر تقريباً، وليس عشرة آلاف لي فقط. لأن (لي) كانت تدل أيضاً على اللا نهاية، على ما لا يمكن تصوره، وهذا يعني أن سوراً بطول عشرة آلاف (لي) يدل على طولٍ لا يمكن تصوره عشرة آلاف مرة.

لقد أثير كثير من الجدل طبعاً، حول الطول الدقيق للسور، مُقاساً بالكيلومتر، وهل تدخل في هذا الحساب مرحلة البناء تلك فقط، أم هذه أيضاً. وماذا عن الجبال والأنهار والبحيرات التي اعتُبرت عوائق طبيعية في خطة وانلي تشانغ تشِنغ، هل تقاس معه. لكن هذا بالنسبة إليه غير مهم، فهو يتتبع تغريد الطيور على طول خط التنين العظيم، الذي، حسب الأسرة الحاكمة وأولياء العهد ومسارات الحروب، كان يزحف تارة من هنا وتارة أخرى من هناك. وهذا الخط يقارب طوله تسعة آلاف كيلو متر.

ويسكي؟ هل أرغب في جرعة؟ لا يخرج السيد فوكس إلى السور من دون زجاجة الويسكي الإيرلندي المسطحة في جيبه. وهو يفضل ويسكي الجنوب الجمهوري على ويسكي إيرلنده الشمالية وقنابلها الخطرة، فهو الأخف والأحب إليه.

إذا توخينا الدقة، فالأمر كله كان إحدى أفكار زوجته، فقد رافقها قبل نحو ثلاثين سنة إلى منطقة نينْغْخيا، حيث كان السور يمتد عبر أماكن مقبضة وموحشة، مناطق صناعية، مصافٍ، مكبّات قمامة يتصاعد منها البخار. ولكن في نينغخيا تحديداً كان الشحرور الصيني **Tudrus mandarinus** يغرد بجمال فتان، سحرهما كليهما. وقد جعله ذلك يفكر بأبيه، الذي غالباً ما كان يجلس تحت أشجار سوانْسي وعلى رأسه مصباح الجبين، محاولاً جهده تدوين الألحان الطيّارة على ورق سلالم موسيقية، عندما يصدح شحرور أو عندليب بالتغريد ليلاً. ومن ثم كان والده يعالج الفواصل ثنائية الصوت، والموتيفات الثلاثية الصوت، وتدرجات السلم اللوني لتغريد الشحرور مثلاً، في مقطوعاته لموسيقا الآلات النفخية.

إن تغريدات الطيور الغريدة لا تخدم الجنس وحفظ النوع فحسب، بل هي فوق ذلك كله تغريد منطقة، الغرض منه عبر شدة الصوت المسموعة والتنوع والفرادة، إما الحفاظ على مسافة أمان حيال المنافس أو دفعه إلى الهروب. وهذا هو ما فعلته على نحو ما موسيقا الآلات النفخية التي ألفها أبوه. والشحرور على كل حال قادر على تقليد أصوات نحو عشرة طيور أخرى، وحتى أصوات من عالم البشر، كبكاء طفل

وضحكٍ، ومحركاتٍ بعيدة وصفارات الإنذار... وهكذا تغني الشحارير حدود ملكوتها، وكأنها تسخر بذلك في الوقت نفسه من كل رخاوةٍ والتصاقٍ بالأرض، ومن كل مَن لم يحالفه الحظ الذي لا يوصف بأن يكون كائناً ملائكياً ريشياً ومغنياً، يستمتع بحرية التحليق في الجو متى شاء، أو أن يلقي بنفسه من أعالي الأبراج والأشجار والصخور إلى الهاوية، وأن يفرد جناحيه أثناء السقوط، فيتأرجح فجأة، ولتحمله الريح من ثم عالياً إلى السماء.

آنذاك في نينغخيا أنصت هو وزوجته مفتونين، ثم نظرتْ إلى جزء من أطلال السور وقد غطّته النباتات بكثافة وقالت: تغريد، قد يكون هذا إمكانية أخرى، تغريد المنطقة بديلاً عن الأسوار المحصّنة! متتاليات صوتية بديلاً عن الحجارة، تغريد الحدود!

تصوروا معاً استبدال هذا السور ذي الطول غير القابل للتصور بجوقةٍ واحدة لا ثغرة فيها من متتاليات تغريد المنطقة: سور من الأنغام، بعضها ناعم ونقي كالزجاج، وبعضها الآخر لعوب صدّاح. لكنها جميعها تشكل لحناً متتالياً واحداً، يصعب تجاوزه أو تجنب سماعه، لحناً يتغلب على أي متسلل أو غازٍ، بحيث يطلق ساقيه للريح، أو يفتنه فينسيه طمعه وحقده وتوثبه للقتال، بحيث لا يسعه بعدْ سوى الإصغاء مأخوذاً بما يسمع.

يا له من تصور، قال السيد فوكس، أن يُلْحَق بمقاطع السور، التي شيدت في عهود أُسراتِ كين وهان وڤاي وجْو

وتانغ ولياو ومينغ وغيرها، أغنياتٌ، تغريداتُ طيور تبقى مستمرة دائماً في الشدو، حتى بعد أن تتساقط أعتى الأسوار المحصنة غير القابلة للاختراق وتصبح خراباً.

يحتمل أن دولةَ رجلٍ لا يملك أذناً للموسيقا مثل ماوتسي تونغ، ما كان لها أن تدوم، لأنها كانت أول دولة صينية والوحيدة، التي قُتل فيها ملايين الطيور الغريدة، ليس فقط بسبب النهم الغبي للحمها كما في كثير من بلدان أوروبا، بل لاعتبار جميع الطيور بلا استثناء، آكلة حبوبٍ وضارة بالمحاصيل، في جميع مقاطعات ما سمي بجمهورية الصين الشعبية. مر على هذا البلد ربيعٌ، كانت فيه سماء بكين حقاً خالية من الطيور. خالية من الطيور! يا لها من حرية.

فيما كان السيد فوكس يتحدث عن أُسرات وممالك، لم تستطع الأسوار المنيعة أن تحميها على امتداد الزمن، وفيما كان يتحدث عن الطيور والناس ساد السكون على سطح السور، سكون ثلجي. لكنه عندما ناولني زجاجته المسطحة لتناول جرعة الوداع، سمعنا من تاج شجرةٍ تحتنا، كانت الشمس قد أسقطت عنه الغلاف الثلجي، شدوَ الدَجِّ ذي الحنجرة الحمراء، الذي كان قد سجل صوته في مطلع الصباح. إنه تغريد الخريف، قال السيد فوكس، أَخْفَتْ وأقل إصراراً على المطالبة بمنطقته، لكنه أكثر فنية وطرباً من تغريدات الربيع، لأنه متحرر على الأقل من بعض أغراض ذوبان الثلج: نداء الحب والحاجة إلى التكاثر. وكان الأمر، إلى حدٍ ما، كما لدى البشر، مثله هو: طائر الخريف ليس بحاجة بعدْ لأن يبهر

أحداً، إنه يشدو، إذا شدا، لنفسه وليس لأحدٍ ما أو ضد أحدٍ ما.

بقي تغريد الدجّ يتناهى إلى سمعنا لفترة، بعد أن افترقنا على هذا السور، الذي يصعب تصور طوله، كل منا باتجاه مقصده، هو نحو سيماتاي وأنا نحو جينْشانْلينغ، كل منا على خطى الآخر.

●●●

هِرْتسفِلْد

رأيت قبراً مفتوحاً في ظل شجرةِ أروكاريه[1] بارتفاع برج. كانت الشجرة تشمخ فوق جميع أشجار غابة الأوكالبتوس[2] المحيطة بقرية جبلية برازيلية في ولاية ميناس غِرايس. وعندما تتخلل هَبةُ ريحٍ تاجها، فتولّد صوتاً يكاد لا يسمع يذكّر بتنفسِ رجلٍ نائم، كانت تتساقط من أكواز أغصانها الشوكية بصورة مستمرة، ومثل دوش الحمّام حبوبٌ تشبه قطراتٍ، تمطر على مجموعة صغيرة من المعزّين، وعلى السقف الخشبي لدارٍ مبنية من الخشب والطوب، يمكن أن تُرى مثيلاتها في جنوبي ألمانيا، وعلى أحواض الورود وكراسي الخيزران وعلى سيارة بيك آب متوقفة قرب القبر بأبوابها المشرعة، التي كانت تطرق باستمرار على التابوت الخشبي المسمَّر الغطاء والمنْزَل إلى الحفرة، وفي داخله السنيور هرتسفلد بروبِه الصباحي الأزرق. في وقت مبكر من صباح اليوم مات هرتسفلد بين ذراعي زوجته، وأُجيز أنْ يُدفن في حديقة داره. كان المحافظ في طريقه نحو بيلو هوريشونتِه لشؤون عمله، فمنح إجازة الدفن هاتفياً ومن دون إجراءات رسمية أخرى بسبب الحر.

(1) شجرة جنوب أمريكية ضخمة من الفصيلة الصنوبرية.

(2) شجرة دائمة الخضرة ضخمة من الفصيلة الآسية.

تعرفتُ هرتسفلد قبل ثلاثة أيام في ساوپاولو أثناء حفلة في حديقة، وكنا جالسين إلى مائدة ذات مفارش بيضاء مزينة بالورود تحت مظلات بيضاء. ناولني صحناً صغيراً مملوءاً بحبوب الأروكاريه المغلية والمقشرة ذات الطعم الشبيه بالصنوبر، وقال إن هذه الحبوب لا تحتوي فحسب طاقة وإرادة حياة إحدى أقدم أشجار الأرض وفق تاريخ النشوء والارتقاء، بل جوهر تسابقها نحو السماء أيضاً: يمكن لشجرة الأروكاريه البرازيلية أن ترتفع إلى أكثر من أربعين متراً نحو السماء، نحو الشمس، نحو النجوم، ويمكنها في هذه الوقفة الرائعة أن تبلغ مئات السنين من عمرها، بل حتى ألف سنة. وقد بنى لنفسه بيتاً صيفياً في جبال ميناس في ظلال شجرة أروكاريه.

كان السيد هرتسفلد ابن صاحب مصنع لإبر الخياطة في براندنبورغ، وكان شاباً عندما غادر ألمانيا مع أخته في سفينة متخمة بالمهاجرين إلى إنكلترا ففرنسا حتى وصلا إلى البرازيل. وذلك في وقت كان يفترض أن يُمَسْمَر فيه وطنُه مع عدة بلدان أوروبية لألف سنة على الصليب المعقوف، وحتى عندما تقلصت السنوات الألف إلى بضع سنوات من الرعب المديد وخمدت نارها في حرب عالمية، رفض السنيور هرتسفلد وأخته العودة إلى بلد قتل والديه وسبعة من أقاربه بسبب أصلهم واسمهم. بعد كل هؤلاء الموتى هناك، لا يمكن لأي شيء أن يعود إلى ما كان عليه.

بدأ السنيور هرتسفلد مع صديقٍ من پِرنامْبوكو يتاجر

بالجلود والأخشاب الثمينة واليشم وكثير من المواد الخام المتوفرة في وطنه الجديد. وفي عصر أحد أيام آب/ أغسطس وهو واقف على أحد أرصفة الميناء في ريو دي جانيرو، تمكن بقلب يخفق من رؤية فتاة من ألمانيا وهي تنزل على درج إحدى عابرات المحيط القادمة من هامبورغ، وكان في قبضة يده خاتم من الزمرد. وبعد أربع سنوات، عندما رآها لأول مرة ثانية على رصيف الميناء، وأمسكها بين ذراعيه ولم يفلتها، إلا عندما سمع الرنين الناعم لخاتم الزمرد وهو يسقط من راحة يده المفتوحة، أيقن بأنه لن يعيش أسعد من هذه اللحظة.

أكلتُ صحن حبوب الأروكاريه المسلوقة مع قدحين من شْنابْس[1] قصب السكر، فيما تحدث هرتسفلد عن نماذج المتاهات العجيبة التي كانت تزين كرافتات أبيه، الذي لم يدخل كنيساً في حياته، لكنه يتوجه كل يوم أحد إلى الكنيسة مرتدياً هذه المتاهات. كما تحدث عن يدي أمه، اللتين إنْ جلست هادئة، صارتا بيضاوين دائماً كالثلج، دون أن تبردا أبداً. وتحدث عن القدم الصغيرة جداً ذات الحذاء الأحمر للراقصة الخزفية، عن تلك القطعة من تمثالٍ من خزفِ مايسن[2]، كان يحملها معه كتميمة طوال سنواتٍ أينما ذهب، إلى أن رماها بعد زواجه في البحر قرب سانتوس. كان شرطيٌّ في لباسٍ مدني قد هشَم التمثال عند اعتقال أبيه في دار العائلة... واستمر في الحديث إلى أن أُشعلت الفوانيس الورقية في الحديقة وأخذ

(1) مشروب كحولي ألماني ثقيل.

(2) في مايسن قرب مدينة دريسدن الألمانية يصنع أحد أشهر أنواع الخزف الأوروبي.

الضيوف الواحد تلو الآخر يغادرون لمتابعة مسائهم أو ليلهم. وعندما ألحت زوجة هرتسفلد، الفتاة الألمانية، على المغادرة، لوجود كلب وقطتين جائعين بانتظارهم في الدار، عرض عليّ أن أزوره في اليوم التالي في مكتبه في حي هيغينوپوليس، حيث سيتابع الحديث، فيما أتابع أنا الكتابة.

وفي اليوم التالي، في مكتبه المزيّن بأجمل الأحجار البرازيلية الكريمة من كوارتس قاتم ويشب مصقول وجَمَشْت أُرجواني وكريستال متلألئ، تابع هرتسفلد حديثه حقاً، إلى أن انتهى هذا اليوم أيضاً دون أن يصل إلى الحاضر بعد. كان الظلام قد حلّ عندما عرض عليّ متابعة الحديث في بيته الصيفي في ميناس غِرايس، حيث سيمضي الأيام القادمة التي لا تطاق في ساوپاولو، وأن صهره سيزوره هناك بعد غد، فيمكنه أن يصحبني معه في سيارته.

ولكن في صباح اليوم الموعود للرحلة، عندما رنّ الهاتف في غرفة فندقي، وبعد أن ذكر هذا الصهر اسمه، صمت طويلاً بصورة محيّرة، ثم قال إن هرتسفلد قد مات ليلاً في بيته الصيفي. وأنه يبحث مع زوجته في خزائن ثياب المتوفى عن بدلة مناسبة للدفن، لينطلقا من ثم نحو ميناس، حيث سيدفن هرتسفلد قبل غروب الشمس.

كان الصهر أيضاً ضيفاً في حفلة الحديقة، التي بدت لي فجأة بعيدة جداً، وعندما رجوته أن يأخذني معه حسب الاتفاق، لم يندهش ولم يطرح أسئلة. وهكذا انطلقنا من المدينة في جيبٍ سوداء طوال ساعات عبر القرى، فيما تابعت ابنة هرتسفلد

سرد حياة أبيها حتى الوقت الحاضر أخيراً، فتحدثت عن خوفه من المنطقة الاستوائية، الذي أعاقه، رغم تعامله تجارياً مع باهيا وأمازوناس وماتو غروسّو أو ألاغواس، عن الخروج ولو خطوة واحدة خارج منطقة ريو دي جانيرو نحو الشمال الإستوائي. وأثناء هذه الرحلة إلى ميناس كان علينا تلبية طلب لزوجة هرتسفلد: تأمين تابوت للدفن، إذ لا يوجد في القرية نجار. فتوقفنا عند أحد المحلات التي تملأ كثيراً من القرى على الطريق، والتي تعرض خارجها توابيت بجميع الألوان وأنواع الخشب وملحقاتها.

وهذا النجار الذي يقوم بخدمات الدفن أيضاً، كانت إحدى ذراعيه معلقة إلى رقبته بحامل، ويده ملفوفة بضمادٍ مصطبغ بالدم: أثناء تنظيفه مسدسه صباح اليوم أطلق النار على يده سهواً. ومع ذلك بوسعه أن يبيعنا التابوت، وأن يرافقنا إلى المتوفى، لكنه لن يتمكن من وضعه في التابوت بالشكل اللائق، بل يستطيع أن يعطينا التعليمات فقط.

ربطنا تابوتاً من ألواح خشب الأوكالبتوس على سطح الجيب وتابعنا طريقنا نحن الأربعة، وقد نبَّهنا الدفَّان مراراً إلى ضرورة أن نصلي لمريم، ولكن بلا جدوى. وبدلاً من ذلك صمت الجميع.

وعندما وصلنا إلى هدفنا كانت زوجة هرتسفلد، فتاة رصيف الميناء، الفتاة الألمانية، بانتظارنا عند بوابة الحديقة المطلية بالأبيض. كانت شاحبة جداً. قالت إن ليون قد نهض ليلاً ليشرب كأساً من الماء، لكنه غاب طويلاً، طويلاً جداً، ولم

يعد. فنهضت لتبحث عنه، فوجدته جالساً مستنداً إلى المدفأة الحجرية. كان يتنفس بصوت يكاد لا يُسمع، وعيناه مغمضتان. لم يعطها أي جواب عندما جلست إلى جانبه، محاولةً مساعدته على النهوض، على أن يعود إلى الفراش، إلى الحياة. لكنها لم تستطع ولم ترِد أن تتركه وحده، ولا لثانية واحدة، ولا حتى لطلب النجدة. وهكذا حضنته، وهدهدته نوعاً ما، وهمست له ورجته أن يبقى، يبقى عندها، أن يبقى عندها قليلاً فقط، إلى أن أطلق تنهيدة عميقة، سادت بعدها سكينة الموت.

في الخارج كانت الشمس ملتهبة، أما في داخل البيت فثمة شمعة تتراقص شعلتها في مجرى الهواء والستائر مسدلة. كان السنيور هرتسفلد مستنداً إلى مدفأة بيته الحجرية، كما في أماسي الشتاء، حين يصبح الجو بارداً حتى في ميناس. وكان وجهه مغطى بمنديلِ جَيبٍ وقد طرِّز عليه حرفان لا يناسبان اسمه ولا اسم زوجته. انزلق المنديل على الأرض عندما رجاني الصهر مساعدته لتسْجيته على صوفا ذات وسائد كثيرة. كان فم هرتسفلد مفتوحاً قليلاً، وعلى ميناء أحد قواطعه انعكست شعلة الشمعة كنجمة صغيرة.

لم يسمح لنا يباس الموت أن نلبسه البدلة التي أحضرناها معنا، فحاولنا أن نُسجيّه في التابوت بوضعية النائم بروب الصباح الأزرق. ويا لثقل إنسان لا يساعد حامليه بحركةٍ ولا حتى بزفير.

أرشدَنا النجار بتعليماته وبحركاتِ يده المضمدة وهو يتكلم في الوقت نفسه بسرعة مخاطباً الميت همساً، معتذراً منه

عن إزعاج بداية راحته الأبدية، راجياً منه أن يرتخي قليلاً من هنا وقليلاً من هناك، وباسم رحمة الرب ألا يعسِّر علينا عملنا، نحن مساعديه وخدمه، محفزاً إيانا في الوقت نفسه على رمي حيائنا جانباً وضغطِ الميتِ بكل طاقتنا في ضيق التابوت، فزمن آلام السنيور هرتسفلد قد انتهى إلى الأبد.

ثم نادى عاملي الحديقة اللذين حفرا القبر تحت شجرة الأروكاريه. دخل الرجلان البيت الحزين بجذعين عاريين مبللين بالعرق، صلّبا وتمتما صلاة قصيرة. وعندما أخرجْنا معهما التابوت من غسق البيت إلى وهج الشمس في الحديقة، كان بانتظارنا هناك مجموعة من المعزّين، نحو عشر أو اثني عشر شخصاً في ثياب صيفية ذات ألوان فاتحة. وكان البكاء قد ترك آثاره على وجوه بعضهم. قاد أحد الجيران سيارته البيك آب حتى حافة القبر وأشرع أبوابها. وعندما أنزلنا التابوت إلى التربة الحمراء بحبال القنّب صدحت من مكبراتٍ مركبةٍ في هذه الأبواب صلاةُ أقرب إليك يا ربي.

إذا كانت كل حبة من حبوب الأروكاريه، التي أمطرت خلال هذه الساعة على مجموعة المعزّين والقبر وأحواض الورد وسطح البيت الصيفي والتابوت، تحتوي إمكانيةَ حياةِ ألف سنة، فقد تساقط مع هذه الحبوب من أغصان الأروكاريه نوعٌ من الأبدية اللا نهائية، كانت ابنة هرتسفلد خلالها قد تلت قصيدة لغوته، لم أسمع منها شيئاً بسبب هبات الريح، وكانت زوجته قد خاطبته لآخر مرة وهي منحنية فوق قبره المفتوح، فذرت الريح كلماتها.

قاطفو النجوم

رأيت نادلاً طائحاً على أرض موقفِ سيارات قرب مقهى رصيف في مدينة سان دييغو على ساحل كاليفورنيا. كان الرجل لتوه يحمل صينية مليئة بالمشروبات ويوازنها فوق كتفه دون جهد، على ما بدا، عندما تعثر بكبلٍ موصول بين بطارية سيارة ومنظار فلكي. وها هو الآن بين كسور الكؤوس والزجاجات والفناجين التي أراد تقديمها للضيوف الذين غادروا المقهى إلى العراء وجلسوا بين السيارات، على كراس قابلة للطي جلبوها معهم، وهم ينظرون عبر مناظيرهم وتلسكوباتهم أو بالعيون المجردة إلى سماء المساء، حيث أخذت أولى النجوم تتلألأ.

رغم تمزق بنطاله عند إحدى الركبتين، ورغم أن زهور الخشخاش الأرجوانية المطبوعة على قميصه تُذكر ببقع دم، بدا الرجل سليماً. صامتاً دون شكوى، ودون أية لعناتٍ أيضاً، نهض الرجل وسحب الصينية النحاسية المستديرة الكبيرة، التي كانت قد تدحرجت أثناء سقوطه تحت سيارة كاپريوليه متوقفة هناك، وأخذ، على أربع، يجمع الكسور التي يقطر منها العصير والنبيذ والماء والقهوة ويكوِّمها على الصينية.

عبْر سماءِ مساءات وليالي تلك الأيام من شهر آذار/ مارس

كان يمر أحد أشد المذنّبات ضياءً خلال السنوات الألف الماضية. جسمٌ سماوي لا يتجاوز طول قطره ستين كيلو متراً، يرسم على صفحة السماء بذيلٍ غباري أصفر ذهبي مضيء وذيلٍ غازي أزرق، خطاً يبلغ طوله خمسين مليون كيلومتر. مساءَ الأمس عبَر المذنبُ ثاني أقرب نقطة له من الأرض على بعد مئتي مليون كيلومتر، عائداً الآن بأقصى سرعةٍ إلى مجاهل أعماق الفضاء التي صعد منها. بعد شهور ظهر فيها إلى جانب سيريوس كأشد الأضواء في صفحة سماء الليل، سيعود الآن ليصغر تدريجياً حتى التلاشي أخيراً، ليعاود الظهور مجدداً نحو عام 4535. سمّي المذنب باسمَي مكتشفَيه ألان هيل Alan Hale وتوماس بوپ Thomas Bopp، اللذين لاحظاه بمعزلٍ عن بعضهما، أثناء عملية مسح كتلة النجوم الكروية M70 في محيط برج القوس، فدُشّن باسم هيل- بوپ، وبعد وقت قصير على تجليه مرئياً بالعين المجردة، بات مؤكداً أنه لم يسبق في تاريخ البشرية لنور سماوي أن جذب الأنظار مثله.

أثناء الأسابيع الماضية رأيت هيل- بوپ، خلال جولاتي الطويلة عبر صحراء موجيڤ وسيرانيڤادا، غالباً فوق الصور الظلية لسلاسل جبال مغطاة بالثلج أو فوق الامتدادات الصحراوية السوداء، كما سمعت من مذياع سيارة البراري التي أستخدمها، تقارير كثيرة عن مخاوف البشر وآمالهم وأحلامهم، إضافة إلى توقعات فلكية تتعلق بهذا النور الجوّال. فقيل مثلاً إن رائين دينيين وأتباع بعض الطوائف الدينية يرون في هذا المذنب لا إشارة سماوية فحسب، بل ربانية على نهاية

العالم، أو بشارة بمجيء المخلص كلي القدرة.

خلال الستمئة يوم تقريباً، التي بمقدور العين المجردة فيها أن تراقب نمو ثم تقلص طاقة إشعاع المذنب، كان هذا النجم ذو الذنَب المزدوج- ثمة ذنب ثالث من الناتريوم، لا يُرى إلا عبر تلسكوبات كُبريات المراصد- قد صار ظاهرة مألوفة جداً في السماء، لا تستدعي تجمع مثل هذا الجمهور في موقف السيارات اليوم، لولا إمكانية متابعة مشهد ثانٍ في جوار المذنب تماماً، وهو خسوف القمر، الذي يتوق أصدقاء النجوم ومصورو الظواهر الفضائية لمشاهدته.

إن موقع مقهى الرصيف، على رابية ذات إطلالة واسعة على أنوار المدينة والسماء، قد جذب اليوم ما يزيد عن مئة ضيف ومراقب، بدأوا منذ ما قبل المغيب بنصب وتركيب مناظيرهم وكاميراتهم بين السيارات المتحصنة في ساحة الموقف، والجلوس حول موائد المقهى المستديرة وهم يحتسون النبيذ والبيرة والعصائر، ويناقشون احتمال حجب الغيوم المتناوبة للمشهد اليوم، وما إذا كان يُفضَّل الانطلاق الآن إلى مدى الصحراء الواسع والأقل غيوماً، ما دام هذا ممكناً بعد. وكم تباطأ مرور الوقت على هذا النوع من الحوارات.

ولكن بعد الغسق وانتشار العتمة وحلول الظلام، وعندما انسحبت الغيوم، وكأن ثمة من يشدها بخيوط، لتكشف الستر عن نجوم السماء والمذنب إضافة إلى قمر بلا ظلال، عندها تسارع الوقت. وعندما آنت اللحظة، المحسوبة بالثانية، وأخذ القمر ينزلق بتمهل واستمرار في ظل الأرض،

فاقداً نوره تدريجياً، بحيث يشتد تألق المذنب، حينها أخذ الوقت يطير. ونداءات شهود الخسوف المجتمعين في موقف السيارات: القمر! القمر! بدأ! كان لها وقع إنذارٍ، جعل آخر ضيوف المقهى يندفعون إلى الساحة.

وفجأة لم يعد هناك سوى قبة السماء الخالية من الغيوم ومكان معتم مزدحم بالناس، الذين رفعوا أبصارهم صامتين إلى النجوم، التي عبر بينها المذنب الأشد نوراً في هذه الألفية، متجاوزاً قمراً مخسوفاً... ورغم كل ذلك، وراء واجهة زجاجية مضاءة، ووراء طاولة البار الطويلة خرج نادل إلى الليل حاملاً صينية مثقلة بالمشروبات لينسل بخفة بين السيارات والتلسكوبات رافعاً نظره بين الحين والآخر نحو السماء، إلى أن سُمع فجأة صوت الارتطام المؤذي، والمتعثرُ ممددٌ في حقل من الشظايا.

ولكن فيما كان المشهد السماوي يتابع جريانه في أعماق الفضاء، غير متأثر بمشهد النادل، وظلُ الأرض، ظلنا الجليدي، ينسحب فوق صحاري القمر، وهيل- بوپ يغادر كوكبنا بسرعة مئة وستين ألف كيلومتر في الثانية، بدأ في موقف السيارات وعلى أرضه المبقعة بالزيوت مشهد معاكس لا يقل عن ذاك إضاءة.

فعلى الرغم من أن الأمر سيستغرق زمناً طويلاً جداً، حتى خسوفٍ قادم يقارب هذا جمالاً، ورغم أن المذنّب الهارب بعد تلاشيه التدريجي لن يعود إلى الظهور إلا بعد ألفين وخمسمئة سنة، ولكن من دون أن يترافق مع خسوف قمرٍ أبداً في تاريخ

هذا الكون، فقد التفت... ليس جميع الشهود والمتفرجين، ولكنْ كثير منهم، أكثر من المتوقع... التفتوا عن هذا الحدث الفلكي الفريد، الذي لا يتكرر، والتفتوا إلى النادل المتعثر. أداروا ظهورهم للسماء وانحنوا باتجاه الرجل الصامت الشديد الخجل، مدوا إليه أذرعتهم، ونزلوا مثله على أربعتهم، عندما أخذ بجمع الكسور على الصينية بدلاً من النهوض، وبدأوا يلتقطون معه الكسور- التي ما زالت تلمع رغم خسوف القمر- عن الاسفلت الأسود، وكأنهم يقطفون نجوماً.

●●●

جسر السماء

رأيت سلسلة من الروابي الصخرية السوداء، تتاخم الكثبان الرملية، أما سلسلة الجبال العارية من الأشجار فأخذت ترتفع تدريجياً، خلال رحلة ساعتين بسيارة الجيب عبر الامتداد الشمالي للصحارى المغربية، من صحراءِ رملٍ وحصى، إلى أن بات ممكناً التعرف على الكتل الصخرية الهائلة ذات الأشكال المخروطية، التي تتوج رؤوس الروابي. على ظهر إحداها انتصب صف من هذه المخاريط، فأسبغ عليها مظهر فكٍ هائلٍ مزوّد بأنياب ضخمة.

كان سيل الحصى الأسود، الذي ينحدر من الأنياب إلى وادٍ محمي من الرياح، بلا أي نبات، وهناك كان لا بد من تفريغ السيارة ونصب خيمة، حيث لا يوجد حتى شوكيات أو صبار أو أشنيات. وسائق الجيب، البدوي ذو العباءة الزرقاء النيلية، لف حول رأسه ووجهه قماشة سوداء، بحيث لم يتبق سوى شق ضيّق للرؤية، وأشار لي كي أتبعه وبدأ بصعود المنحدر.

ورغم أنه لم يكن يلبس في قدميه سوى صندل جلدي، ورغم أن هبّات الريح كانت تحوّل عباءته الطويلة إلى شراع وباستمرار لا يني، كان صامداً دائماً أثناء الصعود، لا يفقد توازنه، رغم تمايله أحياناً، حتى عندما يتدحرج حجرٌ من تحت

صندله. ورغم شدة الانحدار كان يستبقي لنفسه ما يكفي من الشهيق ليتابع روي حكاياته التي بدأها أثناء الرحلة.

كانت تتجه نحونا من الغرب سحابة رملية صفراء شاحبة، آخذة في الارتفاع تدريجياً وهي تفترس زرقة السماء. كان علينا أن نسرع، كي لا نتعرض لخطر فقدان الاتجاه عند العودة إلى الخيمة في حُجبٍ من الرمال المدوِّمة.

قال السائق إن هذه المخاريط الحجرية هي رواب للدفن، شيّدها شعب صحراوي لم يصمد اسمه أمام عوامل الأزمان، التي تعود إلى ثلاثة آلاف سنة، وربما أقدم من ذلك بألفٍ أخرى ولم يبق سوى هذه القبور. بعض الموتى، حسبما اكتشف المنقبون، حُمِلوا مئات الكيلومترات عبر الصحراء، مئات الكيلومترات عبر أرض ملتهبة خالية من البشر، فقط لتدفن في هذه الوحشة.

سبب ذلك، قال السائق، يعود إلى حكاية تم تناقلها عبر آلاف السنين، عن نجم، عن حجرٍ نيزكي سقط من سماء الليل واصطدم بالأرض في ذلك الحوض المحاط الآن بهذه السلسلة من الروابي السوداء. والذنَب الناري المرئي من مسافة بعيدة، بدا للشهود، للبدو الذين اعتادوا عبور المنطقة آنذاك، كجسرٍ أشد بريقاً من جميع النجوم، ربط للحظة بين السماء والأرض.

حتى وإن انطفأ جسر السماء وهو ما يزال مشعّاً، فلا بد أنه خلّف في أعين الشهود صورةَ بريقٍ يغشى له البصر،ليس فحسب، بل وذكرى لا تُمحى، يتم تناقلها عبر مئات السنين إلى أن تبلغ أقصى أطراف الصحراء، وتدفع الحزانى حيثما

سمعوها إلى المجيء إلى هذا المكان.

وهل هناك ما يبعث على الأمل والشعور بالسلام أكثر من مكان للراحة الأخيرة عند النهاية الأرضية لجسر يقودك إلى النجوم، بعيداً عن عالم متخم بالألم والجفاف فرقته العواصف الرملية والحروب؟ وألا يبدي الإنسانُ تجاه موتاه آخر خدمةِ حبٍ وأعظمها ربما، بحملهم عبر الصحراء طوال أسابيع، طوال شهور، ليدفنهم تحت مخاريط حجرية، تشير رؤوسها نحو السماء؟

في هذه الليلة، قال السائق، وأشار إلى مقدمة السحب الرملية، التي بدأت تدريجياً تبتلع سلسلة الجبال في الغرب، في هذه الليلة وفي ضوء مصابيحنا لن نرى سوى زوابع رملية. ولكن كل مَن سمع مرةً بهذا الجسر الضوئي، سيتمكن بطاقةِ خياله من إعادة بنائه حتى من زوابع الرمل، باعتبارهِ أقصر طريق إلى النجوم.

●●●

موت في إشبيلية

رأيت ثور مصارعةٍ أندلسي أسود، في يوم أحد السَعف في حلبةٍ إشبيلية الكبرى. بدا كأنه مركز دولابٍ من اثني عشر ألف مشاهد، يهدر دائراً من حوله، وهو واقف بلا حراك، يتنفس بصعوبة، متورط في آثار الصراع المحفورة عميقاً في الرمل. وبدا مستغرقاً في منظر عدوه، المصارع الممتطي جواداً، الذي ينتظره على مسافة تعادل أطوال خمسة إلى ستة جياد. ستة (بَنْدِرْيا) وهي أسياخ بطول ذراع ملفوفة بأوراق ملونة، كانت مغروزة بين لوحي كتفي الثور، بشكل يذكر بباقة ورود ذابلة محنية الرؤوس. مع كل شهيق يأخذه الثور كان الدم ينبجس من جراح الأسياخ، ويسيل في خطوطٍ متداخلةٍ على وبره حتى حافريه.

في عصر يوم الأحد هذا، كان على ثلاثة مصارعين راكبين (رِخونيادور) أن يفتتحوا الموسم باستعراض أقدم أشكال صراع الثيران على الجياد، وقتلِ ستة ثيران في ست مصارعات (كورّيدا) متعاقبة. خلافاً للمصارع الراجل (مَتادور) لا يقف إلى جانب المصارع الفارس فرسان (بيكادور) على جياد مدرعة يحملون حراباً وأسياخاً ذات أوراق ملونة. فكل ما ينضوي تحت القواعد الصارمة لعملية القتل رقصاً، يجب

أن يبقى صراعاً دراميّاً بين الفارس وجواده والثور. المصارع الفارس لا يهز قماشة وردية (كاپا) ولا حمراء (مولِتا) لخداع الثور وتوجيه حركاته، بل بعد ظهر مثل هذا اليوم يحل جسم الجواد محل أية قماشة، ويقدِّم للثور هدفَ هجومٍ لا بدّ من حمايته من قرنيه بجميع حركات المدرسة العليا لفنّ الفروسية الأندلسي.

في أحد السَعاف هذا كان قد قُتل خمسة ثيران، وجرّتها البغال إلى خارج الحلبة، عندما اندفع هذا الأخير. المدمّى الذي يتنفس بصعوبة، من عتمة الزريبة إلى الحلبة، وتوقف فجأة في وسط الفراغ الواسع، وكأنه مندهش ومستغرب، بل منزعج، لأنه لم يعد إلى مرعاه العالي فوق خليج قادِش، حيث أمضى سنوات حياته الأربع حتى الآن، وإنما إلى هذه المساحة الهادرة، الملونة بآثار الدماء في الاتجاهين، دخولاً وخروجاً. وعلى الرغم من ذلك استجاب لنداءات المصارع الفارس حسبما هو متوقع وهجم على حصانه البديع. ولكن خلافاً لهجمات الخمسة المقتولين قبله، ولّدت هجماته الانطباع بأنه لا يهاجم ليرمي المصارع، أو ليطعن الحصان أو ليقتله، ولكن فقط ليزيح عائقاً من طريقه المؤدية إلى المرعى. وباتت هجماته أضعف فأضعف، وكأن ما يسد عليه الطريق يصعب الوصول إليه أو دفعه بعيداً، بل يرتد فيطعنه ويؤذيه.

مرتين أفلت المصارع العنان، ورفع يديه عالياً كمن يهلل محيّياً، حاملاً فيهما سيخين، واندفع بجواده الذي يخبّ بسرعة وطعن الثور، بالسيخين الملونين المزودين بخطافين معقوفين،

بين لوحي كتفيه. لكن الألم أيضاً لم يثر غضب الثور للهجوم المطلوب منه، ما دفع الجمهور كجوقة واحدة إلى المطالبة بعقاب الثور، لكسله وجبنه، بالأسياخ السوداء، بالأسياخ الملفوفة بورق أسود، لون العار، والمزوّدة بخطافات معقوفة أطول، ما يساعد في الطعن أعمق في اللحم.

وفقط بعدما انقض السيخان من يدي الرخونيادور على الثور كصاعقتين سوداوين هاج الثور أخيراً ذاك الهياج، الذي جعل المصارع الفارس، لحماسة الجمهور، يُبدي كل فنه. فأخذ بخببٍ متسارعٍ متبدلٍ بين الوقوف والاندفاع والقفزات الجانبيّة والالتفافات يقترب من قرني الثور لمسافة لا تتجاوز الكفّ أحياناً، فيكاد الثور يلامس جزمته أو جانب الجواد، قبيل أن يشد العنان بحركة تكاد لا تُلحظ أو يضغط بفخذيه على الجواد، ما يدفعه إلى حركةٍ إنقاذٍ رشيقة كراقص بارع.

إن التهديد بالموت الكامن وراء كل حركة من هذه الرقصة، التي قد تؤدي إلى بقرٍ وتمزيق البطون وسقوط الأحشاء على الأرض، أو إلى انقضاض الثور الجريح على المصارع وقتله، أو إلى أن تعلق قدم المصارع بالركاب فيُسحَل بين حوافر الجواد، أو يُطعن بالقرنين أو يُداس بحوافر الثور الهائج، كل هذا جعل تحكم المصارع بجواده، من دون سوط أو عصا، وكبتَه لخوفه من الموت يبدوان سلوكاً خارقاً.

هاج الجمهور عندما قام الرِخونيادور، بعد صدِّه برشاقة عدة هجمات، بالابتعاد بجواده في حركات راقصة جانبياً وبالسرعة المتوائمة مع هجوم جديد، بحيث سمح للثور

بالاقتراب منه، ثم انحنى المصارع فجأة من السرج على الثور ووضع كوع ذراعه بين قرنيه مستنداً على جمجمة الثور، مشكلاً بجسمه جسراً بين الثور الأسود الهائج والجواد الأشهب الخائف حتى الموت. وفي جزء من الثانية اعتدل المصارع على سرجه وجعل الجواد يشبُّ عالياً، بحيث انعطف الثور لينطح الهواء.

نتيجة السرعة الهائلة التي نُفذت بها جميع الحركات، لم ينتبه أحد إلى أن الجواد قد أصيب بجرح من أحد قرني الثور. ولكن عندما سال الدم من الجرح الطويل، وصبغ بياض الجواد على جانبه الأيمن، فبدا أشد خطورة وتأثيراً، ترددت في الحلبة تنهيدةُ حسرةٍ طويلة كأنها صادرة من جوقة. لكن المصارع أشار بيده باستخفاف، فهو لا يريد جواداً آخر، وانثنى إلى الأمام على عُرف الجواد المجدول وعلى عنقه الأبيض كالثلج وقبَّل أذني الجواد، ثم همس له بشيء ما، بكلمة مهدئة أو أمر أو رجاء. وثانيةً تنهدت الحلبة، عندما نزل الجواد النازف بعد هذه الهمسة على ركبتيه فجأة؛ المصارع على ظهره والثور أمامه وهو على ركبتيه. وفجأة أيضاً اندفع الثور، كأنما ليدوس بحوافره لفتةَ الخضوع هذه- أم تُراها لفتةَ سخرية؟- وهجم بأقصى سرعة نحو الجواد الذي بدا منتهياً، لكن المصارع وفي آخر لحظة، جعله يقفز وينعطف بحركةِ إنقاذٍ سريعةٍ.

كان رئيس حلبة المصارعة، الجالس تحت مظلة بين المهللين، قد أعطى إشارة (تِرْثيو دي لا مويرتِه) ثلث الموت الأخير، وكان المصارع قد استلم، من أحد المساعدين في

طرف الحلبة، الحربةَ القصيرة، التي عليه أن يطعن بها الثور وسط باقة الأسياخ. وأثناء برهة سكونٍ التقط فيها المصارع والجواد المجهدان أنفاسهما، وقد نهضا مثل تمثال لنموذج آثار المصارعة من رمل أرض الحلبة، والثور على مسافة تعادل أطوال خمسة إلى ستة جياد مستغرق في مراقبة عدوه، سُمعت صيحة عالية صادرة من الصفوف العليا الرخيصة، ولم يُعرف ما إذا كانت صيحة رجل أو امرأة: (إنْدولتو!) الرحمة! ارحموه!

نادراً، بل نادراً جداً ما كان الجمهور بمثل هذه الصيحة يطالب برحمة ثور صارع بمثل هذه الحمية والشراسة، ليُفرج عنه من الحلبة وتُعالج جراحه ويُمنح فرصة حياة في سلام في مراعي موطنه. (إندولتو!) لكن طلب الرحمة هذا، في حلبةٍ كما في إشبيلية، يجب أن تصدر عن آلاف الحناجر، وليس عن صوت وحيد رفيع، في يوم أحد السعاف هذا.

رفع الرخونيا دور رأسه وتلفت في المدى من حوله، ولكن عندما ابتلع سكون الحلبة المتوتر هذا الصوت أيضاً، اعتدل على سرجه ورفع حربته، وكأنه يعطي الثور بهذا إشارة متفقاً عليها منذ مئات السنين، فتحرك مجدداً كمن ينهض من تعب ثقيل، ثم تسارع اندفاعه أكثر فأكثر نحو المصارع.

●●●

أشباح

رأيت أشباحاً. كانوا سبعة، لا بل ثمانية!
تقريباً بلا هيئة محددة، بارتفاع شجرة، بل بارتفاع برج، وقد زوبعوا قرب بعضهم بعضاً في إحدى صحاري الحمم البركانية والحجارة، التي تغطي السهل المركزي العالي وغير المأهول في إيسلندا.

كان ذلك عصر أحد أيام أكتوبر العاصفة، وكان الوقت قد تأخر من فصل الخريف للقيام برحلات وجولات طويلة عبر صحاري السهل العالي. ولكن بما أن الأرصاد الجوية قد تنبأت بأحوال ضغط جوي ثابتة، فقد انطلقتُ منذ أيام مع مصور فوتوغرافي من ريكيافيك بسيارة جيب- وعلى أقدامنا عبر الأرض الجبلية التي لا تصلح للسيارة- على مسالك متشعبة بين المجاري الجليدية الداخلية: لانْغ يوكول وهوفْس يوكول وفاتنا يوكول العظيم. أمضينا الليالي في خيمتنا وراء أبراج صخرية تقينا من الريح، أو في أحد الأكواخ الموزعة في المنطقة، والتي لم يدخلها أحد منذ أسابيع، والمخصصة للجوالين والباحثين، في القفر الإيسلندي. وفي الأماسي الشديدة البرودة كنا نستحم أحياناً في ينابيع المياه الحارة.

أراد المصور استغلال فترة الطقس الجميل، لتحقيق ولعه

الذي لم يقده فحسب إلى قفار إيسلندا، بل إلى جبال وصحاري العالم كله: تصوير علامات الطرق والدروب الأحدث والأقدم، الصروح الحجرية الماقبل التاريخية والمعاصرة، والمخاريط الحجرية، والأعمدة الحجرية، أو علامات التوجيه المنقوشة في الجدران الصخرية، فيجمع بهذه الطريقة صورة وراء صورة عن كل ما يساعد الإنسان على الوصول إلى هدفه، أو على الأقل إلى طريق عودته أو نجاته.

سرنا في مسالك قديمة جداً، مطروقة منذ مئات السنين، وبعضها مهجور منذ أمد بعيد، أو استُبدل بدروب جديدة. وعند تقاطعاتٍ وتشعبات دروبٍ غطاها الرمل الأسود رأينا الصُوّى[1]، التي كانت محميةً قديماً بقوانين الجزيرة، كالحياة نفسها: كان تخريب أو نقل مكان هذه الصُوى يعاقَب عليه بالموت أو بقطع أحد الأطراف، فجميع الدروب عبر الصحراء تؤدي في نهاية المطاف إلى البحر. والغذاء لا يتوفر إلا قرب الشواطئ، وكذلك الملجأ والبشر. ومَن يضلل الباحثين عن هذه الدروب فهو يتسبب في ضياع المجتمع، وضياع حياته أيضاً مع كل الرحمة الممكنة.

فيما كنت أناور بالجيب بسرعةٍ تماثل الزحف عبر حقول الحصى، حدثني المصور عن الخارجين على القانون والمنبوذين في إيسلندا القديمة، الذين أُبعدوا إلى منطقة الهضاب، حيث حاربوا بعضهم بعضاً أو هاجموا المسافرين القلائل المضطرين إلى عبور القفر. أحد أسوئهم سمعةً صار بطلاً لإحدى

(1) الصوة: كومة حجارة مرصوفة فوق بعضها للإرشاد إلى الدرب.

قصص البطولة الإيسلندية التي لا تحصى. وكان القاضي قد حكم عليه إضافة إلى النفي بقطع إحدى ساقيه، قبل إبعاده عن المجتمع. ولكن بعد شفاء جرح البتر أخذ ذو الساق الواحدة ينط عبر القفر. وتدريجياً صار يشعر بنفسه في رمل وحصى الحمم البركانية أكثر أمناً وأسرع حركةً، إلى أن اهتدى إلى فن البهلوانيات الذي أتقنه خلال سنوات العزلة إلى درجة الكمال، حتى بات في شقلباته الدورانية المغلفة بالغبار أسرع من أي ضحية هاربة منه. ومَن كان يرى زوبعةَ الغبار المحيطة به تتدحرج راقصة نحوه كالسراب، كان مقضياً عليه.

في ليالي خيمتنا، أو في الأكواخ العارية والباردة، أو وهو ينتظر بصبر لا ينفد، على ما يبدو، لحظة الضوء الأمثل لالتقاط صورة لعلامة طريق حجرية في مكان ما، وصف لي المصور صحاري السهل العالي، لا كملكوت للمنبوذيين والمنفيين فحسب، بل أيضاً باعتبارها أرض الجن والعفاريت والأرواح. كما حكى لي عن أبطاله من حكايات البطولة الإيسلندية القديمة، عن الشاعر غونْلاوغ المقاتل بالبلطة والسيف، وعن إغيل الذي كان في السابعة من عمره فقط عندما فلق جمجمة عدوه، وعن غرِتّير القوي القادر على حمل ثور ضخم على كتفيه، وكذلك عن غيسْلي الذي استمر يقاتل ويقاتل وهو ينزف من عدة جروح عميقة حتى تمكن من سحق أعدائه.

لكن الغريب، قال المصور الذي كان يعرف اسماً لكل درجة من درجات ضوء النهار، هو أن الكثير من هؤلاء

الأبطال، الذين نجوا من كل تلك المذابح وخاضوا أنهاراً من دم، قد وقعوا في النهاية ضحايا لخوف طفلي أزلي، هو الخوف من العتمة. وهذا الخوف كان مصدر عذاب بعض أقوى الأبطال وأشهرهم مجداً في إيسلندا، إلى درجة أن لم يعد لهم من عدوٍ سوى الليل، الذي لا يمكن قهره، والذي راح يرخي سدوله عليهم شيئاً فشيئاً، وبلا توقف.

وذات مساءٍ، حول نار الطبخ، قال لي المصور، إن هؤلاء المعذبين بخوفهم، كانوا يشعلون أي شيء، من سلخات الخشب إلى الشموع إلى المشاعل، عندما يريدون النوم أخيراً، كي يبقى شيء ما مشتعلاً دائماً، ولو كان شعلة شمعة، أو بصيص جمر، أو حتى شرارة. وفي أعماق الليل عندما ينتفضون مرعوبين من كابوس، فيتلفتون من حولهم، حيث كل شيء ساكن وكل شيء مطفأ ويشعرون بأنهم باتوا طريدة للأشباح، كان بإمكان عشيرتهم كلها أن تسمع صراخهم من الذعر والرعب.

توقفنا للاستراحة عند حطام نصب حجري، على سرجٍ صخري ذي إطلالة بعيدة على أراضٍ صحراوية سوداء وأمغرية، وحاول المصور إيجاد مكان ثابت رغم هبات الريح لمنصب آلة تصويره، عندما انتصبت أشباح من الصحراء أمامي: سراويلُ ريحٍ ترتفع فجأة وفي الوقت نفسه، مع الغبار على الأرض حتى ارتفاع شجرة أو برج وهي تزوبع باتجاهنا. كان المصور يسمي الواحدة منها، الأصغر حجماً شياطين الغبار، وقد رأيت مثيلاتها مفردة خلال الأيام الماضية، ولكن

ليس مجموعة منها معاً، ولا بهذا الحجم العملاق. وعندما أفكر بأحد أولئك الأبطال، الذين تؤرقهم ذكرى أعدائهم القتلى ورفاقهم المذبوحين وأصدقائهم وضحايا غزواتهم الأبرياء، ترى كيف سيشعرون عند رؤيتهم الزوابع الغبارية وهي تتقدم نحوهم؟

المصور المنشغل بمنصب آلة تصويره كان مديراً ظهره لي وللأشباح. ولكن عندما هتفت به، أسرع! هناك! ليصور أشباح حكايات أبطال الصحراء، فاعتدل والتفت نحوي متسائلاً، كانت الزوابع قد اضمحلت فجأة مثلما انتصبت قبل حين من الغبار، وبدا السهل المنبسط مع أواخر ضوء النهار مشعاً وخاوياً.

●●●

انطفاء مدينة

رأيت سماء الليل فوق حواف وذرى سلسلة جبال تايغِتوس، التي تفصل بين الولايتين اليونانيتين الجنوبيتين مِسّينا ولاكونيا، مثل سور حدودي بارتفاع ألفين وأربعمئة متر. والنجوم الثلاثة: النسر الواقع وذنب الدجاجة والنسر الطائر، في المساحة السماوية بين القيثارة والبجعة والنسر، تحدد ذاك المثلث الهائل من آلافِ مؤلفوِ من السنين الضوئية، في الظلمة الخالية من القمر. وفلكياً يُعدّ هذا المثلث كوكبةً مميزة لسماء صيفِ نصف الكرة الشمالي.

كان الليل ساكن الريح، دافئاً وصحواً إلى درجة أن نهايتَي دربِ التبّانة لم تضيعا في سديم طبقات الهواء الأعمق، بل بدتا وكأنهما مقطوعتان بحد سكين من خطي الأفق لتغوصا في الليل الأرضي. ومع ذلك، كان في السلام المتلألئ لهذه الليلة الصيفية وفي سكون الريح والدفء، ثمة ما يخدع بل ما يهدِّد، وما لست قادراً على تسميته.

توقفتُ بدراجتي النارية عند منعطفِ عودةٍ على الطريق الجبلي الوعر، لأني تعرضت فجأة للإنزلاق دون سبب واضح، وتجنبتُ السقوطِ بجهد جهيد. عند التوقف وأنا أطلق اللعنات، كنتُ مقتنعاً بأن الدولاب الخلفي قد أصيب.

فقد جرى هذا مرة قبل أسابيع قليلة، نتيجة سقوط زجاجات فارغة من شاحنة وبقاء بعض الشظايا في غبار الطريق، دون أن تلمع محذّرةً إلا في ظروف إنارة مناسبة. لكنني لم أستطع تجنب هذا الطريق، لأنه الوحيد المؤدي من تلك القرية جنوبي إسبارطة، حيث أقيم منذ شهرين، إلى حانةٍ ذات إطلالةٍ بعيدةِ المدى على البحر. صاحبها خريستوس، الذي يجول على القرى بصفته قصّاباً أيضاً، كان قد ركّب جهاز تلفزيون ضخم على حاملٍ معدني، أجزاؤه ملحومةٌ ببعضها بطريقة بدائية، وثبّته بالبراغي على جدار الحانة المطلي بالأزرق. ويمكن للمشاهدين متابعة أخبار اليونان وبقية العالم على شاشته العتيقة، حتى عندما يجلسون على الشرفة ذات الإطلالة. عندها يديرون ظهورهم للوادي تحت السماء الصافية، ويحدّقون عبر بوابة الحانة المفتوحة إلى الداخل، حيث تُسمع مساءَ كل يوم بلا انقطاع أصوات جوقات الدعايات وصوت مذيع الأخبار أو المعلق الرياضي المنفعل.

في الهدوء الذي فحصتُ خلاله دولابَي دراجتي النارية، لم أسمع سوى أصوات الجنادب. كان الدولاب الخلفي سليماً. هل كان سبب انزلاقي بقعة زيت أو شيئاً موحلاً أو مبلولاً؟ كان الطريق جافاً، مغبراً ودون آثار انزلاق. وفي ضوء مصباح جيبي لم تلمع أية شظايا في كل الاتجاهات. سَمَعَت السلسلة الجبلية السوداء نحو سماء النجوم مثل رسوم ظلّية مفرودة منشورة.

تايغِتوس: عمَّد خبراء الخرائط هذه الرسوم الظلية المعتمة

باسم الحورية المنكودة تايغِتِه، إحدى بنات التيتان أطلس السبع، التي شنقت نفسها في هذه الجبال يأساً، بعد أن غرّر بها زيوس أبو جميع الخالدين. حاولت آرتميس ربة الصيد وحامية النساء والأطفال أن تحفظ الهاربة من شهوانية رب الأرباب، فحولتها للتمويه إلى غزالة، ولكن عبثاً، فهل ينخدع ربٌّ بهيئة غزالة. وكختام لمصيبتها رُفعت تايغته أخيراً إلى سماء الليل، حيث أخذت تشع كأحد أكثر شموس كوكبة الثريا نوراً. لكن ظهورها في الأفق يتأخر في ليالي الصيف.

ومع ذلك، عندما التفتُ لا إرادياً باحثاً عنها في قبة السماء، مع أخواتها المُزاحات إلى الثريا، تبيّن لي برعبِ فجأة ما هو المهدِّد في هذه السماء: إنه السواد الذي لا شائبة فيه. في الليالي الكثيرة التي صعدتُ على دراجتي النارية في هذا الطريق الجبلي إلى حانة خريستوس، كنت أرى دائماً، فوق سلسلة الجبال باتجاه الشمال الغربي، قوس أنوارِ مدينةِ كَلاماتا، عاصمة ولاية مِسّينا، يشع بلمعانٍ يحجبُ بريق كثير من النجوم، التي اخترقت السماء ببريقها الآن في الشمال الغربي. أما الآن فلا ضوء، أياً كان نوعه، يشوب السواد القاتم المزروع بالنجوم فوق ذلك المكان، الذي عاش فيه نحو خمسين ألف إنسان في السنوات الأخيرة. لقد انطفأت كَلاماتا.

كنت كالهارب من حقيقةٍ لا تفسير لها، عندما ركبتُ دراجتي النارية وطرتُ على الطريق الكثير التعرجات. كانت حانة خريستوس مضاءة كعادتها بأنابيب النيون، وهدير المولِّد يسمع من بعيد. وعين شاشة التلفزيون التي تطرف باستمرار

كانت مرئية من الطلعة الأخيرة قبل الوصول إلى المدخل المبلط والمسوَّر بشجيرات الدَفْلى. لكنني في هذا المساء لم أر أي زبون أو مشاهدٍ جالساً في الشرفة. كان الجميع وقوفاً وجلوساً داخل الحانة قرب التلفزيون بوجوه مرفوعة نحو الشاشة وقد انعكست عليها مشاهد الكارثة.

أنوار الكشّافات تمسح حقولاً من الأنقاض والخرائب، بشرٌ يصرخون ويندبون مقرفصين بين أبنية متصدعة، وآخرون يركضون إلى جانب البولدوزر أو ينظرون إلى الكاميرا وقد أخرسهم الهول. ثمة رجلان، بثياب احتفالية وربطات عنق معقودة وورود العرس أو العماد ما زالت في ثنية السترة، واقفان وفي أيديهما مجرفة ومعول أمام امرأة بلا حراك مغطاة حتى الصدر تحت سقف باطون ممزق وقد ظهرت قضبان تسليحه المعدنية. وثمة قبة كنيسة سليمة تتوج كومة عالية من الأنقاض.

كانت الهزات الزلزالية التي دمرت المدينة على درجة من القوة بحيث طالتْني إحدى امتداداتها على الطريق النائي الكثير التعرجات في جبل تايغِتوس وكادت تدهورني.

لم ينبس المجتمعون أمام الشاشة بأي كلمة. وبعد أن صمت مذيع الأخبار، تناهى قادماً من البعيد صوت امرأة غير مرئية يقرأ بصوت رتيب وإيقاع متكرر كنشيد كنسي، قائمة أسماء المفقودين والقتلى، التي ستنقلها محطات الإذاعة في الأيام القادمة إلى أبعد القرى الجبلية، والتي ستطول ساعة إثر ساعة.

صحيح أن خريستوس قد ابتعد بنظره لحظاتٍ عن مشاهد الدمار، ليسألني عن طلبي، لكنه لم يعد من نضد البار الطويل بنبيذٍ وماءٍ، بل بشمعتين أشعلهما على جانبي الشاشة، التي ظهر عليها للتو منظر رجلٍ معفر بالغبار وهو يبكي ويحفر في الردم بيديه العاريتين.

●●●

على حافة الغابة

رأيت امرأة شابة في ردهة طويلة ونظيفة كالمرآة، في قسم العلاج النفسي من مستشفى الدانوب ذي البناء الواسع المتعدد الاختصاصات، في الطرف الشرقي من مدينة ڤيينا. ركعت المرأة على الأرضية الاصطناعية وحاولت بورقٍ غير مرئي، وسلخات خشب غير مرئية أن تضرم ناراً. بدت الأوراق من حيث الحجم مثل أوراق الجرائد، وكانت المرأة قد ملَّستها بعناية، قبل أن تكوّرها وتحيطها بحذر بسلخات الخشب وبالأغصان التي كسرتها من الهواء.

ومن كومة حطب غير مرئية وراءها بدأت تتناول فِلَق الحطب والأغصان الثخينة لتبني محرقة، وأخيراً صار الركام جاهزاً لنار كبيرة، لنار مخيّم. فبالطريقة التي راكمت فيها المرأة المواد القابلة للاشتعال لا بد من أن تحصل على نار مخيم. حاولت الآن إشعالها بعود ثقاب غير مرئي. لكن لهبة العود انطفأت بسبب تيار الهواء القادم من أحد دهاليز القسم، لا، بل انطفأ بسبب هبة ريح. لا شك في أن الريح كانت السبب، فمثل هذه النار تُشعل عادة في الهواء الطلق تحت سماء مكشوفة.

انتزعت المرأة عود ثقاب ثان وثالث وهي تحميه في تجويف

كفها حتى التقطت السلخات النار. ولكن ربما كان الخشب رطباً، أو غضاً، جُمع من الغابة على عجل، فأخذ ينفث دخاناً كثيفاً، إذ سعلت المرأة عندما انحنت على ركبتيها لتنفخ وتؤجج النار.

الريح القادمة، على ما يبدو، من الجهة الشرقية أجبرت المرأة على الانتقال إلى الجانب الآخر. جلست تربيعاً مثل الخياط، وهي تراقب المشهد المتراقص المتنوع أمامها، والذي بدا كأنما ينعكس في عينيها ويدفئها. خلعت روب الصباح الأزرق المزين بريشٍ أبيض وبقيت جالسة بقميص النوم ذي اللون نفسه، من دون ريش، وأغمضت عينيها. عندما سألتُها إنْ كان يجوز لي الجلوس لأتدفأ إلى جانبها. هزت رأسها موافقة، دون أن تفتح عينيها ودون أن تنبس بكلمة، بل أخذت تتمايل، كأنما على إيقاع لحن بطيء رتيب.

إنْ جلسَ أحدٌ، حيث كنا جالسَين ثم نهض واقفاً ليتمطى، وتلفت حوله، فسيتمكن من رؤية الممرضة المشرفة على القسم في كابينة زجاجية. وهي امرأة مهتمة بعملها ومتشددة، تبتسم كثيراً وتستطيع أن ترى أبواب الغرف المفتوحة. وعلى النوافذ المثبتة بالبراغي كيلا تُفتح مطلقاً لصالةِ استراحةٍ عارية يتناول فيها المرضى وجباتهم أو يتصفحون مجلات مصورة قديمة، يستطيع أن يرى انعكاس صورة طبقات الغيوم في سماء المغيب فوق الأشجار المتمايلة بلا صوت في مروج الدانوب، وتيجان الحور الأسود الشامخة والصفصاف الفضي والبلوط، والغابات المائية التي تجري عبرها متاهةٌ من أذرع الدانوب إلى

بحيرات القصب والبحرات المحاطة بأدغالٍ من الشجيرات المزهرة.

كانت طيور مالك الحزين الرمادية والرفراف تصطاد على شواطئ هذه المياه الداكنة، وعلى أغصان أشجارٍ عملاقة ساقطة تقف بعض طيور الغاق، لتجفف أجنحتها قبل أن تغيب الشمس، فيما الطائر الشادي والقزم الغرّيد ومغني قصب البُرك يدافعون عن مناطقهم بألحان متتالية غاضبة. كان بوسع كل من تم تشخيص مرضه أن يخرج لبضع ساعات أو حتى لنهار كامل، إلى مناطق جافة وسط الغابة الكثيفة والمستنقعية، ليتفرج على نسر الماء والعقاب والحدأة وصقر الزنابير وهم يمارسون فنون طيرانهم اللولبي صعوداً وهبوطاً.

سبق للمرأة الشابة، بصفتها خبيرةَ طيورٍ مزوّدة بلواقط صوت، ومشّاءةً مجرَّبة وعدّاءةَ مراثون أيضاً، أن مسحت الغابة الخارجية المؤطرة بنوافذ مثبتة بالبراغي، لكنها في أوائل أيام الصيف هذه لم تعد تطلب تصريحاً للخروج. لقد توقفت عن الكلام.

أن يُسمع غناء العنادل في الخارج حتى نهاراً ولساعات طويلة- إذ ليس من الضروري أن يُفْتَن في العتمة فحسب رفاق الجنس المرغوبين، كما أن أناشيد الدفاع عن الحدود تصلح نهاراً أيضاً- وأن تطير اللقالق السوداء القادمة من مروج الدانوب فوق أسطح المستشفى، وكأنها تختبر صلاحية المداخن وفتحات التهوية والهوائيات لبناء الأعشاش عليها، كل هذا لم يعد يهم المرأة الشابة في شيء. إنها صامتة منذ أحد

عشر يوماً.

لكنها رفعت رأسها فجأة الآن. هل سمعت أحد أصوات الحيوانات الكثيرة، تغريدة إغواء مثلاً أم نداء تحذير بعيد؟ سُمع صرير دواليب مطاطية على الأرضية النظيفة اللامعة. إنه وقت طعام العشاء.

فليبينيٌ برداءٍ أبيضٍ، يشتغل في القسم، تقدم يجر عربة من الفولاذ المعالَج ذي البِريق الكامد عبر الردهة الطويلة، وقد كاد يختفي وراءها. وهذا الرجل الذي يُحضر الطعام أصله من توبوان، وهي مدينة ساحلية في جزيرة مينَدناو على بحر سولاويزي. إنه يعمل في هذا القسم منذ ثلاث سنوات، ولم ير عائلته التي يحمل صورتها معه دائماً ولو مرة واحدة طوال هذه المدة.

كان في طبقات عربته مجموعة صوان مملوءة بطعام أخذ يبرد شيئاً فشيئاً، وكل صينية عليها بطاقة اسم. في بداية كل أسبوع كانت تُوزع على الغرف لوائح، يجوز للمرضى أن يختاروا منها الوجبات التي يرغبونها للأسبوع القادم، بوضع إشارة إلى جانبها. الأسبوع القادم، الأسبوع الآتي، والأسابيع ما بعد ذلك؛ المستقبل: لم يسبق لأحد هنا تقريباً، مِمَّن يضعون إشاراتهم على اللائحة كل يوم إثنين، أن حسب حسابه بأنه قد يُفرج عنه قبل إعداد الوجبات التي أشّر عليها.

عندما تقدمت العربة الفولاذية باتجاه نار المخيم، رفعت المرأة الشابة ذراعيها لحماية اللهيب الذي كان قد خبا وخمد. كم من الشرر سيعج عالياً إذا اخترقت العربة الفولاذية

الجمر! لكن الفليبيني سحب عربته ببطء وحذر متجنباً المرأة وإياي والنار؛ فهو يعرف كيفية التعامل مع هذه النار.

الطعام، قال. ألا تريد المرأة أن تأكل؟ هناك فريز/ فراولة للتحلية، فهذا موسم الفريز.

أغمضت المرأة الشابة عينيها ثانية وبدت كأنها لم تسمع السؤال، لكنها من ثم هزت رأسها نفياً دون كلام.

نودي بمكبر الصوت على المرضى لتناول طعام العشاء، فخرجوا من غرفهم وسحبوا صوانيهم من العربة الفولاذية وحملوها متجاوزيننا في المخيم إلى صالة الاستراحة، وعندها أشارت المرأة فجأة إلى النار ونظرت إليّ. هل عليّ أن أحمي نار المخيم؟

أرادتْ أن أبقى حيث كنتُ، بينما نهضت هي واقفة ومشت على الأرضية اللامعة كمرآة ودخلت غرفتها واستلقت على السرير. عبر فتحة الباب كنت أرى قدميها العاريتين فقط. كانت نافذة غرفتها مثبّتة بالبراغي مثل كل نافذة في هذا القسم، لكن المرأة هنا لا تتقاسم المنظر مع أحد آخر. ويحتمل أنها تسمع هنا حفيف الأشجار أيضاً.

هل اختبأت ثانية وراء أجفانها المغمضة في الغابات المائية، أم أنها تحدق الآن متجاوزة أظافر قدميها المطلية بالأحمر في الجدار العاري الذي بدأ نور النهار يغيب عنه؟ أم في زنابق الماء؟ كان هناك لصق الجدار طاولة، عليها مزهرية مستعارة من مخزن القسم، مليئة بزنابق ماء من النوع الذي بدأ يزهر الآن في المروج.

بالشكل الذي استلقت فيه المرأة في سريرها، جنّبت نفسها مرآى عين الكاميرا التي تتحرك وراء رأس السرير مبحلقة فيها نهاراً وليلاً. السرير والطاولة وزنابق الماء، وكل ما في هذه الغرفة ملكٌ لإحدى الصور الكثيرة بالأبيض والأسود، المصطفة إلى جانب بعضها بعضاً، على شاشة مراقبةٍ كبيرة تومض في الكابينة الزجاجية، هناك في الردهة، حيث كانت النار تشتعل.

وهذه الشاشة تعرض غرفاً خالية ومشغولة، أناساً نائمين أو مستغرقين في ذواتهم، أناساً جالسين على كراسٍ، أو يمشون جيئة وذهاباً، أو واقفين على النوافذ. عند أواخر العصر، قبل موعد طعام العشاء بساعةٍ، شوهد في الطرف الأيمن السفلي على شاشة المراقبة، رجل بقميص المستشفى الأبيض. كان جالساً على الأرض أمام باب خزانة مغلق، وقد رسم عليه قلباً كبيراً، أو ربما تفاحة. أداته، قلم الرسم، أخذه منه أحد عمال غرفة المراقبة. وها هو جالس الآن بساقين مضمومتين أمام عمله الفني، لا يريد أن يأكل شيئاً، وقد أمال رأسه على ركبته.

قبل أن تمتنع عن الكلام ناضلت المرأة الشابة ضد هذه العين؛ بلا جدوى. وبلا جدوى ناضلت أيضاً من أجل العتمة الليلية: إذا كان ممنوعاً منعاً باتاً أن يطفأ النور في غرفتها. أن يكون أقل إضاءة، نعم. يجوز عند موعد النوم أن يكون أقل إضاءة، كما في وقت الدغشة ولكن لا يجوز أبداً أن يطفأ. إذ يمكن في ستر العتمة أن يحدث ما لا يجوز أبداً أن يحدث، لا

سيما في هذا البناء، على طرف المدينة، على حافة الغابة، حيث اتخذت كل الإجراءات لحماية الإنسان من كل شيء، وخاصة مما يهدد حياته بالخطر. إنه هنا محمي حتى من نفسه.

في أيامها الأولى هنا، قبل أن تمتنع عن الكلام، قالت المرأة الشابة إن صوتاً في أيامها الأولى، ينتمي إلى هذه العين، كان يكلمها من الجدار، يهمس من الوسادة، وحتى من داخل رأسها، باستمرار... وذات مرة عندما ضغطت قبضتيها على أذنيها، كي يسود الهدوء أخيراً، الهدوء!، سمعت هذا الصوت من قبضتيها المغلقتين كما من صدَفة بحرية:

عليكِ! عليكِ، عليكِ، أخذ الصوت يكرر همساً ودمدمة وتمتمة، برتابة لا نهائية، لا نهائية كالنور في غرفتها: عليك أن لا تقتلي نفسك.

●●●

محاولات طيران

رأيت طائراً فتياً من نوع القطْرس الملكي،
على حافة منحدر مغطى بالحشائش قرب مستوطنةِ الماوري القديمة أو تاكو، في الجزيرة الجنوبية من نيوزيلندا. كان الطائر الفتي قد حاول الطيران نحو الأعلى تحت رذاذ المطر الذي تصفقه الريح على المنحدر أفقياً، فسقط في العشب ثانية وأخذ يُرتّب ريش جناحيه الطويلين النحيلين. بطولهما الذي يبلغ عند الطيران ثلاثة أمتار حتماً، يكون قد وصل إلى حجم أبويه، بل ربما فاقهما وزناً، نتيجة عنايتهما به. لكن الريح التي كانت تعصف بريشه البني المشوب بالرمادي كانت أقرب إلى أن تكون عدوه منها إلى جوِّه الطبيعي. علماً بأنه قريباً سيصبح قادراً على أن يسبح في الهواء لشهور، بل لسنوات بعيداً عن الشواطئ جميعها، من دون أن يحطّ أبداً، إلا على أمواج المحيط الهادي. سيصطاد أثناء الطيرانِ الجبَّارَ، الذي يصعد في ساعات الليل إلى قرب سطح البحر، وقنديلَ البحر والسمكَ الطيّار. سيأكل وهو طائر وسينام وهو طائر: سينام ويحلم سابحاً في الهواء. وخلال حياته التي تمتد على مدى يزيد عن خمسين سنة، لن يبحث عن برٍ ثابت إلا في موسم حضانة البيض والتفريخ. أما الآن فما زالت الريح ترميه إلى الحشائش المتمايلة، أو ترفعه

عالياً لتختبره، فتحمله للحظة قصيرة فوق خصل الحشائش التي بللها الرذاذ، وتتركه من ثم ليسقط ثانية، فما زال غير قادر على الطيران.

كنت أراقبُ محاولات طيران الطائر الفتي من سيارةِ جيب لراصدِ الطيور، الذي قال: إن طائر القطرس يحتاج إلى تسعة شهور، منذ فقْسِه من البيضة على تلك اليابسة التي لجأ إليها، ويبغي مغادرتها بأسرع ما يمكن، إلى أن يتمكن من الطيران. في هذا اليوم غادر راصد الطيور مستعمرة الحضانة والتفريح في رأس تاياروا، بمهمةٍ تثبيت أماكن الأعشاش على الخريطة، والتقطني على الشاطئ أثناء هطول مطر غزير، وعرض عليّ إيصالي حتى برودْ بَي. وها أنا الآن، محميٌّ تحت سقف سيارته في موقف سيارات فوق نتوء صخري مسطح، فيما يفتش هو تحت رذاذ المطر عن الأعشاش المهجورة على أحد المنحدرات. بين دعايات أدوات صيد السمك وقواربه كان مذياع السيارة يبث قصيدة بوب ديلان: **قلبي في الهضاب**.

من خلال رذاذ المطر على زجاج السيارة الأمامي، بدا القطرس أيضاً مثيراً للشفقة بجناحيه المفرودين اللذين تثنيهما هبات الريح تارة نحو الأعلى لتعود فتطويهما تارة أخرى. وعندما كان يرتفع فوق خصل الحشائش لترميه الريح أرضاً ثانية، كان المشهد يشبه ارتفاع طائرٍ مضطربٍ أو سكرانٍ متبدلِ الهيئة، ليسقط في مكْمنهِ ثانية، كي يبدل هناك هيئته مجدداً للانطلاق.

حسناً، قلبي يجول في الهضاب بوداعة وصفاء
زهور السياج تبرعم في هواء الغابة النقي...
أشعر بنفسي أسير عالمٍ من الغموض،
ليت أحدهم يأتي،
ويرجع عقارب الساعة من أجلي إلى الوراء.

وقال راصد الطيور إن طائر القطرس قد تسلل داخلاً إلى حياته دون أي مقدمات وأخذه معه من عالم سائقي باصات الخطوط الداخلية إلى ملكوت الطيور، الذي لن يغادره بعد الآن. منذ أن ماتت زوجته في حادث سير قبل تسع عشرة سنة، لم يعد قادراً على متابعة العيش في منزلهما المشترك في دَنْدين، ولم يعد راغباً في قيادة باصات الخطوط الداخلية، حيث يجد نفسه يومياً مضطراً للتفكير طوال ساعات بحوادث المرور الخطيرة وضحاياها، فربط مستقبله بطائر القطرس. صغرى ابنتيه توقفت عن النمو إثر الحادث، طوال عام كامل!، نعم، ابنةُ الثلاث سنوات ونصف توقفت بكل بساطة عن النمو مدة عام بائس حزين. وقد أحس بهذا التوقف المحيِّر، على أنه احتجاج على اختفاء أمها، ما تناقض مع جميع التفسيرات الطبية. ولم يتوقف احتجاجها هذا إلا عندما صار يخرجُ مع البنتين في شهور الحضانة والتفريخ، كلما سنحت له الفرصة، من دَنْدين إلى مستعمرة القطرس في رأس تاياروا ليراقب مع الابنتين هذه الحيوانات الرائعة طوال ساعات.

ومنذ أن صارت ابنتاه قادرتين على مغادرة العش، تزوجت

الكبرى في بِرث في إستراليا ولحقت الثانية صديقها إلى تَسْمانيا، فلم يعد عنده من شاغلٍ سوى القطرس. بعض هذه الطيور التي ألِفته بصورة خاصة، ومنحها أسماء، كان يتعرفها مجدداً من مناورات طيرانها الفريدة، حتى بعد استراحة سنتين وأكثر من التفريخ وعودتها من أقاصي المحيط الهادي إلى رأس تايارروا.

يا له من جهدٍ جهيد، إطعامُ فرخ قطرس، قال راصد الطيور. أحياناً يترك الأبوان فرخهما وحده عدة أيام، قبل أن يعودا ليطعماه من الطعام الذي هضماه أولياً أثناء الطيران. وما يلفت النظر هو أن هذا الطير تحديداً، الذي يبتعد عن فرخه كل هذه المسافات الشاسعة، أكثر من أي طير آخر، يعود بكل عزم وإيمان، بأن فرخه الواثق بهذه العودة، لن يحتجّ أبداً، بل سيتهادى من العش صامتاً وهادئاً ليُمضي وقت الانتظار في تمارين على الطيران.

يبدو أن المطر والريح قد جلبت معها للقطرس الملكي الفتي ما يؤكل. حاول ابتلاع الغنيمة بمدِ رقبته إلى الأمام، كما فردَ جناحيه أثناء ذلك ليمدد صدره، فيوجِد بهذا مكاناً للقمة الضخمة. وخلال ذلك قاطعت أخبار المذياع أنشودة بوب ديلان:

في العاصمة ويلينغتون ذات نظام المواصلات بالعبّارات المهم والحيوي بين الجزيرتين الشمالية والجنوبية من نيوزيلندا، وقعت هزة أرضية جديدة. في هذه المرة لم يتسبب الزلزال في موت أحد، ولكن هناك تسعة جرحى. في كريست تشَرش

أطلق فتى النار على صديقه من مسدس أبيه. على الساحل الشمالي انجرف أكثر من ثلاثين حوتاً من النوع الدليلي إلى الشاطئ ونفقت. كما غرق ثلاثة من خمسة بحارة هم طاقم قارب صيد إثر تعرضه لموجة هائلةٍ قلبته. وفي مدينة صغيرة في الغرب الأميركي الأوسط أطلق تلميذ النار على زملائه في نوبة جنون.

كانت بعض هبات الريح الآن على درجة من القوة، بحيث تمايلت سيارة الجيب، وكأن شاحنةً مسرعة أو قاطرةً قد صدمتها. ثم، وكأن أخبار الإذاعة قد أعطت القطرس دفعاً، محفزةً إياه على أنَّ أفضل ما يفعله هو أن يترك هذه اليابسة بعيداً وراءه، ارتفع القطرس الملكي الفتي في الهواء، وهو ما زال يبلع اللقمة، متمكناً الآن من حركة جناحيه المنشورين وبتصميم عنيد على الصعود مع تيار الهواء؛ فارتفع مثل طائرة ورقية أعلى فأعلى. وأخيراً هناك في الأعالي أطلق القطرس صيحة نصر طويلة، رغم أن هذا الطائر يمضي حياته صامتاً سابحاً في الهواء ولا يرفع صوته إلا في موسم التكاثر وفي النزاعات. ثم أنجز القطرس حركة انعطاف كاملة وسبح بحجمه الهائل بلا وزن عبر العاصفة، بهدوءٍ فوق المنحدرات الصخرية التي تلتطمها الأمواج.

●●●

الطاووس

رأيت جداراً من أكياسِ رملٍ، متراساً أو حاجزاً دون أي منفذ، في أحد أزقة نيودلهي الجانبية. داس سائق السيارة التي أركب فيها، على الفرامل فجأة، ثم تابع طريقه، ولكن ببطء وباتجاه الحاجز، وكأنه يأمل بزوال هذا العائق من نفسه، بمجرد اقترابنا منه. لكنه فقط عندما تضخم الحاجز، بحيث سدّ علينا الرؤية كلياً، توقف دون أن يطفئ المحرك. بقي بلا حراك برهة، صامتاً ويداه على المقود، ولم يجب على سؤالي: كم من الوقت سيستغرق الالتفاف الذي لا محيد عنه؟ ثم بدَّل الحركة إلى الوراء واستدار بجسمه إلى الوراء، نحوي ونحو النافذة الخلفية المزينة بأجراس صغيرة وخيطان ذهبية، وبدأ، وهو يناور راجعاً إلى الوراء بالسيارة، يتحدث عن قاتلي رئيسة الوزراء إنديرا غاندي المحكومين بالإعدام، اثنين من السيخ، من حرسها الشخصي، من المحتمل أن يُنفذ فيهما حكم الإعدام اليوم ليلاً. وقال إن الجيش بعد تنفيذ الحكم يتوقع حدوث صدامات في الشوارع، ولهذا وُضعت أكياس الرمل، ولهذا سُدّ الطريق الجانبي. وإن كثيراً من أهله وأصدقائه قد هربوا من المدينة خوفاً من الصراعات المتوقع حدوثها بين الهندوس والسيخ.

أنا أيضاً أردت مغادرة هذا الحي الذي أمضيت فيه الأيام الأخيرة ضيفاً في دار أحد رجال السيخ. وبما أن الهندوس يعيشون في الجوار، لم تعد هذه الدار مكاناً آمناً. في المذابح المنظمة التي اندلعت إثر اغتيال غاندي في شمالي الهند، قُتل في دلهي وحدها أكثر من ثلاثة آلاف من السيخ. هكذا أراد الهندوس الانتقام لرئيسة وزرائهم من تجار الخضار والحرفيين وسائقي الريكْشا، الذين كان من سوء حظهم أن ينتموا إلى طائفةِ قتلةِ إنديرا.

اذهب، قال لي مضيفي، اذهب، أنا أيضاً سأذهب. ما زال وقع ضربات العصي يرن في أذني، عشر أو اثنتي عشرة ضربة كل دقيقة، أراد حارسا داره البنجابيين إنزالها بكل عدو يعرِّض أمن الدار للخطر. قالا إنهما لن يغادرا الدار ولن يتخليا عنها، بل سيحرسانها وسيدافعان عنها إن دعت الضرورة لذلك. كان كل منهما يحمل بندقية إنْفيلد من الحرب العالمية الثانية، وقد أمضيا الليالي الماضية منذ هبوط الظلام حتى انبلاج الصباح يتجولان على طول سور حديقة الدار، المحصن بالأسلاك الشائكة وشظايا الزجاج وهما يقرعان جدار السور بضربات تحذيرية بهراوتيهما.

في إحدى تلك الليالي حلمتُ بأصوات ضربات الهراوتين وكأنهما مطرقتان: رأيت رجلاً مدمّى يُجرجَر من بيته ويُثبَّت بالمسامير من يديه وقدميه على بوابةٍ محاطة بأسلاك شائكة. في مساء اليوم التالي لهذا الحلم، أيقنتُ باندلاع مذبحة. فعلى طريقي إلى أحد بائعي الخبز في زقاق منحدر مضاء بأنوار

الدكاكين العديدة، رأيت جماعة هائجة منفعلة يتعالى صياحها، محيطةً برجلٍ مُدمًى.

كان الرجل يضع على رأسه الدَسْتار، وهي عمامة السيخ. كان مرمياً منثنياً على نفسه على أسفلت الزقاق، وهو يرفع ذراعيه درءاً لأي ضربة، كلما انحنى نحوه أحدهم، مكرراً جملةً، بدت وكأنها طلب الرحمة أو تأكيد براءته. ولكني عندما رأيت مئات من قرون الفلفل الحار منثورة من حولي، ودراجة على الأرض في ركن الزقاق، ما زالت محمَّلة عالياً بالسلال المثبّتة عليها بالحبال، تلاشت من رأسي صورة المذبحة. إذ تبيَّن أن الرجل تاجر خضراوات سقط عن دراجته، ويأبى أن يحركه أحد، أو أن يحاول إنهاضه. فأبسط لمسة كانت تؤلمه. ويبدو أن آراء الجماعة الملتفة حوله قد تباينت جداً، حول كيفية مساعدة المصاب وكيفية نقله من الزقاق. وأخيراً حملوا الرجل، وهو يصرخ ألماً، إلى ريكْشا اختفى داخلها، فيما قام صبيان حافيان بجمع قرون الفلفل. وأثناء ذلك قام نحّاس بإدخال الدراجة إلى ورشته في زقاق الدكاكين.

كان على السيارة أن توصلني إلى محطة القطارات، فقد أردتُ السفر إلى راجَستان، إلى جايپور، ثم إلى صحراء تار، وخشيت أن يفوتني القطار بسبب حاجز أكياس الرمل، والاضطرار إلى تبديل الطريق. وفيما السائق يناور بالتكسي رجوعاً، نظرتُ عبر الزجاج الأمامي إلى قمة حاجز أكياس الرمل، فلم أر شيئاً، لا خوذة ولا أسلاكاً شائكة. وهكذا كان كل منا يحدِّق بعكس الآخر، أنا عبر الزجاج الأمامي والسائق

عبر الزجاج الخلفي وهو يؤكد لي: لا تخف، سنصل إلى المحطة في الموعد. وها هو الزقاق يمتد أمامي مجدداً بأفق مفتوح.

عند ذلك رأيت الطاووس الذي قفز من سطح دار، مملوء بقطع غسيل ترفرف في الهواء، إلى قمة الحاجز، وأخذ يتبختر إلى وسطه تقريباً، ثم تهيأ ليرفع ريشه الطويل عالياً وينشره قوساً ليخيف بعيون ريشه الكثيف أي مهاجم. إلا أنه غيّر رأيه على ما يبدو، عندما لاحظ أن الزقاق المزروع بالمطبات خالٍ، إلا من سيارة تزحف راجعة كالأفعى. خالٍ من أي عزولٍ أو معجبٍ أو عدو.

●●●

الاغتيال

رأيت قافلة سيارات ملكٍ في الشارع العريض دوربار مارغ في مركز العاصمة النيپالية كَتْماندو: ثلاث سيارات ليموزين سوداء برفقة سيارات شرطة ومدرعات وسائقي دراجات نارية مسلحين، تنساب تحت أشجار الشارع التي تعج تيجانها بأسراب من الثعالب الطيّارة التي تزعق وتثرثر، وكأنها قبيل طيرانها الليلي تتبادل بسرعة آخر الشائعات المتداولة. برؤوسها المدلاة نحو الأسفل مثل حبات فاكهة الفرو الضخمة، معلقةً بأقدامها بالأغصان، مغلفةً بأجنحتها الخفاشية، كانت أصواتها تطغى على هدير محركات القافلة.

جيانيندرا بير بيكرام شاه ديڤ، ملك نيپال الذي يجسد ڤيشنو إله الهندوس، كان على ما يبدو متعجلاً لبلوغ أمان قصره قبل حلول الظلام. ففي أولى أيام هذا الصيف بدا أن الملوك يموتون أسرع من رعيتهم. وحتى في صفوف شعب جيانيندرا، الذي تكتل منه عدد متنام تحت الأعلام الماوية الحمراء وليس تحت بيارق الملكية، أخذت تتصاعد الأصوات باضطراد مطالبة بعزله، وحتى باعتقاله، وأحياناً حتى بموته، علماً بأن جيانيندرا لم يعتلِ العرش إلا منذ أيام قليلة.

كان ذلك منذ نحو أسبوعين. حينها كنت محموماً طريح الفراش في خيمة في الجبال على الحدود النيبالية التِبتية، عندما وصلنا الخبر في المخيم على لسان حمّالٍ جبليٍّ من شعب التامانغ، واعتبرتُه شائعة مغرضة ستتسبب في وقوع اضطرابات في البلد: قال إن شقيق جيانيندرا الأكبر، بيرِندرا، ملك نيپال السابق وحاكمها الشديد طوال سنين، قد اغتيل مع زوجته الملكة وأبنائه الأمراء وبناته الأميرات، ما مجموعه عشرة أشخاص، بإطلاق النار عليهم في قاعة الطعام في القصر الملكي.

عندما انخفضت حرارتي وتمكنت أخيراً من بلوغ كتماندو بعد مسير عدة أيام مجهدة، كان قد تشكل عدد كبير من الافتراضات المتناقضة حول عملية الاغتيال، وتصاعدت إلى صخب يصك الآذان تارة، ويخمد كلما اقترب الخطر تارة أخرى، تماماً مثل زعيق الثعالب الطيّارة. حتى أن هناك من افترض تورط جيانيندرا نفسه، الذي غاب عن القصر وقاعة الطعام مساء المذبحة؛ فاغتيال الملك في نهاية المطاف سيوصله إلى العرش. ولكن تدريجياً، تأكدت صيغة لوقوع الحدث، اعتبرت الوحيدة الحقيقية ونشرت أخيراً حتى أبعد سفوح هيمالايا: وهي أن ولي العهد ديپندرا، ابن بيرندرا وابن أخ جيانيندرا، لم يشأ الرضوخ لقرار القصر بتزويجه من امرأة لا يحبها، مع التهديد بفقدان ولاية العهد، إن لم يفعل. وقيل إن ديپندرا أراد أن يجعل من حبيبته الحقيقية زوجته، وذلك ضد قانون البلاط، الذي دفعه إلى اليأس من حكمة أبيه

الملك، فأخذ يتناول الكحول والمخدرات. وبعد شجار على مائدة العشاء ترك القاعة وعاد بعد وقت قصير بلباس الميدان العسكري حاملاً رشاشين آليين بيديه، وفتح النار في القاعة على الملك وعلى أسرته. ثم وجه أحد السلاحين إلى نفسه، فأصيب بجراح قاتلة.

بعد عملية الاغتيال بقي ديپندرا ثلاثة أيام يعاني من إصاباته. ولكن من دون أن يستعيد وعيه ثانية، وعلى الرغم من جميع الشائعات، أجري تنصيبه في جناح العناية المشددة خلفاً لأبيه القتيل وأُعلن ملكاً جديداً للبلد. وعندما مات في اليوم التالي اعتلى جيانيندرا العرش.

أدت الاضطرابات التي أعقبت مذبحة القصر، ورُفعت في أثنائها لافتات كُتبت عليها الصيغ الأكثر تناقضاً لمجرى الحدث، أو هُتِف بها عالياً من قبل جوقات، إلى سقوط قتلى وجرحى. وفي اليوم الذي أردتُ فيه مغادرة البلد نحو الهند، أُغلق المطار. والعنف المفرط الذي تعاملت به الشرطة والجيش مع الرعية المضطربة، أيقظ في الذاكرة عنف الملك المقتول بيرندرا، الذي كان يواجه به أي اعتراض على حكمه. لم ينس أحد من سكان كتماندو بعد، أن الملك قد أمر بإطلاق الرصاص على المتظاهرين في شارع دوربار مارغ العريض، والذي تتحرك عليه قافلة السيارات الآن مقتربة من القصر، ما أدى أيضاً إلى قتل ممرضين ومسعفين أرادوا مساعدة الجرحى.

في متاجر ومقاهي شارع دوربار مارغ كانت الأنوار قد أضئيت. وفي زحمة المشاة والمتسكعين لم يأبه سوى قلة بالقافلة

التي كادت تبلغ شارع القصر نارايانْهيتي پات. حتى أنا الذي كنت أساوم تاجر عاديات حول سعر رأس حجري لبوذا بحجم القبضة، نبهني البائع قائلاً: الملك! المَلك! مشيراً بيده إلى سيارات الليموزين التي لم ينعكس على زجاج نوافذها الداكن سوى أسراب الثعالب الطيارة المدلاة من تيجان الأشجار. وعندها تبعَ دوي يصم الآذان برقاً يعمي الأبصار، وعلى تقاطع عبرته القافلة تواً انهمر مطر من لهيب انطفأت على أثره فجأة أنوار صف كامل من المتاجر وغرقت في عتمة الغسق.

في البداية لم ينتبه سيل المشاة على الاطلاق إلى اللغم أو القنبلة التي انفجرت للتو، بل تابع اندفاعه بهذا وذاك الاتجاه. ولكن فقط في حشد الثعالب الطيارة وفي القافلة بدا أن ذعراً قاتلاً قد دبّ. كان لا شك أكثر من مئة ثعلب طيّار التي أشرعت فجأة أجنحتها الخفاشية واندفعت طائرة من الأشجار، وكأن موجة ضغط الانفجار قد نبذتها عن الأغصان، فحلّقت كغيمة سوداء فوق قافلة الملك ورؤوس رعاياه.

أسرعت سيارات الليموزين والمرافقة باتجاه بوابات القصر، فيما قفز جنود من شاحنة واتخذت مدرعتان وضعية الاستعداد للرد. ولكن أين كان العدو؟

تاجر العاديات الذي شمل الظلام متجره أيضاً عقب الانفجار، خشي من احتمال أن أستغل انقطاع التيار لأختفي ببضاعته. فأخذ رأس بوذا من يدي وقال ضاحكاً إني قد رأيت

لتوي ألعاباً نارية نيبالية نموذجية: إذ إن ما انفجر كان برج تحويل كهربائي صغير تشبه قمته شرنقة ملفوفة من أسلاك وكبلات كهربائية وعوازل، مثل تماثيل للفوضى تشرئب عالياً من معظم أزقة كتماندو. علماً بأن مدينة الملك لا تزوَّد بالتيار الكهربائي إلا وفق قاعدة التقنين النصفي، ففي الأيام المفردة تضاء هذه الأحياء على هذا الجانب من نهر باغماتي، وفي الأيام المزدوجة أحياء الجانب الآخر. وفي الأحياء التي لا كهرباء فيها، توقد النار في القمامة في الأزقة، فيطبخ الناس طعامهم عليها ويتدفؤون حولها، وفي النوافذ يتراقص نور الشموع. ولكن حتى على الضفة المنارة والسعيدة يمكن أن ينفجر أحد أبراج الكهرباء في أي وقت، فتسود العتمة. عندها تجد على أرض الأزقة كبلات تطلق شرراً أو ثعلباً طياراً يتصاعد منه الدخان مدلى من أحد التمديدات وقد صعقه سلك مقطوع. فالثعالب الطيارة تتشبث بقوة بآخر مكان حطّت عليه، بحيث حتى الموت لا يمكن أن يرخي مخالبها. رأيت بعض التمديدات الكهربائية، وليس عليها سوى قدمي الطير، أما بقية جثته فقد افترستها طيور أخرى أو تعفنت وتساقطت.

الملك، الملك! يحتمل أن تاجر العاديات قد أخطأ، وأنه لم يوجد في الليموزينات المختفية سريعاً سوى بعض كبار الموظفين وتجار الأسلحة والدبلوماسيين، أما الملك فلم يكن في أي من السيارات المدرعة. يحتمل أن آخر ملوك نيبال لم يغادر قصره أصلاً، أو أنه قد تموَّه جيداً، فبات غير مرئي في متاهة أزقة عاصمته، مقتنعاً بأن زمنه قد ولى. ومن المحتمل

أيضاً أن تكون ناقلات الجنود المدرعة، قد اتخذت وضعيتها القتالية هنا، حتى دون مطر الشَّرر الكهربائي ودون انفجار، هنا حيث توقفت وترجل منها الجنود وأخرجوا السجائر من جيوب قمصانهم وأخذوا يراقبون الواجهات المعتمة وهم يدخنون. أما المشاة والمتسكعون فقد تابعوا دروبهم، ربما بخطوات أسرع. وسيسهر الجنود على تطبيق حظر التجول ليلاً.

وقبل أن يعرض عليّ تاجر العاديات آخر سعر لبيع الرأس الحجري قال لي: ربما اندفعت الثعالب الطيارة سابقة الملك الذي فقد سلطته عليها، متجاوزة كل الأسوار والحواجز والأسلاك الشائكة، لتكون قدوة للشعب النيپالي. وباعتبار الثعالب الطيارة أَكَلة رحيقٍ وفواكه وزهور، فلا شك أن بساتين وحدائق القصر هدف يستحق الغزو. إنها تطير إلى هناك كل مساء متجاهلة حظر التجول والمناطق المحظورة والجنود والحرس الشخصي.

●●●

غارة جوية

رأيت أربع طائرات عسكرية من ذات المحرك الواحد، في طيران منخفض فوق سطح بحيرة سد سان سِباستيان في الهضبة البوليڤية. كان واضحاً أن الطائرات المقاتلة متجهة نحو پوتوسي، مدينة مناجم القصدير والفضة القريبة، الواقعة على ارتفاع أربعة آلاف متر فوق سطح البحر. كان صوت المحركات منذ بعض الوقت مسموعاً كدوي يقترب ويبتعد، متناهياً من الوديان المحيطة، لكنه اشتد عندما ظهرت الطائرات فجأة فوق سلسلة جبال جرداء، لتنقض حتى مسافة ثلاثين متراً تقريباً فوق مياه البحيرة، مصدرةً هديراً جهنمياً.

أذابت شمس الصباح الحادة الثلج الذي هطل ليلاً، وكنت أجول في ضحى هذا النهار القارس من شهر تموز/ يوليو، مع باحث بيولوجي من باڤاريا وصديقته- وهي طبيبة إيطالية من پيستويا- على منحدرات شاطئ البحيرة العاري من أي شجرة أو شجيرة. كنا قد تعارفنا في مطعم غير قابل للتدفئة يقدم الفطور في پوتوسي، التي كانت طوال ثلاثة شهور قاعدة أبحاث البيولوجي لتحديد أنواع طحالب وأشنيات هضبة ألتيپلانو، التي ترتفع حتى أربعة آلاف متر عن سطح البحر،

بين جبال الآندِن الغربية والشرقية. صديقته تيزيانا ترافقه لبضعة أسابيع في الصيف لتعود من ثم إلى عملها كطبيبة تخدير في أحد مشافي ميلانو.

أثناء مشوارنا الصباحي على منحدرات شاطئ بحيرة سان سِباستيان، تطرقنا في الحديث ثانية إلى رحلتنا المتأخرة. كان البيولوجي قد أجّل موعد رحلته ثلاث مرات، وكنتُ أنا في طريقي إلى البيرو عبر پوتوسي، حيث انضممت إليهما، لأنهما عرضا عليّ السفر معهما في باص التخييم إلى بحيرة تيتيكاكا، ثم إلى أريكْويبا في البيرو.

طبعاً، طبعاً، قال البيولوجي صباح هذا اليوم أيضاً. طبعاً وبأسرع ما يمكن يريد هو أيضاً الوصول إلى البيرو، غداً، ولكن لنكمل هذه الجولة الاستطلاعية إلى بحيرة سد سان سباستيان. فمن يدري، قد لا يعود أي منا إلى هذه الهضبة ثانية.

في هذه الأيام من شهر تموز قام الجنرال غارثيا ميزا المدعوم من أقوى تجار الكوكايين في بوليڤيا بانقلاب عسكري دموي في لاپاز، ونصب نفسه ديكتاتوراً جديداً، وخلال مدة حكمه التي لن تتجاوز سنة واحدة سيثبت أنه الأشد عنفاً وقسوة في تاريخ البلد. وكأن حالة من الرعب العام قد شلت البلد كله، فتوقفت القطارات وباصات النقل الخارجي. كثير من الطرق سدت بالحواجز أو بالعربات العسكرية، وخرست خطوط الهاتف. والأخبار الشحيحة التي وصلت إلى پوتوسي تحدثت عن موجة اعتقالات وعن عدد كبير من القتلى.

وما كان سيد البلاد الجديد ليفاجأ بأن قواته وأتباعه في مدينة عمال مناجم مثل پوتوسي لن يصادفوا أنصاراً لهم، ليس بعدد كبير على الأقل. ويحتمل أن سرب المقاتلات فوق البحيرة كان استعراضاً ليقظته. وعلى ذلك المنحدر الصخري الذي كنا نصعده لاهثين في الهواء الخفيف، كان هدير الطائرات على درجة من القرب عند عبورها بارتفاع أعيننا، إلى درجة أنني رأيت خوذات الطيارين في القُمرات الزجاجية. اثنان من الطيارين التفتا نحونا.

كانت تيزيانا تصعد أمامي، وفجأة مدت ذراعها وكوّرت قبضتها في وجه الطائرات الهادرة وصاحت في غضب No parazán! No parazán!، أي «لن يمروا!»

حتى لو كان في إحدى قُمرات الطيارين قارئ شفاه، لما فهم هذه الصيحة، التي صدحت في خنادق ڤِردون قبل سنوات بعيدة، ثم صارت في الحرب الأهلية الإسبانية صيحة احتجاج ضد الفاشية، إلى أن صارت صيحة المعركة لمقاتلي حرب العصابات في أمريكا اللاتينية. أما القبضة!، القبضة المكوّرة التي رفعتها هذه المرأة الفتية في ظل الجناح الذي غطاها للحظة عابرة، فلا يمكن عدم فهمها. علماً بأن تيزيانا قد بدت لي خلال الأيام الماضية حذرة باستمرار، بل بالغة الحذر. كانت طوال نهارها تبتلع حبوباً من مختلف الأحجام والألوان، ڤيتامينات، مغنيزيوم، للوقاية من أمراض المرتفعات ووقايةً من آلام المعدة والأمعاء، ولا تني تحذرنا من الفواكه والخضار غير المطبوخة، كما كانت تصفّي وتعقم حتى

ماء الزجاجات المختومة. أما الآن فقد رفعت قبضتها في وجه الطيارين الأربعة. No parazán!.

ضحك صديقها. وللوهلة الأولى ضحكت أنا أيضاً. فأنْ تهدد سرب مقاتلات بقبضة يد، كان أمراً مؤثراً لغرابته ومضحكاً، وينطوي في الوقت نفسه على شجاعة قتال طواحين الهواء. إن ما تجاوزَنا محلقاً فوقناً بجنون، كان صعب المنال مثل شهاب، ولكن من ثم، وكأن قبضة تيزيانا قد أخافت السرب حقاً، خفتَ الدوي.

حلقت المقاتلات فوق جدار سدِّ سان سِباستيان بانحناءة طويلة وبدت متجهة نحو پوتوسي، عندما انفصلت إحداها عن السرب فجأة، والتفت على نحو حادٍ عائدةً نحو ضفتنا. تأخرنا حتى صدّقنا أخيراً أننا نحن هدفَ هذه العودة. انقضت الطائرة الآن من الشمس مباشرة لتتحول بتحليق منخفض نحونا. كان زجاج القمرة يعكس أشعة الشمس التي تغشي البصر، ولم يكن من الممكن تمييز خوذةٍ أو وجه عبره.

قال صاحب مطعم الفطور إن اسم Potosi مستمدٌ من كلمة Pútuqsi في لغة كِتْشوا، لغة سكان جبال الأنْدِن، ويعني ضجيج.

Pútuqsi: تغلغلت هذه الكلمة في نفسي في هذه الثواني، كاسم طال البحث عنه عبثاً، وعاد أخيراً على نحو عفوي إلى ذاكرةِ رجلٍ نَسَّاءٍ، عندما تقطَّع هدير الطائرة الذي يصك الآذان، بطرقاتٍ معدنيةٍ على مقربة من دربنا، أخذت تثير فجأة زوابع ترابية وغبارية عالية، مثل صافرات أرغن غبارية

تذروها الريح قبل أن تبلغ مداها.

كانت تيزيانا أول مَن أدرك ما يجري: إنه يطلق النار! يطلق النار علينا، إنه يطلق النار!

فجأة صارت ساقاي هلاميتين وطريتين وبلا عظام. أردت أن أركض، أردت أن أتجنب الطلقات التي تبلغ هدفها أسرع من الصوت. لكن ساقيَّ كانتا عاجزتين، فبقيت واقفاً في مكاني هكذا.

البيولوجي... رأيته يركض. لكن الغريب في الأمر هو أنه لم يهرب نزولاً، بل أسرع نحو أعلى المنحدر، لاهثاً الهواء القارص المنهِك.

تيزيانا كانت الوحيدة التي ارتمت أرضاً وصاحت: انبطحا، هيا انبطحا! انبطحا!

انبطاح، على هذه الأرض الباردة العارية من أي شجرة أو شجيرة لتختبئ وراءها! بين خصل حشائش لا يزيد ارتفاعها عن عظم الكاحل.

انبطح يا غبي!

لاحقاً، بعد ايام على الحادث، ونحن في طريقنا إلى بحيرة تيتيكاكا، تجادلنا حول ما إذا كان الهدف الثابت، سواء كان مختبئاً أم لا، أصعب من الهدف المتحرك، بالنسبة لرامٍ يطير بسرعة جنونية، وهل الهدف المنبطح في أرض عارية أصعب من هدف هارب؟ ألا ينبطح الجنود دائماً أرضاً، فيما يتراكض المدنيون الأبرياء؟

ولكن مهما كنا فعلنا أو تركنا في ذلك الصباح التموزي،

لكان متأخراً، بل متأخراً جداً، لو أن الطيار الرامي لم يخطئ هدفه.

غادرنا المدينة في اليوم نفسه على طرق جانبية. ولكن، لا أثناء رجوعنا إلى پوتوسي ولا خلال الأسابيع التالية في الپيرو وكولومبيا، تمكنتُ من تذكر متى أطعت أمر تيزيانا وانبطحت على الأرض الجرداء والشديدة البرودة رغم حدة الشمس. غير أن ما جرى عقب ذلك، بات غير قابل للنسيان، رغم أنه لم يستمر أكثر من لحظات قليلة.

أحسست ببرودة الأرض وبضغط أحجار باردة على صدري، ورأيت ظل الطائرة المدوية ينطلق مسرعاً على المنحدر، وفجأة رأيت جُعلاً يشق طريقه أمام عيني من بين خصل الحشائش التي لا يتجاوز ارتفاعها أصبعاً. يبدو أنه قد أخفق في محاولة طيران بجناحيه المزدوجين واصطدم بعيدان ساقطة عرْضاً، وها هو ينجح أخيراً في التسلق عالياً بجناحيه العلويين الخضراوين كالزمرد، ليسعفهما بجناحيه الجلديين التحتيين المخططين بعروق سوداء، ليحلق في الهواء. وبغض النظر عن كل ما يحدث في العالم الذي تحكمه ظلال طائرات مقاتلة مسرعة، حيث العمالقة يدوسون أمثالَه دون أن يلحظوا ذلك، رفَّ بأجنحته في قوسٍ قرب أذني، إلى درجة أني التقطتُ ضجيج طيرانه الخافت حتى في خضم دوي المقاتلة. كنت منبطحاً عند مخبئه المهجور بين الحشائش دون جرأة حتى على تحريك عيني. وبعدما اختفى من مجال رؤيتي وهو يئز ويلمع في ضوء الشمس، بدت لي خصل الحشائش اليابسة

فجأة كملجأ، كمخبأ منقذ، كما في طفولتي، عندما كنتُ أوقف أشخاص ألعابي الصغار بين الحشائش والطحالب، التي تتحول إلى غابات كثيفة، يمكن للمرء أن يتقلص داخلها بحيث يضل طريقه بين نباتات ذنب الخيل، وقدم المهر، وسن الأسد العملاقة.

هذه الغابة البكر كانت المنقذ! أردت أن ألجأ إلى أدغالها، وأحسست بالحياة، بقابلية الحركة تدب في ساقيّ مجدداً، بحياتي وبخفقان نبض قلبي، عندما أحسست بشيء يدفعني في كتفي، بشيء يصيبني.

كانت تيزيانا. عملاقة تقف فوقي وتخاطبني من ارتفاع مدوِّخ إلى غابتي البكر، إلى عالم الجعل، عالمي. يمكنك النهوض، قالت، الطائرة ذهبت.

●●●

شاطئ موحش

رأيت رجلاً عجوزاً حليق الرأس على شاطئ رملي قرب الحدود، التي تمتد لا مرئية عبر الغابة المطرية، بين ولايتي ساو پاولو وريو دي جانيرو في البرازيل. Praia Brava أي الشاطئ الموحش مكان لا يمكن بلوغه إلا على درب طيني ينحدر على حافة الجبل بحدة إلى الأطلسي، ويدين باسمه إلى الموج القلّاب الذي يندفع هادراً مغلفاً قوس الشاطئ بالرذاذ. ويبدو أن العجوز الحليق كان يصرخ في وجه هذه الأمواج.

كان يجلس على صندوق من الصفيح مغطى بحشائش وأوراق نبات، تحت مظلة شمسية تهدد بالسقوط جانباً مع كل هبة ريح في قيظ هذه الظهيرة، وكانت ثيابه ملائمة للذهاب إلى الكنيسة أو إلى حفل. كان يرتدي بدلة سوداء متجعّدة، وقميصاً أبيض بياقة عريضة مفتوحة تُظهِر عنقه المتغضن أكثر نحفاً، وربطة عنق سوداء. لكنه كان يخبط إيقاع صرخاته على الرمل بقدمين حافيتين. إلى جانبه كانت هناك زجاجة ملبسة بالقش، وقبعة من القش مقلوبة وفي داخلها كيس بلاستيكي. وكان ثمة كتاب مفتوح على ركبتيه، قد يكون كتاب صلوات أو كتاب أغان أو الإنجيل.

دون أن يولي الكتابَ أي نظرة، كان يرفع صوته بيدين مفتوحتين بصلوات أو التماسات، مخاطباً كومة رمل صغيرة عند قدميه الحافيتين، أثقل عليها بحصاتين صورةً فوتوغرافية، كما على مذبح. لم تكن الصورة أكبر من ورقة لعب، وهي لقطة نصفية لامرأة. ولم يكن من الممكن معرفة ما إذا كانت من الأحياء أم الأموات.

استمر صراخ العجوز نحو خمس دقائق وربما أكثر، في وجه الصورة، في وجه المحيط، ثم صمت لبضع لحظات، انحنى ويداه ما زالتا مفتوحتين على الكتاب فوق ركبتيه وقبَّل الصفحتين المفتوحتين. ثم تناول من جيب سترته الداخلي مغلفاً بني اللون، أخرج منه صورة ثانية بدّل بها الأولى الموضوعة على كومة الرمل أمامه، وبدأ صراخه من جديد.

رأيته يبدل ست صور بالتتالي على المذبح الرملي، يناشدهن ثم يعيدهن إلى المغلف. بعد الصورة الأخيرة أطبق الكتاب، وأخرج من الكيس البلاستيكي فردتي حذاء ودس فيهما قدميه الحافيتين. ثم جلس معتدل القامة ساكناً دون حركة، حتى عندما قلبت هبة ريح مظلته وحملتها بعيداً.

كنت على وشك أن أترك مكاني كمراقب حيادي، لأركض وراء المظلة المتقافزة بعيداً، عندما خرج صبي فجأة من ظل الغابة المطرية وسبقني إليها. بلغها قبل أن تبللها ألسنة الماء المزبدة التي يبتلعها الرمل، فأمسكها وطواها وثبتها تحت إبطه واتجه نحو العجوز متراقصاً ضاحكاً، متتبعاً الأثر المتقطع الذي تركته المظلة في الرمال.

عندما وصل إليه مدّ له العجوز يده دون أي كلمة، تركه ينهِضه عن الصندوق ووقف منتظراً، فيما رمى الصبي المظلة كرمح في الرمل، وألبس العجوز قبعته القشية ونفض بعض الرمل عن كتفيه، وشرب جرعة كبيرة من الزجاجة. ثم لف شريطاً مهلهلاً حول المظلة ووضعها على كتفه، وأمسك العجوز من يده وقاده بحذر، كأنه أعمى، إلى الغابة المطرية. عندما اختفى كلاهما في الغابة كان العجوز يضغط كتابه بشدة على جسمه.

بقيت وحيداً على الشاطئ الموحش، جلست على سبيل التجربة على صندوق الصفيح، وصرخت آمين، آمينِ! في ضجيج البحر. لكنني سرعان ما انسحبت إلى الظل الشحيح لشجرة لهبٍ واستلقيت على الرمل راغباً في النوم، عندما خرج الصبي من الغابة ثانية، حاملاً لوح ركمجة أحمر فاقعاً ومملوءاً بالخدوش.

ودون أن يأبه لي، ودون أي تردد ركض داخل الموج، رمى نفسه على لوحه فوق الزبد الفوَّار وأخذ يجدِّف بيديه عبر الموج القلاّب باتجاه الأمواج الجبلية: أمواج هائلة تندفع من الأفق كما علا إيقاع بندول السرعة نحو راكب الموج، وكأن ليس ثمة ما يمكن أن يقف في وجهها أو يكسرها، لا شعب ولا غور ولا شاطئ.

●●●

رجل على النهر

رأيت رجلاً نائماً على مرجِ ضفةِ نهر التراون، الذي يجري عبر سفوح الألب الجنوبية ليَصب في الدانوب المتجه نحو البحر الأسود. كان النائم يرتدي لباس سباحة مخططاً بالأزرق والأسود ومستلقياً على بطنه على العشب، ورأسه على منشفة حمام مطوية. ومن حوله، لصقه تقريباً، جلس خمسة أطفال ساكنين، يرتدون ثياباً صيفية، وبيد كل منهم قرطاس ملفوف من أوراق دفتر، مثل كأس بمحتوى ثمين.

في حال تحرك النائم أثناء حلمه ليغير وضعيته، ليعود مع شخرة قصيرة للاستلقاء على بطنه ثانية، كان الأطفال- وهم ثلاث بنات وصبّيان- يلوون وجوههم ويرفعون أكتافهم كاتمين ضحكاتهم، ولكن دون أن ينبسوا بكلمة.

لولا صوت القرقرة الصادر على نحو غير منتظم، عن اصطدام ماء النهر بصخرة ناتئة على الضفة لكان السكون تاماً، بحيث كان بالإمكان، وبصورة واضحة، سماع الأبقار يعلفون الحشائش على مرج الضفة البعيد نوعاً ما.

لكن هذا السكون كان يقطعه الاقتراب الهادئ والهادف لواحدة من ذباب الدواب، لتحط على كتف أو ظهر أو ذراع

النائم: عندها كانت تهوي عدة أيدٍ على الجلد الذي لوحته الشمس، ولأن كل واحد من حراس نومه الصغار كان يريد أن يكون الأول، كانت تهوي أحياناً يدان أو ثلاثة على اليد التي غطّت الطريدة. ومن ثم كان الصياد أو الصيادة يضع الذبابة القتيلة في قرطاسِهِ. وحتى الآن لم يكن قد امتلأ سوى قرطاس واحد.

على الرغم من اللطشات المفاجئة بدا النائم وكأنه يتابع حلمه بعينين مغمضتين. ولم يستيقظ إلا عندما اقتربت إحدى البقرات منهم، إلى درجة أن غطّاهُ ظلها، فرفع رأسه وتثاءب وتمطى، ثم اعتدل وجفف الشعر المتعرق على جبهته.

وإذا كان الرجل قد أمر الأطفال بالصمت قبل نومه، فقد رفعت حركتُه هذا الأمر، فأخذوا يتكلمون في وقت واحد، ويحكون ويضحكون وكأنهم قد تحرروا، فمدوا أيديهم بالقراطيس الورقية للرجل المستيقظ. فتح الرجل راحة يده الكبيرة وأخذ يُفرغ عليها الذبابات ويعدها، قرطاساً تلو الآخر. ذكر العدد ورمى القتلى بحركة واسعة من ذراعه، مثل حفنة بذار، في خندقٍ مجاور لنهرٍ مملوء بالماء. فقامت بعض اليعاسب بمناورات طيرانٍ سريعةٍ وانقضت على البذار المتلاشي بسرعة.

ثم تناول الرجل من ثيابه لفافتين من قطع النقود الصغيرة، وأخذ يعد، لكل ذبابة مُنعت من امتصاص دمه، قطعةً في أيدي الأطفال التي مُدت نحوه، وأولاها أكثرها غنائم. وبعد أن انتهت عملية العدّ والدفع، غسل الأطفال أيديهم في النهر

ثم جلسوا على لسان خشبي مهلهل لربط القوارب، يراقبون الرجل المستيقظ الذي نزل في النهر حتى ركبتيه، وكيف أخذ يغرف الماء البارد بيديه ويرش به صدره ووجهه متأوهاً.

خاض الرجل في النهر حتى بلغ الماء خاصرتيه، محاطاً بذباب الدواب وجحافل البعوض ويعسوب ملكي واحد، وترك نفسه يسقط على ظهره، ثم استدار نحو الأطفال لاهثاً ورفع يده ملوحاً لهم، قبل أن يندفع بحركات قوية سابحاً وراء قتلى ذباب الدواب.

●●●

سيد الأبطال

رأيت خمس شواهد من المرمر الأبيض، كلها ضيقة وبطول قامة رجل، وقد نُقشت عليها حروف يونانية ولاتينية مطلية بالأسود. كانت منتصبة بشكل مستقيم ومتقارب ومثبَّتة في الأرض الصخرية، في نهاية طريق جبلي خالٍ من الأشجار، وتفوح منه روائح زعتر بري ومرامية، في جزيرة إيوس اليونانية. عند الشواهد ينعطفُ من الطريقِ دربٌ صاعد برفقٍ حتى قمة هضبة، توَّجها ضريحٌ مربع الشكل من جدران منخفضة مبنية من حجارة سوداء، ضريح متداعٍ، مدخلُه الموجه نحو الغرب يقدِّم إطلالة مديدة، وكأنها منظرٌ بعين طير، على الزرقة القاتمة لجنوب بحر إيجة، وعلى جزر مجاورة غير مأهولة على ما يبدو، وعلى الأرض الجبلية المحيطة، غير المزروعة والفارغة من السكان.

كانت جدران الضريح الخشنة عارية من أي اسم أو حفر أو تزيين نافر يخلد عبر الزمن. وهكذا لم يكن ثمة فرق بين بناء الضريح الذي لا سقف له وبين أطلال اسطبلات الغنم والماعز الكثيرة، والموجودة على أطراف الحقول والمراعي المتدرجة المهملة، التي تخلى عنها أصحابها للأدغال. ومثل المداخل في جدران أطلال الاسطبلات، كانت عَرَقَة مدخل

الضريح المشكَّل من ثلاثة ألواح خامٍ من الحجر الكلسي، منخفضة جداً، بحيث يصعب حتى على رجل قصير، أو حفار قبور أو زائر حزين دخوله إلا منحنياً جداً. ولكن على خلاف مداخل الاسطبلات المردومة ذات السقوف المنهارة، كان المدخل هنا محصَّناً- وليس مغلقاً- بكسورِ لوحٍ مكتوبٍ تبدو غير مترابطة، لكنها بقايا كتابة محطمة.

الشواهد البيضاء الخمس التي لا تبعد أكثر من بضع مئات من الخطوات عن الضريح والتي لا تُشاهَد منه، هي وحدها التي ما زالت تحمل إشارة مكتوبة إلى صاحب الجثمان في الهضبة الصخرية، ما زالت تحمل مقبوساً منحوتاً بخمس لغات، أولاها لغة البلد، من كتابات المؤرخ والمناضل ضد الطغيان هيرودوت الهاليكارناسي، الذي دوَّن في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح قناعة معاصريه:

في هذا المكان يواري الترابُ
الرأسَ المقدسَ
لسيد الأبطال
هوميروس الإلهي

كنتُ قد وصلتُ إلى هضبة القبر متجاوزاً سلسلة من الخلجان العميقة في الصخر، ثم متسلقاً منحدراً شوكياً لا درب فيه. وبعد أن خلفت ورائي صف الشواهد وصعدت الدرب المؤدي إلى الضريح، جلست على حجر في الجانب

المشمس من البناء وغسلت بماء الشرب من زجاجتي آثار الدم المتشابكة التي خلفتها الأشواك الكثيرة على ساقي. تقع قمة الهضبة على ارتفاع نحو مئة متر أو أكثر قليلاً عن سطح البحر، معرضة لنسائم المساء التي تشتد لتعود فتخمد، غير أن الشمس لم تفقد شيئاً بعد من طاقتها تلك التي لفحت بها بناةَ السفن في العهود القديمة، وهم يقطعون جميع أشجار الأرض الجبلية، فلم ينبت من بعدهم سوى أقزام نباتٍ بارتفاع الركبة، كالعرعر الفينيقي والمرامية والزعتر وأوراق الفراش البلسمي، إضافة إلى أعشاب الحرق، ولكن لا أشجار ولا ظلال. كانت المنحدرات الجرداء تعبق بروائح أزهار نباتات شوكية أو من ذوات الأوراق الوبرية والإبرية، تحمل الريح أريجها عبر الشطآن الصخرية العارية من أي نبات.

أحسست بحرارةِ حجارةِ الضريح السليمة في ظهري، ونظرت إلى المشهد المفترض أن يمتد دائماً أمام عيني أعظم شعراء الغرب تأثيراً، الميت الموقر:

في الشمال الغربي تقع ناكسوس، جزيرة أرياذْنِه، الأميرة الكريتية التي رُفعت إلى مصاف الآلهة، والجزيرةُ جبلٌ ناءٍ يبدو مهجوراً وتغلفه طبقات من الضباب. أمامها، حسب خارطتي، على مسافة ستة أميال بحرية من الضريح لا أكثر، تنهض من خِضم الموج العالي جدران هراقليا الصخرية، نسبة إلى هرقل الذي مزّق نفسه واحتل مكاناً في الأولمب. في الأيام الصافية يُفترض أن تُرى في الشمال الشرقي مرتفعات جزيرة أمورغوس، ولكن في هذا المساء من شهر آب / أغسطس لا

يُرى هناك سوى وشاحات سديمية، إذْ امتزج الماء والسماء الصافية في خواءٍ أزرقٍ باهتٍ. أما بحر إيجة العظيم والمهيمن، والذي لا تحركه الرياح الغربية إلا بخفة، فإنه يمتد أمام كل أرض، مرئية كانت أم لا.

مع أصوات الريح سمعت خليط أصوات كثيرة ارتفعت منذ آلاف السنين وحتى الآن تطالب بأن يكون الإنسان الملقب باسم هوميروس خالداً، لأنه لم يحيَ قط. إذ لا يمكن لإنسان، لشاعر فرد أو لراوٍ أن يمتلك القدرة على خلق هذه الجحافل من جيوشٍ وأبطالٍ وآلهة ومحاربين وعاشقين ومقاتلين وحزانى، وأن يمتلك الطاقة على التغني في أشعاره بحرب طروادة ورحلات تيه أوليس بما لا يحصى من أشكال الإيقاع والجرْس الصوتي والتلوين اللغوي، لا، لقد كان هذا إبداع سلسلة من شعراء مغنين بلا أسماء، أو بهتت أسماؤهم إلى شبح أطلق عليه الخلَف اسم هوميروس. ولا يمكن لضريح مبني قبل ألفي أو ثلاثة آلاف عام في إيوس أو في أي مكان من ساحل آسيا الصغرى أو من عالم الجزر اليونانية سوى أن يُذكِّر بجوقة من الرواة الذين غربوا.

فكرتُ بكثيرين من لصوص القبور الذين يكادون لا يختلفون عن منقبي الآثار والمغامرين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومنهم مثلاً الهولندي الأمير پاش ڤان كرينن، الذي قام في عام 1771 برحلة بحثاً عن جثة أعظم شعراء الإنسانية، فقلب هذا المكان، وأقسم لاحقاً على أنه قد كشف عن هيكل عظمي، تحول أمام عينيه إلى غبار تساقط على الأرض.

عندما تخفت نسائم المساء لبرهة ولا يرتفع صوت الموج المتكسر على الشاطئ إلى مستوى الضريح، كان يسكت أيضاً لغط الأصوات حول الشاعر الميت. حينها يسود السكون، بحيث يُسمع طنين ذبابة رغم المدى البحري الشاسع، وهي تتفحص الضريح حجراً فحجراً، قبل أن تناور بجنون على الصخور الدقيقة والرقيقة لتهبط من ثم على آثار الدم على ساقيّ.

حينما اقتربت الشمس من الأفق وأخذت تفقد من شكلها ووهجها ليغرق القرص الأحمر أخيراً في السديم الرصاصي، سُمع من اتجاهٍ ناءٍ ما، صوت هدير، أخذ يتصاعد ويتضح تدريجياً، صوت كالدوي الصادر عن كثير من المحركات المائية أو البرية، أو كدوي سرب طائرات في أعالي الجو الخالي من الغيوم. وحتى عندما تبيّن أنه ليس صوت ذبابة طنانة في الغسق، وأنه قد ابتلع، حتى أنين هبات الريح على حجارة الضريح، لم يكن هناك لا في الجو ولا في البحر ولا بين الهضاب الصلعاء لأرض الجزيرة الجبلية ما يدل على مصدر الصوت.

ولكنني عندما لجأت إلى المنظار المقرب، وعلى مسافةٍ بعيدةٍ جداً وملغّزة، مقارنة بدويها الهادر، رأيت فرقاطة ذات مدفعين رشاشين تابعة لسلاح البحرية اليوناني باتجاه الجنوب الغربي وقد تجاوزت هراقليا ماخرة البحر وهي تنثر تيجان الزبد على الجانبين وكأنها تزين مضجعها لرقاد الليل.

على الرغم من مقاومة الريح والأمواج تابعت الفرقاطة طريقها بعزم، رغم أني حتى بالمنظار لم أر أحداً على متنها،

وكأنها تجر وراءها قلقاً متنامياً، يشمل السماء والأرض معاً، ظلمة صاعدة من أعماق البحر. ظلمة بدأتُ أتبيّن فيها فجأة بياضاً ينفجر، يتلوه بياض آخر، وآخر - أشرعة! شراع أبيض وراء شراع أبيض، أبيض كالثلج، وأخذت تمتلئ بهواء الليل لتشكل أسطولاً: أسطول سفنٍ محملة بمقاتلين مسلحين وعبيد للتجديف في ثلاثة صفوف فوق بعضها بعضاً، ولفك وتحريك الأشرعة المهيبة، متابعةً طريقها بقيادةِ ربابنةٍ من أمثال أغاممنون وأوليس وأخيل نحو مدينة شاء القدر دمارها، وإلى معارك في جزر الحب والبربرية والغربة المخادعة، التي لا عودة منها إلا دموياً.

●●●

درب الصليب

رأيت رجلاً يحمل صليباً على درب بين حقول، يتجه نحو سلسلة هضاب مغطاة بنبات اليُكّة والصبار. كنت في طريقي إلى مدينة سانتا فِه في ولاية نيو مكسيكو الأمريكية، وتوقفت لكي أراجع خارطتي، ولأعرف المسافة التي تُهْتُها عن طريقي الرئيسي، وإلى أين يوصلني هذا الطريق الفرعي. والدرب الزراعي يتفرع من هذا الطريق الفرعي وينتهي لا شك في الصحراء، لكنه لم يكن مرسوماً على الخارطة.

رأيت بالمنظار المقرّب أن حامل الصليب يحمل على رأسه تاج شوك أيضاً، وأن الدم يسيل على وجهه. كان يتقدم موكباً دينياً من نحو عشرين شخصاً، يرتدون قمصاناً أو فانلاّت بيضاء، ويتحركون ببطء باتجاه سلسلة الهضاب، ببطء شديد، بدا معه الصليب المصنوع من كتلة هائلة من الخشب الثقيل وكأنه بلاستيكي خفيف، وكذلك تاج الشوك.

على الرغم من الشعور المقبض الذي اجتاحني لرغبتي بالانعطاف مجدداً في اتجاه خاطىء، غلبني الفضول أخيراً وانعطفت إلى الدرب الزراعي وقدت السيارة خطوة فخطوة باتجاه الموكب الديني. يُحتمل لو أني أوقفت السيارة

عند المنعطف واقتربت من الموكب مشياً، لكان الأمر أقل لفتاً للنظر. لكني لم أرغب في ترك مخبئي وحصني- وهو كديلاك ذات لون أحمر خمري، عُرضِت علي في مطار ألبوكيرك باعتبارها مطورة وملائمة وآمنة بشكل خاص وبسعر مناسب-، إلا أني أدركت متأخراً أن هذا الدرب المليء بشظايا الحجارة وبالمطبات العميقة لا يسمح لي بالدوران في حال محاولتي الهروب.

وسرعان ما لم أعد بحاجة إلى منظاري المقرب لأدرك أن وجودي هناك لا يلقى ترحيباً. كثرت وجوه رجال الموكب التي التفتت نحوي أو نحو زوبعة الغبار التي أثرتها رغم تقدمي البطيء. وانفصل عن الموكب رجل سمين كان يسير وراء حامل الصليب، وأخذ يهز في وجهي لافتة بحركة لا يمكن إساءة فهمها مطلقاً: اذهب من هنا! وحامل الصليب هو الوحيد الذي بدا أن لا طاقة لديه ولا نفس لأي حركة رادعة تجاهي، ولو بنظرة.

توقفت على مسافة ظننتها آمنة، ترجلت ورفعت ذراعي عالياً كمن يبغي الاستسلام. كان الموكب لا يزال على مسافة مني، لا تسمح بالتفاهم إلا صياحاً، لكنها تكفي لأقرأ ما كتب على اللافتة بحروف ثخينة: **ي ن م ي أي يسوع الناصري، ملك اليهود.**

من دون استجابة لحركتي، ناول السمين اللافتة إلى رجل واقف بجانبه، وانحنى بصعوبة انحنى ليتناول حجراً، رماه باتجاهي. كان الحجر بحجم قبضة اليد تقريباً وثقيلاً لرمية

بعيدة، فسقط على مسافة ثلاثة أو أربعة أمتار مني، مسبباً فقط زوبعة غبار، لكنه دفعني للعودة إلى سيارتي فوراً. عندما أدرت المحرك وسمعت صوت طلقة، ظننتها طلقة نارية. ولكن تبيّن لاحقاً أنه حجر ثان رماه السمين أو مشارك آخر في الموكب نحوي فأصاب غطاء سيارتي الكديلاك الجميلة.

الهروبُ بالرجوع إلى الوراء كان أمراً عسيراً. لم أستطع التعرف مبكراً على جانبي الدرب الكثير الانعطافات عبر الزجاج الخلفي، بسبب أكوام الحجارة المتناثرة هناك، فسقتُ السيارة عبر وفوق جميع المعوقات. وأخيراً وصلت إلى الطريق الاسفلتي ورأيت عبر المرآة الخلفية أنه لم يتبق من الموكب سوى غمامة حمراء تغلفه.

حسب خارطة الطرق كان علي أن أتجه يميناً، أي نحو الجنوب إذا أردت بلوغ طريق الولاية لأصل إلى سانتافِه. وهذا هو ما أردته بأسرع ما يمكن. سقت عبر أراض خالية من البشر وكثيرة الحجارة، لكن حامل الصليب وحوارييه، أم تراهم كانوا مُحضريه؟، لم يغيبوا عن بالي قط، يقطعون أي فكرة جديدة مثل عواء نفير الصيد. لا بد أن سيارة دورية الشرطة كانت تلاحقني منذ فترة. ما كان يجوز أن تفوتني رؤية الإشارة الضوئية بالمرآة الخلفية، فهي واضحة وتغمز بالأزرق والأحمر باستمرار. لكنها فاتتني، وما علي الآن سوى إطاعة الأوامر التي تأتيني عبر مكبر صوت سيارة الدورية: توقف. افتح النافذة من جهة السائق. ضع يديك بصورة مرئية على المقود. انتظر تعليمات أخرى. ناولت وثائقي للمساعد في الشرطة

عبر النافذة، وبعد أن راجعها لم يبدُ على وجهه أي تعبير، سلباً أم إيجاباً، لكوني قادماً من أوربا. بل سألني: مَن أريد أن أقتل بسرعتي الفائقة هذه، نفسي أم مستخدِمي الطريق الآخرين؟

- هنا، لا يوجد أحد، أجبته.

- وهل أنا لا أحد؟ قال: أنت لا ترى أحداً، وفاتتك حتى رؤيتي أنا. مَن فاتتك رؤيته أيضاً؟ أهكذا يسوق الناس سياراتهم في أوروبا، بتهور؟

فيما كنت أفكر بإخباره بلقائي بالموكب في الهضاب، محاولاً بذلك تفسير عدم انتباهي، ولأخفف من التوتر، أجبته على أسئلته: ما الذي أبحث عنه في هذه الصحراء؟ وإلى أين أريد الذهاب بهذه السرعة؟

تشيمايو! ردّد المساعد فجأة بلهجة مختلفة تماماً، بل بلهجة ودية. أنت قادم من تشيمايو إذاً؟ هل شاركتَ في الحج؟

نعم، كنتُ في تشيمايو، في مركز الحجيج القادمين من مكسيكو وأمريكا اللاتينية، وحيث يلتقي في كل جمعة حزينة قبل عيد الفصح آلاف الحجاج، من سانتافِه ومن ألبوكيرك ولاس ڤيغاس ليركعوا بعد وقوف طويل في الصف أمام حفرة في الأرض عند كنيسة تشيمايو المبنية باللبن، ليملؤوا منها حفنات تراب أحمر في أوعية جلبوها معهم. يقال إن التربة الحمراء هذه تشفي من الأمراض الخطيرة وتطرد الشيطان ولها تأثير إعجازي في الحقل اللا محدود للأماني البشرية.

وأنا أيضاً كان معي على الكرسي المجاور للسائق قدح مملوء بتربة الكنيسة الحمراء. مضيفي في سانتافِه رجاني إبقاءه معي

عندما انطلقت صباحاً في نزهة الجمعة الحزينة إلى ريو غرانْدِه وتشيمايو. أمضيت في عز قيظ الظهيرة أكثر من ساعتين وأنا أتقدم مع المصلين خطوة فخطوة حتى جاء دوري في الانحناء من أجل حفنة من هذه التربة. وعلى طريق العودة ضللت الطريق وأنا أحاول تجنب تيار المصلين اللامتناهي والذي ما زال يتحرك باتجاه المكان المقدس. رأيت أناساً يحْبون على ركبهم متجهين إلى هدفهم، فيما كان آخرون يصلون بأصوات عالية، يتوقفون بين الحين والآخر ويرتمون على الأرض ليشكلوا بأذرعهم الممدودة صلباناً. وأمام ووراء الحجاج كانت تزحف قوافل سيارات مزدانة بصور مريم والمسيح.

أريت المساعد قدحي المليء بالتربة.

قذارة شافية! قال وأضاف إنه ما زال عنده طاسة منها، وأنه قد حج حتى الآن سبع مرات. من ألبوكيرك إلى تشيمايو. مشياً؟

تسعون ميلاً مشياً؟ هناك بعض مَن نذروا أن يفعلوها في الجمعة الحزينة. في حين أنه قطع المسافة مع صديقين من نادي هارلي داڤيدسون للدراجات النارية. أما في هذه السنة فقد كان عليه البحث عن بعض المخبولين، أعضاء طائفة دينية تسمي نفسها التائبين. وفي كل جمعة حزينة يختارون متطوعاً من صفوفهم ويصلبونه، نعم، يثبتونه بالمسامير على الصليب! هناك أسطول من سيارات الدورية يحاول منعهم من ذلك في كل سنة، لكنهم بطريقة ما يحققون ذلك، إما في أحد الوديان أو على إحدى الهضاب في الصحراء وإذا اضطروا، ففي

مستودع للحبوب.

إنهم لا يتعمدون طبعاً أن يموت المصلوب، لكن هذا حدث، بعد ساعات على الصليب، مات المصلوب. فإذا نجحنا في ضبط أحد مواكب التائبين وأنقذنا يسوعاً متطوعاً من الصلب، فهناك دائماً بعض المهاجرين غير الشرعيين كعربون. تحت كل صليب يقف بعض المهاجرين غير الشرعيين. بالنسبة إليهم على ما يبدو لم تكن حياتهم درب آلام بما يكفي.

عندما أعاد لي وثائقي عبر النافذة، ابتسم وتمنى لي نهاراً طيباً، وقال إن علي الانتباه إلى سرعتي حتى في الصحراء، وأن أفكر في أن الإنسان في الجمعة الحزينة لا يموت على الصليب فحسب، بل في سيارة كديلاك أيضاً.

مع أزيز المحرك الإلكتروني الذي أغلق زجاج النافذة لمتابعة الرحلة والحماية من القيظ سمعت المساعد يضيف فجأة شيئاً إلى كلامه. كان صوته خافتاً وكأنه لا يكلمني وإنما يكلم نفسه، ولذلك عاد إلى لسان موطنه الذي يقع في مكان ما وراء الحدود المكسيكية: **Vaya con Dios** أي الله معك.

●●●

زيارة من مكان بعيد

رأيت عازفة أكورديون هندية أمريكية على الرصيف أمام محل مجوهرات في شارع ظليلٍ من مدينة مكسيكو. جلست الفتاة متربعةً ومستندة بظهرها إلى غرانيت واجهة المحل الأسود الملمَّع، وبدَت كأنها تعزف في وجه الضجة المعدنية الصادرة من أعماق حفرة بناء. والحفرة المسوّرة بشرائط بلاستيكية صفراء، كانت مفتوحة بعرض الشارع تقريباً، تاركة ممراً ضيقاً حراً عند واجهة المحل، يتدافع المشاة العابرون عليه. ومن كان يتابع طريقه من جانب محل المجوهرات، سيضطر إلى تخطي عازفة الأكورديون والقماشة الملفوفة على شكل عشٍ موضوعٍ على الأرض إلى جانبها وفيه بعض قطع النقود، وسيكون في هذا الزحام منهمكاً جداً بتجاوز قطعة القماش أو حقيبة الأكورديون إلى جانبها، بحيث لا يبقى لديه وقت لإلقاء نظرة على محتويات واجهة المحل. هناك، وفوق نعشٍ مملوء بعقود اللآلئ والأساور والمجوهرات والساعات والمشابك وأزرار الأكمام حتى الطفح، كانت تسبح في الهواء جمجمة مذهبة بصفي أسنان كاملين بلا أي ثغرة ومفضضة. في فجوتي العينين كان يلمع حجران كريمان بلون طحالب خضراء، قد يكونان من الزمرد

أو من زجاج ملون مصقول لا أكثر.

في طريقي من محطة القطارات الشرقية التي وصلتها صباحاً قادماً من أوكساكا رأيت واجهات مخابز ومحلات معجنات وقد عرضت فيها هياكل عظيمة وجماجم ونعوش من شوكولاتة وسكر معقود ومرزبان، وواجهات محلات أثاث تعرض عائلات كاملة من الهياكل العظمية مع كلابها وقططها من الهياكل العظمية أيضاً في مطابخ وغرف جلوس وغرف نوم في وضعيات تُظهر الحياة السعيدة: هياكل لنساء يرتدين المآزر أو الأثواب، وهياكل لرجال يرتدون بيجامات وأفرولات وبدلات سهرة، وهياكل لأطفال يرتدون بدلات البحارة ويلعبون بدمى عظمية، وهياكل لرضع بحفاضات سوداء. في واجهة متجر سيارات كانت هناك سيارة كابريوليه وفيها هيكلان عظميان بقميصين مشجرين يحدقان عبر نظارتي الشمس بهيكل فتاة بتنورة قصيرة وجزمة عالية الساقين. وفي واجهة متجر كتب على بعد أقل من مئة متر، جلس حاصد الأرواح وهو يقرأ وصفات تنحيف في كتاب طبخ. إنه الأول من شهر تشرين الثاني / نوفمبر في المكسيك والبلد يحتفل بـ: Días de los Muertos أيام الموتى.

في الليالي الخمس بين آخر أيام تشرين الأول / أكتوبر وأوائل تشرين الثاني يجوز للموتى أن يعودوا إلى عالم الأحياء كزوار، وذلك بناء على تقاليد متجذرة في ديانات المايا والتولتيك والأزتيك، ثم امتزجت بشعائر يوم جميع الأرواح ويوم جميع القديسين التي نشرها المبشرون المسيحيون. يُستقبل

الموتى العائدون بالموسيقا والرقص والمآدب الاحتفالية ويشكّل الناس من زهور القطيفة الصفراء الذهبية سهاماً لترشد الزائرين الخارجين من قبورهم وأضرحتهم إلى بيوتهم القديمة. وقد يستخدمون أيضاً زهور الأقحوان والآذريون كإشارات إرشاد موزعة هنا وهناك، ولكن لا بد للزهور المستخدمة أن تكون صفراء ذهبية، لأن هذا اللون هو الوحيد الذي يصل لمعانه إلى عالم الموتى في الأسفل، والأسهل رؤيةً من قبل الموتى الراغبين بالعودة للزيارة. وعلى طول طرق ودروب العودة كانت توجد محاريب مضاءة بشموع والمذابح فيها مغطاة بمأكولات وحلويات وألواح صابون وعطور، لمن يرغب من الزوار العائدين، لا بملء بطنه فحسب، بل بالاستحمام والانتعاش أيضاً بهذه الهدايا، وليعرف قبل كل شيء أنه ما زال في الذاكرة وسيبقى محبوباً دائماً.

توقفتُ عند حافة حفرة البناء، منصتاً إلى عزف عازفة الأكورديون، ومحاولاً تذكر المكان الذي رأيت فيه هذه الفتاة سابقاً، خلال رحلتي من منطقة تشياپاس إلى العاصمة. كنت واثقاً من التعرف على هذا الوجه بهاتين العينين الخضراوين الفاتحتين الغريبتين. كانت الفتاة تتمايل مع إيقاع اللحن وتنظر من فوق الآلة الضخمة بين يديها، متجاوزة إياي والمشاة كلهم، بل وعبْرنا كلنا، وكأنها تقرأ في نوتةٍ معلقة على واجهة محل قبالها متتالياتها اللحنية المجنونة أحياناً. من أين أعرف هذه الفتاة؟

صادف أن كان يوم وصولي إلى مدينة مكسيكو هو يوم

Angelitos أي صغار الملائكة. فبعد المنتحرين وضحايا الحوادث والمقتولين الذين عادوا في أولى الليالي الماضية، وبعد التعساء المنكودين في الليلة الثانية، وبعد الذين ماتوا دون أن يحظوا بمباركة الكنيسة والذين ماتوا حزناً في اللية الثالثة، وبعد الذين ماتوا دون عزاء أسرهم وأقربائهم في الليلة الرابعة، عاد أخيراً في الليلة الماضية، في أكثر الليالي بركة، صغار الملائكة، الأطفال الموتى الذين يجوز لهم البقاء بين ذويهم حتى مطلع الليلة القادمة.

على مذابح المحاريب المخصصة لهم رأيت دمى بثياب بيضاء، وفهوداً من قماش محشو، وأهرامات من الحلويات ودمى بلاستيكية تمثل جنوداً أزتيكيين. فليسعد صغار الملائكة بالدنيا التي غادروها. حتى على الرصيف الذي جلست عليه عازفة الأكورديون نُثرت زهور قطيفة وأقحوان. لكن الأثر الذهبي، الذي قد يؤدي إلى قبرٍ أو مهدِ رضيعٍ أو سريرِ طفل، ضاع عند حافةِ حُفرة البناء.

أوكساكا! ها قد تذكرت. لقد رأيت وجه هذه الهندية الأمريكية في أوكساكا، في لوحة جدارية عريضة ذات ألوان فاقعة، فوق صفوف الزجاجات في مقهى. اثنان من زبانية المعبد كانا في هذه اللوحة، يقودان فتاة نصف عارية على درج هرم. وفي القمة ينتظر كاهن مقنع أمام مذبح حجري مغطى بالدماء. من الواضح أن الفتاة ستكون إحدى الأضاحي البشرية الكثيرة لإطفاء ظمأ الأرباب إلى الدم. فعلى درجات الهرم كانت تسيل خيوط دم كثيرة حمراء قانية نحو صفوف

زجاجات البار. لم تُبدِ الضحية أية مقاومة، بل نظرت بتعبير مشرق من فوق كتفها العاري نحو عالم الأحياء وراءها ونحو الواقفين مثلي إلى نضد البار الطويل تحتها، وكأنها متشربة بإيمان الأزتيكيين أن بانتظار كل ضحية سعادة فردوسية بعد أن يُفتح صدرها على المذبح الحجري بسكين من الزجاج البركاني ويُنتزع قلبها من جسدها.

إن خضرة عيني عازفة الأكورديون، وسمات وجهها تماثل المرأة الطفلة على درجات الهرم، وكأن هذه العازفة في الطرقات قد وقفت نموذجاً لرسام اللوحة الجدارية في أوكساكا. وفيما هي تتابع عزفها مستغرقة، كما لو أنها في حالة نشوة، وفي ثنايا تعبي من رحلة ساعاتٍ بالباص، حلت ألوان اللوحة الجدارية على مشهد الشارع أمام محل المجوهرات، ممتزجة بصور متصاعدة من أعماق ذاكرتي، لموسيقا أكورديون ناشجة تارة ومسترسلة عذبة تارة أخرى، بصورة لم أسمع مثيلها سابقاً.

كانت أعمال الحفر في حفرة البناء قد وصلت إلى عمق تسع وعشرة أمتار من مستوى الشارع الحالي، أي إلى ذلك المستوى الذي كانت مدينة تِنوكتيتلان فيما مضى مزدهرة فيه، وهي عاصمة مملكة الأزتيك التي دمرها الغزاة الإسبان. كانت مدينة تضاهي ڤينيسيا جمالاً، بمعابدها الهرمية وقصورها الباهية الألوان، وبشبكة قنواتها وسدودها وجسورها وحدائقها السابحة وحقولها المزروعة على أطواف خشبية هائلة، تحكمها حركة التيارات المائية في بحيرة موسعة، كانت إحدى عجائب الدنيا، قبل أن يجففها الغزاة المخربون

عدا مستنقع موحل. وفوق أطلال تِنوكتيتلان انتصبت كتلة حجرية هائلة من الكتدرائيات والكنائس والقصور والمتاجر.

وقفت عند حافة حفرة البناء مأخوذاً بموسيقا عازفة الأكورديون، ورغم الازدحام على المعبر المحاذي لواجهة المتجر، كنتُ ربما المستمع الوحيد، عندما خرج التاجر فجأة. سار متجاوزاً العازفة، وغير آبه لها على ما يبدو، واختفى بضع دقائق ثم عاد حاملاً كيساً ورقياً، أخرج منه جمجمتين من المرزبان وقطعة من السكر المعقود وأخرى من الشوكولاته وقدمها للفتاة.

أخذت الأزتيكية الهدايا بيدها اليسرى ودسّت إحدى الجمجمتين في فمها، وتركت الأكورديون بيدها اليمنى يتابع تنفسه وتنهداته، وأومأت برأسها لصاحب المتجر، وهي تعلك الجمجمة، موافقة على ما قاله لها. وبعد أن ابتلعت الجمجمة الثانية تحركت لتنفذ ما طُلب منها لقاء الحلويات، فجمعت قطع النقود من القماشة التي طوتها، ثم وضعت الأكورديون في حقيبته المهترئة، وربطت هذا الحمل الأسود الثقيل بحبلين على ظهرها واختفت بين العابرين على درب زهور الموتى الصفراء الذهبية.

●●●

تغيير القبر

رأيت بقايا جدار على شاطئ مغطى بأغراض جرفها البحر وبحطام خشب. وكان هناك رجل بأفرول أزرق مغبر، يدك بقايا الجدار بمعوله بضربات قوية، ويرمي القطع المتناثرة إلى كومةٍ على الرمل الأسود.

كان الوقت عصر يوم صيفيٍّ غائمٍ في جزيرة روبنسون كروزو الجبلية، الجزيرة المأهولة الوحيدة من ثلاث جزر على مسافةِ ستمئة حتى سبعمئةِ كيلومتر غرب ساحل أمريكا الجنوبية في المحيط الهادي، تشكل أرخبيل خوان فرنانديز. قبل نحو أربعة شهور وبعد هزة أرضية في عمق المحيط دهمت موجة طوفان قرية سان خوان باوتيستا، القرية الوحيدة في الجزيرة. معظم سكان القرية البالغ عددهم ستمئة ما زالوا منذئذٍ مشغولين بإعادة تحويل الحطام إلى أماكن صالحة للسكن. ذهب ضحية الكارثة أربعة عشر فرداً بين قتلى ومفقودين. وكان يحتمل أن يكون عدد الضحايا أكبر بكثير، لو لم تقم فتاة في الثانية عشرة من عمرها عند رؤيتها جدار الموج الرمادي بالإسراع إلى القرية وضرب ناقوس الخطر قبل لحظات من مداهمة الموجة بيوت القرية المنخفضة والقريبة من الشاطئ. ثمة ممر اسمنتي وُضِع قبل سنوات، لإخلاء السكان

في حالة الطوارئ إذا عاد التسونامي ثانية، يمتد من البحر عبر منحدر مملوء بأشجار الأوكالبتوس إلى المرتفع الضبابي المنقذ، قد أدى إلى إنقاذ كثير ممن سمعوا الإنذار.

حطمت الموجة كواسر الموج وجميع قوارب الصيد الراسية وكثيراً من البيوت والمدرسة والمتجر ودار البلدية، بحيث لم تترك سوى الأساسات. ولم يبقَ أحد من سكان الجزيرة بمنجاةٍ من الأذى. والمحظوظ منهم هو مَن لم يفقد أحداً. وفي الختام محت المياه حتى الحدود بين أماكن الأحياء وأماكن الأموات:

الرجل ذو الأفرول الأزرق، كان يشتغل عند سفح جدار صخري على طرف القرية. هناك كان يوجد مدفن، يحفظ تاريخ الجزيرة منذ اكتشافها في القرن السادس عشر حتى موجة الطوفان الأخيرة، ولا بد الآن من إعادته إلى ما كان عليه. لم يرقد هنا أموات الجزيرة فحسب، بل أيضاً ضحايا السفن الغارقة والمعارك البحرية، وبحارة إسبان وإنجليز وتشيليين وألمان جابوا أصقاع المحيط الهادئ، بحثاً عن الحظ والقوة والثروة وقضوا سنوات في عرض البحر، سنوات طويلة، لينتهوا في خليج على حافة الدنيا، حيث لم يجدوا سوى الموت.

بين ما تبقى من قبورهم كان هناك في عصر هذا اليوم إطارات نوافذ وأبوابٍ من بيوتٍ محطمةٍ، وقطع توتياء سطوح، وأرجوحة هوليودية منتزعة من مثبتاتها، ووحدة محرك سوداء من كثرة الشحم، مثل قلب وحشٍ منتزع من

صدره... أما صلبان وشواهد القبور فيبدو أنها قد استبدلت هنا بحطام الحياة اليومية، وأن ضغط الجدار المائي قد عصف بها بعيداً عن مرقد الراحة الأبدية، ورماها بين أساسات بيوت لم يعد لها وجود وسقوف محطمة ودعامات إسمنتية منتصبة في الخواء.

في ساعات عصر ذلك اليوم كنت عائداً من جولة بدأت في سان خوان باوتيستا عبر غابات موحشة وأشجار أوكالبتوس في المرتفعات المحيطة بالجرف الحاد المؤدي إلى هذا الخليج المهجور، هنا اكتشف علماء آثار في إحدى مغاوره، التي تشبه فقاعة مَغْماً بركانية في الجدار الصخري، أدوات ملاحة وفرجاراً تعود إلى القرصان السكوتلندي ألكسندر سِلْكيرك.

كان سِلْكيرك قائد الدفة على سفينة قراصنة بريطانية. وفي عام 1704 حدث نزاع بينه وبين الربان حول عدم أهلية السفينة ذات الصواري الثلاثة للإبحار، بسبب الصدف الذي نخر خشبها. وكان القبطان قد استأجره رئيساً للبحارة، لكنه تخلى عنه وتركه وحده في خليج هذه الجزيرة، حيث أمضى حتى إنقاذه أربع سنوات وأربعة شهور في عزلة تامة أوصلته في بعض الأيام إلى حافة الجنون وفي أيام أخرى إلى شفير الموت. والبشر الوحيدون الذين التقاهم خلال هذه السنوات كانوا بحارة إسبان، رست سفينتهم لجلب ماء للشرب، فتعرفوا في ساكن الجزيرة المغطى بالفراء قرصاناً إنجليزياً وعدواً بحرياً، فأرادوا قتله. لكنه نجا منهم بصعوبة وذلك باللجوء إلى الغابة الموحشة. وبعد أن تحقق إنقاذه من قبل سفينة قراصنة بريطانية

وعادَ إلى العالم المأهول وإلى نمط حياته القديم العنيف، حفَّز مصيره الكاتب دانييل ديفو على كتابة رواية، اعتبرها مؤرخو الأدب الرواية الأولى في تاريخ الأدب الإنجليزي: روبنسُن كروزو.

لكن ديفو نقل مكان عزلة بطله إلى البحر الكاريبي، ورفع من شأنه اجتماعياً، فحوله من قرصان منبوذ إلى تاجر مسافر غرقت سفينته، وبحيلة فنية بسيطة استبدل المرتفعات المنحدرة شاقولياً تقريباً وراء سان خوان باوتيستا والمغطاة بغابات كثيفة موحشة، برياحٍ عاصفةٍ تزوبع عالياً، فوق ذرى يصعب تسلقها. فأي قارئ هذا الذي يرغب بمتابعة بطلٍ في واقعٍ رماديٍّ على جزيرة ذات طقسٍ ماطرٍ، ومهدَّدٍ دائماً بأمواجِ تسونامي مجنونة تتبع انفجارات بركانية بعيدة أو تحركات صفائح القشرة الأرضية ؟ فجزيرة روبنسن كروزو بطبيعتها الخشنة المعرضة دائماً لجبهات منخفضات جوية ولهيجان الباسيفيكي تصلح، حتى في يوم صيفي، لأن تكون منفى، منها إلى مسرح مغامرات استوائي.

على الخرائط البحرية في زمن سِلْكيرك، ولمدة طويلة بعده، كان يشار إلى الجزيرة بأبسط الأسماء الملاحية الذي دشنها به مكتشفها الإسباني القبطان خوان فرنانديز عام 1574: الجزيرة الأقرب إلى اليابسة **Isla Más a Tierra** (أي إلى قارة أمريكا الجنوبية، مقارنة بجارتها **Isla Más Afuera**). إلا أن الشهرة العالمية لشخصيةٍ فنتازية مع الأمل بالربح من السياحة المتوقعة، أدت في العصر الحديث إلى تبديل اسمي الجزيرتين:

الأولى الأقرب باسم روبنسن كروزو، والأصغر الأبعد وغير المأهولة باسم الأصل التاريخي للشخصية الروائية: **جزيرة أليخاندرو سِلكيرك**.

إن التداخل بين الاختلاق والحقيقة في تبديل الأسماء على الخرائط، بدا عصر هذا اليوم مماثلاً للتداخل بين عالم الأحياء وعالم الأموات: فالرجل ذو الأفرول الأزرق كان يحطم بقايا سور مقبرة، ولربما كان بقية ممشى، أو رصيف شاطئ من صخور بركانية، ليشكل من الحطام تسويراً جديداً لقبر يحتمل أنه كان هنا قبل الطوفان، حسب ذاكرته أو ذاكرة من كلفه بالعمل. ومن الواضح أن ناجين آخرين قد أعادوا نصب بعض القبور قبله في أماكن تقارب الأماكن القديمة. ويبدو أن كلاً منهم قد اتبع ما أملته عليه ذاكرته، لأن القبور التي أعيد بناؤها لم تكن مصطفة في خط متناظر، وإنما كما لو أن مجموعة من المنهكين المرهقين قد استلقت على هذا الرمل الأسود كيفما اتفق... الأجساد ممددة بهذا وذاك الاتجاه، بعضها متقارب جداً، وبعضها الآخر متباعد أو معزول، فتوفرت الوضعيات كلها، ولكن دون التزام بمسطرة أو تناظر.

وضع ذو الأفرول الأزرق معوله جانباً وانحنى ليتناول علبة بيرة. أخذ جرعة ثم جلس ليلتقط أنفاسه على كومة الركام. وبعد ذلك بدأ يرتب القطع بشكل تسوير للقبر وكأنه يتابع رسماً منقوشاً في الرمل. وفي الختام نصب صليباً صغيراً مصبوباً من الاسمنت، ما زال سطحه يحمل آثار حلقات سنين خشب القالب. نصبه عند رأس القبر، ووضع على القبر

الجديد باقة من ورود بلاستيكية زرقاء وحمراء. إن كان ثمة ميت مدفون تحت هذا التسوير، فإن قدميه كانتا تشيران نحو الجبل ورأسه نحو البحر.

ظننت للوهلة الأولى أن الذكريات أو الأحزان قد ناخت على الرجل فانحنى ليؤدي صلاة ما، عندما بقي ساكناً طويلاً بعد أن أنهى عمله، ثم خر على ركبتيه ثانية أمام القبر الذي أعاد بناءه. لكنه بدلاً من ذلك بدأ يفكك التسوير الحجري ويعيد ترتيب القطع والورود البلاستيكية والصليب وكأنه بعد نظرة أخيرة فاحصة أدرك الخطأ في اتجاه القبر. خطأ لا بد الآن من تداركه، بأن بدأ العمل مجدداً من أوله:

إذا كان أحياء هذه الجزيرة وأمواتها أيضاً، في السنوات الأولى من الأبدية، يحتاجون باستمرار إلى الحماية من عنف وسطوة المحيط، فيفترض بالمدفون في مكان ما هنا، ألا ينتظر أمواج المستقبل المجنونة بهذه الوضعية التي تمنح الطوفان مساحة عريضة للهجوم. وهكذا عندما انتهى الرجل ذو الأفرول الأزرق من إعادة بناء قطع الحجارة مثل قارب متوجه ضد الموج المتلاطم، بات رأس القبر موجهاً نحو الجبل الذي تلفه السحب، وأسفل القبر موجهاً نحو... لا، بل متشبثاً بالأرض في وجه البحر المندفع لابتلاع كل شيء.

●●●

صيد غير مرغوب فيه

رأيت صياد سمك يلعن ويشتم وهو متجه بقاربه نحو ميناء بلتيمور في جنوب غربي إيرلندا. كان متشبثاً بمقود القارب ذي الصاري الواحد، وكأنه يصارع أمواج إعصار، رغم أن البحر كان هادئاً، محمياً من الريح وراء جزر صخرية غير مأهولة، يعبر القاربُ ظلالها، كما على سطح مرآة. لكنه على مسافة خمسة أميال بحرية شمال شرقي جزيرة صخرية اسمها ستاغس اضطر إلى جرِّ زورق تسرب إليه الماء وفيه راكبان واقفان ومبلولان حتى الركب، وكان عليه الآن أن يبحر ببطء وحذر لتجنب الشعاب، التي ما كان ليأبه لها في الأحوال العادية.

صاحب الزورق المخروم نحاتٌ من غْلِنغاريف، دعاني لمرافقته إلى خرائب جزر كالف المهجورة. إذا أراد أن يجمع من هناك ألواحاً إردوازية من السقوف المنهارة، ليجدد بها سقف كنيسة: فإردواز جزر الكالف في رأيه هو الأفضل في إيرلندا كلها وسيحمي عذراءَ كنيسته من الريح والمطر إلى مئة سنة. ولكن نتيجة محاولة فاشلة للرسو عند حاجز أمواجٍ مخلخلٍ، ارتطم زورقنا بالقاع الصخري وأصيب بخرمٍ.

انتقلنا بأقدامنا المبلولة إلى قارب منقذنا وجلسنا على

كومتين من شباك الصيد ذات العيون الضيقة، فيها أدار الصياد لنا ظهره وهو يطلق لعناته بصوت خافت في الهواء الساكن. كان قبل يومين قد أنزل في الماء ستين قفصاً لصيد السرطان، أقفاصاً سلكية كبيرة مثقلة بالحجارة ومزودة بالطعوم، ومربوطة ببعضها بسلسلة. ورفعها اليوم بعد ساعات من العمل الشاق، فلم يجد فيها كلها سوى سرطان واحد.

سرطان واحد، سرطان واحد ملعون في ستين قفصاً. ستون قفصاً وسرطان واحد!

كانت غنيمته سرطاناً أطلسياً أزرق كالحبر ومتوسط الحجم، وضعه في حوض بلاستيكي يتسع لعشرين أو ثلاثين من أمثاله. فعقد السرطان مقصه محاولاً الفرار من الحوض.

لعن الله هذه البحار التي تستغبي صياداً لعيناً مثلي ليبدو معتوهاً لعيناً. تسعة وخمسون قفصاً فارغاً!

ومحرك اللف الذي يستخدمه منقذنا عادة لرفع الأقفاص المربوطة ببعضها من عمق البحر، لم يشتغل اليوم رغم المحاولات الكثيرة. فاضطر لرفع الأقفاص السلكية بيديه، قفصاً وراء قفص بيديه، دون أن يجد فيها سوى حجارة التثقيل، وبقايا سمك متعفن، (الطعوم).

اللعنة!

وأرانا منقذنا يديه المجرّحتين من حبل الرفع.

أقفاص فارغة لعينة! وفوق ذلك كله زورق مخروم. هل بقي في هذا البحر اللعين الذي أُفرغ من كثرة الصيد، سوى المشاكل؟ المشاكل اللعينة! هذا البحر اللعين حطم حواجز

أمواج، خرم زوارق، مزق سلاسل المراسي، مزق الشباك، ومنع الصيادين طوال أيام في موسم العواصف من الوصول إلى مناطق الصيد، وتعطّف على معتوه مصاب بما يكفي من الغباء، ليمتهن الصيد المضني، بسرطان واحد بعد نهارات وليالٍ من العناء! وفوق ذلك كله، شباك ممزقة وأقفاص فارغة وحطام زورق وناجيان من الغرق. حياة لعينة.

ظننا بادئ الأمر أن منقذنا يريد إخبارنا بشيء ما، حتى وإن لم يلتفت نحونا إطلاقاً، فاستفسرنا مرتين، بل ثلاث مرات، إلى أن أدركنا أن الرجل لا يخاطبنا، بل يخاطب السماء والبحر.

بحق القديسين أجمعين! ليت المحيط الأطلسي يتبخر كله أو يتسرب بين الشعاب اللعينة، عندها تحل أخيراً السكينة على القعر الموحل، فيتوقف المعتوهون عن طلب القروض ليشتروا حطام قارب صدئ يجرّون به زورق صيد صغير ومخروم إلى الميناء.

منارة بيكون، وهي عمود أبيض شامخ عند مدخل ميناء بلتيمور كانت في مرمى النظر، عندما أوقف منقذنا محرك قاربه وترك مقود الدَّفة.

كيف سيتمكن صياد سمك لعين من تسديد أقساط قرضه بسرطان واحد وتسعة وخمسين قفصاً فارغاً لعيناً؟ كيف سيطعم زوجته والأولاد الثلاثة ويهيؤهم لحياة بائسة لعينة أفضل من هذه؟ بسرطان واحد؟

تقدم منقذنا من الحوض البلاستيكي وانحنى فوق الغنيمة، وكأنه يقيّم كائناً غامضاً من عمق البحر، لم يسبق

أن رأى مثيلاً له، ويتوقع منه أن يجيبه حقاً عن كل أسئلته.

ثم أمسك السرطان من درعه الأزرق، حل قيوده، وهي مطاطات ناشفة تكورت كميات منها على بعضها في الحوض، رفع عالياً الحيوان الذي أخذ يلوح بمقصيه المحررين ورماه في البحر.

●●●

في العمق

رأيت حوتة نائمة على عمق ثلاثين متراً في زرقة قاع البحر، فاردة إحدى زعنفتي صدرها، معانقة بها رضيعها لحمايته. وزعنفة صدر الحوتة تشبه جناحاً بطول متر، وتتميز عن سواد الجسم ببياض لونها.

كنت أسبح في بحرٍ حرثت سطحه الريح المسماة التجارية التي تهب نحو خط الاستواء، وأنا أراقب الحوتة العملاقة ورضيعها عبر نظارة الغطس. وكنت أحاول الحفاظ على موقعي بين الأمواج المتداخلة طولاً وعرضاً، وذلك بضربات بطيئة وحذرة بزعنفتي القدمين. فالحوتة في القعر، التي يبلغ طولها بين 14 و 15 متراً، ووزنها بين 20 و 30 طناً، ذات طبع نَفور، وقد تقلقها حركات سباحٍ فوقها، غير مسلح إلا بأنبوب التنفس، ونظارة الغطس، وزعنفتي القدمين. هذا هو على الأقل ما فهمته على متن السفينة من خبير الأحياء البحرية الآتي من توسكون في أريزونا. نزلت من السفينة في ساعات الصباح إلى قارب مطاطي مع خمسة آخرين من مراقبي الحيتان، لقضاء فترة الضحى في ترقب نوافير تنفس الحيتان. وكنا من وراء سور السفينة الأم قد رأينا أكثر من عشرة من هذه النوافير تذروها الرياح، ثم رأينا الحوت المعروف بالأحدب وهو

يغطس تحت رذاذ مائه المكثف، رافعاً ذيله فوق الموج كآخر تلويحة قبل أن يختفي. إن ما أرشدنا أخيراً إلى الموضع الذي كانت الحوتة في عمقه تنام أو تحلم، هو إحدى هذه النوافير المنبثقة عالياً، والتي تضيء في الشمس أحياناً بألوان الطيف. وكذلك الآثار الطويلة لمواضع ملساء متتالية على سطح الماء، تشبه مواطئ أقدام عملاقة، ناتجة عن ضرباتِ زعانفِ حوت يسبح تحت السطح مباشرة. كنا قد انزلقنا من القارب المطاطي في الماء بلا صوت، لنراقب عن كثب إحدى أضخم الحيوانات اللبونة في تاريخ النشوء والتطور. كانت أذناي مملوءتين بالماء، حدقت في العمق، لم أسمع شيئاً غير تنفسي نفخاً عبر الأنبوب. وصرت لا إرادياً أوقف تنفسي مع كل حركة فعلية أو متخيلة تصدر عن الحيوان الأسود تحت، كمن يخشى أن ينكشف.

كان نهاراً مشرقاً كثير الريح من أيام شباط / فبراير، في المكان المعروف بـ **حاملات الفضة**، وهي المساحة ضحلةِ القعر على امتداد مئات الكيلومترات المربعة، ذات الشعاب المرجانية المسننة، على مسافة 60 ميلاً بحرياً شمال سواحل هايتي وجمهورية الدومِنيكان. ففي شتاء نصف الكرة الشمالي تصبح هذه المنطقة مسرحاً لحياة الحيتان الحدباء. إذ يسبح نحو أربعة إلى خمسة آلاف حوت في هذه الشهور من مناطق في شمالي الأطلسي قاطعة مسافة نصف الكرة الأرضية، إلى المياه الضحلة في الكاريبي والمياه الاستوائية المجاورة الهادئة. وذلك من أجل التزاوج وخوض معارك التنافس ولتعليم أطفالها أساليب العيش والبقاء في المحيطات، أو لتغني أغنياتها

جملة فجملة. وهذه الأغاني يمكن سماعها من مسافة مئات الكيلومترات، لمن يمتلك الأذن المرهفة.

إن اليخت الذي يتجول في هذه المنطقة تحت علم أمريكي، وعلى متنه ستة ملاحين وخمسة عشر رجلاً من سباحي الأطلسي ومحبي الحيتان، ويفترض أن يتوقف في منطقة حاملات الفضة لمدة أسبوع، هو واحد من ثلاثة سفن يسمح لها بترخيص من حكومة الدومنيكان بالتغلغل سنوياً في عالم الحيتان الحدباء. وقد بلغنا هذا العالم بعد اثنتي عشرة ساعة من إقلاعنا من بويرتو بلاتا في الدومنيكان وبعد ليلة عاصفة طويلة. حتى أن ضابط اليخت الأول والقبطانة، وهي سيدة إنجليزية من ليك ديستريكت جابت العالم في سفن شراعية، كانا لا يزالان يضعان على جلدهما اللصقات المضادة لدوار البحر، في صباح وصولنا إلى مياه حاملات الفضة الهادئة، التي كانت تتلألأ مثل بحر كبير وسط محيط عاصف. توقف اليخت الآن بمرساتين بين شعبين مرجانيين، وعلى مرمى النظر من حطام سفينة شحن اصطدمت قبل سنوات بهذه الشعاب، وباتت منذئذٍ نقطة علاّم بحرية، تئن تحت ضربات الموج بين حين وآخر، وتحط عليها النوارس. كما تذكر بأن الفضل في تسمية هذه المياه الضحلة بـ **حاملات الفضة** يعود إلى السفن الإسبانية ذات الصواري الثلاث أو الأربعة، والمحملة بالفضة ومسروقات أخرى من **العالم الجديد** والتي لم تنج من هذه المياه الضحلة.

أمضينا فترة الضحى كلها، ونحن نتتبع بالقارب المطاطي

نوافير وآثار الحيتان هنا وهناك، إلى أن غابت عن أنظارنا الأجزاء العليا الصدئة من حطام الشاحنة، ورافعات التحميل المكسورة وكذلك صاري الاتصالات في سفينتنا الأم، في الأفق الخاوي من حولنا.

أثناء هذه المطاردة رأينا ذكور حيتان حدباء، تنهض بكتل أجسامها الهائلة فوق الموج ببضع ضربات من أذيالها، فتبقى بكامل عظمتها لحظات طائرة في الهواء نحو الغيوم البيضاء المتفرقة في السماء الاستوائية، قبل أن تسقط عائدةً إلى البحر، محدثةً انفجاراً من رذاذ كندف الثلج وستائر مائية عالية. من التفسيرات المتعددة لقفزات الحيتان، مثل: طقوس القوة والقتال، كان الخبير البيولوجي الذي يقود قاربنا المطاطي يفضل أبسطها: إنها تلعب. ولكن الويل للسباحِ إذا رآه مثل هذا اللاعب يندفع من الأسفل نحوه.

قبل أن يطفئ الخبير البيولوجي محرك القارب ويرشدنا إلى ضرورة الانزلاق في الماء بلا صوت والسباحة بضع مئات من الأمتار حتى موضع نوم الحوتة المتوقع مع رضيعها في القاع، قال لنا إن الحيتان الحدباء مسالمة، نعم، ويبدو أنها قد سامحت أبناء جنسنا، الذين حاولوا بحراب صيدهم في أساطيلهم أن يصطادوها حتى كادوا يفنوها.

رأيت الحوت الرضيع الذي يبلغ طوله نحو خمسة أو ستة أمتار وهو ينفصل عن عناق أمه، ويرفرف بزعنفتي صدره صاعداً نحو سطح البحر. رأيته مرتين، يصعد وينفخ النافورة ويعاود الغطس، فيما ارتاحت أمه في القاع طوال نصف ساعة

دون أن تتنفس. وها هي تستيقظ الآن من نومها أو من أحلام يقظتها وتلحق برضيعها بحركة صعود حادة.

رغم أن الشك لم يعترِني في وداعة وسلمية الحيتان الحدباء، أصبت فجأة بجمود الطريدة، عندما اقتربت مني العملاقة السوداء، الممتلئة الجسم ببقع البحر وبحلمات يذكّر شكلها ببراغي التبشيم، وبفتحة فم هائلة تتسع لكرسي شاطئ كبير وأنا جالس فيه. اقتربت مني أنا ؟ سبحت الحوتة باتجاه صور الغيوم المتراكمة في السماء الاستوائية، والتي تشوهها عدسة المحيط، لكنها فجأة غيرت اتجاهها عن رضيعها الذي ينفخ نافورته على مسافة آمنة مني، واتجهت نحوي. نسيتُ أن أتنفس مدة بضع خفقات قلب عبر أنبوب التنفس، ثم رفعت رأسي من الماء نافخاً، ورأيت القارب المطاطي على مسافة مئة متر أو أكثر، ورأيت خمسة سباحين يتنفسون من أنابيبهم، إنهم زملائي، لكنني لم أرهم متقاربين كما يجب، بل متباعدين بسبب الأمواج التي تخفيهم وراء حوافها. كم هو غريب حجم السكينة التي يبثها منظر السماء العالية وأبراج الغيوم والزرقة النائية، بالمقارنة مع العتمة والحركة الكثيفة تحتي. تركت الموج يحملني.

اقتربت العملاقة ببطء، أكان هذا حذر؟ اقتربت أكثر فأكثر إلى أن رأيت أخيراً قزحيتي عينيها المحميتين بثنيات جلدية داكنة حولها، واللتين بدتا ضئيلتين في جمجمتها الضخمة. قيل لي على متن اليخت إن الحوت قادر بهاتين العينين على التقاط صورتين مختلفتين، عالمين مختلفين في الوقت نفسه.

نظرت العملاقة إليّ، لا، بل مسحتني بنظرتها، وغيرت اتجاهها بصورة طفيفة، على نحو لم نمس فيه بعضنا. ولكن رغم تنويهها لي بهذه الحركة الجانبية أنها قد تحاشتني، إلا أنها أخذت وجودي في الحسبان واعترفت به. لكنني رأيت في نظرتها نوعاً من اللامبالاة العميقة، تماثل لا مبالاة جبلٍ تجاه متسلِقِه، أو لا مبالاة السماء تجاه من يحلق عبرها. فغمرني شعور بأن عليّ أن أذوب تحت هاتين العينين بلا أية رواسب، أن أختفي من مجال هاتين العينين وكأنني لم أعش قط. يحتمل أن هذه العملاقة السوداء قد سبحت صاعدةً من الأعماق نحو سباح أطلسي لتعطيه فكرة، عن أن العالم من دونه غني ومتنوع، غير متبدل وبديهي في الوقت نفسه.

ثم اخترقت العملاقة سطح البحر، نفخت زفيرها نحو السحاب، في عالمي، نافورة متلألئة، وانحنت ثانية نحو الأعماق، قبل أن تذرو الريح الهواء المكثف في رئتيها الثقيلتين، ولحقت برضيعها الذي كان في طريقه نحو القاع.

ورأيت أمام عيني هذا الجسد الهائل ينزلق متراً فمتراً ويغوص، هذا الجسد المملوء بندوب آثار المعارك الدفاعية، والشعب المرجانية، وألعاب الغزل؛ وعنف السفن.

●●●

ملكة الغابة

رأيت عجلاً ميتاً في مرعى، تحيط به غابة كثيفة في ولاية ساو پاولو البرازيلية. لا شك في أن الحيوان قد نفق قبل أيام، فبطنه كان منتفخاً بغازات التخمر، وبدلاً من العينين انفتح ثقبان مدمّيان يتكاثر عليهما ذباب أزرق. الخاصرة والرقبة ممزقتان بمناقير جارحة أو بأنياب. كانت بعض النسور السوداء منشغلة بتقطيع الجيفة، لكن وصول فارسين أخافها فهربت، وحطت منتظرةً على أغصان شجرة بونسيانا ملكية عارية الأوراق.

فازِنْدا فلورِسْتا هو اسم هذه المراعي الهضبية، التي احتفظت ببقايا غابة عذراء، استؤصلت قبل أجيال، وتقطنها الآن أنواع من القرود وعصافير الجنة والببغاوات فيما يشبه جزراً ذات خضرة سوداء متناثرة هنا وهناك، وتذكّر بالغابة العذراء الأصلية التي كانت موجودة هنا ممتدة في جميع الاتجاهات. فلورستا تعني بلغة البلد غابة، غابة شديدة الكثافة، غابة عذراء.

ومالك هذه المراعي ألماني المولد من مدينة مونْشتر في ڤِسْتفاليا، دفعه حب كبير قبل عشرات السنين إلى الإقامة في البرازيل، حيث صار فلاحاً ومربي بقر. وقد اقترح عليّ في هذا

الصباح القائظ من شهر شباط / فبراير أن أرافقه في جولته على الخيل عبر مراعيه المتناثرة، فقد أخبره أحد رعاته بأن إحدى أفاعي الشعاب المرجانية قتلت ثوراً صغيراً.

اقترب جوادانا من الجيفة بتمنّع شديد، اضطرنا أخيراً إلى الترجل، وربطهما إلى أغصان شجرة كاريسمايرا ذات أزهار بنفسجية باهية، لكننا نحن أيضاً اضطررنا إلى التراجع بسبب هجوم وابل من الذباب الأزرق علينا. قال لي المالك إن هذا الصغير كان سيصير ثور تخصيب جيد، وإنه ثاني حيوان تقتله عضة أفعى في هذه السنة و ينتابه شعور أحياناً بأن الغابة أو شياطينها يطالبون بأضحية حيوانية، بل حتى بشرية، تكفيراً عن طرد جوقات الطيور وقطعان القرود إلى الأدغال، واستئصال أشجار الغابة العذراء ودفع الحيوانات الأليفة من خنازير وقطعان بقر إلى الرعي في المساحات المكتسبة. علماً بأن بعض الإهمال في اليقظة وعدم معالجة تربة المراعي يكفي لعودة الغابة وابتلاع المراعي والدروب والاصطبلات والبيوت بهجمات مستمرة للأدغال دائمة الخضرة والسريعة الانتشار.

وقال المالك إنه عندما رأى هذه الأرض أول مرة، كان يصعب تمييزها من الأدغال... كان قصر مالك المزرعة أطلالاً امتدت الأغصان عبر نوافذه، وملاجئ الحيوانات متداعية، والبوابات والأسوار مسدودة بنباتات ليانا المتسلقة والتين الشوكي، والآبار مردومة... أرض لا فائدة ترجى منها. لكن سعرها كان بخساً بما يوازي حالتها.

وهكذا اشترى آنذاك هذه الأرض المعزولة واستعاد من

الغابة ما غنمته، باذلاً مع عماله الزراعيين جهوداً مضنية تحفزها الحماسة. كما حوَّل معهم درب التربة الحمراء إلى طريق صاعداً الهضاب ونازلها أو ملتفاً حولها، كيلومتراً فكيلومتراً، عبر الغابة العذراء حتى بوري، المدينة الأقرب. استعاد من الأدغال الأراضي التي كانت مراعٍ، وبنى على رابية داراً جديدة مضيئة من خشب آرويرا القاسي كالحديد ومن الزجاج. وبنى كذلك بيوتاً لرعاة الماشية والعمال الزراعيين وعائلاتهم وملاجئ للحيوانات ضد الشمس الحارقة، واصطبلات، ثم بنى مدرسة وحضانة وكنيسة وملعباً، أي قرية محاطة بالغابة العذراء ومحمية بها.

بعد أن ركبنا جوادينا المبللين بعرقهما وتركنا فسحة المرعى ورائحة الإنتان وراءنا، سألني المالك: هل هناك ما هو أجدى وأبهج من أن يستخلص الإنسان من الغابة، سواء الخارجية أم الداخلية الكامنة في النفس، شيئاً جديداً، قد يكون بمثابة موطن له؟... لا، ليس بالقتال، ولا بالمناشير الآلية والفؤوس وجرافات التسوية والديناميت، بل بنوع من المقايضة، بصفقة متبادلة، مثلاً: بترك الجيفة المتعفنة في ذلك المرعى للنسور السوداء، وتزويد المنحدرات الغابيّة، أي أرض القرود، بقنوات تصريف تحميها من الانهيارات التي تسببها العواصف المطرية، أو وضع أوعية زجاجية مملوءةً بماءٍ معسّل على الشرفات لطيور الجنة، أو بإتاحة المجال حتى للأفاعي للعيش في أماكن بين المراعي، لا يقربها البشر ولا قطعانهم.

تعرفتُ المالكَ في مطعم في ساو پاولو التي تبعد 300 كم

من هنا، حيث تناولَ العشاء بعد لقاء لمربي بقرٍ برازيليين يربون نوع زيمِّنتال السويسري، وقبلتُ دعوته لزيارة مزرعته فازندا فلورستا في اليوم التالي. أثناء الرحلة من المدينة المشرقة بلا حدود، وأخيراً على طريق السفر عبر البراري، حدثني عن مشروعه الطويل الأمد، لتهجين بقر زِبو Zebu الأحدب الصغير الحجم ذي الأصول الهندية، الذي كان يملأ المراعي البرازيلية وقتذاك، مع بقر زيمِّنتال الضخم، مقارنة بالهندي، والغني باللحم والحليب، أي مع البقرة السويسرية المبرقعة. قال إنه قد سافر مرات عديدة إلى أوروبا، ليعود حاملاً معه في صناديق التبريد أجنة زيمنتال، مواد تهجين ثمينة، لتزرع من ثم في المزرعة في أرحام البقرات الأمهات بيدي هندي محلي Indio، توصل إلى جعل الخيول والأبقار تطيع أوامره. لكن الأبقار الأوروبية المبرقعة لم تترعرع هنا على نحو جيد، بسبب الرطوبة والقيظ والعشب الهزيل والطفيليات. فكان لا بد على الدوام من بدايات جديدة مع خيارات تهجين جديدة. أما الآن، أخيراً، فإن أبقاره الزيمنتالية ترعى وتجتر في مراعيه بسلام وكأن هذا الجنس لم يعرف ظلاً آخر غير ظلال الغابة العذراء، ظلال أشجار كاريسمايرا والنخيل.

إنه لأمر طبيعي أن تطالب الغابة كل وليدٍ بالثمن. فأبقار زيمنتال مثلاً باتت الضحايا الأكثر تعرضاً للذبابة المتوحشة، وهي حشرة مزعجة بحجم زنبور، تضع بيوضها في جلد البقر، حيث تنمو يرقات سمينة تتحول إلى الجيل الجديد من الطفيليات.

ونظراً لكثرة الذباب المتوحش الذي يرافق قطيعاً من الزيمنتال، يحدث أحياناً أن يتعرض الإنسان أيضاً للهجوم باعتباره حاضناً بالغلط. وقد حدث هذا لحبيبة المالك التي صارت زوجته. وعلى أثر محاولة أحد رعاة البقر بأصابعه الماهرة ضغط اليرقات خارج الورم، مثلما يفعل بثقة كبيرة مع الأبقار، كادت المرأة أن تموت بنتيجة تسمم دمها. فبسبب خجله واحترامه لزوجة سيد المزرعة ونتيجة لهفته للقيام بكل شيء على نحو سليم هرس اليرقة تحت الجلد.

ولكن رغم أن ما يحدث في المزرعة قد يشكل خطراً، فمن الممكن التنبؤ به واتخاذ الاحتياطات له، على نقيض ما قد يتربص بالإنسان في شوارع ساو پاولو. لا، إذا خُيّرتُ بين حياةٍ في ناطحات السحاب وأكواخ الصفيح والكرتون في أحياء الفقراء، وبين الحياة هنا في المزرعة النائية، فإني لن أتردد لحظة في اختيار المزرعة، قال المالك. حتى وإن حدث ذات يوم أن استعادت الغابة سلطتها هنا، وفرضتها على جميع المراعي- وهذا مؤكد كحتمية الموت- فإن هذا يثبت مجدداً أن الأراضي كلها، بغض النظر على صكوك الملكية، كانت مستأجرة مرحلياً من الغابة.

عند الظهيرة أوصلتنا جولتنا على الخيل إلى حدود المزرعة، إلى الجار الوحيد الذي يعيش في مكان قريب يسهل الوصول إليه. وهذا الجار القصير القامة يسكن كوخاً طينياً في فسحة مستأصلة الأشجار ويعيش فقط من دخل ثمار شجرة أڤوكادو عملاقة، يبيعها في سوق مدينة بوري.

ضيَّفنا الجار پينْغا، وهو شراب كحولي من قصب السكر، في قدحين كبيرين، ثم تناول عن الجدار صورة فوتوغرافية بالأسود والأبيض ليرينا إياها بفخر. إنها أحدث صورة لابنيه، وهي الزينة الوحيدة على جدران كوخه إضافة إلى صليب. يبدو الإبنان في الصورة بقميصين أبيضين بياقتين عريضتين مفتوحتين، ومن ورائهما ناطحات سحاب ساو پاولو، وقد صلّب كل منهما ذراعيه أمام صدره مبتسماً وحاملاً مسدساً في كل يد.

لقد نجح هذان الاثنان، قال زارع الأفوكادو. لكنه لا يعرف بالتحديد مما يعيشان في المدينة، ولا يريد أن يعرف. علينا فقط أن ننظر إلى قميصيهما، فهو طوال حياته لم يمتلك قميصاً واحداً من هذا النوع.

في طريق عودتنا من المراعي، التي تئز من القيظ، إلى برودة مراوح السقف في دار المالك ذات الهواء المشبع برائحةِ النعنعِ والخطمي، أراني المالك أبنيةً خشبية معمَّدة جيدة التهويَة، ظننتها مساكن بسبب شباك الذباب المركبة على النوافذ الواسعة. فإذا هي اصطبلات آمنة من الأفاعي، تعيش فيها العجول خلال أسابيع حياتها الأولى محمية من أخطار المراعي. وفوق المعالف وعلى رفوفٍ ضيقةٍ كانت هناك أوان زجاجية لماعة كالمزهريات. وبعد أن ألفت عيناي عتمةً داخل الاصطبل مقارنة بوهج الشمس تبين لي أن في كل آنية زجاجية تسبح إحدى أفاعي الشعاب، في سائل كحولي. وبلون جلدها الأحمر الزاهي ذي الحلقات السوداء والبيضاء، المتتالية

بفواصل منتظمة كانت هذه الأفاعي أشبه بقلادات بهيّة منها بمصدر للخطر.

قال المالك إنها جميلة لكنها غالباً مميتة. ويزعم بعض رعاة البقر عنده بأن خطر الأفاعي قد تراجع نوعاً ما، منذ أن عمل بنصيحتهم وزيّن الاصطبلات بالأفاعي التي قتلوها وهزموا بذلك شياطينها.

كان عصر اليوم مرعداً، فركبنا قبل الوقت المحدد سيارة جيب تزن عدة أطنان وانطلقنا نحو ساو پاولو، فقد تنبأت الأرصاد الجوية للغد بعاصفة مطرية ثقيلة. وعندها سيصبح الطريق ذو التربة الحمراء صعب العبور حتى بسيارة دفعٍ رباعي، إلا بسرعة السلحفاة وبسلاسل الثلج حول العَجلات، والتي استوردها المالك في العام الماضي من أوروبا الجليدية.

بدأت السماء باتجاه الجنوب الغربي تتخذ لوناً بنفسجياً. وكنا قد ابتعدنا كثيراً عن المزرعة، وما زلنا بعيدين عن أي مكان مأهول، عندما رأينا شيئاً داكن اللون مستلقياً بعرض الطريق، ظننته عن بعد دعامة خشبية أو خرطوم ماء ثخين مثل مزراب مطر. فرمَل المالك بشدة، بحيث اصطدمت سلاسل الثلج، التي أخذها معه للطوارئ، بظهر صندوق القيادة. قال إنها أناكوندا وفتح باب السيارة ليترجل.

كانت الأفعى العملاقة تزحف ببطء، ببطء شديد عبر الطريق، غير آبهة بوجودنا، وكان طولها يصل إلى سبعة أمتار، وربما أكثر، إذ كان ذيلها لا يزال في الغابة على الجانب الأيسر

من الطريق، فيما ظهر رأسها للحظات فقط من بين خصل الحشائش الجافة على الجانب الأيمن ثم اختفى ثانية. رأينا الخطوط المتموجة التي تزين ظهرها وهي تنسل أمام أعيننا ببطء، عندما ظهرت قبالتنا على قمة الهضبة سيارة شحن، وهي أول عربة نراها منذ انطلاقنا من المزرعة. كانت الشاحنة تتقدم نحونا وكأنها هاربة من سحابة غبار أحمر تلاحقها وتحاول ابتلاع الطريق وجانبيه. على مساحة التحميل كان يقف عمال زراعيون متمسكين بألواح الجدارين، وقد ظنوا ذراعَ المالك المرفوعة تحيةً لهم، فلوّحوا له ضاحكين، واقتربوا منا بسرعة أكبر. لكن قصد المالك كان تحذيرهم وحماية الأناكوندا.

لكن سائق الشاحنة لم يحتج إلى تحذير، إذ كان قد رأى الأفعى ولم يخفف من سرعته، بل ساق الشاحنة مدفوعاً بحب الصيد أو بمجرد الغضب، وربما الخوف منها، ودهسها. وللحظة بدا الأمر وكأن الشاحنة بجدرانها الخشبية وعجلاتها المزدوجة، التي يبس عليها الطين، قد قفزت مثل وحش عبر طوق مدرب سيرك. فالثقل الذي أرعد عابراً الأناكوندا جعلها تنتفض بذيلها ورأسها على جانبي العربة لتشكل قوساً، ما أن انْشَدَّ عالياً حتى سقط مجدداً في الغبار الأحمر، فيما تابعت الشاحنة دون توقف ودون حتى أن تبطئ واختفت، مخلفة إيانا والأناكوندا المدهوسة والطريق الترابي والغابة العذراء في ضباب أحمر، لم يتلاشَ إلا ببطء.

بقيت الأناكوندا حيةً وتابعت الزحف، أبطأ الآن، دون خفتها القديمة، وبتشنج أحياناً، ولكن إلى الأمام. لم نر على

زخارف جلدها آثار جراح مفتوحة، ولكن لا بد أن فقراتها قد كُسرت. وآثار العجلات المزدوجة على جسمها المغطى بالغبار الأحمر ذكرتنا بالحلقات الداكنة على حمرة جلد أفعى الشعاب في الأواني الزجاجية في المزرعة.

Rainha da Selva، ملكة الغابة، قال المالك. فأحد رعاة ماشيته في المزرعة كان قد أطلق اسم ملكة الغابة على الأناكوندا، التي ظهرت ليلة أحد أعياد الميلاد عند رصيف إحدى الحظائر، ثم ولّت الأدبار، كما يقال، في الليلة المقدسة على مرآى من حشد من الأولاد المتحمسين. أما هذه الملكة، قال المالك، فلم يبق لها من مجال للحكم إلا في ملكوت الموت. فمن ستصطاد بعدْ، بفقراتها المحطمة؟ ومن ستبتلع؟

عندما لحقنا بالأناكوندا بقدر ما تسمح به الأدغال، لم نعد نسمع سوى صوت خطواتنا، تكسر أغصان جافة تحت أقدامنا وخشخشة الحشائش. ومن دون أن ترفع رأسها ثانية فوق أوراق الشجر المتساقطة زحفت الملكة بلا صوت واختفت.

●●●

التسليم

رأيت يد المراكبي سانغ النحيلة. سكنتْ طوال شهيقٍ وربما أطول بلحظة على كتف ابنه لاي، الذي وقف بجانبه عند دفة توجيه مركبه الطويل. كنتُ واحداً من أربعة ركاب فقط على متن المركب، الذي يقوده لاي منذ ثلاثة أيام مع تيار النهر. ركبنا المركب قرب هواي كساي، وهي مدينة حدودية في المثلث بين بورما وتايلاند ولاوس، لنتوقف مساء في مدينة لوانغ پرابانغ القديمة مقر ملك لاوس. كان موسم الأمطار قد مضى، لكن مستوى مياه نهر الميكونغ لا يزال مرتفعاً كفاية، بحيث أن مركباً طويلاً متوسط الحجم مثل مركبنا، يمكن أن ينقلب بسهولة في مَسارِع التيار المنحدرة، وخاصة في الدوامات التي تنفتح فجأة عند مقدمة القارب مثل حفرة بئر دوّارة.

في جزء النهر الممتد بين هواي كساي ولوانغ پرابانغ وجّه لاي المركب وحده، ولكن عند ظهور أخطار أو عراقيل تهدد الرحلة، كصخور في مياه ضحلة، أو مسارِع منحدرة، أو دوامات، أو أشجار اقتلعتها الرياح الموسمية، وتبدو أغصانها منتصبة من تيار المياه، مثل ذراعي عملاق غريق، كان أبوه سانغ يضع يده دائماً على كتفه، من دون أن يقول كلمة أو يقدم نصيحة.

لم يرتكب لاي أي خطأ طوال الأيام الثلاثة، ونحن نمخر الميكونغ بمحاذاة الضفاف اللاوسية، حيث طالعتنا منحدرات مغطاة بالغابات المطرية، تتخللها غابات ساجٍ مزهرة، وقرى مبنية على أوتاد في الماء، وكثير من المساحات المحلوقة حرقاً، والتي ما زال الدخان يتصاعد من بعضها، وحيث أفيال السُّخرة تجر الجذوع المتفحمة بالسلاسل إلى الشاطئ. خلال رحلات لا تحصى إلى لوانغ پرابانغ كان لاي حتى الآن مجرد بحار إلى جانب أبيه، ولم يكن قد حفظ بعد كل أغلب أسماء الأخطار الكثيرة والمتبدلة حسب ارتفاع وانخفاض مستوى ماء النهر بما يعادل 8 – 10 أمتار مع تعاقب فصول السنة.

إذ ثمة اسم قديم، يعود غالباً إلى مئات السنين، لكل كتلة صخرية مختبئة تحت سطح الماء، ولكل دوامة تشكل خطراً في موسم الرياح، أو مجرد ذكرى مُقرقرة في موسم الجفاف. إلا أن المراكبي سانغ لم يكن يذكر هذه الأسماء، إلا بعد أن يكون لاي قد تصرف حيالها بصورة صائبة، ودائماً بعد أن يصبح الخطر وراءنا. لا يفترض بالمراكبي أن يتجنب الأخطار المعروفة فحسب، بل أن يجدد باستمرار صورة النهر، بأن يطبع في ذاكرته كل تغير في أشكال الضفاف، وطبقات الحصى والرمال، وكذلك جميع تغيرات سطح المياه بأشكال تموجه أو سكونه الذي يعكس له درجة العمق وسرعة الجريان وصلاحية الملاحة.

مساء اليوم عندما سنصعد الدرج الحجري العريض من جسور الصيد على الميكونغ إلى قصور ومعابد لوانغ پرابانغ،

يفترض أن يدير لاي المركب دون أن ينزل إلى البر، ويعود إلى هواي كساي. هكذا تم الاتفاق بين سانغ وابنه. ومنذ تلك اللحظة سيصبح لاي المراكبي الجديد والوحيد للمركب. وكأن سانغ كان يتهيأ لحلول الساعة القريبة لتسليم مركبه، فمنذ أن غادرنا محطتنا الأخيرة ارتدى بصورة احتفالية قميصاً من الحرير الخام الزهيد الثمن كالتي تباع في قرى شاطئ النهر.

لقد مخر سانغ النهر صعوداً ونزولاً طوال أكثر من ثلاثين سنة، ووصل حتى **الأربعين ألف جزيرة** على حدود كمبوديا. وكان بوسعه من الذاكرة أن يرسم خُطاطات وخرائط لمجرى النهر الصالح للملاحة، ولشواطئه المغمورة أو المكشوفة حسب الفصول وكان يعرف كل قرية، الكبيرة منها والصغيرة، في المقطع الذي يتحرك فيه من النهر الطويل. ومع ذلك بقي سانغ رجلاً جبلياً. غداً صباحاً سينطلق أخيراً من لوانغ پرابانغ باتجاه المرتفعات، عائداً إلى پهونْساڤان في مقاطعة كسنيغ خوانغ، لأول مرة منذ أكثر من ثلاثين سنة، إلى أرض مخربة، شبه عارية من الشجر يسميها سكانها **تونغ هَي هين**، أما الركاب الكثيرين الذين نقلهم بمركبه الطويل فيطلقون عليها اسم **سهل الجرار الخزفية**.

إنها أوانٍ بارتفاع قامة إنسان. وقد تصل إلى ثلاثة أمتار، مصنوعة من الحجر الرملي والغرانيت، ويبلغ وزن الواحدة منها نحو طن. وهي بقايا حضارة غامضة انقرضت، متناثرة هناك بالآلاف على السهل الهضبي المغطى بالساڤانا. يقول البعض إن عمالقة أسطوريين كانوا يشربون بهذه الجرار، فيما

يرى آخرون إنها حاويات مؤونة، لا بل خزانات مياه، لا بل إنها **حافظات لرماد الموتى**. أما الحقيقة فقد بقيت حتى الوقت الحاضر لغزاً، لأن الأرض التي تنتصب عليها معظم هذه الجرار دون أن تقربها يد إنسان، مزروعة بالألغام على نحو كثيف جداً، ولا يمكن الدخول إلا إلى أجزاء قليلة منها.

قبل زمن بعيد جداً، لكنه ما زال حاضراً بكثافة في كثير من أحلام سانغ، هرب الفتى من هذه المرتفعات إلى ضفة الميكونغ، فيما قامت أسراب قاذفات القنابل الأميركية بمسح المنطقة كلها حول پهونْساڤان بقنابلها، محوّلة القرى وحقول الأرز وكل شيء إلى صحراء قمرية مملوءة بما يشبه فوهات البراكين. كما سممتها بـ **Agent Orange** الذي يبيد النباتات، وجعلتها منطقة محظورة بملايين الألغام والقنابل التي لم تنفجر من وابل القذائف. لم تعد تنبت أشجار في هذه المرتفعات إلا فقط حيث قلبت القنابل الأرض ونثرت على السطح فتات التربة الذي لم يصبه السم.

بعد أن يسلم المراكبي سانغ مركبه الطويل إلى ابنه ويعود إلى موطنه لبضعة أيام أو لأسبوع، فلكي يخفف ربما، بمنظر الواقع الحالي المسالم، من وطأة ساعات الغارات الجوية في عصر ذلك اليوم، والتي جعلت أحلامه صعبة ومؤلمة. في المكان الذي قامت فيه دار والديه، حسبما يعرف من تقارير وصورة يحملها معه دائماً، سيجد بركة مستديرة يمكن للمرء أن يصطاد منها السمك، وسيجد مثيلاتها في حقول الأرز. إنها حُفر القنابل الأمريكية وقد امتلأت بالمياه الجوفية.

أليس غريباً، تساءل سانغ، وهو جالس على صندوق عند قدمي ابنه الممسك بمقود الدفة، أن يعود من نهر الميكونغ البالغ طوله نحو 5000 كم والذي يعني اسمه أم الأنهار كافة، إلى بركة، إلى مستنقع؟

أثناء الساعات الكثيرة لرحلتنا النهرية، ولا سيما أثناء الأمسيتين الأخيرتين، اللتين أمضيناهما تحت ناموسيات في بيوت على دعامات على حافة شاطئ طويل مغطى بالحصى، حدثنا المراكبي عن طريق هروبه من موطنه إلى النهر. وهل من مهرب آخر سوى إلى النهر عندما كل ما حولك يشتعل فجأة؟ والد سانغ وأمه وأخواته الثلاثة وأحد إخوته كانوا في دار الأسرة أثناء غارة جوية فاحترقوا بالنابالم. ونجا مع أخيه سونِيت، لأنهما كانا يسوقان زوجاً من جواميس الماء عبر حقل أرز محصود.

قنابل. قنابل فوسفورية، قنابل متشظية، قنابل حارقة، قنابل تفجيرية، قنابل عنقودية... صحيح أنه قد مضى عشرات السنين على الغارات الجوية، لكن القنابل ما زالت حاضرة دوماً: تلك التي نزع فتيلها وعُطلت، تستخدم الآن في قرى المرتفعات كأعمدة لمداخل البيوت، أو للمظلات الأمامية، كأسوار، كأحواض زهور، كآنية لحفظ الأرز أو تستلقي مفلوقة أمام دكان الحداد كمواد خام. والرصاص الفولاذي في القنابل العنقودية صار مواد لعب للأطفال، كرات لماعة.

يعرض سانغ على ركابه كراساً مجلداً بطبقة من النايلون الشفاف لحمايته من الماء، وتبدو عليه آثار كثرة القراءة.

يتضمن الكتاب جميع نماذج القنابل بمختلف أحجامها، التي أسقطت على بلده لاوس، وكذلك جميع أنواع الألغام المبثوثة في تربة لاوس مثل بذور الحقد. وقد كتب تحتها باللغتين الإنجليزية والفرنسية، بلغتي عدوين لا ينسيان، أنه خلال حرب ڤييتنام، التي تستحق بجدارة أن تسمى حرب لاوس أيضاً، قد أُسقط على لاوس المحايدة من القنابل أكثر مما أُسقط في الحرب العالمية الثانية على ألمانيا واليابان معاً: مليونا طن من القنابل. وأن بقية العالم لم تبدِ اهتماماً بالأمر لسنوات طويلة، نفت خلالها حكومة واشنطن الأمر كله. لم يسبق لبلد في العالم في تاريخ الحروب حتى الآن أن أسقطت عليه هذه الكمية من القنابل. وذلك في المقام الأول من أجل تدمير خط إمداد مشبوه للڤييتكونغ يسمى درب هو تشي مين، وهو شبكة متشعبة من دروب الغابة ممتدة من ڤييتنام المجاورة وتمر لسوء الحظ عبر غابة لاوس.

حتى الآن، بعد مرور ثلاثين سنة على الحرب، قال سانع، يقتل أو يتشوه سنوياً مئات الناس في حقول الأرز، أو في ورشات البناء، أو أثناء العمل في الحديقة، أو ببساطة أثناء الذهاب إلى السوق بسبب الألغام والقنابل. ولكن السؤال هو: هل من تسبب في تشويه وقتل كل هؤلاء الناس وفي تدمير المنازل والمباني والمعابد وفي تسميم وتلغيم الحقول والأراضي، التي لم يهجرها البشر فحسب، بل الفيلة والنمور والقرود وحتى الطيور، هل كانوا بشراً، أم كائنات تملكتها العفاريت والأرواح الشريرة؟ إذ هل بوسعِ بشر أن يريدوا حقاً ويخططوا

وينفذوا ما جرى في بلده، إن لم تسيطر عليهم الشياطين؟

قال لنا سانغ إنه قد أطلق على ابنه اسم لاي، ومعناه المعتم، وأنه غالباً ما كان ينحني فوق مهد الرضيع ويندب بصوت عالٍ بشاعته وتشوهه، بل وكونه مسخاً بوجه مخيف ويدين كالمخالب، وهو موقن من أنه لا أجمل من طفله في هواي كساي كلها. لكن الناس في لاوس يحاولون بمثل هذا الندب والشكوى تضليل العفاريت، واستخدام الهجاء في وصف أطفالهم لتجنب غيرة وحقد العفاريت تجاه كل حبيب ومحبوب. فمن ذا الذي سيحسد هولة على جمالها، ومَن سيغار من مشوه فوق ذلك فيؤذيه؟

لاي، المعتم، كان واثقاً من نفسه في قيادة المركب خلال الأيام الماضية مثل أبيه. وفي الليلة القادمة، أثناء عودته، على مسافة ساعتين بعكس مجرى النهر سيوقف المركب الفارغ على لسان مرسى عند كهوف پاك - أو، أي **كهوف الألف بوذا** ليقدم قرباناً هناك. فعلى مر القرون كان الحجاج في هذه الكهوف الكلسية فوق الميكونغ يتركون تماثيل لبوذا من الخزف أو الخشب أو الحجر، تعبيراً عن الخشوع والامتنان، وكذلك عند بدء المرء مرحلة جديدة من حياته. ولاي سيزيد هذه الآلاف التي لا تحصى من تماثيل بوذا واحداً جديداً، بحجم جرة ماء، منحوتاً من أحد أحجار هواي كساي.

خلال أيام رحلتنا النهرية لم يرفع لاي نظره عن مجرى المركب، عندما كان أبوه يتحدث مع الركاب أو يحكي، بل كان ينصت صامتاً غالباً. أما الآن فقد التفت إلينا وأشار إلى عمود

دخان بعيد ورفيع يتصاعد من وراء منعطف النهر القادم. كان هذا دخان لوانغ پرابانغ. وعلى مسافة بعيدة أمامنا، في مكان ما بين منتصف مجرى النهر والأدغال ذات الخضرة السوداء على الضفة اليمنى، بدأ يتصاعد صوت هدير ناتج عن قفز المياه فوق صخور وجذوع أشجار محشورة. ورأيت المراكبي سانغ يرفع يده، ربما ليضعها على كتف ابنه، ورأيت من ثم كيف تركها تنزل على صدره ليملس بها قميصه، وكأنه لم يرغب إلا بتمليس بعض الموجات الحريرية الناعمة.

●●●

وداع

رأيت مقعد حديقة فارغاً، واحداً من ثلاثة مقاعد في ساحة سوق بلدة لَمباخ في شمالي النمسا، كانت المقاعد مصفوفة أمام السور المعدني المزخرف لحديقة الصيدلي. عادة يجلس على هذه المقاعد ركاب باص الخط الداخلي، للذهاب من هذا الموقف عند حديقة الصيدلي، إما إلى منطقة البحيرات في جنوب غربي سلسلة جبال الألب، وإما إلى الشمال الشرقي حيث يوجد سهل شاسع سيء التنظيم بمزارع ومنشآت صناعية متناثرة، ويشار إليه على خريطة المنطقة باسم مرج ڤِلز.

على المقعد الأوسط من هذه المقاعد الثلاثة، في صباح يوم الأربعاء هذا من شهر تموز / يوليو، جلس ذلك الرجل الذي يعرفه بعض المارة، كمعلم متقاعدٍ ومترملٍ منذ سنوات، وإلى جانبه إحدى مواطنات البَلدة التي صادقها منذ مدة، فيحيونهما في طريقهم. كان النهار مشمساً، وسيكون حاراً، بناءً على نشرةِ الأحوال الجوية، مع ريح غربية خفيفة واحتمال حدوث عاصفة رعدية عابرة. لذلك لم يحمل الرجل معه حقيبة المدرسة العتيقة التي اعتاد أن يضع فيها واقياً مطرياً وكنزة زرقاء للأحوال الجوية المضطربة، إذا أراد ركوب الباص إلى

قريته التي تبعد مسافة 8 كم عن البلدة، والتي هجرها على أثر وفاة زوجته قبل 18 عاماً.

جلس في ضحى هذا اليوم مع صديقته على المقعد الأوسط من المقاعد الثلاثة، ومبكراً جداً كعادته قبل موعد الباص الذي يوصله إلى مقبرة تلك القرية. كان يقوم بهذه الرحلة مرتين أسبوعياً، ليشعل على قبر زوجته شمعة، يفترض أن تبقى مشتعلة عدة أيام، وأقلها حتى زيارته القادمة، وليعتني بالزهور التي يزرعها على القبر حسب فصول السنة. بعد إنجاز هذا العمل أراد هذه المرة أن يلتقي بأحد أبنائه في مطعم صيفي بعيد عن القرية، وسط حقول القمح والذرة.

مع ارتفاع درجة الحرارة تدريجياً بدأت الحياة في هذا الضحى تنتقل إلى الجانب الظليل من مساحة السوق، ثم إلى موقف الباصات عند حديقة الصيدلي. ومَن كان الخيار متاحاً له، وغير مضطر إلى دخول أحد المتاجر أو أحد مداخل البيوت في جانب الشمس الحادة، غيّر طريقه إلى الظلال، فأفسح بذلك المجال أمام المعلم المنتظِر، لتبادل مزيد من الكلمات مع معارفه من المارة. جلس على المقعد كمن يتابع مسرحاً ممثلوه وكومبارسه، الذين يؤدون أدوار حياتهم في ضحى هذا اليوم يمرون أمامه: موردو بضائع وأغراض، عمال طرقات، زبائن محلات، ومرضى خارجون من عيادة الطبيب في الساحة، وهم مستعدون بسرور أثناء طريقهم إلى الصيدلية لأن يحكوا لأحد معارفهم عن متاعبهم الصحية وليصفوا له التأثير المسكّن لأحد العقاقير.

عندما اقترب موعد وصول باصه أخذ المعلم يناقش مع صديقته مشاريعه لهذا اليوم: تجديد زرع الزهور، والتي كان يفوت وقتها على قبري العائلة في مقبرة القرية، اللقاء مع ابنه في مطعم الحديقة بين الحقول. كانت الصديقة تستمع إلى أفكاره بشأن اختيار زهور المقبرة، وعن تتالي الصحون أثناء طعام الغداء، وهي تراقب مياه النافورة في وسط ساحة السوق، عندما صمت فجأة. نظرت إلى نافورة البحرة وسمعت صوت رشيش الماء المتساقط باستمرار، وكان أول ما فكرت به هو أن فكرة قد خطرت في باله، فكرة مفاجئة، طردت ما كان يريد قوله، فالتفتت عن مشهد الماء إليه:

كان رأسه منكساً على صدره، رموش عينيه ترف ثم أُغمضتا. كان جالساً وكأنه قد غفا في منتصف الجملة التي ينطقها. دفعته بأصابعها وضحكت. كان يلجأ أحياناً إلى تمثيل النائم، ليتمكن من الزعم، في حال داهمته غفوة فعلية في لحظة محرجة، بأنه كان يمثل فحسب. فأن يغلبه التعب والنعاس فينام كان أمراً لا بد من إخفائه، وإن اضطر فلا بد من إنكاره. فمنذ أن انتزعته الحرب وهو في مطلع شبابه، من دار الوالدين حيث ولد بجوار شلال هادر، إلى مركب بحث عن الألغام في البحر الأسود، كانت كل غفوة، مرتبطة بفكرة أن نوم بحار مناوب في الحراسة في أعالي البحر العاصف، ولو للحظات، قد يهدد الحياة. نادراً ما أتى على ذكر الموضوع، وإن حدث فقد كان دائماً يقتبس سطراً من دتلف فون ليلينكورن: **وأمواج هادرة سوداء بأعراف طويلة اندفعت مثل جياد ثائرة... في**

الليالي العاصفة على متن مركب معتّم كلياً غالباً ما كان يتوق إلى إمكانية الهروب إلى النوم ليخرج من الظلمة ومن الأمواج السوداء العالية، التي تتراقص الألغام مع حركاتها.

أما الآن فإنه لا يستجيب لأية ملامسة أو كلمة أو إشارة، بل مال نحو صديقته مثل راكب باص غفا أثناء الانتظار. والطبيب الذي حضر بعد قليل وملأ الاستمارات الرسمية، قال إن المعلم كان قد مات، ربما في تلك اللحظة التي نكّس فيها رأسه. ثم ذكر مجموعة من المصطلحات الطبية لتوصيف حالة خاصة من موت القلب، وأضاف اسماً سيكون لأبناء المعلم الثلاثة وابنته، أوضح من أي تسمية أخرى ويبقى في الذاكرة: موت فوري.

في ظل بناء الصيدلية أجريت محاولات كثيرة، كثيرة جداً لاستعادة الرجل الذي ما زال جالساً متكئاً كالنائم إلى الحياة. جاء أولاً الصيدلي الذي استدعاه أحد المارة، قدم راكضاً من صيدليته وجلس على المقعد إلى جانبهما ونادى المعلم باسمه عدة مرات وجس نبضه ثم نهض ليستدعي طبيب الطوارئ. وهذا حضر أيضاً بعد دقائق بخطوات مسرعة وأوعز بضرورة تمديد الرجل على بلاط الساحة، ثم حاول طوال ثمان وعشرين دقيقة أن يحييه، فيما تشكلت حلقات مرصوصة من المارة حول مكان الحدث.

توقف باصان وانطلقا، كما وصل باص المعلم في موعده، فنزل ركاب، وصعد غيرهم وتابع طريقه. ومنذ وصول عربة إسعاف الصليب الأحمر ذات الضوء الأزرق والزامور المتتالي

تركز اهتمام جميع الموجودين في ساحة السوق على المساحة الصغيرة التي احتلها المعلم الذي ينازع أو الذي مات وانتهى.

فيما تصبب الطبيب عرقاً خلال محاولاته لإحيائه، تمسكت صديقته ثانية بأمل أن النائم على البلاط كان يمثل وما زال يمثل فحسب، ولكن هذه المرة بإصرار غريب ومفزع. لكنه تنفس تواً. ألم يتنفس؟ ركعت بجانبه وهمست: **هل أنت نائم؟ هل نمت ثانية؟ أنت نائم ثانية.**

بعد ذلك نهض الطبيب وهمس لرجال الإنقاذ المنتظرين، بحيث لم يفهم أحد من المشاهدين ما قاله. ولكن لم يعد ثمة شك في أنه لا مجال بعد لإنقاذ شيء. وبلفتةِ تعاطفٍ نقل رجال الصليب الأحمر المعلم في سيارة الإسعاف إلى مستودع الأموات في المقبرة القريبة، الواقعة في ظل دير البنيدِكتيين الكبير في لمباخ، والذي تُشاهد بوابته الباهية من مقاعد الحديقة الثلاثة. بلفتة تعاطف، لأن سيارة الإسعاف حسب الأنظمة مخصصة للأحياء، في حين أن المعلم في هذا الوقت قد ابتعد جداً عن الحياة.

بعد ساعات عندما عبرتُ رواق الدير في طريقي إلى المقبرة، كانت أشعة الشمس الحادة تسطع فوقي. وعندما دخلت إلى مستودع الأموات كان ضوء النهار الصيفي قد غشى على بصري، بحيث أني خلال اللحظات الأولى لم أر الجثمان المسجّى ولا مساعد مسؤول الدفن، الذي كان يسحب ساعة الميت من معصم يده، ليسلمها مع محفظة ومشط ومنديل وربطة مفاتيح لذويه.

كانت ثياب الميت- بنطال قصير فاتح اللون، صندل، قميص قصير الكمين- متنافرة بصورة غريبة مع سواد حامل النعش، الذي سجي عليه، فبمثل هذه الثياب الخفيفة يجلس المرء على مقعد حديقة تحت الشمس، أو على كرسي استلقاء بجانب نافورة حديقة.

جلِد الميت ووجهه وذراعاه كانوا في ساعات الأبدية الأولى قد اتخذوا لون موت القلب، الذي يحيل اللون الأحمر الفاتح للدم السائل، بسبب نقص الأوكسجين، إلى أزرق، أزرق بنفسجي. عندما أمسكت يده اليمنى ظننت أني أحس ببقية دفء الحياة. لم ينظر المساعد إلى وجهي، لكنه رأى أثر دمع سال على هذه اليد المزرقة، وأراد أن يواسيني. أشار بحذر إلى جبهة الميت وقال: هذا سيختفي، الزرقة ستزول. مساءً سيعود أبوك ثانية كما كان.

●●●

في الفضاء

رأيت فوقي ظلمة سوداء مخملية موشاة بما لا يحصى من النقاط الضوئية، التي تبدو مثل قبة سماوية ممتدة بعيداً إلى اللانهاية، فيما كنت مستلقياً على ظهري على أرضية زورق مسطح يقوده نوتيٌّ من شعب الماوري بضربات مجدافه، عبر الليل.

إن نظام الكهوف المتشعب الذي تجري عبره عروق مائية كالأنهار، يخترقها النوتي تجديفاً وغرزاً، يبدأ من ضفة بحيرة تي أناو في الجزيرة الجنوبية من نيوزيلندا ويتغلغل داخل جبال مورشيزون. وهنا في داخل الجبال، لا تأثير يُذكَر لكون أحد أيام آب / أغسطس قد انتهى في الخارج على ضفة البحيرة، حيث تصلصل القشرة الجليدية، ولكن يوم شتائي عاصف قد غطّى المعابر الجبلية بثلجه الجديد. هنا تسود درجة حرارة متماثلة عبر فصول السنة كلها، وظلمة سكنت الريح، لا يمكن فيها رؤية النوتي ولا مجدافه ولا حتى الأصبع أمام العينين، رغم نجوم درب التبانة المضيئة وضباب المجرات والتكتلات النجمية.

في سقوف الكهوف كانت صورة سماء الليل المنعكسة على سطح الماء الأملس- إلى أن كسرها النوتي بمجدافه ضربة

فضربة- مرصّعةً بيرقاتِ حشرةٍ من ذات الجناحين من سلالة بعوضة القطر، على أديم السواد الكتيم، وهي دودة مضيئة يبلغ طولها 2 – 3 سم تجذب بضوئها الأزرق ذبابة اليوم الواحد وذبابة الجعبة والفراش الليلي أو العث الضال، إلى ستارةٍ بالغة النعومة من خيوط حريرية دبقة، ثم ترفع غنيمتها التي اصطادتها من الظلمة إلى أعشاشها وتلتهمها. والسكون التام للهواء شرطٌ أساسي لهذا النوع من الصيد الذي ينجح بأفضل شكل في الكهوف، لأن أبسط نسمة ستؤدي إلى تشابك الـ60 – 70 خيط صيدٍ المتدلية من الأعشاش الحريرية، بشكلٍ معقدٍ، وغير قابل للانفصال، مثل خيوط صيد صيادي السمك الفوضويين.

الهدوء والسكينة كانا هنا تحتْ، على درجة من الكمال، إلى حد أني سمعت صوت تدفق الدم في رأسي. وكون النوتي قد أخذني في زورقه إلى داخل الجبل، خارج أوقات الزيارة المعلنة على لوحة معلقة في المرسى على ضفة البحيرة، كان امتيازاً يعود الفضل فيه إلى مزارعٍ أسكنني ليلتين في واحدة من ثلاثِ غرفٍ مع فطور في دار مزرعته.

عند دخولنا الكهف أشار إليّ النوتي الماوري، الموشوم الوجه كله بزخارف قبيلته، بأن أستلقي على ظهري لكي أتمتع بسقف سماء الليل فوقي، كمن يركب على بساط ريحٍ ينزلق به بنعومة عبر نسائم رقيقة. ولكني ما أن تمددت على أرضية الزورق حتى غمرني شعور بالطمأنينة كما في مهدٍ، وأحسست في الوقت نفسه بمدى تعبي. فقد قضيت نهاراً طويلاً على

طرق شتوية، ولا سيما منها المعبر الجبلي الذي قطعته بسيارة مستأجرة. وهو يمتد من واناكا إلى كوينز تاون عبر قمة جبال التاج Crown Range Summit ويعدُّ أعلى طريق قابل للعبور في نيوزيلندا، وكدت أسقط على المنحدر إلى الهاوية: قبل الوصول إلى ذروة المعبر بقليل بدأت السماء تثلج ندفاً كثيفة، وسيارتي المستأجرة غير مجهزة لمثل هذه الأحوال الشتوية. وعند طلعةٍ غطّاها الثلج أخذت السيارة رغم عجلاتها الدائرة تنزلق فجأة إلى الوراء، وإلى الوراء! وتنزلق شيئاً فشيئاً نحو حافة الطريق والمنحدر الصخري. كان المنحدر شبه واقفٍ، بحيث أن سيارتي كانت ستسقط إلى نهر صغير يجري أسفل الوادي أسود وبلا صوت.

في عقد تأجير السيارة المطوي والموضوع في صندوق القفازات ورد طبعاً، أنه عليَّ تجنب طرقات المعابر بأي حال من الأحوال في هذا الفصل من السنة، وأني سأفقد حقي في تعويض التأمين في حال تجاوزي هذا الشرط. ولكنّ أخذَ الطريق الذي يلتف حول الجبل بدلاً من عبور قمة جبال التاج، كان يعني عدم وصولي في ضوء النهار إلى هدفي، وهو بحيرة تي أناو. يضاف إلى ذلك أن النهار كان بلا غيوم تقريباً، رغم كثرة رياحه، عندما حسمتُ أمري لأخذ الطريق التي تعبر الجبال.

تهيأت للقفز من السيارة لأنقذ، حسب إحساسي حينها، حياتي المهددة بخطر قدري، لقاء ثمن سيارة مستأجرة، ستهوي بلا راكب إلى نهر الوادي، وفجأة توقفت السيارة

قرب حافة المنحدر.

وذكرى تلك اللحظات من الانزلاق العاجز، جعلت وضعي وأنا مستلقٍ على أرض الزورق، يبدو لي آمناً وساراً، بحيث أني ملت إلى الإحساس الناعس بالحماية وإلى حلمٍ للنجوم دورٌ فيه.

عثر علي أربعة جوّالي جبالٍ في طريق عودتهم من رحلة طويلة، وأنا متأرجح بين الدمار الكامل وخطر الموت على حافة المنحدر، فجرّوني بسيارتهم الجيب، المزودة عجلاتُها بسلاسل للثلج وساعدوني في اجتياز طلعة المعبر، بل إلى ما تحت حدود سقوط الثلج. فظهروا على هامش حلمي كأرواح حماية، مثلما يظهر هؤلاء، في أرض الماوري فقط، للخائفين والمعرضين للخطر.

ولربما كان نوتي زورقي الموشوم الوجه أحد هذه الأرواح. كان يعرف متاهة الكهوف معرفة دقيقة، جعلته قادراً على توجيه الزورق عبر الظلمة دون مصباح، مستخدماً مجدافه مثل عصا الضرير. انزلقنا وتأرجحنا تحت مجرات متوهجة، وقال لي النوتي، إن كثيراً من هذه النجوم تضيء بشدة أكبر من غيرها، إنها اليرقات الجائعة، وضوؤها يجب أن يكون الأشد غواية وفتنة. أما الدودات المضيئات الأخرى التي حصلت على غنيمتها والتهمتها، فإن ضوءها خافت. وهناك أخريات قيد التحول إلى حشرات وتريد أن تعلن عن قرب جاهزيتها للإخصاب، فتضيء وتخبو بالتناوب، إنها تومض.

الحال إذاً، هنا في عمق الكهوف، لا يختلف عن حال السماء

في الخارج ليلاً، فوق بحيرة تي أناو والذرى المغطاة بالثلوج. فهناك أيضاً توجد نجوم تغيّر طاقة إشعاعها دورياً، وهناك شموس قوية الإشعاع وأخرى ضعيفة، وهناك غيوم داكنة وثقوب سوداء. وعلماء الحشرات يؤكدون ذلك في حقيقة الأمر، قال النوتي، أن يرقات بعوضة الفطر المضيئة فوسفورياً، لا تبغي سوى تقليد سماء النجوم خداعاً، لتولد عند طرائدها وهمَ الأمان بأنها ترفرف وتئز طائرةً في ليلة صيف هادئ بعيداً عن الأخطار، بحرية لا حدود لها، في حين أنها تتجه حقيقةً نحو خيوط الصيد الحريرية الدبقة.

ثم مشى الزورق على أرض ذات ليونة غريبة. وضع النوتي المجداف في الزورق وأضاء مصباح جبينه، الذي كان له تأثير إضاءةِ مدينةٍ موجهة بكاملها نحو السماء، فطغى بنوره هنا أيضاً على جميع الغيوم النجمية وجعلها تختفي. مد يده إليّ ليساعدني على الترجل من الزورق لأطأ ضفة تتهشم مطقطقة تحت أقدامنا، لكونها مغطاة بطبقة سميكة جداً من الحشرات الميتة، بأجنحتها اللامعة وسوقها الدقيقة وأثوابها القرنية.

قال النوتي إن أطول مرحلة في حياة هذه الحشرات هي مرحلة اليرقة المضيئة، كنجم مضيء. وأخيراً عندما يخرج من الخادرة كائن مجنّح، يبقى له في الحياة بضعة أيام للتكاثر فقط. فالعشاق، أضاف النوتي، الذين يتهافتون على بعضهم في الظلمة أو يطيرون إلى بعضهم، لا أفواه لهم، ولا أدوات للأكل ولا جهازاً للهضم، كما أنهم لا يحسنون الطيران إلا بصعوبة. لهذا تجدهم يبقون قرب أعشاشهم الحريرية المهجورة، بانتظار

زوجٍ لممارسة العملية الجنسية ووضع البيض. ومن ثم يجوعون معاً إلى أن يموتوا ويسقطوا من سماء الكهوف على الأرض الصخرية وفي الماء، الذي يرتفع مستواه حسب كمية الأمطار في الخارج، فيجمع الجثث ويجرفها إلى بعض ضفاف الكهوف مشكلاً هذا البساط الهش من المومياءات.

وأضاف النوتي إننا سنتابع الآن مشينا على هذا البساط إلى مساحة أعمق داخل الجبل، داخل الظلمة، إلى حافة القبة السماوية، وأطفأ مصباح جبينه.

سمعت صوت صورته غير المرئية تقول لي: لا تخف. أمسكَ بيدي وأردف: سنتبع درب التبانة الذي فوق رؤوسنا حتى نهايته ولا حاجة لأن نخشى السقوط أثناء ذلك. فمن يتعثر ويقع في هذه الظلمة، سيسقط على أرض طرية، على غبار النجوم.

●●●

ضربة غولف في القطب الشمالي

رأيت لاعب غولف في وسط تلك الدائرة،
التي قام بحارة من كاسحة الجليد الذرية الروسية يمال Yamal،
بزرعها باثني عشر علماً وطنياً في الجليد المتكسر.

بناء على قياسات الملاحة الفضائية بين يمال والقمر الصناعي، والتي تبلغ دقتها 1/3000 درجة من الزاوية، يفترض في مركز دائرة الأعلام أن توجد تلك النقطة الرياضية، التي تأتيها جميع الرياح من الجنوب وتهبّ منها إلى الجنوب، وحيث تشير البوصلة المغناطيسية دوماً إلى الجنوب، وحيث تتحد خطوط الطول، وتتوقف قوة الطرد المركزية للكرة الأرضية، وحيث تتوقف النجوم أيضاً عن الشروق والمغيب.

خطا لاعب الغولف إلى هذه النقطة، التي باعتبارها القطب الشمالي والتي جذبت مواكب طَوافٍ من المكتشفين والمغامرين وأساطيل كاملة إلى الجليد المتكسر، وإلى ظلمة الليل القطبي، وغالباً إلى الهلاك. كان يحمل في إحدى يديه كيساً مملوءاً بكرات الغولف، وباليد الأخرى مضرباً. هو الأضخم بين مضاربه، يستطيع به أن يقذف الكرة إلى مسافاتٍ بعيدةٍ، راغباً في أن يفي بعهدٍ قطعه على نفسه قبل عشرات السنين، في الشهور الأولى غير المشجِعة على ممارسته لعبة الغولف:

ذات يوم، ذات يوم.. سيركب في كاسحة جليد إلى القطب الشمالي، وهناك سيقذف باتجاه الأفق 18 كرة، بما يتناسب مع ملعب غولف بـ18 حفرة. سيقذف بمضربه 18 كرة من النهاية المطلقة للعالم باتجاه خط الاستواء.

أصدقاؤه في النادي ضحكوا من هذا العهد الذي قطعه على نفسه، بعد عدة زجاجات من بيرة شيراز الكاليفورنية، وشاركهم في الضحك. ولكن منذئذٍ، كلما ذُكر القطب وانجراف الجليد، أو التنقيب عن النفط في مدار القطب، أو رحلات الزلاجات أو رحلات كاسحات الجليد، كان يتذكر عهده. وشيئاً فشيئاً، لا سيما منذ أن تحولت البحرية السوڤييتية إلى روسية ثانية، وبدأت تنقل السواح وضيوف الصيف القطبي مرتين سنوياً بكاسحات جليدها إلى تلك النقطة السحرية، التي بقيت لمئات السنين غير قابلة للوصول إليها إلا بمسيرات مضنية ومفزعة عبر الجليد أو برحلات الزلاجات، منذئذٍ صار ضرب كرة غولف في القطب الشمالي هدفاً قابلاً للتحقيق. ولم يعد يحلم بالقطب فحسب، بل انشغل أيضاً بعروض رحلات نادرة وباهظة السعر إلى الجليد القطبي المتكسر صيفاً. كاسحة الجليد يمال مثلاً، ذات المفاعلين النوويين وطاقة تعادل 75000 حصان تحمل على متنها ثمانين مسافراً من جميع الجنسيات ببطاقات مدفوعة الثمن، إضافة إلى طاقمها المؤلف من 150 ملاحاً، تنطلق من مورمانسك في شبه جزيرة كولا Kola لتصل إلى نهاية العالم خلال أسبوع حسب ظروف الجليد.

وقفتُ وراء سور كاسحة الجليد، عالياً فوق لاعب الغولف الذي نزل من على سلم السفينة إلى سطح الجليد، ورأيته وهو ينتزع العلم الأحمر من مركز دائرة الأعلام، ويضع في مكانه فنجان الغولف ثم كرته الأولى، التي لم أتبيّنُها بسبب بياض لونها والمسافة. وكان هناك بحار مسلح ببندقية متمركز على تلة جليدية لحمايته من احتمال ظهور دبب قطبية، وكان بين الفينة والأخرى يبعد المنظار عن عينيه لينظر نحو محميّه.

رغم أن شمس القطب الشمالي الصيفية في أيام آب/ أغسطس تبقى في السماء أربعاً وعشرين ساعة، فإن سطوح السفينة يمال خاوية من الركاب.. وراء الواجهة الزجاجية لغرفة القيادة ظهر للحظة وجه أحد الضباط المكلفين بالمراقبة واختفى. كان كل شيء هادئاً.

عندما وصلت يمال إلى القطب في وقت مبكر من مساء اليوم أمر القبطان، وهو خبير في الفيزياء الذرية من سان بطرسبورغ، بإيقاف جميع المحركات، فلم يعد يُسمع منذ أيام سوى صوت الريح في الأجزاء العليا من السفينة، وصلصلة الجليد المتكسر وتنهيداته أحياناً. كان ماء المسلك الذي فتحته الكاسحة أسود اللون، لكنه عاد فانغلق أمامها إلى مدى بعيد لا نهاية له، مغطى بحطام قطع الجليد المتكسر. أما كاسحة الجليد فقد شمخت عالياً مثل نصب لما يوحي به اسمها تحت شمس منتصف الليل، في هذا المشهد الشاسع من الأنقاض الجليدية :اسم يمال يعني نهاية الدنيا، بلغة النِنْزْ، وهم السكان الأصليون لشبه جزيرة ساموي‌دن Samojeden السيبيرية.

أثناء الرحلة التي مخرت فيها يهال عباب بحر بارِنْتس إلى حدود الجليد القطبي، خلال منخفض جوي عاصف ارتفعت فيه جبال الأمواج، لتتكسر أخيراً على مؤخرة السفينة عندما اخترقت مقدمتها بحر القطب المتجمد، لم يكن للاعب الغولف على مائدة الطعام من حديث سوى المحطات الخضراء في حياته، أي ملاعب الغولف المفروشة بسجاد من العشب الأخضر. بعض الحفر تطلبت منه على نحو مخجلٍ عدة ضربات حتى إسقاط الكرة فيها، في حين كان إسقاطها في حفرٍ أخرى سهلاً، كنزول فقاعة صابون في بالوعة.

لاعب الغولف آتٍ من ولاية إلينويز الأمريكية، من بلد ملاعب الغولف الجميلة، وكان بمقدوره أن يطل على أجملها من نوافذ بيته في شيكاغو، إضافة إلى بحيرة ميتشيغان ذات الزرقة البحرية. أما وطنه الأقدم فهو ريغا في ليتوانيا، حيث جرجر المحتلون السوفييت أباه إلى معسكر عقاب في سيبيريا، وبعد مدة قصيرة جرجر المحتلون الألمان أمه كعاملة سخرة. يا لها من أوروبا مفزعة. أما هو فقد نجحت عملية هروبه عبر ألمانيا وفرنسا وإسبانيا إلى أمريكا، حيث قفز من الغيوم كمظلي في القوات الجوية Air Force أكثر من ألفي مرة. وذات يوم من تشرين الأول (أكتوبر) لم تنفتح مظلته بشكل كامل، بل قسمتها حبالها نصفين يشبهان صُديرية نهدين هائلين ترفرف بريح السقوط: وقد أطلق الطيارون على كارثة انقسام المظلة بحبالها على هذا النحو اسم مَي ويست **Mae West**، وهي إحدى رموز الجنس في سنوات الحرب.

لقد سقط على كل حال بمثل هذه المظلة، وارتطم بالأرض بقوة جعلت جسمه يقفز عالياً، كاصطدام كرة غولف بأرض الملعب، بحيث تكسر كل ما يمكن أن ينكسر في جسم إنسان دون أن يموت. وأثناء تناول طعام الغداء في يمال تذكر لاعب الغولف أيضاً تيار الدم الذي تدفق من فمه، وأن جنرالاً قد صافحه في المستشفى العسكري.

إلا أن مَي ويست تسببت في انتقاله إلى مجال عمل آخر، إلى ميدان التعامل مع مواد البناء: من قرميد وحجارة ورمل واسمنت، التي بدأ يتاجر بها بصفته محارباً قديماً، فمهدت أمامه الطريق إلى حياة أفضل. فالقرميد والاسمنت يمثلان في نهاية المطاف نقيض مظلةٍ في مهب الريح ونقيض خفة الطيران التي لا يُبنى عليها أي شيء.

وفي ساعة منتصف الليل المشمسة هذه، عندما وضع لاعب الغولف أولى كراته على القطب الشمالي، يُحتمل أنه قد فكّر بمَي ويست. ففي جميع المناسبات الخاصة، حسبما قال أثناء تناول الطعام، كالأعراس والدفن والتعميد والاحتفالات السنوية، كانت مَي ويست تخطر في باله للحظات بصورة طاغية، فينتابه إحساس بأنه يهوي ويسقط.

ببطءٍ متأنٍ وحركةٍ تحميةٍ واسعة بالمضرب، واضعاً نصب عينيه هدفاً ما في مكانٍ ما جنوباً، ضرب الكرة بقوة هائلة، والتفت بجسمه مع حركة دوران المضرب، ولكأنه يقف لوحده على سجادة عشبية في أكثر ملاعب الغولف عزلة في العالم.

من مكاني حيث أقف مستنداً على سور سطح كاسحة الجليد، لم أر طيران كرة الغولف، لكني سمعت الصوت الحاد للضربة. وبدأتُ بالعدّ معه، والكرات تطير في السماء القطبية فتبدو أخيراً مرئية على هذه الخلفية الزرقاء القاتمة، وأتخيل الملاعب الخضراء المناسبة لها: معسكر عقاب سيبيري، عاملة سخرة مجهولة مكان الإقامة في ألمانيا، بيت مهجور في ريغا، قفزة بالمظلة فوق منطقة معارك ملتهبة، بحيرة ميتشيغان في الخريف وانعكاس صورتها على نوافذ بيت جديد...

الثامنة عشرة. ضرب لاعب الغولف الكرة الأخيرة إلى عمق الجنوب وترك المضرب ينزل. الكرات ستختفي في الثلج وستطويها طبقة الجليد القطبي داخلها، وأخيراً مع إيقاع الفصول وارتفاع وانخفاض ضغط الجليد، الذي سيقذف كتلاً بسماكة متر ويعود فيلتئم، ستنزلق الكرات إلى الماء وتغرق إلى قاع البحر، إلى عمق يزيد على 4000 متر.

ولكن ليس هنا فوق فقط، بل هناك أيضاً، في ظلمة الأعماق تحت، انتصب علم روسي زرعه بحارة غواصة روسية في أضواء الكاشفات، دلالة على أن كل ما يمكن التنقيب عنه في هذه العتمة واستخراجه هو ملكية روسية.

وفي محيط هذا العلم ستتساقط كراته، كما على ملعب غولف معتم، كإرث رجلٍ فقد أباه في سيبيريا وأمه في ألمانيا. كإرث لاعب غولف سيرفع مضربه عالياً فجأة، دون أن يضع كرة، ويؤدي ضربة على درجة من القوة، مزق بها الفراغ، بحيث خيّل إليّ من مكاني في أعلى السور أني سمعتها تشق الهواء.

عودة إلى الديار

رأيت تياراً من آلاف أسماك السلمون الفضي، تحاول جاهدة أن تتقدم بعكس مجرى الماء، في نهر لا يغطي عمق مائه كاحل القدم، ذات نهار مشمس من تشرين الأول / أكتوبر في أونتاريو الكندية. فبعد صيف جاف لم يبق في النهر سوى القليل من الماء. كانت الأسماك تقفز باستمرار، وبعضها منهك حتى الموت، فوق عوائق كأخشاب مجروفة وصخور محاطة بالزبد، لتسقط أحياناً على جزر من الحصى بعرض أصبع، فتلعبط وتنتفض عائدة إلى الماء الذي يجرفها مع مجراه برهة وكأنها ميتة، قبل أن تعاود الكفاح مصابة بجروح من الأغصان والحجارة، إلى درجة أن أجسام بعضها كانت ممزقة وقطع اللحم متدلية منها.

كانت الأسماك القافزة تتجاوز بنات جنسها من السمك الميت والمشرف على الموت والذي يجرفه النهر معه بالكثافة نفسها، وقد شوهت الجراح الكثير منه أيضاً. وهكذا تشابك تيار السمك الحي مع تيار السمك الميت وتداخلا. وفجأة، عندما كانت سمكة حية تظهر من بين زحمة الميتات، وتقفز فوقهن متجاوزة إياهن، كان الأمر يبدو وكأن العودة من ملكوت الموتى قد نجحت.

إن هدف السلمون الفضي بعد السباحة عدة أسابيع بعكس التيار، هو الوصول إلى أماكن وضع البيض التي تُعد في الوقت نفسه أماكن تفريخها. لكنه في هذا الخريف لن يصلها، ليس فقط لأن انخفاض مستوى المياه سيجعل من النهر عائقاً يصعب تجاوزه، ولكن بسبب شلال يبلغ ارتفاعه ستة أمتار. في الأوقات الماطرة كان بوسع السلمون بضربات زعانفه البالغة السرعة أن يسبح عالياً، بل أن يطير عالياً، عبر ستائر رذاذ الشلال. أما الآن فإن شحّ الماء الساقط في البركة الصخرية لا يولِّد ستائر رذاذٍ كافيه لضربات الزعانف.

وهكذا كان السلمون، عند وصوله البركةَ بعد ساعات قليلة، يقفز منهكاً، مكرراً المحاولة مرات بلا جدوى، في وشاح ماء الشلال، ليسقط منه مراراً وتكراراً، إلى أن يشرف على الموت فينجرف أخيراً نحو مجرى النهر، وليس بعكسه، فيلتحق بالموتى، باتجاه ذلك السمك الذي ما زال يصارع بآخر طاقته ليقفز من فوقه.

كان هناك رجل يرتدي ثياب صياد سمك، ويحمل سلة فارغة، ويخوض بعكس المجرى مع تيار السمك الحي، المندفع أمامه بآخر رد فعل هرباً منه. قال هذا الرجل إن سلمون المحيط الهادي خلافاً لسلمون المحيط الأطلسي، حتى في خريف ماطر وأنهار غزيرة المياه يموت دون استثناء في طريقه إلى أماكن وضع البيض، ويصير طعاماً للدببة والنوارس والعقبان والنسور وفي هذه السنة لن يكون هناك خَلَف للسلمون، إلا إذا وصل إلى أماكن وضع البيض وراء

الشلال. مكافحون آخرون ضد تيار النهر الموازي لهذا وغير البعيد عنه، وليس من هذه الساقية.

بالنسبة للسمك الفتي الذي سيضل طريقه ذات يوم إلى هذا النهر المعتوه، نازلاً مع هذا الشلال المعتوه، قال الرجل، سيبقى هذا الطريق راسخاً في ذاكرته لا يمحى، باعتباره طريقه الوحيد إلى الموت، والذي لا بد له، بعد بضع سنوات سعيدة في المحيط، من أن يسبح ضد مجراه عائداً إلى دياره. وليس بوسع المرء تجاه ذلك، سوى أن يتمنى له المزيد من المطر لعودته إلى الديار عبر هذه الساقية هنا، كي يسعد على الأقل بخلَفه.

انحنى الرجل بعد حديثه فوق التيارين المتداخلين من موتى السلمون وأحيائه، ورمى في سلته من تيار الأحياء ثلاث سمكات، بدت غير مصابة بأذى، واحدة بعد أخرى.

●●●

تيار

رأيت وجه صياد السمك هوْ دويون الأسمر الغارق بالعرق في ليلة راعدة من تشرين الأول/ أكتوبر في پنوم پِن. في تلك الليلة كانت عاصمة مملكة كمبودشا تحتفل بـ **عيد الماء**. ركع هوْ على ضفة نهر الميكونغ تحت باقات شرار الألعاب النارية التي شدّت أقواسُها الملتهبة وجسورُها الضوئية النهرَ كوترٍ للحظات، قبل أن تنطفئ في لعبة ألوان راعدة.

رأيت انعكاس الألعاب النارية في خيوط العرق التي زحفت على جبهة وخديّ هوْ، وأحسستُ بهذه الآثار كدلالة على أن هذا الرجل آت من ملكوت المياه وينتمي إليه وسيبقى مرتبطاً به، مثل سطح الميكونغ المتكسر، الذي يعكس أشكال الألعاب النارية في شظايا وبروق متكسرة، قاذفاً إياها إلى سماء الليل.

كنت واحداً من مئة ألف إنسان، يستمتعون بمناظر الألعاب النارية، جالسين على الدرج العريض المكشوف، الذي ينحدر من شارع النخيل أمام القصر الملكي إلى مراسي المراكب على ضفة النهر: وضع هوْ سفينته الصغيرة المصنوعة من الخيزران وأوراق شجر الموز بحذر في الماء، ودفعها برفق

في التيار، وأبقى ذراعه ممدودة، كما للحماية، وهو يراقب ساكناً بلا حراك، اندفاع المركب المحمَّل بشموعٍ مشتعلةٍ وزهورِ لوتُس مع التيار، حتى أمسكت به دوامة متثاقلة، فانقلب رأساً على عقب وغاب في العتمة.

عندها ترك ذراعه تنزل، نهض واقفاً وانحنى للنهر احتراماً. لقد قبل الميكونغ أضحيته، وهي تجسيد مصغر دقيق المقاييس للمركب / البيت المغطى بألواح التوتياء وسعف النخيل، الذي مخرت به أكبر بحيرات كمبودشا، مسافراً وحيداً مع هوْ دويون طوال الأيام الثلاثة الماضية.

عيد الماء. إن كل ما حكاه لي هو دويون عن حياته، أثناء أيامنا المشتركة في قاربه/ بيته، بدا مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بهذا العيد. فكلما قادته إحدى الذكريات إلى أعماق ماضيه، كانت تأخذه الحماسة في الحديث عن هذا العيد؛ عن سباق القوارب، عن مئات ألوف المتفرجين من منتزهات الضفاف أو على متون القوارب والكنوات الراسية، عن أشكال الألعاب النارية. إلخ، وكأن الحماسة المتعددة الأصوات وجميع أنوار عيد الماء لا هدف لها سوى أن تطمس الماضي بالأصوات والأنوار. فما يُحتفل به أولاً وأخيراً في هذه الليلة التشرينية ليس بداية فصل جديد فحسب، بل انقلاب تيار النهر:

لقد أدى موسم الرياح والأمطار الموسمية إلى ارتفاع مستوى مياه بحيرات وأنهار كمبودشا إلى 10 – 12 متراً، فحوّل قرى إلى جزر، وبيوت زارعي الرز المبنية على أعمدة إلى ما يشبه سفينة نوح. كما غمرت المياه الشوارع والطرقات،

وأغرقت غابات شجر الساج الطويل تاركة الحشائش المائية ترفرف من تيجانها. في هذه الشهور كان أكثر من ثلث أراضي البلد غارقاً في فيضان مرتفع ثم هابط، حسب قوانينه الزمنية الدقيقة كساعة شمسية، بعد أن استدعته صلوات الاستسقاء مترافقة مع قرع الصنوج. فمن دون غرينه لن ينبت العشب في المراعي لجواميس الماء وقطعان البقر الدرباني، ولن ينمو الرز في الحقول المحاطة بالسدود الطينية. نعم، من دونه ستبقى الزراعة والحضارة والفنون وكافة تجليات الحياة مجرد أحلام في بلد الخمير Khmer. ولكن في ختام موسم المطر تتجدد ولادة الأرض بطاقةٍ تكتونية دورية، فتدب الحركة في الطرقات المائية والبرية، وكذلك في الحقول والمراعي، خارجة من فيضان الغرين والوحل لتواجه السماء.

إن المكان الأبلغ تأثيراً لتجلي الفيضان في كمبودشا كلها، هو أمام القصر الملكي في پنوم پِن. فأمام هذا القصر، أمام عيني حاكم يُبجَّل منذ قرون كإله، يشترك الميكونغ طوال كيلومتر من تياره مع نهر **تونْلِه ساپ** الذي يصب هنا في سريرٍ هائلٍ واحد. ولكن تحت جبال غيوم موسم المطر يقوم اندفاع ماء فيضان الميكونغ بتشكيل سدٍ في وجه تونْلِه ساپ، الأضعف والأرق، فيمنعه من الدخول إلى السرير المشترك، ويضطره إلى الانقلاب عائداً إلى بركةِ فيضانٍ هائلة، أي إلى بحيرةٍ. وهذه البحيرة التي تحمل اسم النهر تتمدد وتتضخم في موسم المطر إلى سبعة أضعاف حجمها الأصلي وتستلقي بشكلها هذا مثل قلب مائي نابض في وسط كمبودشا.

في أرض الخمير يُطلق الناس على تونله ساپ اسم **نهر بلا ملح** أيضاً. لكن صياداً مثل هو دويون ومراكبية آخرين يفضلون أن يدللوا النهر باسم **النهر الحلو**: فهو يهدر خارجاً من الغابات العذراء المحيطة بمنابعه متجاوزاً في موسم المطر سدوداً وحواجز مائية، ثم يخبو اندفاعه ويجري بنعومةٍ، لينزل أخيراً، مجهداً هامساً فحسب، نحو مصبه في پنوم پِن. لكنه يتوقف عند قصر ملوك الخمير، على مسيرة أقل من نهار فحسب من أمواجٍ بحر الصين الجنوبي، وكأن المحيط قد أخافه، فيسكن ويملِّس سطحه، ثم يأخذ تحت ضغط الميكونغ ببطء واستمرار بالجريان بعكس تياره باتجاه منابعه. في نهاية موسم المطر تتراجع سلطة الميكونغ، فيستعيد تونله ساب تيار جريانه مبتعداً عن منابعه ليتجه أخيراً نحو البحر.

وفيما تهبط مستويات المياه، وتسيل مياه الفيضان من الأراضي الداخلية بسرعة، بحيث تعلق أسراب من السمك في أغصان الشجيرات وتيجان الشجر، فيقطفها سكان القرى السابحة من الأغصان إلى سلالهم، حسب أقوال هوْ، يعود نهر الخمير ليتحد ثانية مع الميكونغ في السرير القديم نفسه. لكنه بعد الجريان المشترك مسافة كيلومتر واحد، وكأن الاتحاد قد أثّر فيه وبدّل حاله، ينفصل ثانية باسم جديد ويتابع طريقه الخاص عبر غابات المنغروف على الساحل الكمبودشي.

تشاكتوموك أي أربعة وجوه، تسمية يطلقها الخمير على إشارة × المليئة بالندوب والناشئة عن تقاطع تيارات جارفة، لا يمكن التحكم بها، والتي لم تُنقش فقط على أرض وحل

الممالك الأنغكورية[1] للملوك المؤلهين، بل أيضاً كمؤشر مستوى الرعب المهول الذي بلغه حكم سالوت سار، ابن الفلاح من مقاطعة كامپونغ توم، الذي عُرف باسم پول پوت وحوَّل كمبودشا إلى مسلخ. بعد أن توقفت سيول الدماء تم تقدير عدد ضحايا حزبه الخمير الحمر بنحو مليوني إنسان، بل أكثر من مليوني إنسان.

إنها تصالبٌ ثلَّمته دوّاماتٌ ودوّراتٌ، يضيع فيه بلا صوت تقريباً تونله ساپ، وهو النهر الوحيد في العالم، الذي يقلب جريانه حسب إيقاع الفصول.

فهو يبدو أنه يرجع إلى منابعه، لكنه كمن استعاد رشده في نهاية المطاف، فعاد ليجري باتجاه البحر، إلى انحلاله في مياهه. كان هذا موضوع أحاديثنا في بحيرة تونله ساپ، فهو يناقض على ما يبدو قوانين الفيزياء والمنطق، ويذكِّر بحالات رجوع أخرى تبدو مشابهة، مثل رجوع مطر العاصفة الرعدية إلى الغيوم، أو الرجوع إلى بدايات الزمن، أو الرجوع إلى الطفولة.

پول پوت والخمير الحمر، جماعته، قال هوْ دويون، حلموا أيضاً بالرجوع، بطريق عودة إلى الماضي، حلموا بأمجاد الأسلاف العظماء في ممالك الخمير القديمة، وبألق العاصمة أنغكور التي سكنها في القرن الثاني عشر مليون نسمة، فكانت حينها أعظم مدينة في العالم. ومثلما نهضت ممالك الخمير القديمة من حقول الرز والزراعة، يجب على سلطة الخمير

---

(1) مقر الحكم ومعبد هندوسي وبوذي في الوقت نفسه لممالك الخمير منذ القرن الثامن للميلاد.

الحمر أن تنهض من العمل الفلاحي.

في عهد پول پوت تم تهجير مئات الألوف من سكان المدن إلى الأرياف والغابات والشواطئ. ليصيروا فلاحين وعمالاً زراعيين وصيادي سمك. كان عليهم تحويل الغابات إلى حقول زراعية والقفر إلى بساتين. قال هو دويون إن من كان يضع نظارات، يصبح موضع شبهة، بأن لا يكون إنساناً جديداً ثورياً، بل ابن مدينة متنمر مضَّلل العقل، فيُقتل. ومن يُضبط لكونه يفهم لغة أجنبية، مثل هو دويون، الذي حكى لي أشياء من تاريخ أسرته وبلده بإنجليزية ذات وقع أمريكي، تعلمها على متن مركبه/ بيته بواسطة أشرطة تسجيل، يصبح مشبوهاً ويُقتل. لسنوات أضحت پْنوم پِن مدينة أشباح، بشوارع خاوية من البشر ومنازل وساحات وحدائق غطتها النباتات وعادت إلى حيز الغابات متروكة للجرذان والكلاب المستوحشة وقطعان القرود.

أثناء الرحلة في قاربه / بيته حكى لي هوْ دويون عن مصائر ثلاثة عشر فرداً من أسرته عذبوا حتى الموت وأعدموا أو اختفوا، حكى لي عن أبيه الذي دفنه الخمير الحمر حياً في حفرة وحل وهو ينزف من طلقات الرصاص، وعن أخوته الذين قتلوا ضرباً بالخيزران، وعن أمه التي شوهها مرض الاستسقاء وماتت جوعاً وسط حقول رز خصبة على ضفاف أغنى مناطق الصيد في هذا البلد، لأن أنغكار، حزب پول پوت الشيوعي الكلي السلطة والقدرة قد رفع شعار الاهتمام بكل شيء وتوفير كل شيء. ورمى الجوعى الذين كانوا يقطفون ثمار

الغابة ويلتقطون القواقع والديدان، بتهمة السخرية من رعاية أنغكار اللا محدودة: هذه التهمة تعد جريمة عقوبتها إرسال المتهم إلى سجن التعذيب توول سلِنغ ومنه إلى تشويونغ إك وهي منطقة مستنقعية غير بعيدة عن پنوم پِن، والتي دخلت في تاريخ الظلم الوحشي باسم حقول القتل. هناك في تشويونغ إك كان على أعداء الشعب أن يركعوا بجانب بركة ويضربون بالخيزران حتى الموت، لأن الخمير الحمر يأبون هدر رصاص بنادقهم المكرس للثورة على هذه الحثالة.

لقد رأيتُ الجدران الملطخة بالدماء في زنازين وغرف استجواب توول سلِنغ، وكذلك مزَق ثياب القتلى الطافية على سطح مياه بركة تشويونغ إك السوداء. خلال الأيام التي أمضيتها في بحيرة ونهر تونلِه ساپ، الذي يؤرجح تبدلُ مسارِه كل مظاهر الحياة في النهر وعليه كما في مهدٍ، دون أن يخفف من آلام الذكريات، غسلت ثيابي في مياه راكدة وراء نتوء في النهر وسبحت واصطدت سمك الأفعى في أحد تفرعاته التي لا تحصى، بل وسمكة قطٍ أيضاً لونها يقارب البياض المقدس في المعابد الطافية على أعمدة، ما جعل هو ينصحني بإعادة صيدي إلى ماء النهر الأصفر الطيني. وخلال هذه الأيام لم أر هو دويون يبتسم إلا عند ذكر عيد الماء المنتظر.

تحت أضواء الألعاب النارية لهذا العيد سيضع هوْ تجسيداً مصغراً لقاربه، محملاً بزهور اللوتس والشموع المشتعلة على أمواج تونْلِه ساپ. وقاربه مع آلافِ أخرى من الأطواف والسفن الصغيرة المصنوعة من أوراق الموز والخيزران والحرير

والمحملة بالشموع، ستتراقص مندفعة مع التيار المنقلب لنهر الخمير، في موكب من الأضواء التي ستكتبُ في الظلام: أن ثمة علامة نارية متوهجة وجارية، لن تتبع أبداً، طريقاً واحداً مثبتاً إلى الأبد، لا الماءَ ولا الزمن، ولا الحياةَ نفسها المتجولة في مجاهل السماء.

●●●

شغل الملائكة

رأيت سوراً بارتفاع قامة إنسان، يرسم قوساً واسعاً تحت أشجار غطاها الصقيع. تابعت بنظري امتداده، فتبيَّنت بين جذوع سوداء بعيدة سطوحاً شديدة الانحدار ثم برج كنيسة مارتين في ترِبيتش، وهي مدينة في جنوبي ذلك البلد الذي كان يسمى تشيكوسلوفاكيا على خرائط أوروبا الوسطى.

في بنسيون على ضفة النهر، قيل لي مع إشارة إلى مرتفع مشجر بكثافة، إني إذا سرتُ في هذا الدرب حتى تلك القمة، أي هضبة هرادِك، فسأجد پاڤليك هناك اليوم بالتأكيد، فهو دائماً هناك، أو تقريباً دائماً عند سوره. ويبدو أنه سيقضي ما تبقى من حياته هناك فوق.

وفعلاً، بعد ساعة تقريباً، ما كدت أمشي مئة متر بمحاذاة سور پاڤليك، حتى رأيت رجلاً عجوزاً، يحمل معولاً يحرر به أحجاراً من كومةِ أنقاضٍ مغطاةٍ باللبلاب، ويحملها إلى ثغرةٍ في السور، تبدو هنا كما لو أن السور قد تعرض لهجوم. وكان واضحاً أن العجوز يحاول سد هذه الثغرة. رأيت سَقّالة خشبية تسد الفجوة، ولكن مع إمكانية إلقاء نظرة عبرها على صفوفٍ طويلةٍ من قبورٍ وشواهدِ مغطاة بالأعشاب. بعض

الشواهد ما زال قائماً وبعضها الآخر ساقطاً أو مرمياً أو غارقاً في الأرض المتجمدة.

نعم، قال العجوز، أنا بوهومير پاڤليك، ووضع حجراً آخر على السقالة الخشبية قبل أن يفرك يديه المتربتين بخصلة حشائش تتلألأ بالإبر الجليدية.

أنا لم أسأل في تريبتش عن پاڤليك إطلاقاً، فهذا الاسم سمعته أول مرة في البنسيون، بل سألت عن المقبرة اليهودية الموجودة منذ أربعمئة سنة وراء هضبة خارج المدينة. لكن العجوز كان هو المقبرة، على الأقل في عيون مواطنيه.

لا، پاڤليك لم يكن يهودياً. ولكن باعتباره معلماً سابقاً، يبذل جهده يومياً لإدخال مزيد من النور في عقول الأجيال القادمة، فإنه لم يكن صديقاً للشيوعيين، الذين كانوا يحكمون البلد حينها، وأرادوا التخلص من كل ما يتجاوز فهمهم أو يعارض مبادئ عقيدتهم. ولما لم تسكت الشائعات القائلة بأن هذه المقبرة لا بد من تقويضها ودك أرضها وتهيئتها للبناء، استاء پاڤليك واستنكر الأمر، واتخذ قراراً بأخذ أمر هذا القفر على عاتقه، أمرِ هذه المقبرة التي لم يدفن فيها أحد، منذ ترحيل آخر يهود تريبيتش البالغ عددهم نحو ثلاثمئة، في قاطرات نقل الحيوانات إلى معسكر الاعتقال، تِريزْينْشْتات. لم ينج منهم خلال سنوات الهول سوى عشرة. ومن هؤلاء لم يعد أحد إلى مدينته، موطنه. فمن إذاً سيحمي هذا المكان المهجور المهمل البائس من الحيوانات البرية والكلاب، من نابشي القبور، ومن غضب الشيوعيين المدمِّر، وأخيراً من الزمن نفسه؟

حينذاك لم يكن پاڤليك يعرف الكثير عن اليهودية، لكنه كان يعرف القانون الذي ينص على أن قطعة الأرض التي قُبر فيها الميت فلان، تبقى حفظاً له مدى الدهر. فمن كان ينتظر بعثه من قبره في مقبرة يهودية، يبقى قبره له حتى ما بعد سقوط الورقة الأخيرة من شجرة عائلته. وليس كما هو الحال في مدافن الكنائس المسيحية، حيث تُجمع عظام المرفوعين من قبورهم في دار العظام فوق بعضها، وتُفرَّغ القبور، التي يُفترض أن تحفظ الميت حتى يوم النشور، وتباع إلى ذوي ميتين آخرين قادرين على دفع ثمنها.

آنذاك، قبل خمس عشرة سنة، لا، بل قبل ست عشرة سنة، كان پاڤليك قد بدأ دون أسئلة بإعادة بناء السور الحجري المحيط بالمقبرة. على مر مئات السنين ضمت هذه المقبرة رفات 11000 إنسان. بلغ طول السور كيلومتراً ونصف، وكانت أجزاءٌ كثيرة منه مهدومة حتى الأرض، مثل كثير من الشواهد، التي رفع بيديه الاثنتين مئات ومئات منها وحررها من الأعشاب وأغصان الدغل ومن الطين وجعلها ترى النور مجدداً. فإن لم يعد للموتى أخلاف أو أقارب يضعون حجارة على القبر، دلالة على أن الميت ما زال في الذاكرة، ومحبوباً دائماً، أو أنه على الأقل لم يُنس، ففي حماية هذا السور لا بد من أن تسود السكينة والطمأنينة، على الأقل ما دام پاڤليك حياً. وكان في تلك الأيام قد بلغ الثمانين من عمره.

الحجارة التي رأيتها على كثير من القبور، كان هو الذي وضعها هناك، ويفترض بي الآن أن أخلع قفازَيّ وأضع

أيضاً بعض الحجارة على بعض القبور. فالحجارة هنا أهم من الزهور، وهي تُذكر بأيام الكتاب المقدس، حينما كانت القبور تثقّل بالحجارة لحمايتها من جوع آكلي الجيف ومن عواصف رمال الأرض المقدسة.

خلال معظم أيام عمله الشاق كان پاڤليك غالب الوقت وحده هنا، كما في هذا اليوم الشتوي الشديد البرودة، لدرجة أنه لا يلمس الملاط بيديه، بل يكتفي بتهيئة هذه الحجارة القديمة من السور التي غطتها الطحالب. ونتيجة لذلك أخذت هذه المقبرة، أو بدأ الموتى أنفسهم تدريجياً يتحدثون إليه، نعم، إليه. وشيئاً فشيئاً تعلم فهم لغتهم وكتابتهم، بصعوبة غالباً، ولكن هكذا بدؤوا واحداً بعد الآخر، لِنَقُل يُبعثون أحياء أمامه، وخاصة من خلال الكتابات المحفورة على الشواهد بالعبرية إلى جانب الألمانية والتشيكية، التي تذكِّر بحياتهم، فتحكي عن أحباء اضطروا في أيام الطاعون لترك بعضهم إلى الأبد، وعن أمٍ فتية منحت الحياة لتوأم وفقدت بذلك حياتها، وعن طبيب هَزمته الكوليرا... وبمرور الوقت كان يخيل إليه أحياناً أنه يعرف هؤلاء المدفونين هنا ويشعر، بقربهم منه أكثر من كثيرين من أبناء مدينته.

عندما كان پاڤليك ينجح في ترجمة إحدى هذه الكتابات العبرية، كان يكتبها متمهلاً وبخط جميل، في دفتر ملاحظات يحمله دائماً في جيب صدر جاكيته. إحدى أولى صفحات مجموعته تتضمن رسالة، عثر عليها على قبر زوجة صانع فراء:

يا غاليتي
لقد مضيتِ
كأكثر الأيام إشراقاً
لكن الليل أيضاً
الذي تلا فراقنا
سيمضي أيضاً.

ومن الطبيعي جداً أنه ما زال يأمل بأن الأيام في تريبتش أيضاً ستتغير تدريجياً وسيعود إليها مزيد من التنوير. ربما يفكر الناس، وفي مكاتب الحزب أيضاً، بفتح مكان الأبدية هذا للسياح بدلاً من تقويضه. فالمقبرة اليهودية في تريبتش تعد، في نهاية المطاف ثاني أكبر مقبرة يهودية في البلد، بعد مقبرة براغ. ولذلك قد تكون هدفاً مثمراً لبعض أصدقاء الماضي الذين سيرتادون ذات يوم بنسيونات ومطاعم المدينة. إلا أن پاڤليك لم يعد، ومنذ مدة، يأبه بمثل هذه الخواطر، بل استمر بدأبٍ في بناء سوره، وكان أحياناً لا يسمع سوى الأصوات العديدة التي ترتفع في حمى السور.

إن أجمل الكلمات التي اكتشفها أثناء سنوات عمله العظيم، لم تكن منقوشة في الحجر، بل مطرزة بخيوط فضية على قطعة من المخمل الأسود، سحبها ذات يوم من بين الركام. قديماً كانوا يغطون بمثل هذه الأقمشة النعوش، وهكذا كان الموتى يُحملون إلى القبر على كلماتٍ أو مزمورٍ. وقد بذل پاڤليك جهداً كبيراً لفك هذه الكتابة الفضية وفهمها، وكان سعيداً،

نعم، عندما اعتقد أخيراً أنه قد فهمها، فما كان يلمع هناك على المخمل، كان موجهاً للأحياء وأيضاً للأموات:

لقد أمر ملائكة
بأن يحموك
حيثما ذهبت

حيثما ذهبت، على الدروب كافة، حتى على الدرب الوحيد، الأخير. وذات يوم عندما بدأ پاڤليك يتساءل عمّا إذا كان الملائكة قد حموا أيضاً يهود تريبيتش في مقطورات البهائم آنذاك، وأخذ الشك يعذبه. وبجهد جهيد حصَّن نفسه ضد فكرة أن الرب القدير نفسه قد ينكث وعداً، أو ببساطة قد ينسى أن يأمر ملائكته... ملائكته الذين رافقوا المقطورات مثل حرس الشرف إلى تريزينشتات ووقفوا في معسكر الإبادة صامتين عاجزين. ألم يقم رب قدير آخر بالتخلي عن ابنه وتركه يصلب بالمسامير، دون أن يرسل جيوش السماء ضد غرور وشرور وقسوة مخلوقاته؟

ولكن بعد وقت طويل من الشك والإحساس بالخيبة وعدم الرضا، وهو يتابع ببساطة بناء سوره، وبدأب، أدرك پاڤليك أخيراً مغزى ما كُتب على قماشة النعش: أن البشر هم المكلفون،

بأن يحموك
حيثما ذهبت
فيؤدون بذلك شغل الملائكة.

غابة الأعمدة

رأيت سائحاً يتجول في غابة أعمدة. كان يمشي أمامي ببضعة أمتارٍ على لسانٍ خشبي يجسر سطح الماء الأسود والأملس كمرآة، والذي ترتفع منه بالمئات أعمدة هذه الغابة المرمرية والغرانيتية. كان يتوقف أحياناً، ينحني فوق درابزين الجسر، ويبدو كأنما يهمس للسمك الذهبي المبرقع، وللشبوط الصدفي البشع والضخم، الذي كان يسبح بكسلٍ عند قدميه، كاسراً بضرباتِ زعانفهِ ملامسة سطح الماء هنا وهناك. وكأن مهمتها الوحيدة تتركز في عرض أن أرض غابة الأعمدة هذه حقاً سائلة، من ماء حلو، وليس من زجاج أسود. وأحياناً كان السائح يتوقف عند أحد الأعمدة، ينظر إلى تاجه الكورنثي أو الإيوني وإلى أقواس القباب المستريحة فوقه، مثل تيجان ذرى الأشجار، حيث تختبئ طيور وحيوانات نَفورة أخرى، فيهمس لها أيضاً.

كان المكان معتماً. ثمة انعكاس أحمر ذهبي صادر عن لمباتٍ مخفيةٍ بمهارةٍ، يجعل سطوع المرمر والغرانيت، يبدو كلحاء شجرٍ متوهجٍ، ويضيء اللسان الخشبي والصورة المنعكسة على سطح الماء لقَبةٍ متعامدة تتالى أقواسها في جميع الاتجاهات حتى تضيع في دغشة الضوء.

كان المكان ساكناً. ويبدو أن همس السائح أمامي، والأصوات الخافتة التي تتناهى من نقطة التقاء أعمدة بعيدة، لم تزعج هذا السكون، بل عمَّقته. وفي هذا اليوم من تشرين الثاني / نوفمبر كان قلة من الزوار قد نزلوا إلى عتمة **صهريج بريبتان** ذي الأصداء، والذي حسب الاعلان المعلق على الدرج، يقود الزائر من العالم العلوي إلى المياه السوداء. ويعد هذا الخزان أهم عمل معماري تحت أرضي في العاصمة التركية اسطنبول، من حيث غناه بالقباب والأقبية والسجون وخزانات المياه والدهاليز والأنفاق والمقامات وحُفر الآبار.

في الأيام العادية التي يفتح فيها الصهريج أبوابه، يستقبل الزوار النازلين إلى العالم السفلي بموسيقا ذات إيقاعات سيمفونية قد تعود بهم زمناً إلى ألف وخمسمئة وأكثر من السنين، إلى زمن منشئ قصر الماء هذا، المعروف في القرن السادس باسم **يوستنيانوس** الذي كان ابن فلاح وصار امبراطوراً. آنذاك كان يوستنيانوس (جوستنيان) هو الذي وسَّع وشيَّد الصهريج الذي حُفر قبله بمئتي سنة، والذي حافظ على عظمته، دونما تغيير حتى اليوم: يتسع الصهريج لـ 80,000 طن ماء، مخزون تحت قباب محمولة على 336 عموداً طول كل منها ثمانية أمتار. كان يفترض بهذه الكمية من الماء أن تغذي قلب امبراطورية روما الشرقية، الحدائق القيصرية، النوافير، البرك والحمامات، حتى في ظروف الجفاف، وكذلك في ظروف الحرب، لتري أي عدد يحاصر المدينة، أن تربة السلطة الرومية البيزنطينية لا يمكن أن تجف أبداً. ولكن

حتى إن انخفض مستوى سطح الماء، بسبب عطش القصر، وتابع انخفاضه فتضخمت العتمة ذات الأصداء واستمرت في التضخم، فلا يجوز أن يُكشَف النقص، بل بهاء الماء المتدفق حتى ذلك الحين، والذي أسبغ على هذا الصهريج أجمل أسماء الإعجاب التي حملها: **القصر الغريق**.

في هذا اليوم من تشرين الثاني / نوڤمبر، كان ضجيجُ العالم العلوي يتراجع مع كل درجة ينزلها الزائر إلى الصهريج ويخفت إلى أن يُمتَص، من دون أن يُستبدل بموسيقا. ربما كان السبب خللاً في أجهزة الصوت، أو ببساطةٍ لأن عدد الزوار القليل لا يستحق الإيقاعات السيمفونية، فبقي السكون سائداً. وهو السكون نفسه الذي يكسره أحياناً صوت اصطدام قطرات ماء تنضح من أقواس السقف، نفس السكون الذي كان مهيمناً قبل ألف وخمسمئة سنة، وجعل حتى همس السائح مسموعاً. هنا تحت كان الهمس دائماً كافياً، حتى وإنْ فُتِحت في العالم العلوي ثغرات في الأسوار، واختُرقت الأسوار ونهبت القصور، أو كما حصل في هذا اليوم من تشرين الثاني عندما فجّر انتحاري حزامه الناسف مدوياً.

ولا شك في أن سكوناً مشابهاً كان سائداً هنا في أيار / مايو ذاك من عام 1453، عندما قام محمد الثاني **فاتح الآفاق الذي لا يُهزَم**- وهو سلطان شاب في السنة الثالثة من حكمه- بفتح واحتلال القسطنطينية، عاصمة المسيحيين، بجيش من مئة وخمسين ألف رجل ترافقهم موسيقا صادحة من آلات البوق، والنفير، والصنج، والمزمار التي تشكلت منها الأوركسترا

الدموية، وأطلق على المدينة اسماً جديداً.

قيل إن محمد قبضة الله الإله الواحد الحق، قد أراد بهذا الاسم الجديد أن يسخر من وقع تلك الصرخة التي تولِّد الخوف **Is tin polin**! أي: إلى المدينة! والتي كان رعايا القسطنطينية اليونان يطلقونها، جواباً على سؤال (إلى أين المهرب؟) طوال حروب استمرت قروناً ضد الإسلام، صمدوا خلالها وباتت الآن عبثاً. وقيل أيضاً إن محمد بطل العالم الذي كان يتكلم العربية، واللاتينية، واليونانية، والعبرية، والفارسية، لم يسخر من هذه الصرخة فحسب، بل حوَّلها إلى لعبة كلمات عندما أطلق على حطام المدينة وحقول الجثث اسم **Is- tan- bul** اسطنبول، بعد اقتحام أشد أسوار العالم منْعة.

لا شك في أن السكون كان مخيماً هنا تحت، كالآن، فيما محمد هناك فوق تحت نور شمس الإله الواحد الحق يحوِّل كل شيء، كل شيء: فحول آيا صوفيا Hagia Sophia من أكبر كنيسة في الشرق إلى أكبر جامع في العالم، وحول عاصمة المسيحيين إلى قلب السلطة العثمانية. وبيّن محمد الفاتح في نهاية المطاف قدرته على تحويل البر إلى بحر، والبحر إلى مرآة لانتصاره، عندما قام في أيام الاقتحام بالالتفاف حول حاجز ميناء المدينة بموكب كرنفالي هائل جداً، وذلك بأن نقل الجزء الأكبر من أسطوله، اثنتين وسبعين سفينة بكامل معدات أشرعتها وطواقم مجدّفيها، براً، بأن جرتها الثيران وعشرات آلاف العبيد والخدم من شواطئ مضيق البوسفور إلى مياه القرن الذهبي.

رغم كل ضجيج التحولات فوق بقي السكون هنا تحت

مهيمناً، وحتى عندما عاقب محمد الفاتح المتعنتين في الدفاع عن المدينة بأن خوزقهم في صفوف طويلة بحيث غطت دماؤهم الشوارع العريضة، وترك الناس فوق لا يسمعون طوال أيام وأسابيع سوى صرخات عذاب المهزومين المريعة.

على الرغم من أنني في هذا السكون المتجذر في القدم لم أفهم كلمة واحدة من همس السائح، وهو رجل مربوع وملتح في أواسط عمره، فلا شك في أن مقصده مع الزوار الآخرين القليلي العدد كان رأسَي ميدوزا الحجريين الضخمين. كانا موجودين في طرف غابة الأعمدة في الماء. هناك رمى لهما السياح بعض قطع النقود كهدية قربانية، أو كدفعة على حسابِ سعادةٍ ما زالت كامنة في المستقبل. وكانت السمكات ذات الألوان الباهتة تنقضِ برد فعل وإصرار على قطع النقود المتراقصة والبراقة الغارقة.

مثل كثير من الأعمدة وتيجانها في هذا الحوض، يعود أصل رأسَي ميدوزا هذين إلى أنقاضِ قصورٍ ومعابد مهدومة أو مدمرة، والتي تحولت منذ أزمان، بناء على أوامر منسية لقياصرة بيزنطيين، قد تحولت إلى مقالع لصروح جديدة، تمثل المسيحية في انتشارها الامبراطوري. وتدريجياً ظننت أني بدأت أفهم أن السائح الهامس، عندما كان يرفع نظره إلى أحد هذه التيجان، كان يفكر همساً، ربما، في منشأ هذه الزخارف الحجرية، وأنه لم يكن يتحدث إلى السمك بل إلى صورته المنعكسة على سطح الماء، ويجري لها حساب قدرة حمل القرميد في أقواس القباب. مشى، همس، صمت برهة،

تابع مشيه مستغرقاً في حواره الذاتي، وتبعته، فلكلينا في نهاية المطاف الهدف نفسه.

ميدوزا، إحدى الجميلات الفانيات من عالم أساطير الإغريق، ضبطتها بِلّلاس أثينا تمارس الجنس مع پوسايدون سيد البحار في قصرها، فغضبت الربة ولعنتها بسبب هذه الرذيلة بأن تصبح قبيحةً ومرعبةً. تلك التي كانت يوماً بالغة الجمال ستحمل على رأسها بدلاً من الشعر أفاعي حتى آخر أيامها، وستطير كوحش مجنحٍ بعينين متوهجتين وأنيابٍ ولسانٍ متدلٍ بحيث يتحول كل بشري يراها إلى حجر بسبب الرعب.

استخدم معلمو بناء الخزان رأسي ميدوزا قاعدتين لعمودين، فوضعا أحدهما مقلوباً على أرض خزان الماء، والثاني مستلقياً، وكأنهم يجبرون ميدوزا بذلك على مراقبةٍ دائمةٍ لصفوفِ الأعمدةِ وللقباب، ويرفعون درجة تأثير نظرتها التحجيرية في استمرارية بقاء أعمدة المرمر والغرانيت.

أخيراً توقف السائح أمام وجه ميدوزا ذي الأفاعي في وضعية الاستلقاء، ثم تناول من محفظة نقوده قطعة معدنية، مثل سائحين آخرين إلى جانبه، أبقاها برهة في الضوء الذي كان هنا أشد من أي مكان آخر في القصر الغارق، ثم رماها باتجاه العينين الميتتين، باتجاه جبهة ميدوزا، فسقطت عنها محدثة صوتاً كاصطدام قطرة بسطح الماء الضحل، وتابعت طريقها إلى الأرض. لكن السائح لم يرفع نظره عنها وهي تتأرجح في الهواء، وجمد في مكانه عندما استلقت أخيراً هادئة على الأرض، وكأنه يرى شيئاً لا يراه سواه.

وفجأة تخطى السلسلة المعدنية الثقيلة التي تفصل بين الناس وميدوزا، وقفز من اللسان الخشبي، قبل أن يتمكن أحد من مد يده إليه ليمنعه. وقف غاطساً في الماء حتى ركبتيه، وانحنى فوق قطعة نقوده المعدنية، وقلبها على وجهها الآخر، دون أن يخرجها من الماء، ثم أعادها إلى موضعها على أرض الخزان.

الرأس أو الرقم (الطرّة أو النقش): هل ستنزع اسطنبول في قادم الأزمان اسمها عنها مجدداً وتستبدله بربِ ألطف؟ هل أقوم بالرحلة إلى الأناضول أم أدعها؟ علاقة الصداقة في اسطنبول، هل أفضها أم أحفظها؟ هل أتبع شهوتي في الليلة القادمة أم أقاومها؟

الطرة أو النقش: مهما كان الوجه الذي تبديه قطعة النقود، فتؤيد بذلك قراراً متخذاً أو تحدد وقوع حدثٍ ما في المستقبل، فإن الوجه المأمول من قبل الرامي هو الذي تبديه القطعة الآن، هو الصحيح دائماً. وفيما ارتفعت أصوات خطوات الحارس أو الناظر المتأخر على ألواح اللسان الخشبي، صعد السائح من الحوض والماء يقطر من بنطاله، مبتسماً، كمن أراد أن يسأل الأرباب عن الغيب، لكنه لن يخضع لأحكامها. فبقطعة العملة الغارقة أخذ قدره بيده، وقلَب هذا القدَر، أمام أعين السمك الذهبي وأسماك الشبوط باهتة اللون التي اعتادت العتمة والظلمة، وبصورة أرعبت بعض زوار النهار في العالم السفلي.

●●●

جمال الظلمة

رأيت مجرة لولبية في برج شَعر بِرِنيكِة
Berenike في حقل سماوي غير جلي، كان الفلكي الإغريقي كولون الساموسي قد أطلق عليه هذا الاسم تيمناً بفرعونة بطلمية: كانت بِرِنيكِة قد وعدت بالتضحية بشعرها الذهبي قرباناً للآلهة، إذا عاد زوجها من حربه ضد الآشوريين سالماً. عاد الفرعون إلى الوطن منتصراً، فوضعت بِرِنيكِة خصل شعرها المقصوص عند قدمي تمثال ربة الحب. عندما اختفى الشعر أثناء الليل، شك الفرعون الغاضب بعملية سرقة، فأراه فلكي القصر الإغريقي في الليلة التالية ثلاثة نجوم في السماء وقال له إن الربة أفروديت قبلت قربان زوجته، وحولت الشعر الذهبي الذي ضحت به، إلى هذه النجوم وعلّقتها في السماء.

إن لمعان المجرة اللولبية الحالي في شعر بِرِنيكِة والمتشكل من مليارات الشموس، يحتاج حسب القياسات الفلكية الأخيرة والخلافية، إلى أربعة وأربعين مليون سنة لقطع المسافة من عمق الفضاء حتى يسقط على مرآة تلسكوبي. وظهر شكلها الإهليليجي في عدسة التلسكوب العينية، مثل عين مضيئة، عليها جفن داكن يبدو على وشك الإغماض، أو ربما الفتح.

طول هذا الجفن وحده الذي يبدو كشريط منجلي الشكل من مادة داكنة، من حجاب غازيٍ وغبار نجمي، يفترض أن يبلغ أكثر من خمسين ألف سنة ضوئية: وهذا القياس يعد خلافياً أيضاً. أطلقت لعنة.

في ليلة الانقلاب الشمسي الصيفي هذه كنت جالساً في فسحة واسعة في الغابة المرتفعة على حافة جبل الجحيم النمساوي، تحت سماء بلا قمر، مرصعة بالنجوم، وراء منظاري وأنا أطلق اللعنات بصوتٍ عالٍ، إلى درجة أن اصطدمت بجدار من شجر الشربين الجبلي الأسود وارتددت. وفي هدأة ليل مروج منطقة الألْم، لم يكن يُسمع من البقر المنتشر مثل جزر سوداء مستلقياً يجتر، سوى زفرات عميقة أحياناً.

بسبب اضطرابات في الغلاف الجوي للأرض وعدم وجود نظام ملاحة فضائية في جهازي، استغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى تمكنت من ضبط عدسات ومرايا التلسكوبين مع أنابيب البحث البعيد المدى، وأنا أنتقل من نجم تحديدٍ إلى نجم تحديدٍ ثانٍ وفق إحداثيات هذه المجرة النائية، والتي تحمل في كتالوغات مصوّرة عديدة أسماءً موحية مثل: **مجرة العين الزرقاء**، **مجرة عين الشيطان**، **الجميلة النائمة**...

ثمة ثلاثة فلكيين من أواخر القرن الثامن عشر، وهم الإنجليزي إدوارد پيغوت، والألماني يوهان إلرت بودِه، وشارل مِسْييه، لاحظ كل منهم بصورة مستقلة عن الآخر، وفي السنة نفسها، وجود هذه الجميلة في أعماق المنطقة شبه الخالية. لكن مرسييه وحده كان من أطلق عليها الحرف الأول

من اسمه مع رقم متسلسل للائحة كل ما اكتشفه وعمَّده من الضباب السماوي والمجرات: M64.

مع هبوط الغسق الفلكي لأقصر ليلة في السنة، كنت قد نصبت تلسكوبَيَّ- أحدهما مرآتي، ماركة شميت كاسْغرين ويبلغ وزنه 50 كغ، والثاني بوزن الأول، تقريباً يعمل بعدسات لتصحيح الزيغ وكسر الضوء- على منصة إسمنتية غير قابلة للاهتزاز بجانب كوخ بطراز منطقة الألْم، وحميتهما بسور سلكي من فضول حيوانات المراعي. أردت أن ألقي نظرة سريعة على سماء انقلاب الشمس الصيفي، حتى بزوغ القمر، ومن ثم لكي أزور في شماله الأعلى بحر البرودة، ووهدتي أطلس وهرقل النيزكيتين الواقعتين على شاطِئهِ الشرقي.

كنت قد وجهت منظارَيَّ في هذه الليلة الصيفية المعتدلة نحو منطقة العقرب ومنطقة حَمَلةِ الأفاعي، حيث توجد نجوم مزدوجة وكوكبات نجوم كروية وضباب كوكبي، وكنت أزداد غضباً تدريجياً، لأن محطة تليفريك على كتف الجبل المقابل، قد أنيرت بكشّاف ضوئي متحرك، ونور هذه الكشّاف يُضعِفُ ويُبهِتُ الأضواء الأضعف للأجرام السماوية ولمئات الشموس الهائلة على بعد ملايين السنين الضوئية، والتي لولا الكشّاف لتلألأت كما على مخمل الفضاء الأسود.

عندما حسمت أمري لمغادرة المناطق التي أصابها وباء أضواء الكشافات، ولأنتقل إلى مناطق نجمية في الجنوب الغربي، تبيّن لي هناك بجلاء أن حتى M64 التي تعد المجرة الأشد نوراً من اثنتي عشرة مجرة في قبة السماء، قد تأثرت

بمجال نور الكشافات الجبلية جداً، بحيث فقدت تقريباً كل وهجها. في ليلة غير شائبة في سوادها وبأفضل أنواع التلسكوبات الفلكية، كان يمكن في منطقة بِرِنيكِة اكتشاف الاصطدام الأشد هولاً بين النظم النجمية المرئية من الكون- أكثر من ألف حتى أربعمئة وخمسين مليون سنة ضوئية هي بُعد المجرات-، لكن كاشفاً ضوئياً واحداً لمحطة جبلية خالية من الناس تسبب بطاقته المعمية في محوها كلها. فأطلقت لعناتي، متمنياً أن ينطفئ هذا الكشاف الضوئي بانهيار جبلي أو بسقوط صخرة عليه أو بضربة شهاب.

ولكن عندما انطفأ ضوء الكشاف فجأة حقاً كدت أرتعب. فمن هذا الذي يرغب في أن تتحقق لعناته في التو واللحظة؟ الظلمة المفاجئة كانت في ليالٍ كثيرةٍ هدية غير متوقعة، بعد انقطاعات التيار الكهربائي وصواعق البرق. أما هذه الليلة فكانت ساكنة الريح ومعتدلة وواضحة النجوم. وصارت الآن سوداء لا شائبة فيها.

وعلى الرغم من بطء عيني في التعود على الوضع الضوئي المتغير، كان ممكناً في الدقائق الأولى بعد التسمم الضوئي، ملاحظة ازدياد عدد النجوم. وعندما تحولتُ بناءً على تحسن الوضع الضوئي من تلسكوب المرآة إلى تلسكوب العدسات، ظهرت في منطقة بِرِنيكِة أيضاً صورة متغيرة على نحو مذهل:

بدا أن جفن عين المجرة M64 قد انفتح، وأن منطقة الحدقة أخذت لا تتلألأ فحسب بل تشع. وحسب قياسات انزياح اللون الأحمر من طيف هذا الضوء، تساءل بعض الفلكيين عما

إذا لم تكن الجميلة النائمة نتاجَ اصطدامٍ، على الأقل، مجرتين ببعضهما. فحقلاهما الداخلي والخارجي يدوران بسرعة عالية باتجاهين دورانيين متعاكسين. وقيل إن هناك حيث تصطدم الدوامات غير المنتظمة في الاتجاهين المتعاكسين، يُحتمل أن مئات ألوف الشموس الجديدة، الغارقة في القدم، إضافة إلى بقايا كونية، كولادة نجوم، وأسرابٍ كويكبات سيارة، ونظم كوكبية، وأماكن أبرد، يمكن أن يجنح خيال البعض إلى تصور أشكال حياة عليها في فضاءات غامضة.

ولكن الآن، ما أن انفتح الجفن حتى اختفت العين ثانية. المجرة التي تبدَّت للتو بكامل جمالها، انطفأت على عدسة التلسكوب العليا. لقد اختفت المجرة كلها في ظلمة عاتية فجائية. وفقط على طرف مجال رؤيتي لمعت شرارات متفرقة ضعيفة، مفسحة المجال لولادة انطباع بأن هذا السواد الذي يلتهم كل الأضواء، ما هو إلا ليل يخفق بجناحيه بسرعة هائلة نحوي.

ولكن عندما أبعدت عيني عن العدسة ورفعت كلا عينيّ نحو السماء، رأيت أن العذراء والدبين والأسد والسلوقيين- وهي بروج مجاورة لبرنيكه- ما زالت ساكنة هادئة في أمكنتها في السماء. وفي شربين الجبل لم تتحرك حتى نسمة، بل حتى البقرات النائمات توقفت عن الزفير. فالكارثة الكونية كانت تصطخب فقط بين عدسات تلسكوبي، وقد التهمت سنوات ضوئية وراء سنوات ضوئية من الفضاء الذي يعج بالنجوم... وفجأة سمعت أيضاً صوت زوال العالم.

كانت صيحة طائر، نعيق بوم الغابة. ففي انقضاضه بلا صوت على فريسته، يبدو أنه قد طار بموازاة اتجاه تلسكوبي تماماً، فحولته العدسات إلى وحشٍ هائلٍ بلا حدود يفترس النجوم، ولكن ما كان ليُرى منه بالعين المجردة إلا القليل، مثل مجرة نائية.

أكان ارتياحاً ما أحسست به؟ دهمتني بردية. بدأ القمر يبزغ فوق ذرى جبل الجحيم الجنوبية الشرقية، إنه **القمر الطيب**، أكبر نافذة نجوم، وختام جولتي ما بين المجرات. بعد صعود سريع وقف هلاله فوق حافة الجبل مثل مصباح فوق مهد طفل رأى حلماً مزعجاً. إنه ضوء ليلي أليف يبث الهدوء والطمأنينة، ويطرد الخوف والأشباح، لكنه في الوقت نفسه يؤدي إلى شحوب مصادر جمال الظلمة.

●●●

سقوط من الليل

رأيت آلافاً من الأضواء المتوهجة في سماء الليل فوق جايبور. وكأن قبة سماوية ثانية قد رُفعت تحديداً فوق عاصمة راجاستان، الولاية الصحراوية في شمالي الهند، كشبكة حماية من أعماق الكون المفزعة بفضاءاتها الخاوية على حدود الأبدية. وقد أخذت هذه الأضواء تنط وتسبح وترقص في ظلمةٍ بلا قمر، تتباعد عن بعضها لتعود فتتقارب وتترابط مدة بضع خفقات قلب، مكونة لبرهةٍ خاطفةٍ أشكال بروجٍ لم يسبق لعينٍ أن رأت مثلها. وفي حال خروج أحد هذه الأضواء اللا معدودة، فجأة عن مداره اللا منتظم، بفعل قوة لا مرئية، فإنه سيسقط فوق المدينة الغارقة في الليل، وسينطفئ خلال سقوطه مثل مذنَّب، وعندها تُسمع في العتمة كركرة وضحك وصيحات؛ صيحات انتصار.

في هذه الليلة الصافية والمعتدلة من كانون الثاني / يناير شاهدت من سطح النُزُل على مقربة من هواء محل أي قصر الرياح، وهو قصر ملذات من عصر الراجبوت (الأمراء) الهندوس، وتابعت التمثيلية السماوية مع جمهور كبير على سطوح منازل المدينة، مع جيش من الأشباح الغائمة في العتمة.

كانت جايبور في تلك الليل تحتفل بذروة عيدٍ يمتد ثلاثة أيام، ويسمى مَكار سانْكرانْتي أي بداية وقت جديد. ففي تلك الأيام، يميل مسار الشمس عند نقطة انعطاف محددة- حسبها الفلكيون بدقةِ الثانية- نحو الشمال مجدداً، وبذلك تبدأ بالدوران عند مدار الجدي- حسب تسمية الفلكيين الغربيين- الذي يحمل في العالم الهندوسي اسم كائن مائي أسطوري: مَكارا. كانت ربة النهر غانغا راكبة على كائنٍ خُنْثى بهذا الاسم، ومتعدد التحولات، فهو تارة تمساح، وتارة دلفين، وتارة سمكة برأس فيل، وتارة أخرى يشبه فرس النهر؛ وذلك عندما أمرت نهر الغانج المقدس بأن ينقل مجراه من عالم الأرباب إلى عالم البشر. عندما تبلغ الشمس البرج السماوي الموسوم بمكارا، يكون الشتاء قد انقضى فتصبح الأيام أطول، ويمكن لحقول قصب السكر أن ترمي محصولاً أعلى، ولن تزيّن الأرض فحسب، بل حتى السماء بالورق والحرير.

ففي جايبور ومدن كثيرة أخرى في شمالي الهند، تتسلق السماءَ في عيد الانقلاب الشمسي مئات الألوف بل ملايين التنانين الورقية والحريرية، أجسام طائرة من جميع الأشكال والأحجام والألوان. وعندما تغيب الشمس في هذه الأيام لتعود فتشرق في الصباح، قبل الصباح الفائت بأنفاسٍ قليلة، تُثبّت على خيطان الطائرات المشدودة مصابيح زيتية ضئيلة، لتصبح نجوماً متوهجة لماعة في القبة السماوية الثانية التي أوقدها البشر.

وأثناء ذلك يقترب موجهو الطائرات الورقية من تنانينهم

وهم واقفون على سطوح منازلهم يسحبون خيطان الطائرات البالغ طولها مئات الأمتار بمبارِمِهم الخشبية والبلاستيكية. وهذه السطوح مسورة بدرابزينات تفصلها تماماً عن فوضى الشوارع والأزقة، ومن هذه السطوح فقط تصير السماء المجزأة إلى قطاعات، على درجة من الاتساع للإحاطة بها كملعبٍ وميدان صيد، وربما للتحكم بها أيضاً. ففي عيد مكار سانكرانتي لا يكفي أن تطيِّر تنينك أعلى فأعلى فحسب، بل لا بد أثناء الارتفاع من إعاقة موجهي التنانين الأخرى من بلوغ الارتفاعات القصوى، وإذا كانوا قد احتلوا كبد السماء، فلا بد من طردهم منه.

لهذا السبب كانت خيوط التنانين تُطلى بالصمغ وتُسلَّح بغبار الزجاج وشظايا الشفرات الحادة، فتتحول إلى مناشير خيطية، يمكن بها قطع خيط عدو وتحرير تنينه ثم إسقاطه. إن الهياكل المصنوعة بمهارةٍ فائقةٍ من الورق والحرير، والتي تترنح ساقطة على السطوح وعلى تيجان الأشجار، وعلى الأسلاك الكهربائية المتشابكة، أو في الحقول المغبرة خارج المدينة، تتعرض للتمزق والتحطم وتعتبر غنائم رمتها السماء للأطفال، ولا سيما لأفقرهم الذين لا يملكون حتى ثمن لعبة ورقية. فيحمل هؤلاء غنائمهم كأكاليل نصر مغنيّن عبر الأزقة، أو يحاولون إعادة إقلاع ما كان منها صالحاً للطيران بوصل بقايا الخيوط ببعضها.

أخبرني صاحب النزل، وهو تاجر صوف سابق، لاجئ من كشمير قبل الحرب الأهلية، أن بعض موجهي التنانين يؤمنون

بأن كل خيط منشور، وبالتالي كل تنين محرَّر، يؤدي إلى تخطي إحدى مراحل إعادة الولادة في متاهة التناسخ... أما الغالبية فإنها ترى فيما يجري في السماء بمناسبة مكار سانكرانتي لا أكثر من لعب. وقال تاجر الصوف: إذا قام كل عاشر مواطن من سكان ولايات شمالي الهند، راجاستان ومَهارِستان وغوجَرات البالغ عددهم 250 مليون نسمة بإطلاق تنين بمناسبة مكار سانكرانتي، وهذا أقل بكثير من الواقع، تكون النتيجة نظرياً، تخطي 55 مليون إعادة ولادة.

لم أستطع في العتمة أن أعرف، على السطوح المحيطة بي، مَن مِن الأشباح الكثيرة هناك مجرد متفرج يشير إلى سماء الليل ومَن منهم موجهُ تنين يحرك خيطه أو يرخيه وبيده قفاز لحمايتها. ولكن بناء على التصفيق والضجة الاحتفالية من السطح المجاور عرفت أن أحد الأشباح قد حقق نصراً، إذ شوهد على مسافة قريبة، ضوء ساقط تبعه تنين مشتعل، هوى على شرفة مملوءة بغسيل منشور ليجف، وديس بالأقدام حتى انطفأ.

وفجأة هوى في العتمة شيء آخر بين الناس، هوى ظل مجنح أسود تسبب بصرخات رعب أولاً، ثم بضحكات ارتياح. بعد لحظات الرعب أضيء مصباح جيب، فتبين في ضوئه ثعلب طيار وإلى جانبه سائل لماع، لا شك في أنه دمه، وهذا الثعلب الطيار يشبه خفاش كبير الحجم، يتدلى نهاراً بالمئات، رأسه نحو الأسفل مستوراً بالجناحين السوداوين، من أغصان تيجان الأشجار حيث ينام. وعندما يبدأ طيرانه

عند الغسق، يمكن لسرب منه أن يغطي شريط السماء فوق حارة النزل، فتعتم للحظات.

بلغ طول جناحي الثعلب الطيار المصاب أكثر من متر. كان يخبط بأحدهما بذعر، أما الثاني فكان ملوياً بشكلٍ مضحكٍ وممزقاً، فهو يشبه جناحي الخفاش، أي بدون ريش، ولا شك أن عظم الجناح كان مكسوراً. يحكى عن الثعالب الطيارة أنها تطفئ عطشها بماء البحر وإنها تغتذى بدم البشر مثل مصاصي الدماء، علماً بأنها، رغم خطمها الثعلبي، لا تأكل سوى الفاكهة والأزهار وغبار الطلع، ولا تطارد أياً من كائنات الأرض أو الماء أو الجو، ولا تمتلك مثل الخفافيش الصيادة نظام التوجه بالموجات فوق الصوتية. وربما لهذا السبب تأذى الثعلب الساقط لاصطدامه بخيوط التنانين المشدودة في الليل.

في فوضى الخيوط المنشارية بمناسبة مَكار سَنكرانتي يسقط سنوياً إضافة إلى الثعالب الطيارة، كثير من الطيور الأخرى من السماء كالصقور والبزاة والغاق ومالك الحزين والفلامنغو. كما يسقط بعض موجهي التنانين الذين ينحصر مجال رؤيتهم بمعاركهم الجوية، فيسقطون عن الشرفات والسطوح إلى أرض الزقاق. وقد حدث مراراً أن جرحت هذه المناشير الخيطية المشدودة شريان عنق أحد الضيوف المحدقين في التنانين الملونة أو أحد موجهيها. في العام الماضي وحده، قال لي تاجر الصوف، كان هناك إحدى عشرة ضحية.

أما الثعلب الطيار الجريح، فما كان يجوز أن يسقط ضحية اليوم الأخير من العيد. كان انتباه غالبية المشاهدين على

السطح المجاور وعلى سطح النُزل قد تركز مجدداً على ما يحدث في السماء، عندما رأيت فتاتين قد حملتا بعناية الحيوان الجريح المنهك القوى، وفردتا على ضوء مصباح زيتي الجناح المصاب بحذر، فتبدى للحظات كتنين ورقي يجهز للإقلاع في السماء. وأخذتا مراراً وتكراراً تنبهان إحداهما الأخرى إلى حيطة أكبر، وهما ترشان مسحوقاً طبياً أبيض على الجناح المصاب. ثم طوت إحداهما الجناح على الجسم المخملي، ولفتاه حتى الرأس بقطعة قماش ذات خيوط متلألئة براقة، وأخذتا تهدهدانه بين أيديهما مثل رضيع أو دمية. كان الثعلب الطيار أثناء ذلك جامد الحركة، إما رعباً أو طمأنينة أو احتضاراً. وكانت كل منهما تمشي بالحزمة الساكنة ست خطوات، ثم تناولها لصديقتها. تصورتُ، لا، بل تمنيت أن يكون الثعلب الساقط، الذي يعامل الآن بهذه المحبة والرعاية من قبل الفتاتين، هادئاً نتيجةً لذلك، وليس لأن خيوط صِلاته بالحياة قد انقطعت، عندما نزلتا به على الدرج إلى عتمة الزقاق.

●●●

عازف البيانو

رأيت بيانو حفلات مجنحاً وراء الواجهة الزجاجية الزرقاء لفندقي، على طرف حدائق سانْكَي في يوكوهاما. وعلى هذه الواجهة كانت تنعكس صور أشجار دلب وقيقب، فتولِّدُ انطباعاً عابراً وكأن البيانو يقف في شارع مشجر، تُحرك الريح أوراق أشجاره. هواء الخريف الحار والرطب في تشرين الأول / أكتوبر، كان مشبعاً بغناء جوقاتِ الجنادب الحاد، الذي يصم الآذان ويطغى على ضجة حركة المرور، وحتى على حفيف أوراق الشجر، الذي اختبأ فيه المغنون بالآلاف. رأيت صورتي تتقدم باتجاهي منعكسة في الزجاج المشرب بالزرقة، الذي كان يُرجع صدى غناء الجنادب، كأن الغناء لا يصدر من تيجان الأشجار ورائي، بل من الشارع المشجر المنعكسة صورته على الزجاج.

موظف الاستقبال في الفندق كان سابقاً معلماً في ناغويا، ويبيع الآن جنادبَ مصبوبةً في صمغ صنعي، كمثقِّل رسائل، وقد أخبرني بأن يرقات أنواع كثيرة من الجنادب المغنية تبقى في التربة من سبع حتى ثلاث عشرة أو سبع عشرة سنة، وهي تخلع عن نفسها غلافاً بعد غلاف، متحولةً من يرقة زاحفة إلى كائن طائر، وهي تصعد شيئاً فشيئاً وبإصرار، حتى تبلغ سطح

الأرض وترى النور، أما هنا، بعد تمددِ أجنحتها والسنوات الطويلة في الظلمة، فلا يتبقى لها للحياة سوى بضعة أيام، تقوم خلالها بترديد أغاني التزاوج والدفاع عن المكان، وتنفيذ شعائر التكاثر ووضع البيوض. وتتساقط بعد ذلك مثل أوراق الشجر، الذكور المغنون أولاً، أما الإناث الصامتات طوال حياتهن، فبعد بضعة أيام. ومن البيوض تخرج اليرقات، لتنزل مجدداً إلى ظلمة التربة، لتبقى هناك من سبع حتى ثلاث عشرة أو سبع عشرة سنة بانتظار عودتها إلى النور.

في طريق عودتي من حدائق سانْكَي إلى الفندق رأيت آلاف الجنادب الساقطة من الأشجار. كانت مرميةً مثل بذارٍ على أراض غير خصبة: سطوح السيارات، طرقات السيارات، الأرصفة والساحات. حاولتُ في البداية تجنب أن أدوسها، لكنني بعد فترة تابعتُ طريقي دون أن أعبأ بتكسر دروعها وبتهشم سيقان القفز الطويلة، والأجنحة تحت حذائي.

وصلتُ إلى انعكاس صورتي، فتحت الباب الزجاجي ودخلت إلى ردهة الفندق. ومع الهواء الحار الرطب انساب أيضاً غناء الجنادب إلى غسق الردهة المكيّفة الباردة، وانسكب على الموسيقا الصادرة من البيانو المجنح الواقف تحت نخلات البيوت الزجاجية. بعد أن انغلق الباب ورائي خفَتَ صوت جوقات الجنادب لأول مرة منذ ساعات، وكأن الموسيقا البشرية قد طردته وأجبرته على العودة إلى البراري. مع أنه قد خيل إليّ للوهلة الأولى أن البيانو المكشوف الغطاء بلا عازف، وأني أمام مجرد جهاز لتزويد مكبرات الصوت بتسجيلات

الحفلات، عندما رأيت الرجل القصير، القصير جداً في بدلته السوداء. كان يعزف منحنياً جداً فوق لوحة المفاتيح، وكأنه لا يريد فحسب سماع ضربات المطارق المخملية على الأوتار، بل أيضاً صوت رؤوس أصابعه على المفاتيح.

كانت ساقا هذا العازف القصيرتان ستتأرجحان كساقي طفل صغير فوق الدواستين، لو لم يُضِف إليهما خشبتين مبرومتين مدهونتين بطلاء أسود غير لامع ومربوطتين إلى قدميه بأشرطة سوداء، ومتصلتين عند نهايتيهما بالدواستين النحاسيتين، ما سمح له بالتحكم بطبقة الصوت حسب ضرورة العزف. والانطباع المتولد عن طول ساقيه اللتين صارتا بالعكازين أشبه بساقي حشرة، كان يتعارض على نحوٍ غريبٍ مع جذعِهِ المضغوط، ومع ضيق مجال انفتاح ذراعيه على لوحة المفاتيح. ومع ذلك كان وقع عزف الرجل القصير منفتحاً وخفيفاً، وكأن تيار الهواء قد حمل إليه تلوينات إيقاعية من جوقة الجنادب. وفي واقع الأمر بدا هذا العزف وكأنه يتبنّى صوت مي مي مي المتوالي من الجنادب وينوِّع عليه.

كنت على وشك أن أغوص في أحد المقاعد الوثيرة تحت النخلات لأصغي إلى العزف، عندما أنهى العازف مقطوعته بغتة، ونزع العكازين الأسودين، وانزلق حافياً من كرسي البيانو على السجادة الزرقاء القاتمة ذات التموجات اللونية. وفي الهدوء المفاجئ عادت لتُسمع أصوات النزلاء والضيوف الجالسين على المقاعد والكراسي وهم يتبادلون الحديث، وفي المقام الأول صوت جوقة الجنادب المتسلل خافتاً عبر الجدار

الزجاجي.

بحذر وهدوء أنزل الرجل القصير غطاء لوحة المفاتيح، لبس فردتي صندله اللتين كانتا جاهزتين تحت كرسي البيانو، وضع العكازين تحت إبطه وخطا عبر الردهة باتجاه الحديقة الواقعة وراء واجهة زجاجية أخرى، وخرج عبر هذه المرآة إلى الهواء الطلق.

صُمِّمت الحديقة على شكل مسرح إغريقي، يحيط مدرجه المرتفع تدريجياً بالفندق، متخذاً شكل شرفات مزروعة إلى ارتفاع ثلاثين متراً تقريباً. ورغم قرب أفق الحديقة نسبياً، يخيل للناظر أنه بعيد. وكل درجة/ شرفة من درجات المدرج كانت مزروعة بشجيرات وأشجار، بكرز مثمر وقيقب أحمر، وكلما زاد ارتفاع المدرج صغرت حجوم الأشجار والشجيرات، إلى أن لا يبقى عند خط الأفق، أعلى المدرج، سوى أشجار أقزام من نوع بونساي. أما ما يقع وراء هذا الأفق الذي تعلوه سحب متفرقة في سماءٍ تشرينيةٍ شاحبةٍ الزرقة فلم يكن مرئياً.

تمشّى الرجل القصير باتجاه هذا الأفق البعيد، ربما بحثاً عن مكان ظليل ليدخن سيجارة، أو ربما بحثاً عن ملجأ شخصي مخفي عن الأنظار، يستطيع فيه أن يبدل بدلته السوداء الغربية بثياب يابانية وافوكو مريحة. وفيما هو يصعد ببطء نحو نقطة التقاء خطوط النظر في الأفق، والأشجار من حوله تتقازم صعوداً، كان هو يتعملق تدريجياً، إلى أن بدا في الأفق عملاقاً، وانحنى هناك فوق شجرة بونساي وكأنه قد اكتشف شيئاً ما بين أغصانها.

إذا كان ما رآه هناك جندباً سكتَ عند اقترابه منه، فلا شك في أن الجندب، بين الأغصان الدقيقة والوريقات الضئيلة الحجم، قد بدا هائلاً، ضخماً ونفوراً، بحيث يحتاج إلى شجرة كاملة إذا أراد أن يختبئ ليغني.

●●●

الحظ والمحيط الهادئ

رأيت بائع يانصيب ذات أحدِ الأيام في شارع خالٍ في مدينة ڤالپَرَيزو التشيلية على شاطئ الباسيفيكي. في عصر هذا اليوم الدافئ من أواخر الصيف، لم يكن هناك سوى قلة من المتنزهين مشياً. على رصيف البنوك المغلقة البوابات، ذات الأعمدة المنقوشة، والواجهات المرآتية المصطفة هنا بشكل متتال، وكأن تجارة المال ومنظمة الثراء قد انحصرت في عنوان وحيد في هذه المدينة على شاطئ المحيط الهادئ، غيتو: **Antigua Calle de la Aduana** شارع الجمارك القديم.

الطوابق العليا فقط من أعلى قصور المال، التي تحوم حولها أسراب نوارس من الميناء القريب، هي التي ترتفع من الظلال العميقة المخيمة في هذا الوقت من النهار على جانبي الشارع، نحو سماء صافية مشوبة ببعض السحب المتناثرة مثل ريش خفيف. أما البوابات وأدراج المداخل المزينة بمختلف أساليب العمارة الفخمة فقد غادرتها الشمس منذ مدة، فبنك سانتادر مثلاً كان بلا شمس، وكذلك بنك إتاو، وبنك بيلباو بيتكايا أرختتاريا، وبنك فاثيل، وبنك سكوتيا، وبنك دي تشيلي، وبنك الدولة- ملكوت الظلال، وصفوف الواجهات المرآتية والأبواب ذوات المصراعين وكأنها مغلقة إلى الأبد،

مختومة مثل مسرح جريمة.

ثمة بائع يانصيب يمتدح أوراق يانصيبه بصوت رفيع، ماشياً من بوابة بنك إلى بوابة بنك، متجهاً نحو ساعة سوتومايور، التي ما زالت غارقة في شمس أواخر النهار، علماً بأن المشاة المتنزهين القلة في هاوية الواجهات هذه كانوا بعيدين جداً عن مدى صوته. ومع ذلك كان لا يني ينادي بنغمة غنائية رتيبة لا قوة فيها، وكأنه يكرر حقائق كلامه عن سعادة حظ اليانصيب لنفسه على سبيل التمرين، وليس لمشترٍ محتملٍ لإحدى أوراقه، التي ضمها بخيطانٍ حول رقبته مثل طوقٍ من أوراق الزينة. كان يضع على رأسه باروكة شعر أسود مثل قلنسوة أو طاقية، ويمسك بيمناه عكازاً، لا يبدو أنه يحتاجه للمشي، بل يستخدمه أحياناً مثل عصا الإيقاع.

كان ينادي يغنّي: «لا لعب ولا خداع ولا تلاعب»، ماشياً على نحوٍ سليم بلا إعاقة، عبر ملكوت المال، متوقفاً أمام كثير من البوابات الفاخرة والأدراج الباهرة مشيراً بعكازه إلى لافتة شركة أو اسم بارتفاع متر لأحد أصحاب البنوك في البناء، مغنياً: «لا صفقات فاسدة بأموال الآخرين، لا فوائد ربا، لا مص دماء من شرايين العمل، لا، فاليانصيب، اليانصيب لا يوصل إلى الثراء عبر مستنقع البنوك، بل عبر طريق مباشر إلى نصيب عادل كالموت، لا يفرّق بين الطبقات والأعراق والأصل، اليانصيب في نهاية المطاف يمكن أن يكون لأفقر الفقراء مخرجاً، سبيلاً مفتوحاً إلى عالم منير. وأخذ يعدد أسماء أنواع اليانصيب المعروفة، ليتابع غناءه: مهما كان نوع

اليانصيب متواضعاً، فهو أكثر نزاهة من جميع المضاربات التي تمارس في مخازن المال هذه على حساب البشرية! ثم يخشخش قليلاً بأوراق يانصيبه ويتابع: اليانصيب على الأقل هو تذكرة دخولٍ إلى حلم مفرح، يحق للإنسان أن يعيشه من أسبوعٍ لأسبوع، من يوم ليوم، وحتى لخفقةِ قلبه في لحظة سحب النمرة، حلم بثراءٍ عادلٍ، وليس حلماً مخادعاً حسبما يروجون وراء هذه الواجهات والبوابات يومياً. حتى اليانصيب المغْفَل، أفضل من سندات أي من هذه البنوك، فوراء كل يانصيب هناك إنسان حي، حالم، لاعب جاهز للمساهمة بقروشه القليلة من أجل حظ إنسان آخر، مع الأمل دائماً، باحتمال أن يستلم حظَّه هو، من أيدي شركائه في اللعب. وفوق هذا كله، ألا يصب النهر العريض الغزير لأموال بحر اليانصيب في الصالح العام للبشرية ؟ عند الدولة، الأمة! وألا يخدم بهذا خير الفرد وبلده ؟ فأي بنك ملعون يجرؤ أن يزعم ذلك بشأن أنهار أمواله ؟

بين عابري السبيل والمتنزهين في يوم الأحد ذاك، كان هناك رجل وامرأة عجوزان يتبعهما كلب صغير ذو شعر رمادي طويل، وامرأة برفقة طفلة تلبس ثوباً وردياً باهت اللون، وجندي بحرية، في إجازة على ما يبدو، من إحدى السفن الحربية الراسية في خليج المدينة المتلألئ عن بعد، حاملاً بيده باقة ورد كبيرة ملفوفة بالسيلوفان. بعض هؤلاء سمع نداء بائع اليانصيب، ويحتمل أنهم قد التفتوا نحوه، ولكن لم يتوقف أي منهم عنده، ولم يشتر أي منهم ورقة يانصيب.

الطفلة وحدها، الممسكة بيد أمها، بدت مأخوذة بغنائه وبألوان أوراقه التي أشارت إليها عندما مر بهما، فأرادت أن تلحق به، لكنها أذعنت للمسير بعكس الاتجاه.

تبعتُ بائع اليانصيب على مسافة آخذة في التقلص، حتى مصب الشارع الظليل في ساحة سوتومايور الواسعة المغمورة بأشعة الشمس. لحقت به هناك وأردت أخيراً- شفقةً أكثر منها قناعةً- أن أشتري منه إحدى الورقات التي كان يمتدح ما تتيحه من فرص. لكن المغني رماني بنظرة عابرة، ولم يأبه بورقة العشرة آلاف بيزو التي مددتها نحوه، بل تابع مشيه مغنياً، متجاوزاً إياي وهو يخشخش بالأوراق، متجهاً نحو المركز الرئيسي للبحرية التشيلية المطلي بلون زرقة السماء والمهيمن على الساحةِ. هناك ازدحم فجأة ركاب ثلاث حافلات لرحلاتٍ موجهين آلات تصويرهم الرقمية في جميع الاتجاهات، ومنها الاتجاه الذي يقترب منه نحوهم بائع اليانصيب، رجل أوراق الزينة الملونة حول عنقه. لكنه تابع طريقه، لا يلوي على شيء، ودون أن يتوقف عن الغناء، وهم يصورونه ويصورونه دون أن يتوقف ولو للحظة واحدة. وفيما احتل مجال نظري حافلة رابع يناور للوقوف، اختفى بائع اليانصيب.

أحد الباعة المتجولين الذين كانوا يتابعون ركاب الحافلات بعيون صيادي الفرص، انتبه إلى أني كنت أتبع بائع اليانصيب وفوجئت باختفائه، وأني ما زلت أبحث عنه بعينيّ. فتقدم إلي، وبنوع من التحفظ الاستراتيجي، لم يعرض علي إحدى خرائط المدينة للبيع، ولا جولةٍ بسعرٍ معقولٍ عبر

معالم ڤالْپَرَيزو، بل حكاية:

سَلْڤا، الرجل ذو الأوراق الملونة، لا يريد أن يبيع شيئاً لأحد، ولا حتى أوراق يانصيب. وما يحمله حول رقبته هي أوراق يانصيب أراد هو بها أن يصير غنياً، أوراق خاسرة جمعها وضمها بالخيط عبر عشرات السنوات. وخلال هذه السنوات كاد مرةً أن يفوز، كاد أن يفوز. ورقته ربحت. لكنه في صباح تلك الليلة، التي أرى فيها تذكرته إلى الجنة لنصف سكان المدينة، وردد كل رقم وحرف على هذه الورقة ورفع صوته به وغنّاه، بحيث انحفرت علامات الحظ هذه كالوشم في ذاكرته... عندما أراد أن يقدم هذه الورقة ليثبت حقه القانوني بربح الجائزة، اختفت الورقة، اختفت، ضاعت، جرفتها أمواج البحر، طارت مع الريح، سرقها حاسد أو احترقت في برميل زبالة.

سلڤا، الذي عمّدته أمه على اسم سلڤادور أليندِه، الرئيس المقتول، أعظم أبناء ڤالْپَرَيزو، لم يكن يوماً سليم العقل تماماً، لكنه منذ تلك الخسارة، أخذ يضم بالخيط كل ورقاته، أخاسرة كانت أم لا، ويحملها حول رقبته ويسير مخاطباً نفسه بصوت عالٍ حول الحظ.

عمَّ تحدث سلڤا اليوم؟ سألني البائع المتجول، الذي أخبرني أيضاً، أنه كعددٍ كبيرٍ من الخدمِ وسائقي التكسي وعمال الحدائق في تشيلي، من البيرو أصلاً، من ليما، لكنه أمضى معظم حياته في ڤالْپَرَيزو، في وادي الجنة هذا، وأنه على الأغلب سيموت فيه أيضاً. هل تحدث عن البنوك؟ إذاً، عليَّ

أن أستمع إلى ما يقوله عن الحظ والباسيفيكي. هل سمعت ذلك؟ سألني البيرواني، كما سألني أخيراً، ما إذا كان عليه أن يريني منطقة الميناء، أو سوق الأحد؟ أم تُراني أرغب في جولة عبر أجمل هضاب المدينة مثل ثِرّو أَلِغْرِه وثِرو كونْسِيثيون؟ أم أنني أفضل الجهة الشمالية من الخليج؟ أأريد الذهاب إلى ڤينْيا دِل مار! إلى حدائق الأثرياء؟ وأستمع أثناء المشوار إلى حكاية أخرى من حكايات سلڤا؟

الحظ والباسيفيكي. الحظ والمحيط الهادئ. يُفترض بسفينتي أن تقلع في أواخر المساء نحو جزر خوان فرناندِث. حتى ذلك الوقت ما زال هناك خمس ساعات، على الأقل. نعم، كنت راغباً في الاستماع إلى ذلك الحظ. فقلت، حسناً، إلى ڤينيا دل مار، إلى الحدائق.

●●●

قواعد الجنة

رأيت عنزة على طرف ملعب تنس غطته أعشاب القصب في آدمز تاون، وهي المستوطنة الوحيدة في جزيرة بحر الجنوب پيتكيرن Pitcairn. أثناء جولتي في الجزيرة وعبوري مرتفعاً غابيّاً، وصلت إلى فسحة في الغابة وهذا المكان. حاولت العنزة أن تهرب مني مذعورة، حالما خرجتُ من الدغل إلى الأرض الاسمنتية المتشققة، لكنها كانت مربوطةً بحبلٍ طويلٍ، يتيح لها الحركة على امتداده في رقعة مصغرة بلا أعشاب من أرض الملعب. وهكذا بدت محاولة هروبها مثل حركات لاعب تنس مسرعةٍ هنا وهناك، لصد كرات اللاعب الآخر، الشبح. أخذت العنزة تجري خائفة من هذه النهاية على طول الحبل إلى النهاية الأخرى، وكلما انشدَّ الحبل فجأة، ترتد على قائمتيها الخلفيتين وتعاود الكرة، محاولةً عبثاً الانفكاك من القيد. وكانت هناك حلقة وصل حديدية بين ما يشبه الرسَن والحبل، ترن كلما اصطدمت بالأرض الاسمنتية.

توقعت أن هذا الرنين سينبه إلى وجودي ساكن أو سكان هذا البيت، ذي الطابق الواحد المطلي بالأبيض، على طرف الملعب، بين أشجار الپاپايا والآرتوكارپوس (فاكهة الخبز)،

فرفعت صوتي بتحية نحو البيت الذي كان باب شرفته مفتوحاً، ونوافذه مغطاة بشبكٍ معدنيٍّ لصد البعوض والذباب.

عبر فتحة الباب وفي ضوء الشمس الساقط من النوافذ، رأيت رف كتب وطاولة عليها كتل خشبية وأدوات نحت ونقش في الخشب، ورأيت أمام رف الكتب كرسياً مدولباً. لكنني لم أسمع رداً على تحيتي، كما لم أسمع سوى حفيف الأشجار رداً على رنين الحلقة الحديدية.

كان الملعب بلا شبكة، ولكن عند خط المنتصف انتصب كرسي الحكم عالياً فوق القصب، وكانت درجات السلم الخشبي المسمر إلى الكرسي المرتفع متآكلة، وكأن حكماً ثقيل الوزن، وغاضباً ربما، قد نزل عليها منهياً آخر مباراة.

في تلك الأيام التي كان هدف اللعب فيها تسجيل نقطة أو مجموعة، كان يحق لأسوأ لاعب أن يطالب بتسجيل رقم قياسي لصالحه، عندما تخرج كراته out خارج الملعب إلى أصعب وأبعد الأمكنة في العالم: فالمسافة من هنا حتى نيوزيلندا تبلغ 5000 كم، و6000 كم حتى ساحل أمِريكا الجنوبية. وفي الفراغ ما بين النقطتين لا يوجد سوى المحيط الباسيفيكي، الذي يبلغ دفق أمواجه ارتفاع منزلٍ حتى في حال سكون الريح، ولا توجد أي أرض لتكسرها على كل المسالك البحرية إلى بيتكيرن. إنها أمواج أعالي المحيط التي ترعد وهي تضرب جروف بيتكيرن وجدرنها الصخرية وتجعل محاولة الرسو، غالباً مناورة جسورة بالغة الخطورة، ولا سيما بالنسبة لسكان الجزيرة، العائدين من رحلة صيد سمك، ولا يمكنهم الانتظار

عدة أيام في عرض البحر، ريثما تهدأ الأمواج.

ونظراً لكون بيتكيرن أشبه بجزيرة تائهة، وبسبب قسوة طبيعتها، لا يوجد فيها مهبط طائرات ولا ميناء. ولهذا السبب فإن قوارب الإنقاذ أو القوارب الطويلة المكشوفة، الضخمة والمصنوعة من الألَمينيوم، هي المراكب الوحيدة، التي يمكن أن تقل الركاب من سفينتهم الراسية على بعد آمن من صخور الجزيرة وعلى مسافة ثلاثة آلاف متر، إلى الجزيرة. ولكن من يصل إلى هذه الجزيرة ذات الـ 4,5 كم^2 فقط، بعد رحلة بحرية طويلة، فإنه عملياً لم يصل بعد، بل عليه الانتظار إلى أن يتكرم المحيط بهدوءٍ يسمح له بالنزول على شاطئها.

إن أوائل الواصلين إلى الجزيرة، متمردوا السفينة الحربية باونتي ذات الصواري الثلاث، الشهيرون وسيئوا السمعة، كان عليهم الانتظار أكثر من ثلاثة أيام قبالة جدران الجزيرة الصخرية العالية، حتى تمكنوا من النزول بزورقهم على الشاطئ الصخري. أما نحن ركاب سفينة قطعت 10,000 كم من شاطئ تشيلي مروراً بتسع جزر مأهولة وغير مأهولة في بحر الجنوب إلى أرخبيل تواموتو وتاهيتي، فقد كنا أسعد حظاً. ورغم الهدوء النسبي للبحر وانتظار ساعتين، استنجدنا باللاسلكي ببحارة الجزيرة وقاربهم الطويل لنقلنا، بدلاً من بحارتنا، من سفينتنا المسترخية، إلى رصيف الشاطئ الخشبي.

في وقت وصولنا إلى الجزيرة، في يوم صيفي مشرق من شهر آذار/ مارس، كان يعيش في بيتكيرن 48 شخصاً فقط، وقد اجتمع معظمهم على المرْطَم الذي حتّته الأمواج لاستقبالنا.

كانت سفينتنا هي الأولى منذ شهور والأولى في هذه السنة.

يونغ، مَكوي، براون، كريستيان. كانت أسماء كثير ممن قدّموا أنفسهم لنا على المرطم، أو لاحقاً أمام البيوت الخشبية المتناثرة في أنحاء القرية أو في ساحتها، وهي أسماء عائلات أحفاد المتمردين. وكان بعضهم يضيف بفخر أحياناً إلى أي جيل من السلالة ينتمي: إلى الملاح المتمرس فلان من المتمردين، أو إلى طالب البحرية فلان، أو إلى الضابط الثاني نائب الملازم فلان على متن الباونتي التي انتهت إلى پيتكيرن بقيادة فليتشر كريستيان، الذي بعد مرور قرن على نهاية الدراما القاتلة، حاول نجوم كبار في عالم السينما مثل كلارك غيبل ومارلون براندو وميل غيبسون إحياءه من جديد، ولكن عبثاً.

كنت مبتلاً برذاذ الموج عندما تسلقت الطريق الصاعد من المرطم إلى ساحة القرية وإلى مكتب البريد حيث يمكن لرسالة أن تنتظر شهوراً لتتابع طريقها، وأردت في مقهى كريستيان أن أسأل عن الجولة الأغنى بالمناظر حول الجزيرة. لكنني في غرفة المعيشة المستخدمة كمقهى، لم أجد سوى طائر مائي بحجم نسر يقف على ذراع كرسي هزاز. اعتقدت بادئ الأمر أن الطائر محنط، ونقَزتُ عندما أدار رأسه فجأة نحوي. فتح منقاره المعقوف صامتاً، عندما دَخَلَتْ من غبشِ إضاءة المطبخ صاحبة المقهى، وعلى ذراعها طفلة صغيرة، وقالت مقدمة نفسها: السيدة كريستيان. الطائر عجوز جداً، ضيف هذا البيت منذ ثلاثة وثلاثين عاماً. ولكن على خلاف سكان آدمز تاون، يستطيع مغادرة الجزيرة متى شاء، أحياناً لأسابيع،

وأحياناً لشهور، لكنه دائماً يعود إلى هنا، مثله مثل كثير من سكان پيتكيرن الذين يهاجرون، لكن لوعة الغربة تعذبهم فيعودون.

كانت السيدة كريستيان، وهي إحدى سليلات قائد المتمردين، تفضل استقبال الزبائن القادمين من السفن أكثر من المحليين، أولاً بسبب علاقة القربي التي تربطها بالمحليين، وثانياً لأنهم ليس لديهم ما يحكونه لها، مما لا تعرفه.

وفيما كنت أشرب بيرة نيوزيلندية من صندوق تبريد موصول بمولِّدة كهرباء هادرة، تساءلت السيدة كريستيان: بحق السماء، لماذا يسافر بعض الناس آلاف الأميال عبر الباسيفيكي، قاطعين نصف العالم تقريباً، ليروا آخر مرسى للباونتي، في حين أن اهتمامهم بالتعرف على حقيقة التمرد قليل، مثل قلة اهتمامهم بالتعرف على حقيقة الحياة في جزيرة، لا تقع في نهاية العالم فحسب، بل هي نهاية العالم؟

ولكن طبعاً، عندما يدور الحديث عن أحلام بحر الجنوب، عن الشواطئ الفردوسية، غير الموجودة هنا، وعن سماء زرقاء إلى ما لا نهاية له، غير الموجودة هنا، أو عن فتيات بحر الجنوب خاصة! عندها تنفتح الآذان حتى في بلاد الأمطار، التي لم يسمع أهلها سابقاً اسم پيتكيرن إطلاقاً، ناهيك عن جهلهم بموقع آخر ملجأ للمتمردين في الباسيفيكي. وعندما امتلأت الصحف من پَتاغونيا إلى إنكلترا بقصص تلك الفتيات، بتلك المحاكمة، التي اتهم فيها نصف رجال پيتكيرن بإرغام قاصرات على ممارسة الجنس واغتصابهن، كانت كل

سفينة تحمل إلينا بعض المتطفلين المتلصصين، حاملين معهم في حافظاتٍ نايلونية شفافة مقالات عن الفردوس المفقود، وجريمة في الفردوس، وظلال على الفردوس وما شابه ذلك من الهَبَل، ليقارنوا الواقع بما جاء في حافظاتهم. وكأن پيتكيرن كانت ذات يوم فردوساً.

استمرت المحاكمة سبعة أسابيع، تواجد خلالها في پيتكيرن من رجال الشرطة، وموظفي القضاء، والنيابة العامة، والمحامين من إنكلترا ونيوزيلندا ضعف مجموع سكان آدمز تاون. قطع القضاة مسافة نصف الدنيا ليتبين لهم أن الرجال في آخر الدنيا لا يختلفون عنهم في أوساطهم. وكون پيتكيرن كمستعمرة بريطانية ما زالت تابعة للتاج، كان أمراً مهماً للمدعي العام وليس للمدعى عليهم. على أية حال، قالت السيدة كريستيان إن آدمز تاون كانت أول مكان في الدنيا، طُبِّق فيه حق المرأة المطلق في الانتخاب، منذ عام 1838! لكن من كانوا يعيشون هنا لم تكن لغتهم مزيجاً من تاهيتيةٍ وإنجليزيةٍ زمن الباونتي فحسب، بل كان لهم أسلافٌ من الرجال والنساء من تاهيتي وتوبواي، اقتادهم المتمردون إلى هنا، إضافة إلى من أتوا لاحقاً من مَنغاريغا ورایاتیا وجزراً أخرى. لذلك اعتمد بعض المتهمين في دفاعهم عن أنفسهم على قوانين وتقاليد قديمة سائدة في بحر الجنوب، أي على قواعد الجنة.

أنزلت السيدة كريستيان حفيدتها على الأرض، فأخذت ترغو زاحفة على أربع نحو الطائر الغارق في سباقه. عبر

زجاج الشرفة الأرضية كنت أرى في البعيد سفينتي في البحر المتلألئ عند العصر، عندما سمعنا قرع ناقوس، برنين عالٍ بعيد المدى. بهذا الناقوس، قالت السيدة كريستيان، يمكن استدعاء سكان الجزيرة، حيثما كانوا. وهو يقرع اليوم من أجل ديبورا كريستيان، حماتها، التي توفيت صباح اليوم قبل وصول السفينة بقليل، وهي في الثامنة والثمانين من عمرها.

ديبورا هذه، ولدت وتوفيت في بيتكيرن، وأمضت حياتها كلها في الجزيرة، مثل كثير من سكانها، دونما توق للسفر إلى أرضٍ أخرى. أكان الأمر معجزة أن تصيبها الجلطة في الثالث والعشرين من كانون الثاني / يناير، **يوم الباونتي**، الذي يحتفل به السكان هنا سنوياً، وتمضي أسابيعها الأخيرة ساكنة بلا كلام، وكأنها تريد حفظ ذات السر إلى الأبد، أي جعل بيتكيرن نفسها سراً؟ لقد فقدت ديبورا القدرة على التطور في تلك اللحظات التي أُنزل فيها نموذج للباونتي في ماء الخليج وأوقدت النار فيه، كما في كل سنة، وغرق في المكان نفسه تماماً كما سفينة المتمردين عام 1790. وكان ذلك لطمس آخر دليل يُحتمل أن يجذب إلى الجزيرة أي سفينة أخرى خرجت صدفةً عن مسارها.

ولكن في هذا العالم، لا يمكن إخفاء أي شيء مهما كان، قالت السيدة كريستيان، لا سفينة ولا فعلة شائنة ولا جزيرة. فحتى لو أن مُلاحقي رفاق كريستيان ما كانوا ليعثروا عليهم أبداً، إلا أن الأحفاد قد حاولوا مراراً مغادرة الجزيرة، وهاجروا ذات مرة إلى تاهيتي، وبعد ذلك بعقود هاجروا

ثانية إلى جزيرة السجن المهجورة، نورفولك، التي تقع على مسافة 6000 كم غرباً... ولكن شعور المهاجرين بالحنين إلى الوطن كان ضاغطاً، بصورة جعلت معظمهم يعودون، مثل هذا الطائر هنا.

عند الوداع قالت لي السيدة كريستيان، إن أي طريق أتخذه لجولتي حول الجزيرة سيفي بالغرض. ففي نهاية المطاف سأعود إلى النقطة التي انطلقت منها، وفي كل مكان سأعثر على ما يتعلق بتاريخ الباونتي، على المرساة التي أُخفيت بعناية كبيرة وتحولت من ثم إلى نُصب، وكذلك على مدفع سطح السفينة الذي صار تمثالاً أيضاً، أو على إنجيل السفينة الذي أُنقذ من الغرق، وعلى قبر آخر المتمردين.

لم أحتج في النهاية إلى أكثر من ساعتين لجولتي على الجزيرة كلها، عبر طرقات حمراء التربة، ودروب ملتفة ومرتفعات بلا دروب، علماً بأن أدمز تاون لم تغب عن ناظري إلا نادراً. ورغم أن أعلى نقطة في بيتكيرن لا يزيد ارتفاعها عن سطح البحر أكثر من 347 م، كانت الجروف طوال جولتي على درجة من الانحدار نحو البحر، بحيث بدت غالباً بعيدة الغور. وحقاً كانت هناك على خريطة الجزيرة التي كثيراً ما أخرجتها من جيب صدري، أسماء مساقط (هاويات): **مسقط نيلّي، مسقط دان، هاوية توم، مسقط لين، هاوية لين، مسقط جوني،** فهنا وهناك وهنالك، بينما كان هذا أو ذاك أو تلك يجمع بيوض طيور البحر، أو يبحث عن أعشابٍ أو يفتش عن عنزة تائهة، يسقط إلى أسفل الجرف أو يقف على صخرة تبدو آمنة فإذا

بموجة عملاقة تسحبه معها إلى الخلود.

على المنحدرات المؤدية صعوداً إلى أماكن حوادث السقوط، أو نزولاً إلى أماكن الارتطام، رأيت عدة مرات عنزات سوداءٍ، ما إن ترينني حتى تتجمد في مكانها لدقائق قبل أن تقفز هاربة بفزعٍ. كان المتمردون هم الذي جلبوا معهم الماعز من تاهيتي وتركوه يرعى حراً في الجزيرة، إلى أن استعاد نفوره من البشر وحذره منهم كالحيوانات البرية.

لم أتمكن من ضبط العنزة المربوطة بالحبل في ملعب التنس بعدسة كاميرتي بأي شكل من الأشكال. وفي النهاية لم تُظهِر الصورة الرقمية أكثر من ظل غائم المعالم أمام انعكاسات ضوئية من خليج الباونتي، حيث ما زالت توجد بقايا من سفينة المتمردين، وعلى عمق أمتار فحسب، مثل المسامير ومفصلات الأبواب وحجارة التثقيل. والإطلالة العامة من الملعب على الخليج كانت تمنح الناظر فرصة رؤية سفينة المتمردين وهي تحترق وتغرق.

كم بدت أدمز تاون وديعةً من قمة ملعب التنس... ببيوتها المتناثرة بين الأراضي الخضراء والأبراج الصخرية وذرى المرتفعات، حيث يتمايل العشب وأشجار جوز الهند بهدوء ونعومة. وما أسرع ما ينمو العشب هنا، حتى على المساحات الاسمنتية، بمجرد تعرضه للعبة تبادل الظل والنور والأمطار والرياح. والشقوق المفتوحة في الأرضية الاسمنتية الرمادية جعلت الملعب يبدو وكأنه يعود إلى عصر الباونتي.

جلست في الظل على الشريط الضيق بين الدغل وخط

حافة الملعب الباهت وشربت مياهاً معدنية من مقهى كريستيان. يحتمل أن الزجاجة قد جاءت مع الشحنة التموينية التي توصلها السفن النيوزيلندية الثلاث إلى بيتكيرن سنوياً. ما كان بوسع العنزة أن تراني في مخبئي وراء أوراق القصب العالية، كما أني لم أعد ألحظ منها سوى رنين الحلقة المعدنية بين الحين والآخر.

إن سفينة الباونتي المسلحة ذات الصواري الثلاث، والتي كانت قبل ذلك شاحنة فحم أعيد بناؤها، كانت مكلّفة بمهمة نقل شتلات شجر فاكهة الخبز من تاهيتي إلى جزر الأنتيل، بقيادة ملازم بحرية اسمه ويليام بلاي W. Bligh، وكان ذلك أحد أسباب اندلاع حرب الاستقلال الأميركية. فبعد أن لم يعد بوسع التاج البريطاني الحصول على حبوب رخيصة الأسعار من أمِريكا المتمردة، مات من الجوع نحو 5000 عبد في حقول قصب السكر الكاريبي خلال سنوات معدودة، حسب إحصاءات تجميلية غير دقيقة. وشجر فاكهة الخبز غير المعروف في جزر الأنتيل حنئذٍ، كان يفترض أن يحل الآن مشكلة الحبوب ويطعم جيشاً ضخماً من العبيد بكلفة رخيصة ما أمكن.

حسب معايير الأدميرالية كان الملازم بلاي يعد ضابطاً ليبرالياً متسامحاً، رافق جيمس كول في رحلاته حول العالم، ومناسباً بالتالي للقيام برحلة إلى تاهيتي المحاطة بالأساطير وشبه المجهولة بعد في أوروبا. وبلاي من جهته كان يأمل بعد هذه المهمة بأن يترفع إلى مرتبة قبطان أخيراً.

أما الملازم الثاني على الباونتي، فلتشر كريستيان فقد تربى في دار الملازم أول بلاي بمنزلة ابنه بالتبني. ولكن بعد شهور من السعادة في تاهيتي، وبعد جمع المحصول وتخزين الثمار في السفينة، ووداع حبيبته التاهيتية، وعدة صدامات عدائية مع بلاي خلال المرحلة الأولى من رحلة العودة، فقد أعصابه نهائياً في صدام مفتوح مع رئيسه، بسبب نقص عدد من ثمار جوز الهند من مؤونة السفينة، ما دفعه إلى إجبار رئيسه مع تسعة عشر بحاراً من مواليه، على النزول إلى قارب نجاة بعرض مترين وطول سبعة أمتار وتركهم في عرض البحر قرب جزر تونغا، عرضة للموت جوعاً وعطشاً أو غرقاً.

لكن الملازم أول بلاي حقق إنجازاً ملاحياً جباراً، كان يُعتبر مستحيلاً، لم يُمكّنه فقط من العودة إلى إنكلترا، بل أدى إلى ترفيعه إلى قبطان، ومن ثم إلى نائب أدميرال. كان قارب الإنقاذ مزدحماً بركابه، ما يجعل قيادته بالمجاديف والأشرعة أمراً عسيراً، ومع ذلك تمكن بلاي في ثمانية وأربعين يوماً من قطع مسافة 6000 كم حتى ميناء كوپانغ في المستعمرة الهولندية تيمور. وفي أثناء رحلة الرعب هذه، بين القيظ والجوع والعطش، وضيق المكان بحيث لم يتمكن أحد منهم من النوم ممدداً ولو مرة واحدة طوال الرحلة، ثبّت بلاي على خريطته أربعين جزيرة وشعاباً صخرية كانت مجهولة. وعاد عبر بتافيا (جاكرتا لاحقاً) على سفينة تجارية إلى إنكلترا. وقد أدى تقريره إلى الأدميرالية إلى حملة ملاحقة للمتمردين عبر بحار العالم، هي الأطول زمناً حتئذ في تاريخ البحرية الملكية البريطانية.

في أثناء ذلك قام متمردو الباونتي بالبحث لأنفسهم عن جزيرة لا تقع على خطوط ملاحة السفن، واعتقدوا أنهم قد وجدوا ضالتهم الآمنة في الجزيرة المرجانية الجنوبية توبواي. ولكن على خلاف التاهيتيين، رفض سكان توبواي خدمة الأجانب وتزويدهم بطعامهم وتقديم نسائهم لهم، فعوقبوا بمذبحة، وتمكن رجال كريستيان من الإبحار مجدداً دون خسائر في صفوفهم، لكنهم تركوا وراءهم في الجزيرة المرجانية ستة وستين قتيلاً. أما الباونتي فقد اتجهت نحو تاهيتي مجدداً، حيث غادرها ستة عشر متمرداً، بسبب الخلاف حول المستقبل والنزاع بسبب حمام الدم في توبواي، وعلى الرغم من خطر أن تعثر عليهم هناك إحدى السفن الحربية البريطانية.

بعد شجار دموي ومعركة ثأرٍ لاحقة بقي من هؤلاء المتمردين التاهيتيين أربعة عشر رجلاً فقط، استوطنوا مع نسائهم التاهيتيات خليج ماتَغاي، حيث رست بعد سنة ونصف الفرقاطة الملكية HMS Pandora. كان بين مَن غادر الباونتي في تاهيتي قلة لم تلحق بالملازم أول بلاي في قارب النجاة بسبب ضيق المكان، إلا أن الجميع اعتقلوا خلال يومين وسيقوا بالأغلال، أبرياء ومذنبين معاً، إلى قفص معدني ملتهب حشروا فيه على سطح مؤخرة الفرقاطة، على أن يُترك الأمر للقضاة في إنكلترا للتمييز بين المذنب والبريء.

وخلال متابعة باندورا البحث عبثاً عن المتمردين اصطدمت قبل استراليا بالشعاب المرجانية الكبيرة وغرقت، وغرق معها واحد وثلاثون من بحارتها إضافة إلى أربعة

من المقيدين بالأغلال من جماعة الباونتي، فقد فتح قفصهم في اللحظات الأخيرة. وكان على الناجين- من الأسرى ومطارديهم وحراسهم- أن يركبوا في قوارب النجاة معاً، ويكرروا رحلة الرعب التي عاناها وليم بلاي وشركاؤه في العذاب. بعد أسابيع لا نهاية لها، لم يشربوا خلالها سوى بولهم ودماء طيور البحر التي اصطادوها وصلوا هم أيضاً إلى تيمور، وعادوا عبر بَتاقيا إلى بورتسموث. حكم هناك على ستة من المتمردين بالموت. لكن الملك عفا عن ثلاثة منهم، وشنق الثلاثة الباقون من عارضة شراع السفينة الحربية HMS Brunswick، وتركوا طوال ساعات يتأرجحون في الريح على سبيل الردع.

في الطرف الآخر من العالم، بعد مذبحة توبواي وتشرذم طاقم الباونتي في تاهيتي، أراد فلتشر كريستيان والرفاق الثمانية المتبقون معه، أن يبحثوا عن جزر غير مأهولة فقط. ولكن للإقامة في مكانٍ مجهولٍ خالٍ من السكان لا بد من نساءٍ وخدم، فرسى فلتشر في ليلة عاصفة أمام تاهيتي، وأغوى اثنتي عشرة امرأة تاهيتية بركوب سفينته، وأجبر ستة رجال من تاهيتي وتوبواي وراياتيا على مشاركته في رحلةٍ لن يعود منها أحد.

كان كريستيان على معرفة، من تقارير مكتبة الباونتي، بوجود جزيرة اكتشفت عام 1767 وسميت باسم مكتشفها بيتكيرن، ثم نسيت. وهي محمّلة على ثلاث خرائط في مواقع متباعدة عن بعضها، حتى أن مكتشفاً وبحاراً شهيراً من

مقام جيمس كوك قد فتش عنها بمساعدة ملاحه وليم بلاي حسب الإحداثيات المتوفرة، فلم يجد سوى أفقاً فارغاً. أي أن هذا المكان هو الأكثر أماناً في العالم كله.

ويا له من نصر، بعد رحلة تيه طويلة ويائسة، عندما برزت الجدران الصخرية من الماء في كانون الثاني / يناير 1790. لا بد أن تكون هذه الجزيرة هي بيتكيرن. هنا أخيراً، يُفترض أن يصبح كل شيء على أفضل حال، ويحتمل أن يُنسى هنا ما لا يمكن أن يُنسى.

منذ الأيام الأولى في الجزيرة، ورغم كل الآمال المعقودة، وُجدت أسباب للنزاع: كان البحار ماثيو كوينتل أشدهم خوفاً من المشنقة، فأشعل النار بالسفينة الرأسية على القعر في الخليج، من دون أن يستشير زملاءه. وبعد إحدى عشرة ساعة عندما غرقت السفينة كلياً اختفى معها أي دليل مرئي على الجرم، كما اختفت معها أية إمكانية للخروج من أسر جزيرة صخرية في أكبر وأعمق محيط في الدنيا ثانية، ولا سيما من أسر شراك الذاكرة والذنب والغربة والحنين إلى الوطن.

وما بدأ الآن، كان دراما البداية الجديدة، التي بدا أنها تتبع فحسب منطق عالم تم التخلي عنه إلى الأبد، بعد أن غاب وراء الأفق: طالب المتمردون التسعة بادئ الأمر بتسع نساء من الاثنتي عشرة امرأة تاهيتية، كملكية خاصة. وعلى الثلاثة الأخريات خدمة الرجال البولينيزيين الستة. ولكن في السنة الأولى من الزمن الجديد، سقطت إحدى نساء المتمردين عن الجرف وهي تبحث عن بيوض طيور البحر، وماتت ثانية

متسممة، فأراد المتمردون تعويضهما بامرأتين من النساء الخدم. إلا أن هؤلاء أرادوا الانتقام لهذا العار ولتقسيم الجزيرة بين البيض فحسب، فهاجموا أسيادهم الذين قتلوا اثنين من المهاجمين، فيما هرب الآخرون واختبؤوا، إلى أن تمكنوا من الانتقام بعد فترة من الهدوء المخادع: وذات ليلة قتلوا خمسة متمردين، منهم فلتشر كريستيان، لكن النزاعات دبت بينهم بعد انتصارهم. فقُتل أحدهم في شجار بسبب امرأة. والثاني الذي تحالف مؤخراً مع البيض، فأراد الثالث لهذا السبب قتله، قتلهما البيض معاً، أما آخر الخدم البولينيزيين فقد طعنته تاهيتية في لحظة يأس من العودة إلى الأرض.

لم تفقد النساء في پيتكيرن حريتهن وعائلاتهن فحسب، بل أسماءهن أيضاً: **ماواتوا** صارت إيزابل، **وتياتوا هيتيا** صارت سارة، **وتوفايتي** صارت نانسي، **وڤاهينياتوا** صارت پرودنس، **وتيهوتياتواونوا** صارت جِني... ولكن إلى هنا وكفى. فالنساء جعلن الجزيرة صالحة للعيش، إذ كن يعرفن شؤون الزراعة فأثمرت أشجار فاكهة الخبز، واستخرجن من أوراق شجر توت الفم أليافاً للثياب والأغطية واستخدمن ثمار جوز الهند بمئة طريقة... ولكن إلى هنا كفى أيضاً. فقد أردن مغادرة الجزيرة وأخذن خفية ببناء طوف. غير أن تاهيتي كانت بعيدة، بل نائية جداً، ولكن ربما كانت هناك في طريقهن جزر أخرى بلا أسماء، كل منها ستكون أفضل من پيتكيرن. وعندما اكتشف الطوف، جرجرت النساء إلى العالم القديم الشبيه بالجديد، والذي فجأة، لم يعد البحار وليم مَكوي راغباً

بالبقاء فيه. في مرحلة من حياته، كاد يطويها النسيان عمل مكوي في معمل للمشروبات الكحولية في ويلز، حيث كان يحرك الجريش لاستخراج الجعة، فقام الآن بجرش وهرس جذور نباتات زنبقية، واستخرج منها شراباً ساعده في الهرب: إذ سكر وربط قدميه بحبل، ثم أدخل يديه في العقدة على نحو لا فكاك منه ورمى نفسه من أعلى الجرف إلى المحيط الهادئ آنذاك.

أحد الرجال الثلاثة المتبقين في بيتكيرن شرب ما تركه مَكوي وراءه من كحول الزنابق الثقيل فانتابته حالة من الجنون استمرت عدة أيام، بحيث لم يجرؤ رفيقاه على النوم خشية ما قد يفعله، فقتلاه بالبلطة التي هددهما بها. بعد هذه المعركة بفترة قصيرة اختنق أحدهما بنوبة ربو.

والناجي الوحيد من عملية هروب إلى جزيرة، بدت أن الأمواج قد ابتلعتها رغم تعدد إحداثياتها فلم يجدها المطاردون، لم يُرمَ بعد موته في البحر، ولم يترك لتأكله الطيور، بل دفن تحت حجر منحوت وحزنت عليه زوجاته وأطفاله.

والسبب في أن آخر المتمردين قد ترك ليموت بسلام دون عنف، هو أن قبطاني السفينتين الحربيتين الإنجليزيتين Tagus وBriton اللذين اكتشفا الجزيرة مجدداً بعد خمسة وعشرين سنة، دون أن يكونا مكلفين بالبحث عن الهاربين، قد طبقا مقولة: المغفرة عند المقدرة، رغم أن الرجل العجوز الذي كان يهمس بالمزامير، قد اعترف بأن ألكسندر سميث الملقب جون آدمز، المتمرد على الباونتي، قاتل، خاطف نساء، ومذنب نادم

على أفعاله، ومستعد بملء حريته لتقديم نفسه إلى أية محكمة وقبول حكمها مهما يكن، ولو كان الشنق. لكن القبطانين بناء على رجاء حشد من النساء الباكيات والأطفال أبحرا، دون جون آدمز الذي أطلق اسمه على أصغر مدينة في العالم، وأصغر مستوطنة بشرية في محيط يبدو أن لا نهاية له. وفي تقريرهما للأميرالية في إنكلترا قالا إنهما نظراً لمجتمع الجزيرة الذي يُذكِّر بأمور كثيرة، بالجريمة والذنب والتكفير، مثلما يذكر بالفردوس لم يطاوعهما القلب لتطبيق القانون حرفياً.

عندما نهضتُ من مخبئي بين القصب لأتابع طريقي، نزولاً إلى القرية وإلى قبر جون أدمز، الموجود تحت شجرة نخيل ملكي بعيداً عن المقبرة الصغيرة، حيث ستدفن عصراً ديبورا بين كثيرين من آل كريستيان، بقي السكون مهيمناً، فلا صوت حوافر ولا رنين حلقة معدنية. لا شك في أن العنزة قد قطعت الحبل وجرته وراءها إلى الدغل.

باتجاه أعلى الجرف، وعلى مسافة بعيدة، رأيت بعض الأغصان وكأنها تلوّح. إذا كانت هذه الحركة تدل على طريق هروب العنزة، فلن يطول الوقت حتى يشتبك الحبل بغصن ما أو بجذر ما، فيقيدها مجدداً. ولكن لن يمر أحد من هناك أعلى الجرف، فيرعبها كما فعلت. وقد لا يمر أحد ليفك قيدها ويقودها إلى بيتها، لينقذها. فكان لا بد من أن أترك ورائي ملاحظة مكتوبة، في الشرفة المفتوحة. وانتزعتُ صفحة من دفتر ملاحظاتي وأنا أتوجه بين القصب نحو الدار الخاوية.

●●●

ظل إنقاذ

رأيت سترة إنقاذ حمراء اللون على حافة حقلٍ متلاطم بما يجرفه الموج في المحيط الهندي. كانت مفرودة مثل شراعٍ ومتأرجحة بين براميل بلاستيكية، وأعشابٍ بحرية وشوادر ممزقة، وجريدِ نخيلٍ وحطام خشبٍ، وبقايا مختلفة من أكواخ مدمرة وأرصفة مقتلعة في خليج واسع في جزيرة موريشيوس التي تبعد مسافة 1800 كم عن ساحل أفريقيا الشرقي.

في القارب / التكسي الذي ينقلنا في هذا اليوم الصحو تقريباً والخفيف الريح من شهر شباط / فبراير إلى بورت لويس عاصمة الجزيرة، كان هناك إضافة إليّ، ثلاث نساء، إحداهن تحمل على جبينها علامة تيلاكا الخاصة بالهندوسيات المباركات، وصيادا سمك في أعالي البحار من منطقة الإلزاس، وقد التقط السائق بخطاف قاربه السترة الحمراء من فيض الركام الذي خلفه وراءه إعصار غاميد **Gamede** قبل أسبوع. يعد إعصار غاميد من العواصف الاستوائية المدمرة التي تصيب موريشيوس في شهور الصيف الحارة والرطبة بين كانون الأول/ ديسمبر ونيسان/ أبريل، بشكل دوري ويكتسح الجزيرة بسرعة 180 كم/ سا، وقد أدى إلى ارتفاع

الأمواج قبالة الساحل الذي نبحر بحذائه الآن حتى 20 متراً، حسب قياسات الأرصاد الجوية.

كان أحد الصيادين الإلزاسيين أول من رأى سترة الإنقاذ الحمراء، التي كان محتملاً أن نمر بها أثناء سفرتنا دون أن ننتبه إليها، بين هذا الركام الذي لا يحصى من فوضى الأشياء، لولا أن اسم المركب كان مطبوعاً بحروف كبيرة على حمرتها: السمكة الملكة **King Fish**. وهو الاسم الذي تردد كثيراً في الأيام التالية للإعصار مرتبطاً بقوته التدميرية، سواء في الإذاعة أو الصحف التي ما زال يحتل عناوين صفحاتها الرئيسية.

ومَركب الصيد ذو الصاري الواحد، الذي دُشّن باسم سمكة الإسقمري الفاخرة، كان قبل اقتراب منخفض العاصفة بيوم واحد قد أقلع من ميناء بورت لويس، وعلى متنه تسعة بحارة متوجهاً نحو سانت براندون، وهو أرخبيل من دزينتين من الجزر الصغيرة وغير المأهولة غالباً، شمال شرقي موريشيوس، وفي عين الإعصار هناك، انقطع أي اتصال معه لا سلكياً، كما اختفى من على شاشات أجهزة خفر السواحل.

وفي حين كانت بساتين النخيل في موريشيوس تُقتلع من جذورها، وسقوف الصفيح تتطاير، مع الدعائم والألواح الخشبية، والأبواب والنوافذ المثبتة بالمسامير تتحطم، وقرميد السطوح وشظايا الزجاج تتطاير كطلقات طائشة تصفر عبر الهواء، وصل من مكان ما من متاهة جزر سانت براندون آخر اتصال لا سلكي من السمكة الملكة. لم يتضمن الخبر أية إشارة

إلى حالة اضطرارية أو ذعر: البحر مضطرب، الطاقم في حالة جيدة، كل شيء على ما يرام. ثم صمت الاتصال.

بعد خمسة أيام من متابعة الإعصار طريقه شرقاً، مع انخفاض مستوى ارتفاع الموج، وكأن المجروفات وكم الركام الهائل قد أثقلها، اكتشف طيار من الإنقاذ الجوي من قمرة طائرة دورنير، وجود المركب جانحاً على شاطئ جزيرة كوكو المأهولة أحياناً، بعيداً عن منطقة البحث في أرخبيل سانت براندون. وبعد يوم واحد وصل قارب من خفر السواحل إلى مركب الصيد الجانح.

كان مركب السمكة الملكة مستوياً فوق الرمل. صحيح أن سور المركب وجزءاً من دفة التوجيه كانا محطمين، ولكن لم يكن هناك أي شق تتسرب منه المياه. كان سقف مقصورة القيادة مقتلعاً، لكن الكبائن جافة. أجهزة الملاحة والاتصال والمواد الغذائية، واللمبات، وزجاجات الماء كانت متناثرة على أرض القارب والطاولات والأسّرة. وفي حجرة التبريد كان هناك صيد غني على الجليد من سمك التونة والاسقمري الملكي وحتى المرلين الأزرق. ولكن لا أثر لأحد من طاقم القارب.

إن ما شغل خيال جميع المصابين من الإعصار، أكثر من أية وقائع كارثية أخرى في أيام العاصفة، هو تخلي بحارة المركب عنه، رغم بقاء كل ما هو ضروري للنجاة في القارب من أجهزة وغذاء وماء، مع كون الكبائن جافة والمركب راسخاً في رمال الشاطئ.

فأن تختفي قوارب صيد، بل مجموعة قوارب دفعة واحدة بلا أثر... وأن تنقلب في العاصفة سفينة صيد ضخمة Trawler أو أن تصطدم بشعبٍ فيصيبها شرخ أو تتحطم وتغرق، دون أن تترك وراءها سوى آثار فقط، أو أن تتطاير تحت ضغط الريح أكواخ وبيوت فقراء بورت لويس، بينما تصمد بيوت الأغنياء الراسخة البناء في وجه أية عاصفة، فهذا كله يتوافق مع قوانين الإعصار. أما أن يختفي طاقم سفينة ببساطة، من مركب جيد التجهيز ويوفر حماية أفضل من أي كوخ صيادين على اليابسة، فقد بقي الأمر لغزاً، بحيث تحولت السمكة الملكة شيئاً فشيئاً إلى سفينة أشباح.

وحتى بعد أن تبيّن من البحث الدقيق لخفر السواحل، أن محرك المركب معطوب، وأن الماء قد تسرب إلى حجرة المحرك، ما جعل المركب غير قابل للمناورة، فهجره الطاقم لهذا السبب، محاولاً ربما الوصول إلى إحدى جزر سانت براندون، المختفية بين جبال الموج، بقارب إنقاذ قابل للنفخ، رغم كل ذلك طغت الصورة المتخيلة على نتائج البحث: إنها سفينة أشباح. وفي نهاية المطاف كانت سفينة أشباح تلك التي جُرّت إلى ميناء بورت لويس.

لا أدري ما إذا كانت هذه السفينة أحد أسباب سفر ركاب القارب/ التكسي من پريبير إلى بورت لويس، ولا فكرة لدي إطلاقاً بأيٍ من اللغات العشرين المنطوقة في موريشيوس كانت النساء الثلاث تتحدث خلال السفرة. أما صيادا السمك الإلزاسيان فقد غرقا في حوار عن أنواع الطعوم

والشصوص، لم أفهم إلا القليل منه. لم ينطق السائق بكلمة، وتساءلت في نفسي عما إذا كنت سأصل قبل استراحة الظهيرة إلى مكتب السفريات البحري، كي أحجز مكاناً للسفر إلى مدغشقر... ولكن عندما دخل القارب تحت الشمس اللاهبة منطقة ميناء العاصمة، وشاهدنا مركب السمكة الملكة راسياً في أحد الأرصفة قطعت النساء حديثهن، وكذلك صيادا أعالي البحار. كما خفض السائق سرعة القارب.

كأن الموت أو لغز اختفاء هذا العدد الكبير من البحارة قد ولَّد جواً من الرعب حول المركب، الذي كان مهجوراً وبعيداً عن المراكب الأخرى في المياه المغطاة بالزيت. سوره المحطم، وأيضاً ذلك الجزء من دفة التوجيه، وسقف مقصورة القيادة المقتلع، كانوا كما في صورهم في التلفزيون وعلى الصفحات الرئيسية في الصحف.

عندما مر قاربنا بسفينة الأشباح أوقف السائق المحرك، فتجاوزنا الجزء المحطم من دفة التوجيه بلا صوت. فجأة سحبت المرأة ذات العلامة الهندوسية على جبينها زجاجة صغيرة من ساريها، برمت الغطاء وفتحته، وبحركة واسعة من ذراعها رشقت شعاعاً متلألئاً في الشمس باتجاه هيكل سفينة الأشباح. وقد جرى ذلك بكل بداهة وعفوية عابرة، بحيث كدت لا أنتبه إلى حركتها، التي قد لا تعني أكثر من إفراغ سائل فاسد من زجاجة ستستخدم ثانية، لا أكثر.

غير أن السائق الذي سبق أن نقلني قبل العاصفة ذهاباً وإياباً بين بورت لويس وبِريبير، أخبرني عند رصيف الصيادين

الممتد أمام قاعة السوق الكبرى العابقة بروائح السمك، أن المرأة قد صبت ماء من نهر الغانج.

ثمة تقليد عند الهندوس- غالبية المؤمنين في موريشيوس هم من الهندوس- بضرورة تنقيط عدة قطرات في فم الميت، من ماء أكثر الأنهار قداسة. فهذا الماء يغسل غبار تجوال الروح ويبث القوة في الميت على طريقه إلى التحرر من جميع الهيئات والأشكال.

وماء الغانج الذي امتزج الآن على جدار مركب السمكة الملكة وتحت مؤخرته مع مياه حوض الميناء، وبالتالي مع مياه المحيط الهندي، سيحمله المد والجزر وتيارات المحيط إلى شفاه أولئك المختفين في الأعماق الزرقاء، في سانت براندون أو في مكان ما بعيداً عنها. وفي حين تسد أجسام البحارة الغرقى جوع الأسماك والسراطين، سيتسرب هذا الماء عبر الهيئات الفانية، ليذكِّر حتى في قاع المحيط، بأن الحزن على الموتى وعلى كل ما فُقد ليس سوى ظل إنقاذ.

●●●

اللاميّت

رأيت سبعة أزواج من العرسان عند حاجز شارع يؤدي إلى الساحة الحمراء في موسكو. وراء الحواجز التي تشبه مقصات مفتوحة يحرسها الجنود، كانت الساحة خاوية من البشر مثل بحيرة واسعة متجمدة. صباحاً هطل الثلج، وطبقة الثلج الرقيقة لم تذب بعدْ، في ساعات ما قبل الظهر الرمادية. سبب منع الدخول إلى الساحة، بقي سراً، ورداً على أسئلة مرافقي، وهو مترجم من نيشني نوڤغورود، هز أحد جنود الحرس بكتفيه وحسب. علمنا من مصورٍ محمَّل بالكاميرات كان ينتظر عند الحاجز مع أزواج العرسان، أن علينا أن نصبر وننتظر، إذ لن يطول الأمر بعد. هذا ما أكده له بالهاتف المحمول زميله العالق عند نهاية الساحة الأخرى، عند كتدرائية بازيليوس.

لن يطول بعد؟ لن يطول بعد؟ هذا يعني إلى الأبد في روسيا، قال مرافقي.

كنا على وشك أن ندير ظهرينا للساحة الحمراء ولضريح لينين، الذي أردنا زيارته، عندها فجأة أزيحت الحواجز جانباً وسمح الجنود للعرسان ومصورهم بدخول المساحة الواسعة المغطاة بالثلج. في موسكو، في هذه الأيام الأخيرة

من الخريف نُعي نحو مئتي قتيل وأربعمئة جريح في صدامات الشوارع بين أنصار نائب رئيس الجمهورية المدعو ألكسندر روتسكوي وأنصار الرئيس المعزول بوريس يلتسين الذي أمر بإطلاق مدافع الدبابات على مندوبي الشعب المعتصمين في بناء البرلمان، كي يفرض سياسته الإصلاحية. بعد انتصار يلتسين وانتهاء الصدامات ساد في أجزاء واسعة من المدينة هدوء مكدود، مشحون بالغضب والحزن.

تَبِعْتُ أنا ومرافقي إشاعةً راجت أمس تقول إن جثمان ڤلاديمير إيليتش لينين المحنّط قد نقله إصلاحيون بعد سبعة عقود من عبادة الموتى، من ضريح الساحة الحمراء، ودفنوه بكل هدوء عند جدار الكرملن، فغيّبوه بذلك نهائياً عن أعين روسيا.

في طريقنا عبر أزقة خاوية تصفر فيها الريح، حدثني مرافقي عن رحلةِ حجٍ قام بها في طفولته مع والديه وأخويه من مسقط رأسه في نيشني نوڤغورود إلى ضريح لينين في موسكو، فحكى عن أيامِ الذهاب الطويلة، وهم جالسون على أرضية صندوق البضائع المتجمدة على ظهر شاحنة، وعن الوصول عند منتصف الليل إلى الساحة الحمراء والانتظار ست عشرة ساعة بالدور الممتد حتى نهاية حديقة ألكسندر... ليلة كاملة في العراء! ثم التقدم خطوة فخطوة في موكب مزدحم نحو بوابة الضريح، كي تصل في الختام منهكاً ومتجمداً من البرد، وتتمكن من إلقاء نظرة سريعة على جثمان لينين المعروض هناك للمشاهدة، قبل أن يدفعك الركب وأوامر الحرس إلى

الخروج إلى العالم العلوي.

أليس من المستغرب أن أقوى الرجال سلطةً في الاتحاد السوڤييتي المنهار، كانوا سنة فسنة بمناسبة عيد ثورة أكتوبر ويوم العمال، يصطفون على سطح الضريح، كي يلوّحوا من عليائهم للرايات والمواكب والشعب تحت؟ يستخدمون قبراً كمنصة لاستعراض السلطة، قبراً كتاج حقيقي!!

في هذه الأثناء وعلى مسافة قريبة منا، كان أزواج العرسان قد وجدوا المنظر الذي سيشكل خلفية لذكرى يوم عرسهم البارد، وأخذوا يضحكون للكاميرا. ولا شك في أن الغرانيت الأحمر للضريح الذي اقتربتُ منه مع مرافقي عبر الثلج الذي لم تطأه قدم بعد، كان سيشكل تنافراً لونياً مثيراً مع بياض ثياب الزفاف. ولكن بالمقارنة مع الفخامة القيصرية للكرملن أو مع الأبراج ذات القباب البصلية الشكل لكتدرائية باسيليوس، بدا أن الضريح قد فقد كل أهميته.

على الرغم من أن مصراعي بوابة الضريح كانا مفتوحين، مثل قصر تم اقتحامه ونهبه، لم يكن هناك زوار. ولكن كان هناك حارسان وحسب. الإشاعة إذاً صحيحة، القبر فارغ ولينين مدفون إلى جانب ستالين في ظل جدار الكرملن؟ هل برهن الإصلاحيون الظافرون على أن زمناً جديداً قد بدأ، ليس فحسب، بل أبدية جديدة؟ كانت البوابة مفتوحة تماماً، فاتجهنا إليها.

كان الحارسان يحدقان بلا نأمة بالثلج الذي أخذ يهطل خفيفاً، وتركانا ندخل بلا كلمة. عندما وصلنا إلى العالم

السفلي وأخذ مرافقي يحدثني عن قدميه المتجمدتين، ويديه المزرقتين برداً عند وصوله في زيارته الأخيرة إلى هذا المكان، جاءنا أمر من الأعلى في صيغة نباح: هدوء! علينا أن نحافظ على الهدوء. وببطء! علينا أن نمشي ببطء.

أطعنا وخطونا على الدرجات ببطء شديد وكأننا في زحمة موكب منهك يزحف منذ ساعات خطوة فخطوة نحو مومياء. أمامنا بشر غير مرئيين ووراءنا بشر غير مرئيين وكذلك على جانبينا، إلى أن وصلنا أخيراً إلى تابوت لينين الزجاجي غير القابل للكسر.

ما زال هناك، إنه لا يزال مسجى هناك! همس مرافقي، وكأنه لا يصدق، وأنا لا أرى ما يراه: مومياء في بذة ورباط عنق، شغّلت أجيالاً من المحنِطين والمحلِلين والكيميائيين العضويين، وكان لا بد كل بضع سنوات من تجديد لباسها وتشريبها بأشد المواد مكافحة للتحلل. كانت معروضة هناك تحت إضاءة بيضاء ناعمة في سرير فاخر تحت زجاج مصفح. بدت ملامح وجهه الشمعية على درجة من الجمود، وكأنها لم تتعرض في الحياة ولا في المات، ومطلقاً إلى خلجة انبساطٍ أو انفعال حبٍ أو كره أو خوف أو حزن.

تُرى كيف بدا وجه لينين في شبابه، في ذلك اليوم الذي أُعدم فيه أخوه ألكسندر، وهو طالب مدرسة في السابعة عشرة من عمره، لأنه أراد المشاركة في محاولة اغتيال القيصر الكسندر الثالث؟ أو كيف بدا وجهه بعد سنوات كثيرة، وهو يعاني آلام جراحِ التأمت بصورة سيئة بعد محاولة اغتياله

بالرصاص، وهو يراجع لوائح المحكوم بتصفيتهم أو يصوغ أوامر الإعدامات الجماعية لتنفذها المخابرات البلشفية؟

تصفيتهم. إعدامهم رمياً بالرصاص. تغييبهم من الوجود. القضاء عليهم: أي تعبير من هذه الصيغ التي كثُر ما استخدمها لينين قد خطَّها على الورق؟ هل انعكس الاستياء أو الغضب في ملامحه، عندما أمر في نيشني نوفغورود بإعدام مئات العاهرات رمياً بالرصاص، لأنه لا يجوز أن توهِن العاهرات العزيمة القتالية للجيش الأحمر؟ وهل كان ذلك غضباً، أم صرامةَ استراتيجيٍ لا تهزه ريح، بعد المعارك الكثيرةِ الخسائر في سبيل ديكتاتورية البروليتاريا، عندما أمر بإطلاق النار على مئات العمال، العمال المضربين في بيتروغراد، فأثبت بذلك أن كل ثورة، بما فيها ثورة أكتوبر الحمراء العظيمة، في لحظة من مسيرتها تبدأ بافتراس أولادها؟

هل كانت ملامحه تعبر عن الحب أم الانشراح أم الجدّية المنبرية عندما خطب زوجته نادِجدا كروبشكايا؟ أيمكن لشخص أن يتخلى عن اسم **أوليانوف**- اسم عائلة أرستقراطية ثرية- ويتبنى الاسم النضالي الحركي **لينين**، دون حتى أن يبتسم؟ حدثني مرافقي عن أشخاص يحكون أن لينين منذ شبابه، كان كلما سئل عن أقرب الناس إليه، يذكر دائماً اسم مربيته: لينا! وهذا قد يعني بالروسية لينين! أم كان رجل الثورة الأول يريد التذكير بنهر لينا في شرقي سيبيريا، وبالتالي بالمجزرة التي ارتكبتها القوات القيصرية هناك بحق عمال مناجم الذهب المضربين؟ وبهذا يصبح معنى لينين:

رجل النهر.

كان بوسعنا أن نستجوب المومياء مطولاً، ولكن البقاء هناك لم يكن مسموحاً لنا. فلربما كانت تنحصر مهمة الحارسين في منع التحديق طويلاً في سحنة الخالد الأشبه بقناع، مما يؤدي إلى ملاحظة أن حتى الثوري، ولو حرر الدنيا من الجاذبية وأخرجها عن مسارها حول الشمس، لا يمكن حفظه من عوامل الزمن.

تحركوا! سمعنا صوت حارس من العالم العلوي يصدر الأمر إلى العالم السفلي. علماً بأننا كنا وحدنا عند سرير المومياء الفخم. لم يكن هناك من يريد أن يأخذ مكاننا.

تابعوا، تحركوا! اسكتوا!

فاصطففنا في موكب من أشباح وصعدنا الدرجات ببطء، مضغوطين بين اللا مرئيين، إلى ضوء ثلج الساحة الحمراء، التي بدأت تدب فيها الحياة بعد فتح الحواجز ورغم هطول الثلج. ومن بوابة الضريح لم يكن هناك في الثلج سوى آثار أقدامنا وحدنا إلى أرض الساحة المغطاة بالثلج، كالسابق. فخطونا في هذا الأثر متيبسين من البرد وبلا كلام، وكأننا ما زلنا خاضعين لأمر الصمت الصادر من حارس الموتى، عائدين إلى عالم الأحياء.

●●●

زائر البرلمان

رأيت رجلاً حافي القدمين في رتلٍ طويل من الناس الملتحفين بثياب شتوية أمام بناء البرلمان (رايخستاغ) في برلين. كان الرجل يرتدي معطفاً صوفياً رمادياً وقفازين جلديين رماديين ولفاعة وقبعة وبنطالاً من الفانيلا الرمادية أشد دكنة من المعطف. حتى قدماه الحافيتان بدتا مشربتين نوعاً ما برمادية البلاط البارد المبلل بالمطر. ولكن عدا كونه بلا حذاء وجوارب كان الرجلَ الأكثرَ أناقة على نحو لافت بين معظم الواقفين في سترات الأنوراك أو الفرو أو المعاطف المطرية.

مررت في هذا التيار البارد برتل المنتظرين لأن الطريق عبر الفسحة الشاسعة أمام البرلمان بدا لي الأقصر إلى موعدي عند بوابة براندنبورغ، وحاولت أثناء عبوري أن أخمّن عدد المنتظرين في الدَور تحت السماء، على بلاط الفسحة وعلى الدرجات، وهم يتقدمون خطوة فخطوة حتى مدخل البرلمان عبر النقاط الأمنية.

يُرجح أنهم أكثر من مئتي شخص، أولئك الذين يريدون الانتظار ساعات في البرد والريح، إنْ اضطروا، وتحمل تفتيش حقائب اليد والأجسام، كي يُسمح لهم في نهاية المطاف بزيارة

برلمان أغنى وأقوى دول أوربا. تحت قبة هائلة من الفولاذ والزجاج، لا تغطي قصر الحكومة وحده، بل المدينة بأكملها، والتي يبدو أنها تُقسر، عبر مسطَّحاتٍ عاكسةٍ، حتى السماءَ الرمادية على ولوج البناء، تحتها يتداول ممثلو الشعب في هذه الأيام القضايا غير المحلولة بعدْ والمزعجة المتعلقة بالإجحاف في توزيع الثروة، كما يناقشون ما إذا كان على ألمانيا أن ترسل جنودها إلى حربٍ ما بعيداً عن حدودها، إلى المعارك المشتعلة في الشرق الأوسط، حيث الربح قليل والخسارة كبيرة.

كان الحافي قد تجاوز كثيراً سن الجندية، ويحتمل أنه قد بلغ من العمر حداً كافياً، لأن يكون في الحرب العالمية الأخيرة مؤقتاً، قد حمل السلاح والخوذة. وكان واقفاً في الثلث الأخير من رتل الانتظار، ومن مكانه، سيحتاج ربما إلى ساعة ونصف حتى الساعتين إلى أن يبلغ طقسَ البرلمان الألطف.

المنتظرون بكثافة من أمامه، والمنتظرون بكثافة من ورائه، كانوا على ما يبدو قد اعتادوا على الرجل الرمادي وقدميه الحافيتين. ومن المحتمل أنهم قد حاولوا عدة مرات عبثاً فتح حوار معه، وعادوا الآن إلى الوقوف في البرد ثانية، مرتجفين صامتين، أو مدردشين مع جيرانهم.

لا شك في أن خبر وجود رجل حافي القدمين في الرتل قد بلغ المقدمة والمؤخرة كذلك. رأيت منتظرين يبذلون جهدهم كي لا يلفتوا الانتباه وهم يتمشون خارج الرتل، باتجاه مؤخرته أو مقدمته، ليروا هذا الرجل الذي ثبّت نظره صامتاً على قبة البرلمان وهو يقترب بقدميه الحافيتين من هدفه،

غير آبه بالكركرات والهمسات التي كانت تسمع بين الآونة والأخرى من حوله.

تظاهرت بأني مهتم فحسبْ بالبناء الهائل الحجم، الذي كان يزداد ارتفاعاً في سماء الشتاء مع كل خطوة يدخلها رتل المنتظرين فيه. أخذت أتلفت حولي كمن يقارن ما يراه مع خريطة المدينة في يده ومع توقعاته وذكرياته. انشغلت بتهيئة وظيفة التصوير في هاتفي الجوال، مسترقاً النظر مثل هذا وذاك من رتل المنتظرين إلى الرجل الرمادي الحافي. سأتأخر كثيراً عن موعدي، لكن منظره كان يجذبني بشدة.

ها هي فتاة تحدثه الآن، جاءت راكضة من مقدمة الرتل- حتى تلك المسافة وصل خبره إذاً- ومتراقصة على الدرجات، غير ملتفتة إلى نداءات امرأة، أمها يا ترى؟ تنادي إسماً لم ألتقطه بادئ الأمر:

- ألا تشعر بالبرد؟

تقدم الحافي خطوتين وراء الذي أمامه، بقي صامتاً، ناظراً إلى القبة.

- ولماذا لا تلبس حذاء؟

ميريام! لم ترغب الأم في المخاطرة بموقعها المتقدم في الرتل، فخرجت بخطوة جانبية فقط ونادت من هناك بصوت آمر: ميريام!

- أنتَ بلا حذاء. قالت ميريام وأدارت ظهرها للحافي لتستجيب لنداء أمها، وربما لأنها أدركت بشكل أسرع من المنتظرين الآخرين، أن لا أمل في تلقي جواب من

هذا الرجل.

نزلت من السماء الرمادية ندف ثلج متفرقة قليلة، تطايرت مع هبات الريح قبل أن تحط على شعرات ومعاطف وقبعات المنتظرين في الرتل، لتستقر في أمكنة أخرى. وصلت إلى أنفي رائحة حريق قادمة من غابةٍ من رافعات البناء المنتصبة في البعد كأبراج عالية، ففكرت بالرماد، ربما يتدفأ عمال البناء في استراحة الظهر على نار أوقدوها بسِناداتٍ خشبية وأكياس إسمنت فارغة. إلا أنها كانت رائحة الثلج.

ألا يُفضل أن يتخلى الإنسان عن الانتظار ويعود إلى الفندق، تساءل رجل يلبس قبعة من الفرو وتقف إلى جانبه امرأة رشيقة، فبمعدل السرعة هذا سيتجمد الإنسان هنا ساعات. حالنا أشبه بحلزونات تزحف منه ببشر يمشون.

وهل علينا ملء استمارات التسجيل ثانية؟ سألت المرأة. كل شيء مجدداً؟

تساءلت في نفسي، ما المكتوب يا ترى في استمارة تسجيل الرجل الحافي؟ والتي على كل زائر للبرلمان أن يملأها قبل أن يُدرج نفسه في صف انتظار طويل صيفاً أو أقصر قليلاً شتاءً. هناك في الأعلى، في قبة البرلمان التي تناطح السماء عالياً، وعلى ممشى أو مسار دوّار، ظهرت الآن هيئات ضئيلة الحجم سوداء على خلفية الغيوم الرمادية. لقد نجحوا. عندما ينظرون من عليائهم إلى الأسفل، يرون رتل الانتظار، الذي أتوا منه كشريط داكن اللون وغير منتظم في الفراغ.

أتعتقد أن أولئك في الداخل يتمتعون بتدفئة أرضية؟ سأل

ذو قبعة الفرو الرجل الحافي بلهجة بدت متعاطفة.

صمت الحافي متابعاً بنظره طريق الهيئات الضئيلة عبر القبة.

ثم جاء رجل بدين، يبدو أن صبره قد نفد في مكان ما من منتصف الرتل، وأن غضَبه قد أدفأه إذ كان يحمل سترته على ذراعه، ولم يكن إلى جانبه امرأة تحثه على البقاء، فقال:

- أنا أنسحب. فليبحثوا لأنفسهم هناك عن حمقى آخرين.

وأشار إلى البناء كما يبدو أنه خلال زمن الانتظار لم يسمع شيئاً عن رجل حافٍ في الرتل، فتوقف بحذاء الرجل الرمادي. حدّق في قدميه الحافيتين وقال: يمكنك أن تبرِّد قدميك في مكان آخر. بهذا الشكل لن تستطيع الدخول إلى هنا مطلقاً.

بقي الحافي صامتاً.

- ولماذا لا؟ سأل الرجل ذو قبعة الفرو. ربما كان يحسد الرجل البدين، الذي ترك مكانه بكل بساطة، وأقدم على فعل ما كان هو أيضاً يجب أن يفعله وتأخر. لماذا لن يسمحوا له بالدخول؟

ويبدو حقاً أن لا المنتظرين قبل الحافي، ولا الذين وراءه قد شكوا بإمكانية الدخول إلى البرلمان الألماني من دون حذاء وجوارب. ما الذي يخيف بلداً جيد التسليح ومحميّاً من الشرطة والجيش وجهاز المخابرات، من رجل حافي القدمين ومتقدم في السن؟ ثم إنه بلد منتج للأسلحة بكميات تبوّئه احتلال المكان الثالث في لائحة أكبر مصدري السلاح في

العالم. إذ لا يمكن لإنسان أن يكون أكثر وداعة وأقل إيذاء من رجلٍ حافٍ! ثم ألا يتوجب على المرء أن يخلع حتى حذاءه عند نقاط التفتيش إذا استمرت كشافات المعادن بالصفير؟

حتى هذه المسألة لم تثر اهتمام الحافي. كانت القبة تومض مثل قصر الجليد. أكثر من ألف طن، كُتب في منشور أصفر ما زال معظم المنتظرين يمسكونه بأيديهم فيما تركه آخرون للريح، أكثر من ألف طن تزن هذه القبة ذات الخفة المتجلية. ثمة طائرة كانت تحلق في البعيد، بدت فجأة وكأنها تهدر متابعة تحليقها داخل القبة.

لماذا لن يتمكن هذا من رؤية البرلمان إلا من الخارج؟ لأنه حافٍ! قال البدين الآن شبه منتصر وكمن اكتشف لتوه المفتاح الذي يفتح للإنسان لا برلمان دولة فحسب، بل مجتمع سكانها، أو يقفله في وجهه:

حافٍ! لأنه حافٍ.

●●●

عارٍ في الظل

بالمنظار، من مخبئي وراء أجمة من الأعشاب الشوكية، رأيت رجلاً عارياً. كان متكوراً على نفسه في ظل عمود إسمنتي، يحمل أعلاه أربعة مكبرات صوت تشكل صليباً في الاتجاهات الأربعة. كان العمود منتصباً على منحدر هضبة عارية من الأشجار والشجيرات. والهضبة تقوم وراء جدران ممتدة طويلاً ومسلحة بالأسلاك الشائكة، وتحيط بأبنية ذات نوافذ مسلحة بقضبان حديدية. إنه مشفى المجانين في جزيرة ليروس اليونانية.

في تلك الأيام كانت الطغمة العسكرية هي التي تحكم في أثينا، وقيل إن هذه الطغمة لن تُرحِّل أعداءها إلى أقبية التعذيب والسجون في البر اليوناني فحسب، أو إلى معسكرات الاعتقال في جزيرتي غياروس وليروس، بل أيضاً إلى مستشفيات المجانين، كهذا الماثل أمامي الآن تحت سطوة الشمس.

صرخ الرجل العاري. كان صراخه متتالياتٍ من الأصوات والمقاطع البالغة السرعة، التي لم يقطعها إلا ليأخذ نفَساً. رغم أن الوقت كان مبكراً قبل الظهر، كانت الشمس ساطعةً بصورةٍ مؤلمةٍ. وكانت الريح ساكنة تماماً. كان الناس في قرى الجزيرة يأملون منذ أسابيع قدوم مِلْتيمي ريح الشمال

الغربي الباردة. كنا في شهر آب / أغسطس.

قصَّر مسارُ الشمس ظل عمود مكبرات الصوت، بحيث تعرض ظهر العاري ونقرته لأشعة الشمس ولوهجها الذي لا يرحم، فانكفأ صارخاً، دون أن يتخلى عن وضعية التكور، إلى الظل المتقلص. وأخيراً عندما عاد إلى حماية الظل، بدا أنه قد سقط في حالة استغراقه في نفسه ثانية، فتحول صراخه إلى أنين متهاوت تدريجياً.

والنزلاء العراة مثله، أو الذين يرتدون فقط قمصاناً بيضاء مليئة بالبقع، ويقفون قربه أو يتجاوزونه مشياً أو يستلقون على الأرض الحجرية في ظل البناء، لم يأبهوا لصراخه ولا لسكوته. رأيت أكثر من مئة عارٍ وشبه عارٍ تحت سياط الشمس، وأكثر منهم بكثير في الظل. لكن ما لم أستطع أن أميّزه هو، مَن منهم سجين يائس عاقل، ومَن منهم يائس مجنون.

بين الحين والآخر كانت تُسمع من مكبرات الصوت أصوات طقطقة، ولكن لا إرشادات ولا أوامر، كما بدا النزلاء كالخرسان، من مخبئي على منحدر يبعد مسافة خمسين متراً عن الأسلاك الشائكة الحلزونية المثبتة على جدران المستشفى، لم يكن بوسعي سماع أسير يتكلم، إلا إذا صاح. وأنا لم أجرؤ على النهوض من مخبئي والتسلل عبر أجمة الشوكيات لأقترب من الجدار، منذ أن خرج من البناء رجل يرتدي البياض وأخذ يمشي باتجاه العمود، يحتمل أن يكون ممرضاً أو حارساً. جلس الحارس على مقعد، أخرج علبة سجائر من جيب صدره وأخذ يدخن، في حين تصبب العرق من جبيني وسال على

عدسة المنظار. لم يكن يجوز لي التواجد حيث أجلس، فالمكان محظور.

عاود العاري الصراخ. كم مضى من الوقت على صراخه الأخير؟ ارتفعت الشمس في قبة السماء وقلصت حجم ظل العمود ثانية، رامية العاري بوهجها الشديد. فأخذ يصرخ ويبكي إلى أن التحق بملجئه المتراجع.

بات هذا العاري الآن محور اهتمامي عبر المنظار، وكأن لا نزيل سواه، وليس واحداً من كثيرين، من ألفين.. حسبما قيل لي في أثينا. متكوراً على نفسه، أحاط العاري ركبتيه بذراعيه وضمهما بشدة، كمن يتمسك بعزيزٍ، وأخذ يصرخ ملاحقاً الظل، تحت ضغط اقتراب الشمس من السمت، دون أن ينهض ولو مرة واحدة. وهو يصرخ، يئن، يهدأ، يسكت.

لم أعد أذكر عدد المرات التي سمعت فيها هذا التتابع من الصراخ الباكي، الأنين، السكوت، إلى أن أوصله ظل العمود أخيراً إلى البناء، شيئاً فشيئاً، إلى أن اختفى في الظل الواسع للجدار المحتل من قبل ما لا يحصى من العراة والساكتين.

رفع الرجل رأسه الآن لأول مرة وتلفت حوله. الظل يحيط به، مد إحدى ذراعيه: ظل. مد الذراع الثاني: ظل، ظل في كل مكان، ولكن ليس ذاك الشريط من الظل، ذاك الظل الضيق، الذي كان ملكه وحده.. وأخذ يصرخ بأعلى صوت وبكل طبقات العذاب، إلى حد أن بعض النزلاء، ممن كانوا حتى الآن في حالة من الجمود اللا مبالي، جلوساً أو استلقاءً، قد التفتوا إليه.

ولكن في هذه المرة لم يعد يسعفه لا التقدم ولا التأخر متلمساً طريقه بيديه. فالساعة الشمسية التي كان جزءاً منها قد اختفت. لقد سكن الزمن. ربما ظن العاري أنه بات أسير لحظة لا نهائية: فكل شيء، كل شيء، سيبقى إلى الأبد كما كان.. هذه الهضبة الملتهبة المغبرة العارية من الشجر، وهذه الجدران.. كل شيء إلى الأبد. ونتيجة فزعه من ذلك لم يعد يتوقف عن الصراخ والعويل، إلى أن نهض الحارس الجالس على المقعد، وكانت تدلى من رقبته أنشوطة، تحمل ميدالية أو صليباً أو صافرة مزغردة، وهتف عبر الباب المفتوح بجانب مقعد الحراسة إلى داخل البناء، فخرج حارس ثان.

دون عجلة مشى الاثنان نحو المتألم، حملاه من تحت إبطيه وجرّاه دون أن يتخلى عن وضعية تكوره، وكأنه قد تشنج على هذه الحال وهو يعول. جراه على الأرض الحجرية إلى الباب المفتوح وعبرا به العتبة إلى ظلمة الداخل.

●●●

قرش في الصحراء

رأيت شجرة نحيلة عجفاء ترفرف منها قطع قماش أو أعلام، على جانب طريق ساحلي، يمتد بين أراضٍ صحراوية خالية من أية ظلال، وبين شواطئ صخرية للبحرَ الأحمر، خالية هي أيضاً من أية ظلال، ويؤدي إلى مدينة ميناء الحدَيدة اليمنية. كانت أجزاء طويلة من الطريق أسفلتية، تتخللها مقاطع من الدروب الصحراوية، وعندما يبدو الطريق من النافذة الخلفية لتكسي السرفيس أشبه بسدٍ مرتفعٍ من الغبار، الذي يبتلع كل ما نمرُ به من كثبان رملية مسطحةٍ من جانب، ومجروفات بحرية تملأ الخلجان من الجانب الآخر، وأجماتٍ شوكيةٍ. كنا في تكسي السرفيس خمسة ركاب إضافة إلى السائق المكمّم حماية من الرمل المتطاير. كانت السماء بلون الرمل، والغيوم بلون الرمل، وحتى البحر الأحمر كان رملي اللون. وهكذا بدت هذه الشجرة بزينتها الملونة في الصحراء الواسعة كمعْلم حدودي وحيد لمدينة قريبة، بمثابة وعد بأن الرتابة اللونية ستنتهي بعد نقطة العلاّم هذه.

نتيجة سرعة السيارة كانت الشجرة، وهي على ما يبدو طرفاء يبست منذ زمن، تتعملق على نحو مفاجئ، فخطرت ببالي معابر مرتفعات التيبت، حيث تلوح علامات طرق

مرفرفة مشابهة، تسمى جياد الريح. وهي رايات صلواتٍ مطبوعة بألوان الماء والنار والسماء والتراب والهواء. فيحتمل وجود آيات قرآنية تخفق على شجرة الطرفاء هذه، أو رايات قماشية صغيرة مسطرة بالأماني ومربوطة على الأغصان العارية في مكان مقدس، بانتظار تلبيتها.

السائق، وهو ميكانيكي من عدن، يمكن عند الضرورة أن يغلق ورشته ليوم أو يومين، ويقود سيارة السرفيس بين المدن، ما يدر عليه ربحاً أكبر، لم يبالِ إطلاقاً بنقطة العلامة عند اقترابه منها، ولم يخفف من سرعة السيارة، بل تجاوزها وتابع. وفي لحظة تجاوزنا إياها وتلاشيها في سد الغبار وراءنا، رأيتُ أن هذه الأقمشة المرفرفة أو بيارق الإيمان الغامض، لم تكن سوى أكياس نايلون فارغة، أكياس بكل الألوان، زبالة من النوع الذي يشاهد في اليمن عند مدخل أي مدينة أو قرية أو واحة، متطايرة مع الريح بعد جولات السوق والانتهاء من عمليات الشراء. فتحملها الريح معها عبر الصحراء أو على طول الشواطئ التي تلمع بشظايا الزجاج، إلى أن تصطدم بأول حاجز فتزينه. قد يكون أجمة شوكية،أو سارية، أو عمود هوائيات، حيث تبقى مرفرفة إلى أن ينقلب اتجاه الريح، فتنتزع البيارق الواحد تلو الآخر وتحملها ثانية إما إلى الصحراء وإما إلى البحر ذي اللون الرملي.

البحر. طوال الطريق لم يتوقف السائق عن الحديث عن البحر، الذي كان قبل ظهر هذا اليوم، تحت تأثير انعكاسات الهواء الزئبقية اللون، وعن تنوع وتلون الحياة تحت سطح

الماء وروعتها، التي كان دوماً يتأملها بمنظار الغطس، علماً بأنه ليس سباحاً. إذ كان ينحني جانبياً من قارب لصيد السمك ويغطس رأسه فقط في الماء، حابساً تنفسه فوق قيعان بحيرات شاطئية: ربما أراد الله بكرمه أن يعوض سكان البلدان الصحراوية على سواحل البحر الأحمر عن حرارة طقسها وجفافها وقحط سواحلها بثروة الأسماك، وكل البهاء الموجود تحت سطح الماء. من مرجان وشقائق وقناديل البحر، ومن سكان الأعماق المتحركين المضيئين، كائنات بجميع الألوان والأشكال، يبدون لسكان اليابسة على درجة من الغرابة والفنتازيا وكأنهم من كوكب آخر. وحتى في الحديدة، أجمل ما فيها هو بحرها وميناؤها وسوق السمك. سوق السمك! نعم، إذ لا يوجد مكان في المدينة أكثر سحراً منه. أسماك متلألئة في أرض صحراوية!

كنا قد تجاوزنا ضواحي الحديدة، من براكات وأكواخ صفيح وورشات، تتوهج فيها نيران لِحام المعادن الزرقاء، ومشاهدة خضرة النخيل المغبرة واللّماعة في القيظ وشجيرات القات العالية. ولم يبق أمامنا سوى بضع مئات من الأمتار حتى الميناء وسوق السمك، وعندها اضطر سائقنا إلى التوقف، بسبب عربة نقل مقلوبة على جنبها: وهي سوزوكي بثلاث عجلات ذات صندوق خشبي لنقل البضائع ومطلية بلون كزرقة السماء، ويبدو أنها قد اصطدمت بباص خطٍ داخلي، فانقلبت وانكسرت واجهتها الزجاجية وانبعجت قمرة السائق، وتفككت ألواح الصندوق بطريقة غريبة مستقرة في

بركة من النفط والدم. أما الباص المعَفّر بالغبار فانكسر أحد مصباحيه الكشافين وأصيب بخدشٍ أزرق بلون السماء.

تجمهر عدد كبير من الناس حول ضحية الحادث، المتمددة على ما يبدو بجانب العربة المقلوبة بين السيقان والإزارات الطويلة التي حجبت عني موضوع الفضول، أو منعتني من تقديم المساعدة، رأيت خيطي دم، أحدهما امتصه رمل طرف الطريق، والثاني الأعرض شق طريقه حتى حفرة في وسط الأسفلت المتشقق حيث تجمع واسوَّد لونه.

ترجل سائقنا وانضم إلى الحشد، بنية الوصول إلى مصدر الدم، وعندما ظهر مجدداً من بين الحشد بعد نحو دقيقة، أشار لي ولركابه منفعلاً، بأن علينا اللحاق به، لنرى ما جرى هنا.

خيل إليّ أن رائحة الدم قد وصلت إلى أنفي، ورأيت الذباب على خيطي الدم، ولم يتحرك الركاب من أماكنهم. لكن السائق أخذ يلوح بيديه بإلحاح.

أخيراً تحركت نحوه غاضباً لأخبره بأني لست راغباً في الحملقة بمصابين أو موتى، وكدت أصل إليه عندما إلتفتَ بعض مشاهدي وشهود الحادث نحوي، وأفسح آخرون الطريق للأجنبي ليمكنوه من إلقاء نظرة على ما زالت بقية الحشد تحجبه. وأخيراً رأيت ما انقذف من صندوق العربة الصغيرة على غبار الطريق. سمكة قرش من نوع النمر المخطط بطول أربعة أمتار تقريباً، على جلده الرمادي الحديدي ما زالت باديةً بجلاءٍ تلك الخطوط التي منحته اسمه، والتي تذكر بظلال الأمواج المندفعة على رمال شاطئ خليجي...

وهو نوع من التمويه، يفقده القرش المخطط مع تقدمه في السن، حسبما عرفت لاحقاً في سوق السمك.

كانت سمكة القرش جزءاً من صيد غني جلبه صباح اليوم، ككل يوم، أسطول من قوارب الصيد الراسية الآن على أرصفة الحديدة. غالباً ما كانت الأسماك تصل إلى هناك وهي ما زالت تُلَعبطِ وتضرب بزعانفها وتحرك خياشيمها بانتظار التجار والمشترين. وفي قاعات سوق السمك سوف أرى أسماك قرش من نوع الحريري، والمغزلي، وذي التنتنة البيضاء، وقرش الشعاب، وسيعرض علي قرش السيف وقرش الثعلب كأنواع شهية لذيذة الطعم.

أولئك الذين ازدحموا حول القرش النمري لم يكونوا فضوليين ولا يبغون تقديم المساعدة، بل كانوا زبائن: ففي مكان الحادث نفسه وفوراً، قام سائق السوزوكي بمساعدة شخص آخر، بتقطيع القرش ببلطة وسكاكين، وبيعه بالقطعة لمن يدفع السعر الأفضل. وقال سائق التكسي: ما الداعي لترك القرش هنا تحت أسراب الذباب في هذا القيظ، إلى أن ينقل أخيراً إلى عربة بديلة إذا كان بالإمكان بيعه فوراً وفي الشارع كبضاعة طازجة؟

والزبون الذي اختار قطعة مشبعة بالدم، أو قطعة من الظهر تحت الزعانف، أو حتى تلك الأسنان المنتزعة من الفك وتبدو كأنها مخروطة في قالب واحد، تناول بضاعته في كيس بلاستيكي من ربطة أكياس سميكة كان المساعد يعلقها في حزامه. وهي أكياس ملونة رقيقة جداً، ومقاومة

للماء والغبار، تتحول بعد الوصول إلى الدار إلى مزقٍ غير قابلة للتلف، تتكالب عليها أسراب الذباب لمدةٍ قصيرةٍ إلى أن تجف وتخشخش، فتحملها الريح عبر الشوارع والدروب إلى أن تعلق بغصنِ شجرةٍ أو أجمة شوكية أو أي سندٍ يتركها ترفرف عليه كنقطة لعلامةٍ حدوديةٍ في عالم واعد كثير الألوان، أو كبيارق أوعية وأمنيات في الصحراء.

●●●

دَم

رأيت امرأة باكية في مَوْهِف الكنيسة الرئيسية في رويثْهام، وهي قرية نمساوية على سفوح جبال الألب الجنوبية، على مرمى النظر من سلسلة جبال تحمل أسماء مثل جبل جهنم والجبل الميت. أتت المرأة لتتفق مع القس على تحديد اليوم والساعة وتراتيل الجوقة لدفن ابنها الوحيد، وكان القس وقتئذ يرتدي الرداء القرمزي استعداداً لإقامة القداس. كان ابنها البالغ ستة عشر عاماً قد قُتل بالأمس في غرفة نوم والديه برصاص رجل شرطة.

عندما مرت بالشماس الذي أراد أن يهدئها بصوت منخفض ويمنعها من الدخول إلى الموهف، كنتُ أنا منهمكاً بلبس قبة الكتفين القرمزية فوق قميص جوقة القداس. وسبب اللون القرمزي الأحمر هو أن القداس يقام إحياءً لذكرى دم أحد شهداء الكنيسة المبكرين.

اتركها تدخل، قال القس للشماس، ولثم المِطْرف المقصَّب، حسب شروط التلبيس، قبل أن يرتديه على كتفيه، اتركها تدخل، دعْها.

وفيما كانت الدموع تنهمر على خديها، وتسيل على جانبي فمها إلى ذقنها وتنقط على قميصها الأسود، وتخلف هناك آثاراً

أشد سواداً، اعترفت بأن ابنها آدي كان شاباً طائشاً عنيفاً. كان يسكر ويتعارك مع الآخرين، وقد دنّس البارحة نصب المحارب. ولكنْ أكان لا بد بسبب ذلك من قتله؟ أكان لا بد للمفتش من أن يطلق النار عليه عبر باب غرفة النوم المقفل؟ سبع رصاصات ثقبت بطن آدي، سبع مرات! لقد عدّ الطبيب في مستشفى قِلْز الثقوب قبل أن يخيطها ثانية، وأثناء عملية التعداد كان ابنها ميتاً ومنتهياً.

قال القس: بعد القداس، سنتحدث بعد القداس. الأمر محزن. ولكن كان عليه أن يفتح الباب. كان يجب على آدي أن يفتح الباب.

صمتت الباكية وهزت رأسها.

بصفتي خادم قداسٍ، سبق لي أن رأيت كثيراً من الكبار يبكون. أمام توابيت مكشوفة في قاعة التسْجية، على مقاعد الكنيسة أثناء الجنّاز، عند القبور، وأيضاً نتيجة التأثر والسعادة في مناسبات العماد والزواج. إلا أن الموت كان دائماً أمراً يصيب الآخرين. فالذين ماتوا كانوا الآخرين. كانت الدموع جزءاً من التمثيلية الدرامية والمتنوعة التي كنتُ أشارك فيها حسب نوع الطقس الديني، بزيٍ أسود أو أخضر أو بنفسجي أو أحمر. ولكن في هذه المرة كانَ الموت أقرب إليّ من العادة. كنتُ أعرف ابن الباكية، كنتُ أخشاه. وكنت معجباً به.

كان آدي يعارض الكبار، دون تردد، ويسخر من تنبيهاتهم وتوبيخهم، وكان أحياناً يهددهم بالضرب. كان يواجه الكلاب النابحة بكل جسارة، ويدس قبضة يده في أفواهها.

وكثير من معارضيه وأعدائه كانوا ينسحبون بمجرد أن يهددهم بأنه سيلكمهم في وجوههم بقبضته العارية. وقد أثبت أنه قادر على ذلك.

إن جسارته الثائرة في مواجهة مجتمعٍ مُستفَر كانت مخيفة، غير أنها كانت موضع إعجاب، لأنه، وهو الذي لا يقهر، يتطامن بكرمٍ تجاه الأصغر والأضعف. فمن كان أضعف أو أجبن من أنَّ يعارض سلوكه على نحو جاد، كان يَسمح له بأداء خدمات بسيطة له أو بإيصال رسائله، فلا يتعرض لأي أذى، بل ويكافأ على خدماته.

فإذا أحضرتُ له مثلاً علكةً من محل الغذائيات، لأنه يجمع صور نجوم السينما التي توضع مع العلكة الثمينة، كان يتنازل لي عن العلكة كمكافأة، فيما يحتفظ بالصورة الصغيرة لامرأةٍ جميلةٍ أو لنجمٍ ما وهو ينفخ عن هذا الألَق بقايا السكر الناعم. وطوال شتاءٍ كامل حمل زلاّقات الثلج عدة مرات إلى أعلى المنحدر لأبناء طبيب القرية، لأن الطبيب بعد معركة بالأيدي قد خاط له جرحاً مفتوحاً، من دون أن يعنّفه. وفي الصيف كان يلتقط من قاع نبعٍ قرب النهر، كبّةً متداخلة من ديدان المطر، فينتزع منها دودة ويمسكها ماداً ذراعه ثم يتركها لتسقط في فمه المفتوح عن آخره ويبتلعها. كان يفعل ذلك أمام جمهور السابحين لقاء قطعٍ نقدية صغيرة، أما من كان يستمتع بالعرض دون أن يدفع، فقد كان يُعاقب بالضرب أو يُعفى عنه.

في يوم موته كان آدي سكراناً، وتغوط على درجات نصب

المحارب، وهو يصيح بأن ما تستحقه أمثال هذه التماثيل هو أكاليل من القذارة، لا أكثر. وفي المعركة بالأيدي التي تبعت هذا التدنيس، اضطر للهروب أمام غلبة الشهود المستفَزين، وكانوا من أعضاء جمعية الرفاق وعازفي آلات نحاسية في الفرقة الموسيقية المحلية. لكنه وعدهم قبل الفرار بالعودة، صاح بهم قائلاً: سأعود ومعي سكين.

يحفظ نصب المحارب أسماء شهداء القرية في حربين عالميتين، منقوشة في الغرانيت الأسود وملبسة بالذهب، في لائحتين طويلتين، يحرسها جندي مُنهك أو شديد الإصابة، مصبوب من الإسمنت. ينتصب التمثال عند الواجهة الجنوبية للكنيسة بين شجرتي توت أرجواني الثمر، تُغدقان حملهما صيفاً، بحيث يضطر الشماس يومياً صباحاً إلى كنس الممشى، لأن زوار الكنيسة الذين يعبرون الممشى على بساط من ثمار التوت المتساقطة، سيتركون على بلاط أرض الكنيسة آثار أقدام، كمن خاض في الدم.

اشتكى المهدَّدون بالسكين إلى شرطة القرية، فاتجه شرطيان لمعالجة الأمر. عند اقترابهما هرب السكران إلى داره، والتجأ إلى غرفة نوم والديه، وأرتج الباب وراءه، وأقسم بصوت عالٍ عبر الباب على قتلِ كل من يزعج نومه بالبلطة والسكين والهراوة، فهو الآن يريد أن ينام.

لكنه لم يكن يحمل بلطة ولا سكيناً ولا هراوة. وبعد أن طالبه أحد الشرطيين عدة مرات بفتح الباب وتسليم نفسه، دون جدوى، أطلق على الباب المقفل مخزناً كاملاً من مسدسٍ

الخدمة، ما أدى إلى تحطم الباب.

في صباح اليوم التالي بدا المشهد في الموهف للحظة وكأن القس سيعانق الباكية. فرد ذراعيه، لكنه من ثم وضع يديه فقط على كتفيها مهدئاً وأومأ للشماس. أخذها هذا من ذراعها وقادها إلى مقعدها في جناح الكنيسة. ولكن نتيجة اضطرابه في هذا الصباح نسي الشماس أن يكنس الممشى من ثمار التوت، فرأيتُ عندما تقدمتُ القسَ إلى المذبح، آثار خطوات دموية على بلاط الكنيسة.

●●●

قوس ضوئي

رأيت ضوءاً متنقلاً على أحد الأقواس الفولاذية الهائلة من جسر الميناء Harbour Bridge في خليج سيدني. مجرد شرارة بين ألوف مؤلفة أخرى، متحركة وثابتة، متألقة، جارية أو متوهجة من أضواء أكبر مدينة في القارةِ الأسترالية. كان هذا الضوء الضئيل يتحرك كنجمةٍ على حافةِ المشهد المرئي صاعداً ببطءٍ باتجاه سمْت قوس الجسر الذي يمتد سامقاً كالسماء فوق الحياة الساكنة لمدخل الميناء.

كنت واقفاً عند نافذة غرفة فندق، في الطابق التاسع عشر، أتابع بالمنظار العلامة المميزة للمدينة، صَدَفة دار الأوبرا، التحفة المتلألئة، ثم تحولت إلى ناطحات السحاب الشديدة الإضاءة وإلى الأبراج الزجاجية للبنوك، والمجمعات التجارية، وشركات التأمين، والتي بدا أن قوس جسر الميناء فوق الخليج يكاد يقفز عليها، وعندها لاحظت هذا الضوء الضئيل الصاعد. ومع الزحف تسلقاً، كان الضوء يغيب للحظات ثم يعاود الظهور. لا بد أن يكون هذا إنساناً، إنسان يوجه ضوء مصباح جيبه أو جبهته إلى هنا وهناك، بما يتلاءم مع حركاته. إنه يتسلق قوساً فولاذياً يرتفع سمته عن سطح الماء 134 متراً. قرأت الرقم في نشرة مطوية في غرفة الفندق،

تصف المشهد البانورامي المرئي من سطح الفندق ومن نافذة غرفتي مع الأسماء والأرقام.

مئة وأربعة وثلاثون متراً. إن من يتسلق قوس جسر بهذا الارتفاع، وحده وفي الظلام، يعرض حياته للخطر أو يريد أن ينهيها، ومن يقفز من هذا الارتفاع إلى الأعماق فسيلاقي موتاً مؤكداً، ولن يحتاج إلى إنقاذٍ ولا إلى خشية أن يعيش عاجزاً، هذا إذا نجا من السقطة، وهو أبعد الاحتمالات. أيريد هذا الإنسان هناك أن يموت؟

كان بصيص الضوء يرتجف في منظاري، يرتجف مع إيقاع نبض قلبي، مع حركة تنفسي. ولكن حتى بعد أن ثبّتُّ منظاري على النافذة البانورامية، التي لا تفتح، إما بسبب المكيّف، وإما بسبب إجراءات الأمان غير الواثقة بإرادة الحياة عند نزلاء الفندق، بقي المتسلق لا أكثر من ظل حشرة ضئيلة، لا ينضح وجودها سوى الضوء الضعيف المتحرك، والذي يغيب ويعاود الظهور كومضاتٍ خاطفة.

كنت متعباً، منهكاً من الرحلة الطويلة جداً عبر القارات، في طائرةٍ محجوزةٍ حتى آخر مقعدٍ، وبتدفئةٍ زائدةٍ عن الحد، وقد تمددت أخيراً في طمأنينة سرير الفندق، دون أن أجد إلى النوم سبيلاً. أضأت نور الغرفة للمرة الثالثة وفتحت زجاجة النبيذ الأحمر الثانية من الـ Minibar، آملاً بالتأثير المنوِّم للتلفزيون بمقدمي برامج المنوعات والمعلقين والوعّاظ ذوي الأصوات العالية الذين يظهرون ويغيبون، والعائلات الصغيرة في محيطها وبيئتها المثالية، التي تتركز سعادتها في

قطعة شوكولاته أو زجاجة شامبو أو منظف غسيل، إضافة إلى وحوش الرسوم المتحركة والسياسيين وأخيراً مؤدو أفلام البورنو ومقدموا النشرة الجوية. ورغم كل ذلك جافاني النوم.

هل كان هذا الإنسان يتسلق ويزحف على قوس الجسر باتجاه نهاية دنياه؟ ما الذي جرى في حياته ليسبب مثل هذا العذاب، الذي لا فكاك منه إلا بسقطة حرة؟ حدّقت في المنظار وأنا على قناعة مستغربة الآن، بأن ما أراه هو حقاً المخرج الأخير. ولكن ماذا بوسعي أن أفعل وأنا بمعطف الحمام الأبيض؟ ماذا أقول لموظف الفندق عندما أصف له ضوءاً رأيته من نافذتي البانورامية: إني أرى بصيص ضوء بمنظاري، لا شك في أنه إنسان، يريد القفز من جسر الميناء، اتصل بالإطفاء، بالشرطة، اتصل بأي خدمة طوارئ قريبة من الجسر، اتصل بأي كان، لينقذ هذا الإنسان غير الراغب في الحياة؟

فجأة بدا الضوء المتحرك بعيداً، بل نائياً جداً لا يمكن بلوغه، كالموتى والمحتضرين على شاشة التلفزيون عبر الصور المنقولة من مناطق الحروب والكوارث. سيصل الضوء إلى سمت القوس، وسوف يفصل نفسه عن الهيكل الفولاذي، يهوي بلا صوت إلى الأعماق، قبل أن يتنبه أحد سوايَ إلى الأمر، لا موظف الفندق، ولا رجل الإطفاء، ولا أي منقذٍ. لقد كنت وحدي مع من لا يمكن بلوغه. كنت واقفاً عند نافذتي المرتجَة منتظراً وقوع ما لا راد له، مثل عابر سبيلٍ يرى ورقة تسقط تحت ضغط الريح أو هكذا فحسب عن شجرة،

عندما فجأة بدأت المدينة تنطفئ.

لقد انطفأت سيدني! انطفأت وكأن على الدنيا كلها أن تختفي مع هذا الإنسان الفرد على القوس الفولاذي للجسر: ناطحات السحاب بطوابقها الخمسين والستين والثمانين انطفأت. بدأت عملية الانطفاء من الطوابق السفلى وأخذت العتمة تصعد إلى أن غلفت الطوابق العليا والمطاعم وشرفات الإطلالة من أعالي الأبنية، وحتى ذرى الهوائيات على أعلى الأبراج. كما انطفأت كتابات الدعايات المضيئة وصفوف المنازل والشوارع الرئيسية... مثلما انطفأت صَدَفة دار الأوبرا. لم يبقَ من جسر الميناء سوى قوس أسود مشدود فوق مسارات السيارات المتعددة بالاتجاهين، وأنوار قوافل السيارات هي الخيوط الضوئية الأخيرة التي ما زالت تربط بين شاطئي سيدني المظلمين الشمالي والجنوبي.

في سماء الليل بدأت تظهر بروج نصف الكرة الجنوبي، التي كانت إضاءة المدينة حتى اللحظة تكسفها: برج القنطورس، برج الشراع، صليب الجنوب، والذئب... وفي الظلمة المفاجئة صار الضوء على قوس الجسر أشد سطوعاً وأكثر وضوحاً. توقف لبرهة، كأنما يفكر بالبرج الذي يود الانتماء إليه من بروج السماء، ثم تابع التسلق بإصرار.

قد يعود السبب إلى تعبي المؤرق، أو إلى النبيذ الأحمر، في أني قد تقبلت هذه الظلمة التي انتشرت مثل انفجار، بكل بداهة، كعتمة غرفة أطفئ فيها النور- وانقطاع التيار الكهربائي هذا سيدخل في تاريخ سيدني باعتباره الأشد كارثية- ويحتمل

أني لم أدرك هذا الإظلام إلا على نحوٍ عابرٍ، لأن كل انتباهي كان مركزاً على ضوءٍ واحدٍ فقط، سيهوي في اللحظة التالية وينطفئ إلى الأبد.

لقد وصل الآن إلى سمت قوس البرج، وتحرك متجاوزاً إياه دون توقف وبسرعة، ثم بدأ يهبط ببطء ثانية. لم يقفز، لم يهوِ، بل هبط باتجاه شوارع الشاطئ الجنوبي، حيث لا ينتظره العالم السفلي، بل المدينة المغلفة بالظلام.

في اليوم التالي عرفت، إضافة إلى تفاصيل متعلقة بالانقطاع الكهربائي الكبير، أن هناك من فوق قوس الجسر طريقاً، كشكل خاص من أشكال التعرف على المدينة سياحياً، يمكن للمرء قبل بدء الجولة بوقت قصير أن يشتركَ فيها. وهناك أدلاء محترفون يقودون سياحاً لا يعانون من الدوخة في الأماكن المرتفعة، وثابتي الخطى من فوق قوس البرج، ولكن طبعاً ليس ليلاً، بدهياً ليس أثناء الليل. وموظف الاستقبال في الفندق لم يجد تفسيراً لضوئي الجوال.

ولكن حتى إنْ كان ما رأيته، هو مصباح جبين أحد التقنيين أو أحد خبراء الميكانيكا في جولة تفقدية، أو أحد المصورين الفوتوغرافيين المهتمين بلقطات ليلية للمدينة بإذن خاص من المحافظة، فإن هذا لم يؤثر في كوني من نافذتي البانورامية قد كنت حسبما يبدو شاهداً إجبارياً، لحركة ضوءٍ في ليلة غارت أضواء مدينتها، يتسلق صاعداً نحو الموت، ثم يهبط عائداً إلى الحياة ببطء مع سرعة انطفاء المدينة.

●●●

عيد ميلادٍ ثان

رأيت طاولة عامرة في قاعة طاقم كاسحة الجليد الروسية **القبطان درانيتسين** Kapitan Dranitsyn. كانت السفينة متوقفة بمحركات مطفأة، ساكنةً في أعالي الجليد القطبي المرصوص، بحيث لم تنسكب حتى قطرة من الكؤوس المرفوعة بأيدي اثني عشر فرداً من الطاقم، نخب سعادة رجلٍ مبتسم. مفرش طاولة أبيض وشمعة ذات رذاذ ينثر نجوماً على طبقة المارزبان التي تغلف قالب الكاتو، منحوا الطاولة منظراً احتفالياً، بدا للضيوف مع ذلك متناقضاً مع أفرولات العمل الزرقاء:

كان طيار إحدى المروحيتين قد وجَّه الدعوة إلى البحارة والمهندسين أثناء استراحةٍ بين ورديتي عمل، لحضور هذه الحفلة، باعتبارها **عيد ميلاده الثاني**، لأنه قبل ساعات نجا سالماً تماماً من حادث سقوط مروحيته. إذ إنه أثناء طيرانه إلى إحدى الجزر المتجلدة من أرخبيل أرض فرانتس يوزف، تعطل التوربين وهوت المروحية، لكن ريح المنخفض الجوي التي أدت إلى استمرار دوران شفرات المروحة فرملت الصدمة.

كانت مهمة الناجي أن يعيدني مع صديقي من مكان

موعدنا على جزيرة الطَرف- واحدة من مئتي جزيرة تشكل الأرخبيل المدفون تحت الجليد- إلى السفينة. وبعد سقوط مروحيته جلس معنا صامتاً وشاحباً بانتظار وصول المروحية البديل. في الساعات السابقة على الحادث كنت قد انطلقت مع صديقي تحت شمس منتصف الليل من أرض سوداء صخرية التشكيل تخترق الجليد وتبعد نحو عشرين كيلومتراً جنوب غرب مكان اللقاء. خلال أسابيع الصيف يذوب الثلج عن هذه المنطقة، وكنت أسير مع صديقي بمحاذاة الشاطئ الصخري باتجاه مكان اللقاء، ونقارن مسار الشاطئ مع نسخ مصورة عن الخرائط المعدنية التي أُنجزت بناءً على خطاطات مكتشفي هذا الأرخبيل: جبال كالمناضد، جليد مرصوص متراكم، وطبقات من السديم تومض كالصَّدف، ولا يمكن تمييزها من مسافة قريبة عن الجليد المغطى بالثلج. كان كل شيء على حاله، لم يسمه أو يدوسه أحد قبلنا، على ما يبدو، تماماً كما كان في شهر آب / أغسطس عام 1873، سنة اكتشاف هذه المجموعة من الجزر، وكأن الزمن قد توقف.

في أيام الصيف المعتدلة هذه، في القطب الشمالي، غادرنا السفينة مراراً بدون مرافقة، بإذن خاص من أعلى الضباط رتبة فيها، لنتجول عبر جزرٍ وأزقةٍ جليدية ورؤوس برية على طريق تلك البعثة القطبية النمساوية / الهنغارية، التي اكتشفت هذا الأرخبيل غير المأهول، نتيجة انجرافٍ اضطراري مع الجليد المتكسر في صيف عام 1873، فأطلقت عليه اسم **أرض القيصر فرانتس يوزف** تكريماً لحاكم في مكان قصي.

إن خط الرحلة الذي سارته كاسحة الجليد من الجزيرة النرويجية شپيتسبرغن إلى أعالي القطب الروسي، كان مكرساً لذكرى رحلة هؤلاء المكتشفين، التي كان يُفترض، حسب آمال مَن عمَّدوا هذا الأرخبيل، أن تحاذي الساحل السيبيري من المحيط الأطلسي إلى المحيط الپاسيفيكي، فتبرهن بذلك على وجود ممر شمالي شرقي. ذلك الممر المغلف بسحر الأساطير، والذي ابتلع في القرون السابقة على البعثة الامبراطورية الفاشلة وخلال القرن اللاحق بها، سفينة تلو الأخرى.

لقد دعيت للمشاركة في هذه الرحلة القطبية على متن كاسحة الجليد القبطان درانيتسين، لأنني قبل نحو عشرين عاماً كتبت رواية عن اكتشاف أرض فرانتس يوزف، ولكن دون أن أزور القطب سابقاً إطلاقاً. لم أكن حينها قد رأيت الألوان الكثيرة للجليد المتكسر، ولا ارتعاشات أضواء الشمال القطبي، ولا حتى السطوع الدائرية لشمس منتصف الليل، بل قاربتُ قصتي بطرح أسئلة على رحّالة إلى القطب، وعلى المقيمين في محطات قطبية، عائدين لزيارات، وبقراءة يومياتهم وتقاريرهم ومشاهدة صورهم ولوحاتهم، أو بمقارنة قياسات الأعماق مع درجات التظليل الأزرق على خرائطي لبحر الجليد.

والآن، خلال أسابيع الصيف هذه، الفقيرة بالغيوم على غير العادة، بعد نهاية قصتي بسنوات كثيرة، وبعد أكثر من قرن على مسيرات رجال بعثتي المضنية ورحلاتهم الشاقة

بالزلاجات التي تجرها الكلاب، تهبط بنا مروحيتا كاسحة الجليد وفق ظروف الريح على إحدى الجزر، التي مسحها ورسم خرائطها رجال البعثة الامبراطورية في درجات برودة تصل إلى 40 و50 تحت الصفر على مقياس سلزيوس، وتعود لتأخذنا أثناء نهار مشمس أو ليلة مشمسة من مكانٍ متفق عليه إلى متن السفينة.

المروحيتان طائرتان متينتان جداً، مطورتان لخوض المعارك الجوية للجيش الأحمر، وعندما كانت إحداهما تُنزلنا وتغادر، كانت تخلفنا في زوبعة من الثلج وكريستالات الجليد قبل أن ترتفع في سماء القطب، وتتحول إلى نقطة سوداء تئز إلى أن تختفي. وعندها يبدأ بالنسبة إلينا في كل مرة شق الطريق عبر زمنٍ متوقف. فنادراً جداً، فقط عندما نتواجد على هضبة جليدية أو على تلٍ نرى منه كاسحة الجليد صغيرةً كدميةٍ ضائعةٍ في الجليد المتكسر، عندها كان المشهد يذكرنا بأن لا شيئاً قد حدث هنا منذ اكتشاف هذا البر، ومع ذلك فقد جرى كل شيء: لقد جرى الزمن.

بعد أكثر من سنتين في الجليد المرصوص وليلين قطبيين بأدنى درجات برودة قيست حتئذٍ، ويمكن لإنسان أن يتحملها، بعد الإسقربوط والتجمد حتى الموت ورعب الجليد والظلمة، تخلت البعثة، التي دخلت تاريخ الاكتشافات تحت اسمي آمريها يوليوس پاير وكارل ڤايپرِشْت، عن سفينتها ذات الصواري الثلاث في محيط من الجليد المرصوص غير القابل للكسر بعد، وحاول أفرادها شق طريقهم مشياً

عبر الجليد المرصوص نحو البحر المفتوح، عساهم ينقذوا أنفسهم. استغرقت المسيرة شهوراً، وهم يجرون وراءهم قوارب الإنقاذ، وهي قوارب نرويجية كبيرة لصيد الحيتان، يجرّونها عبر أوحال الثلج وأنقاض الجليد المتكسر. وقد بدت لهم هذه المسيرة بمثابة خلاصة لعذابات سنوات بعثتهم القطبية كلها.

إلا أن ما لم يُنجز إطلاقاً حتئذٍ، دون قائمة طويلة من الموتى، حصل هذه المرة: لقد وصل طاقم البعثة حقاً إلى البحر المفتوح، إلى بحر بارِنْتْس الذي تمزقه العواصف، وجدفوا وأشرعوا بقوارب الإنقاذ حتى الساحل الوعر للجزيرة المزدوجة نوڤايا سِمْليا، حيث قام صائد حيتان روسي بإنقاذ الغرباء الجوعى والمشوهين من الصقيع بأورام مختلفة، فأخذهم بسفينته إلى شمال النروج. ومن هناك عاد مكتشفوا أبعد برٍ في العالم منتصرين إلى ڤيينا، حيث استقبلهم حشدٌ يزيد على نصف مليون إنسان.

أهي الحماسة! حتى إذا كانت أراضي القيصر النمساوي الباردة قد شوهدت في القرون السابقة بين طبقات السديم القطبي من قِبل رحالة مجهولين وصيادي حيتان، من أجل زيوتها ومن قبل أسرى الجليد المرصوص، فإن هؤلاء لم يقوموا بعمليات مسح لهذه الأراضي ولم يطؤوها، والأهم هو أنهم لم يعمِّدوها. وبعد بعثة پاير- ڤايپرِشت، ما أهمية أن تظهر صخرة هنا أو لسان هناك، وأن يضافا إلى السجلات، فبإطلاق اسم فرانتس يوزف على تلك الأراضي لم يعد هناك

أية بقعة بيضاء من العالم القديم غير مكتشفة. لقد أغتنت نماذج الكرات الأرضية والأطالس بـ 16 ألف كم مربع من القفر الجليدي غير المأهول، فباتت تعكس أخيراً صورة متكاملة للعالم.

خلال سنوات الجليد قام صيادو البعثة بقتل 67 دباً قطبياً وأكلوها وهم غالباً يواجهون الموت. فلولا لحم الدببة لمات طاقم البعثة جوعاً.

ونحن واقفين وراء سور السفينة نتتبع بالمنظار آثار أولئك الصيادين، رأينا بين الحين والآخر بعض الدببة القطبية وهي تقفز من كتلة جليدية إلى أخرى، من الكتل التي كانت الكاسحة تكسرها. وعندما تتوقف السفينة، كان بعض الدببة يقف على قائمتيه الخلفيتين مستنداً بالأماميتين على جدار السفينة، ويرفع رأسه لينظر نحونا. ولكن أثناء جولاتنا في الجزر لم نلتقِ سوى مرة واحدة بدبة وولديها.

رغم تسلحنا ببخّاخ الفلفل وببندقية صيد من العيار الثقيل، ما كنا على الأرجح سنتمكن من الدفاع عن أنفسنا بالسرعةِ الكافيةِ، لو شَعرتِ الدبة بأننا نشكل خطراً على ولديها، أو بأننا طريدة وحسب. يا له من منظر، عندما ظهرت من وراء أكمة جليدية تبعد عنا نحو خمسين متراً بمشيتها المتمهلة، يتبعها ولداها، لتتوقف فجأة. ثم أخذت تتفحص متشممةً بخطمها الدائرة المحيطة بها، بتمهل ورشاقة، جزءاً فجزءاً، ثم التفتت نحونا.

لقد وصفت في روايتي صيد دبة، وحالات الذعر

التي تنتاب بحارة غير مسلحين وهم يعملون في الجليد، عندما يهاجمهم دب، فيحاولون الهروب. ولكني لم أعثر في استقصاءاتي، على ذكرٍ لإنسان صار في لحظات ذعره خفيفاً كريشة، خفيفاً بصورة لا تصدق، بحيث تحمله هبة هواء بعيداً عن مخالب وأنياب الحيوان المفترس، أو أن تحمله عالياً كورقة شجر يابسة أو ورقة حرير، وتحوله إلى شيء لا يمكن قطفه إلا من الهواء، أو بضربة مخلب عفوية تصطاده من طيرانه العشوائي. لكني طفتُ في الهواء.

غير أن الدبة وجدتني، أو لربما وجدتنا غريبين ولكن غير مؤذيين، وغير لافتين للنظر كطريدة. وربما بالغي الخفة من كافة النواحي، فلم تأبه لنا، وتابعت دربها بعد نظرة متفحصة نحو ولديها. وعندها فقط انتبهتُ إلى أن البندقية لم تعد محمولة بالنطاق على كتف صديقي، وإنما هي بين يديه. وفي حالة رعبي لم أفكر ولو للحظة بسحب بخاخ الفلفل من الجيب الجانبي لحقيبة ظهري.

ثمة مكان مسطح في جزيرة الطرف اتفقنا مع طياري الحوامتين على الالتقاء فيه، إذ لا يمكن أن يتوها عنه، نتيجة وجود مجموعة من الأحجار الكروية فيه، المرئية من مسافة بعيدة، والتي لا تفسير لأشكالها الملغزة حتى الآن. هذه الحجارة الكروية ذات أحجام متدرجة، أصغرها بحجم القلة وأكبرها بقطر ثلاثة أمتار، وهي متناثرة على هذا المكان المسطح. ونتيجة كمال كرويتها هندسياً اعتبرتها بعثات سابقة بقايا حضارة مندثرة، كقرابين لأرواح الظلام القطبي. كما

فسر البعض وجودها كمخلفات زوار فضائيين. لكن عالم جيولوجيا يابانياً على متن القبطان درانيتسين رأى أن تشكلها يعود إلى عمليات كيميائية معقدة في سياق ترسب طبقات حجرية أدت إلى ترسبات قشرية الشكل حول مستحاث ضئيل واحد، مثل نمو اللؤلؤة في المحارة.

وصلنا إلى مكان موعدنا بين الكريات الحجرية، بعد خمس ساعات ليلية مشمسة وقبل الموعد المتفق عليه، وخشينا من الأسوأ عندما رأينا الحوامة مقبلة، وسمعنا صوت تحطم معدني مدوٍ، نتج على ما يبدو عن انفصال إحدى شفرات المروحة وتكسرها إلى شظايا دخل بعضها إلى إكليل المروحة، ثم رأينا السقوط المخفَّف والاصطدام القاسي بالأرض الصلدة. في الثواني العشر الأولى والأخرى الطويلة التي أعقبت الاصطدام، والتي ركضنا أثناءها باتجاه الحطام عبر الكريات الحجرية والحصى، كان الطيار جالساً بلا حراك في القمرة التي بقيت سالمة.

في حفلة عيد الميلاد في قاعة الطاقم، والتي صنع أحد الطباخين من أجلها حوامة ذات مروحة من السكر بشكل أجنحة عصافير فوق قالب كاتو، قال الطيار إن طائرته على الأغلب ستمضي الليل القطبي القادم في الجزيرة. وفي السنة القادمة عندما تنطلق كاسحة الجليد الذرية يَمال نحو القطب الشمالي وتمر بأرض فرانتس يوزف، حاملة على متنها قطع الغيار الضرورية، والتي يمكن أن تجعلها صالحة للطيران مجدداً. لذلك فإنه سيأخذ الحوامة الثانية بعد الظهر إلى جزيرة

الطرف ليصب وقود المازوت على الحوامة ومحيطها لعدة أمتار. فهذه هي الطريقة الوحيدة لمنع الدببة القطبية في شهور الشتاء المظلمة من كسر القمرة واقتحامها. نعم! فضربات مخالبها لها من القوة ما يكسر حتى زجاج قمرة الطيار، لسد جوعها بجلود كراسي القمرة وبكل ما يبدو لها قابلاً للأكل. فمهما بدا أكبر حيوان مفترس في الدنيا خلال الصيف القطبي- عندما تتواجد عجول البحر على الجليد مثل الوجبات الجاهزة ويصبح حيوان الفظ طريدة سهلة- مسالماً، ففي برودة وظلمة الليل القطبي يصبح جوع الدب هائلاً كأنه طيار في قفزة حرة إلى الحياة.

●●●

إله الجليد

رأيت ابن البستاني باكياً على الدرج الخارجي لدار عزبةٍ في مقاطعة كورك الإيرلندية. كان يحمل بيديه عالياً كتلة من الجليد بحجم رأسٍ، منادياً أباه، ليريه الكتلة المتجلدة والمشوهة التي صار إليها كنزه، الذي كان منذ شهور يحفظه في صندوق التبريد خوفاً عليه من طقس جنوبي إيرلندا المعتدل.

كان البستاني منهمكاً بزرع أربع شجيرات من الفصيلة النخلية وصلته صباحاً من مشتلٍ في بَنْتري، وأوعز إليَّ، بصفتي مساعده في تهيئة الحفر لجذور الشجيرات، بأخذ استراحة قصيرة ريثما يعود، وذهب ليواسي ابنه. مشى نحو الدرج الخارجي بمحاذاة حوض طويل يمور بزهور اللوف والفلامنغو. التفتُ نحو الصبي، فبدا لي عبر الزهور المتماوجة مع الريح، وكأنه طفل أطلسْ حاملاً بيديه كرة أرضية شتائية عجيبة، في وجه السماء.

مع ريح هذا اليوم من أوائل الصيف، بدا كل شيء في حالة حركة في بستان العزبة الذي يمتد بميلانٍ خفيف باتجاه الأطلسي، حتى يضيع في الشاطئ الصخري: شجيرات الزينة الكوبية الزرقاء والخلنجية وزهور الكاميليا والسرخس المعمِّر كثير الذيول والسامق مثل شجر جوز الهند، وشجر الآس

والتوت والصنوبر، وأشجار التين التي ما زالت ثمار مواسمها مُرَّة سنة وراء سنة، والمانوليا والفوشيا الزرقاء والبيضاء، وحتى الغونيرا البرازيلية ذات الأوراق العملاقة- مساحة كل ورقة تغطي سريراً مزدوجاً-، كل شيء في هذا البستان المطل على البحر، والمستفيد من دفء تيارات الخليج ومن رعاية البستاني، كان يزهر وينمو بسعةٍ استوائية وشبه مدارية. كل شيء هنا كان يتثنى وينحني بحفيف وخشخشة، يتأرجح ويتمايل ويهتز ويتهاوى ويتبختر مع النسائم، إلا أطلس الباكي، دعامة الدنيا، إذْ كان واقفاً وسط البهاء العضوي المتراقص ساكناً بلا حركةٍ، فكنزه المحفوظ قد فقد هيئته.

خلال الشهور الماضية تسنى لي رؤية الكرة الأرضية الثلجية، التي وضعها أطلس الآن بين يدي أبيه، في مراحل مختلفة لتحولها: ففي مطلع شباط / فبراير أثلجت على هذا الجزء من الساحل لأول مرة منذ أكثر من ثلاث سنوات. عندها بذل كيران، ابن البستاني، جهده وجمع ما يكفي لتكوين أول رجل ثلج في حياته، على الرغم من أن طبقة الثلج قد ذابت بعد ساعات قليلة. وقد اضطر في نهاية المطاف إلى أن يهز شجيرات الكاميليا التي كانت آنئذٍ في أوج ازدهارها، ليستكمل الكمية الكافية لخلق رجله الصغير، الذي وصل طوله حتى ركبة أبيه.

بما أن هواء الشتاء في مقاطعة كورك يبقى معتدلاً كما في أقاصي الجنوب، ونتيجة خشية كيران الكبيرة على إبداعه، أفرغت أمه صندوق التبريد من لحم الغنم، ووفرت بذلك

ملجأ لرجل الثلج. ونتيجة لذلك هُيئت مأدبة كبيرة عامرة باللحوم، دعي إليها أصدقاء من سْكيبِرين. منذئذٍ، وخاصة في حضور جمهور من الأطفال المتحمسين في مناسبات مختلفة، كان الرجل الثلجي يُخرج ثم يُعاد إلى ظلامه الجليدي. ونتيجة لتبدل الحرارة المفاجئ والمتكرر اكتسى هنا وهناك بوبرٍ من الإبر الكريستالية الناتجة عن الذوبان والتجمد، ورغم تراكم طبقات الجليد عليه، بقي القزم الأبيض موضع إعجاب المشاهدين في كل العروض. وبدا الأمر وكأن التغيرات الطارئة تدريجياً على رجل الثلج نتيجة عملية الهرم، ما كانت لتؤثر في ابن البستاني، بل كان يغض النظر عنها بحب، لاستمتاعه مع أصدقائِهِ لمجرد وجود رجل ثلج في هذا الوسط الأخضر المزهر المحيط بهم. فيا له من رجل جميل: كوز صنوبر كأنفٍ، وثمرتا توت متجمدتين كعينين، وغصن وردة أعجف كفم، وورقتا كاميليا شمعيتان كأذنين، والرأس متوج بإكليلٍ من الغار الأخضر.

باعتباره البطل الأبيض في حفلات الأطفال أو كصديق كتوم ثمين يخرجه كيران سراً إلى النور، عندما يفتح لوحده صندوق التبريد، رغم منعه من ذلك، كان يمكن لملك الثلج هذا أن يستمر في الظهور من عتمته الجليدية حتى الثلج القادم، لولا هبوب عاصفة في الأيام الماضية. كانت الرياح على درجة من الشدة دفعت أمواج الأطلسي إلى الارتفاع والاصطدام بقوةٍ هائلةٍ بالجروف الشاطئية والصخور، وبالجزر غير المأهولة المرئية قريبة من الشاطئ، بحيث ارتفع الرذاذ إلى

علو برج. رافق ذلك هدير رعود ولمعان بروق تمزق الأمواج وتجعلها ترتد نازلة كشلالات متعددة الأذرع في فوضى فوّارة صاخبة.

اقتلعت العاصفة أشجاراً من جذورها وكسرت أعمدة كهرباء، فأظلمت قرى وأوقفت ورشاتٍ عن العمل وأصابت الشاشات بالعمى وجعلت البرادات تذوب. والدفء الكارثي الذي بدأ يتغلغل تدريجياً إلى كل ما هو مُجمّد على امتداد كيلومترات من الساحل، أدى في أكثر الأماكن برودة إلى عمليات ذوبان وفساد، لكنه لم يؤدِّ إلى تداعي رجل الثلج، بل حولته إلى تلك الكتلة المزينة بأوراق الكاميليا وغصين الورد، التي صار إليها حينما تجمد ثانية مع عودة التيار الكهربائي.

جلس البستاني الآن مع ابنه على الدرجة العليا. حمل الكتلة باتجاه الشمس وأخذ يدير الرجل ويؤرجحه بحيث أخذت أجزاؤه الشفافة تتلألأ. ما قاله لابنه خلال ذلك، لم أتمكن من فهمه عبر الأزهار والأوراق الكثيرة المتمايلة، لكن الصغير توقف عن البكاء وأخذ يهز رأسه بحماسةٍ استجابةً لسؤال ما من أبيه، الذي نهض من ثم ووضع ما تبقى من ملك الثلج على العمود الحجري المحاط باللبلاب، والذي كان يقف عليه حتى الأمس تمثال حجري لإله الحقول والقطعان، غير أن العاصفة قد أسقطته فتكسر.

والآن بدلاً من الإله المعزول ذي القرنين وقائمتي الجدي، أخذ إله جليدٍ مكوَّر الهيئة، وملبس بطبقة زجاجية يتوهج في الشمس، وفجأة خرَّ البستاني أمامه على ركبتيه مادّاً ذراعيه

نحوه، وأخذ مثل كاهن إيرلندي ورعٍ يرتل صلاته له، مقطعاً تلو الآخر بغناء رتيب، إلى أن تلاشى، على ما يبدو، كل الحزن الناتج عن تحول رجل الثلج، وبدأ الصبي يضحك. وعلى نحو متزامنٍ بين الترتيل الرتيب والضحك المتناهي بصورة خافتة، عبر الحديقة التي تحركها الريح أمام أفق أطلسي، تشكله الأمواج كالأسنان، بدأ الإله يذوب ويسيل في قطرات على طول العمود، تتجمع وتزحف على تربة البستان السوداء التي أخذت أخيراً تمتص ثلج شباط / فبراير إلى العالم السفلي.

●●●

الواعظ

رأيت رجلاً مغتاظاً غاضباً، كان واعظاً يخطو رافعاً ذراعيه فوق الأرض الموحلة لأكبر ستاد لكرة القدم في جمهورية بولونيا الشعبية، صائحاً: يا للعار، عارٌ أن تُمارس التجارة في مثل هذا المكان! عارٌ أن تُساوم في مكان مَنذور للأبطال، للموتى، للذكرى! يسوع، ابن الرب، طرد التجار والمرابين من معبد بيت المقدس بالسوط، وبالطريقة نفسها تماماً يجب طرد هؤلاء السفلة بالسوط من هذا الستاد، حيث يعرضون ويتاجرون بزبالتهم ومهرباتهم، وحتى بمسروقاتهم! لا بد من طردهم! جميعهم!

كان ثمة صانعُ دمى من جورجيا، واحدٌ من عدد لا يحصى من التجار الذين يعرضون بضائعهم في دكاكينهم في هذا اليوم الماطر من شهر نيسان / أبريل في ستاد الذكرى السنوية العاشرة في وارسو، كان يريني إمكانيات تحريك دمية تلبس زياً عسكرياً مبرقعاً للتمويه، عندما اقترب الواعظ من منطقة مرمى الملعب الممتلئة بأعشاب جافة وبنبات القراص. كان يحمل بيده عصا بطولِ ذراعِ فأسٍ أو مطرقةٍ، استلّها من حزامه، فإذا بها سوط من خيطانٍ مجدولةٍ أو شرائطِ جلديةٍ. سوط حقيقي فعلاً. وأخذ يلوّح به فوق رأسه. ولكن لم

يأبه أحد بصياح هذا الرجل في خضم هذا الزحام المتعدد الأصوات واللغات، في متاهة مدينة الدكاكين هذه الممتدة حتى أعلى صفٍ من صفوف الستاد الغارقة تحت المطر وتحت أدغال الأعشاب والشجيرات النامية. كان يلوّح بسوطه فوق رأسه وحسب، ويعظ ويهدد بيديه ويلعن ويشتم. لكنه لم يقدِمْ على أي فعلٍ، قام به يسوع، فهو لم يضرب بسوطه أحداً.

هذا الستاد يا **أيها الدكنجية المأفونين** مبني من حطام وارسو، من حجارةٍ وقرميدٍ ما زال دم الأبطال لاصقاً بها، دماء أبطال الانتفاضة ضد الألمان، دماء آلاف الأبرياء من سكان المدينة، دماء آلاف البشر من أطفال ونساء وشيوخ، ممن دُفعوا أمام الدبابات الألمانية كدريئة تستقبل رصاصها، أو ذُبحوا كرهائن. **يا أيها التجار الغشاشين الذين فقدتم ضمائركم!** هذا الستاد لم ينهض من الخراب للتذكير بالبربرية الصارخة، بل كصرح للمستقبل: يلتقي فيه الضحايا والقتلة، المهزومون والمنتصرون، أعداء الأمس الألداء. يلتقون في هذا المعبد كي يلعبوا، مع بعضهم بعضاً وضد بعضهم بعضاً، ولكن بسلام. كي يلعبوا هنا ويبرهنوا على أن الناس يقيسون أنفسهم ببعضِهم بعضاً، وأن بإمكانهم أن يكافحوا من دون أن يَقتلوا. أحبوا أعداءكم! هكذا أمرنا ابن الرب، وهذا يعني: تغلب عليه، إنْ أردت التغلب عليه. ولكن في المباراة.

وصاح الواعظ: ما الذي دفع هؤلاء الدكنجية المأفونين من أكرانيا والقوقاز للمجيء إلى هذا الملعب؟ إنهم يتاجرون ويبيعون مهرباتهم وحتى التذكارات التي تعود إلى حروب

البشرية المهولة، من أوسمة وخناجر، يتصدرها الصليب المعقوف!

هل أريد حقاً أن أتبع هذا المجنون؟ سألني مرافقي، وهو صديق من ڤيينا، يعيش في وارسو منذ سنوات. وكان قد خرج معي في مشوارٍ طويلٍ عبر المدينة، وقادني عبر جسر پونياتوڤسكي وعلى طول الضفة الشرقية لنهر ڤايكسل إلى الستاد القديم، الذي يعتبر في هذه الأيام أكبر بازار في أوروبا الشرقية، وليس في العاصمة البولونية وحسب.

لم يأبه الواعظ بنا أثناء لحاقنا به على درب رسالته بفارق خطوات في الزحام، فنتوقف عندما يقف ونتبعه عندما يعاود السير.

يمكن أن يتسع ستاد الذكرى السنوية العاشرة لمئة ألف مشاهد، وقد شيّد عقب نهاية الحرب العالمية الثانية بعشر سنوات إحياءً لذكرى انتفاضة وارسو، لنضال جيوش المقاومة البولونية ضد الاحتلال الألماني، وقد بني من أنقاض المدينة التي سوتها بالأرض قوات الجيش ووحدات الـ SS، أثناء الانتفاضة التي استمرت ثلاثة وستين يوماً، سقط خلالها مئتا ألف بولوني، غالبيتهم من المدنيين، قتلوا كرهائن في القتال من بيتٍ إلى بيتٍ أو أُعدموا رمياً بالرصاصِ أو أُحرقوا أحياءً أو دفنوا تحت الأنقاض انتقاماً من الثوار. وطوال أكثر من ثلاثة عقود خدم هذا الصرح الهائل، لا فِرق كرة القدم ورياضيي ألعاب القوى كملعب فحسب، بل كمسرح أيضاً لاستعراضات السلطة الأوبرالية الطابع للحزب الشيوعي،

وحتى كفضاءِ مَذبحٍ كنسي لقداس عام للبابا البولوني يوهانس باول الثاني.

وأخيراً نتيجة لنقص المال تُرك الستاد ليتداعي، ثم استأجرته شركة تجارية، دشّنت فيه سوق أوروبا البيضوي ليصبح سوقاً بأجورٍ رخيصةٍ للدكنجية، وأصحاب البسطات من جميع بلدان الاتحاد السوفييتي المتفكك والمنهار. لكن هذا كله أضحى جزءاً من تاريخ مضى في يوم السوق الماطر هذا من شهر نيسان / أبريل: إذ يوجد الآن تجار من جميع أنحاء بولونيا وأكرانيا وروسيا البيضاء ومولداڤيا وجورجيا والشيشان وأرمينيا وكازاخستان وأذربيجان حتى كيرغيزستان، إضافة إلى لاجئين وصينيين ومنغوليين وڤيتناميين، يبيعون هنا قهوة ومساحيق تنظيف وبضائع ذات ماركات مزورة، وتسجيلات موسيقية مقرصنة، وأفلام منسوخة دون حقوق، إضافة إلى فرو السمور والسجائر والأدوات المنزلية وأدوات رخيصة وكاڤيار وأسلحة وذخيرة ومخدرات وكل ما يمكن أن يُطلب ولا يوجد للبيع في مكان آخر، وإن وجد فبأضعاف سعره هنا الخاضع للمساومة.

بين صفوف الأكشاك على المدرج، حيث كانت تجلس جوقات مناصري الأندية الوطنية أو الأندية الأهلية الكبرى مثل نادي وارسو وبولونيا وارسو وتبح حناجرها من صياح الحماسة، نما الآن برقوق بري وقراص وبرسيم. ومرميا الملعب الأبيضان سابقاً ما زالا قائمين وقد صبغتهما بقع الصدأ، ولكن بلا شباك ومن دون أن يخترقهما سوى الزمن.

وعندما يحل المساء، بعد انتهاء السوق، ولا يتبقى في الستاد الخالي سوى المهملات والمزق، متروكة في مهب الريح، لتطير فوق خطوط المرمى الباهتة وغيرها من الخطوط التي لم يعد لها معنى، وفوق مدارات السباق، وفوق مرج الملعب الذي تحول إلى ما يشبه المستنقع، عندها قال صديقي، يصير المكان هنا موحشاً ومقبضاً، كما كان في خرائب الأنقاض في نهاية انتفاضة وارسو المقموعة المبادة. عندها يصبح هذا الستاد حقاً صرحاً للذكرى، فينهض في الذاكرة فعلاً موكب الموتى اللا نهائي الذي بني هذا المضمار من منازلهم المدمرة بالقنابل، ليحيط في هذا الغسق بخواءٍ إنسانيٍّ مبهم لا يُغتفر.

وصل الواعظ الآن إلى أولى صفوف المدرج، وبدأ يصعد بجهد بين أكشاك السوق المغطاة بشوادر من البلاستيك الشفاف التي يسيل من جوانبها ماء المطر. يحتمل أن يكون بعض التجار على علم بالشائعة التي أخبرني بها صديقي أثناء صعودنا وراء الواعظ: وهي أن الواعظ سكير مسالم، كان لاعباً احتياطياً من الدرجة الثالثة أو الرابعة في نادي وارسو، لاعب جناح الهجوم، دون أن يصل ولو مرة واحدة إلى الصفوف الأولى أو إلى اللعب مع منتخب النادي. وبعد أن صدمته حافلة ترام وحج إلى العذراء السوداء في تْشِنشتوخاو عبثاً، ما زال يعرج. على كل حال، لم يظهر الواعظ في الستاد إلا قبل الأعياد الكنسية الكبرى. أولمْ يطرد يسوع التجار والمرابين من المعبد قبل عيد الفصح اليهودي، ما أدى ربما إلى إثارة الغضب عليه، الذي أدى في نهاية المطاف لإيصاله على

درب الآلام إلى الصليب؟ ثمة احتمال بأن تكون حكاية هذا الرجل الصيّاح، الذي كان ذات يوم لاعب جناح من الصف الثالث أو الرابع في فريق ذي شعبية عريضة، والذي خابت آماله المستقبلية، لا أكثر من حدوتة مناسبة اختلقت في المكان المناسب.

ولكن الحادث الذي، ربما، سرق بهجة حياته، وقدرته على الحركة المرنة أيضاً، قد وقع في وقت ما من ماضيه فعلاً، فالرجل يتسلق درجات المدرج الإسمنتية المتشققة التي تنبت الحشائش من أخاديدها المقلوبة، بصعوبةٍ وجهدٍ. وفيما هو يعرج لاهثاً أثناء صعوده استمر بلا انقطاع في استحضار الموتى والأبطال، وضحايا الظلم الغاشم، والأمل الوحيد الذي كان يقدمه في عظته، لم يكن السماء، بل المباراة الرياضية، كانعكاس للجنة.

●●●

مصوِّر

رأيت عامل طرقات نازلاً حتى صدره في خندق أمام دارٍ مطلية بأزرق فاتح، في مدينة سان فِليپة دي پويرتو پلاتا في جمهورية الدومِنيكان. كان الرجل يشتغل بمعول ومجرفة بغرض توسيع الخندق طولياً على ما يبدو، حول الدار ذات النوافذ والشرفات البيضاء، كي يربط الخندق بقناة مفتوحة على طول الطريق. وعلى طرف الخندق وُضعَت أحجارٌ كبيرة بحجم رأس إنسان لتنبه المارة إلى وجود الخندق.

كان الرجل قد استند لتوه على ذراع المجرفة ليلتقط أنفاسه، عندما اقترب ثلاثة من المارة، رجلان وامرأة، وهم مستغرقون في حوار فيما بينهم. ومن البعيد أشارت المرأة إلى الدار الزرقاء، وكأنها قد اكتشفت شيئاً. عندما وصلت إلى الخندق ووقفت أمامه مترددة للحظات، سند العامل مجرفته على جدار الخندق ووضع فوقه دَفاً خشبياً كجسر.

لم يشكره أحد من الثلاثة لهذه الخدمة. تركت المرأة الرجلين يتقدمانها على الجسر الضيق وكان أحدهما يحمل لافتة ملفوفة بالورق، ثم أشارت لهما كي يقفا عند مدخل الدار. انحنت من ثم إلى عامل الطرقات وسألته أمراً ما، فابتسم وأومأ برأسه موافقاً.

تسلق خارجاً من الخندق، ومسح يديه بمنديل ورقي ناولته إياه المرأة، ثم أخذ من بين يديها كاميرا وجملة إرشاداتٍ بأن كل شيء جاهز، الإضاءة والمسافة والدقة، ولم يتبق له سوى أن يكبس الزر، أجل هذا الزر. ثم أسرعت عبر الدف (الجسر) إلى الرجلين الواقفين بوضعية تصوير وأخذت مكانها بينهما وأعطت الإشارة للمصور.

حمل عامل الطرقات الكاميرا بذراعين ممدوتين أمام صدره وكأنها وعاء السر المقدس وضغط على زر التصوير الذي لم يصدر أي صوت. مرة أخرى، صورة ثانية! فقد أرادت المرأة أن تضمن التقاط الصورة. لمعت لآلئ عرقٍ على جبين المصور. تكرر الضغط على الزر ثانية. راضيةً عبرت المرأة المصوَّرةُ الجسر إلى المصوِّر، وأخذت منه الكاميرا، مسحتها بمنديل ورقي آخر ثم وضعتها في حقيبة يدها.

نزل عامل الطرقات إلى خندقه ثانية، استند الآن على ذراع معوله، وأخذ يتابع بلا حراك تثبيتَ مرافقي المرأة اللوحةَ التي جلباها معهما، على باب الدار بالمسامير. كان بوسع العامل من الخندق أن يقرأ السطور المكتوبة عليها. كانت مواعيدُ دوامِ المنوِّم المغناطيسي الذي يستقبل الزبائن الراغبين بأن يُنَوّموا، في ثلاثة أيام من الأسبوع.

كان المشاة الثلاثة- مؤجرو الدار ربما، أو الإداريون، أو مهندسو الديكور، أو منوّمون مغناطيسيون أيضاً- قد غابوا داخل الدار، عندما كان عامل الطرقات لا يزال واقفاً بلا نأمة في خندقه محدقاً في اللافتة. هل كان يفكر يا ترى بالكاميرا

الضئيلة الحجم التي كادت تختفي بين يديه، أم باستبدال معوله بهذا الشيء الخفيف، أم بحياة أخرى، كل ما هو ثقيل فيها: كالتراب، والحجارة، والقرميد، ودلاء الخشب المملوءة بالقطران، يحملها آخرون، يرفعها آخرون، ينقلها آخرون؟ كان مسمراً في مكانه كالمأخوذ، ثم ترك المعول من يده ورفع الدف الضيق الذي كان جسراً فوق خندقه وسنده إلى جدار الخندق الترابي حيث كان.

●●●

باسيفيكي، أطلسي

رأيت كلبين صغيرين في موقف سيارات،
مغطى بطبقات من الضباب على ارتفاع 3400م فوق سطح البحر، قرب فوهة بركان إيرازو، أعلى وأخطر بركان ناري في كوستاريكا. كانت أقدام الكلبين متشبثة بالأرض المغطاة برمل اللاقا الأسود، وهما يشدان بينهما قطعة قماش بيضاء مزينة بالتفْتا، يُحتمل أن تكون جزءاً من ثوب رقصٍ أو من ستارةٍ أو من طرحةِ عروس. وكأنما هناك اتفاق ضمني بينهما على ألا يؤدّي طمعهما إلى تمزيق القماشة، بل على التخلي عنها للمنافس سليمةً ما أمكن، لكن أياً منهما لم يتراجع عن موقعه قيد أنملة، بل صمد ساكناً، يحدِّق في عيني الخصم كالمأخوذ، بحيث لم يتجاوز الشدُّ المتبادل مقاومة القماشة للتمزق، وهما يهرّان، إما من الجهد المبذول أو من الجشع، ولربما من البرد.

مشيتُ مع مجموعة ركاب حافلة الرحلات، الذي طعّجته الحجارة المتساقطة والذي يُفترض أن ينتظرنا في ضباب موقف السيارات، متجاوزين الكلبين الصغيرين إلى فوهة البركان الرئيسية الهائلة التي يتجاوز عرضها ألف متر والتي تلمع في قعرها بحيرة خضراء من الأحماض السامة. لدى رؤية البحيرة أخذ بعض ركاب الحافلة بالصلاة عند حافة

الفوهة، مثلما فعلوا أثناء الرحلة في المرتفعات الضبابية، فمعظم الركاب كانوا عائدين من رحلة حجٍ إلى العذراء السوداء في قرطاج. والعذراء السوداء La Negrita هي تمثال للسيدة مريم محاطٌ بشعاع ذهبي ومنحوت من صخرة بركانية، يمشي نحوه الحجاج على ركبهم في صحن الكنيسة الرئيسي، وهم لا ينفكون عن الابتهال إليها كي تحفظهم من نيران جهنم المتصاعدة من قلب الأرض. وعلى الرغم من كل هذه الابتهالات، بقي البركان يضرب قرطاج ويحرقها ويدمرها بالزلازل مرة تلو الأخرى، وقد فقدت الكثير من بريقها تحت الرماد الذي يمطرها به إيرازو إلى أن فقدت أخيراً مكانة العاصمة لصالح سان خوسيه.

عندما سألتُ سائق الباص في الساحة أمام الكنيسة عن إمكانية الركوب معه، عرض عليّ أن يأخذني معه باتجاه سان خوسيه حتى مفرق سان جيرارد ودي دوتا. إذْ إني اتباعاً لنصيحة عالمٍ بالطيور كنت راغباً بالتوجه إلى غابات الضباب في ظل جبل الموت Cerro de la Muerte كي أراقب الكتْزال Quetzal، طائر الأرباب الرائع والنفور عند شعوب المايا والإنكا والأزتيك في طيرانه بحثاً عن أنثى.

ولأن النظرة إلى عمق فوهة البركان وإلى مدى البلد الذي تحفظه ملكةُ السماء، تُشكّل خاتمةَ كل زيارة للعذراء السوداء، بات يجوز لي أنا أيضاً، كرفيق سفر، الأملَ بالتمتع بالمنظر الفريدِ الذي أعلن عنه سائق الباص بالمكبِّر: من هذا المنبر الصخري على حافة بركان إيرازو ترون المحيط الباسيفيكي إلى الجنوب،

والأطلسي الكاريبي إلى الشمال. ولكن عندما وصلت مع الحجاج إلى هذه البقعة الجليلة من أمريكا الوسطى التي تعتبر جسراً برياً بين محيطين، لم يكن هناك تحتنا في جميع الاتجاهات سوى بحر من الضباب المتماوج.

بدلاً من اسم المكان قرأتُ على اللوحة على الواجهة الزجاجية لحافلة الحجاج سيدتنا من بين الملائكة Nuestra Señora de Los Ángeles. لكن الغريب هو أن الأساطير المحيطة بملكة السماء- وهي حكايات حول اكتشاف التمثال الحجري الأسود من قبل جامعة حطبٍ، وحكايات عن الإشارة السماوية الملحّة بالأصبع التي أدت إلى بناء كنيسة في مكان العثور على التمثال- قد تراجعت في أثناء الرحلة على الطريق الكثير الالتفافات والمدوِّخ إلى أعالي إيرازو، تراجعت أمام حكاياتٍ أقدم غطّت عليها. فعندما ذكر السائق لركابه الجهة التي أقصدها: مناطق كتزال على جبل الموت، الذي يمر في قمته أعلى معابر كوستاريكا إلى العاصمة، أخذت السماء المسيحية تشحب أمام سماء كتزال الهندية الحمراء، كشحوب بريق قرطاج تحت سماء إيرازو.

الكتزال! إنه طائر بحجم الببغاء، ذو لون أخضر وهّاج وصدرٍ قرمزي، وله ريش ذيل بطول ذراع. والمراقب السعيد هو الذي تسنح له فرصة رؤيته، في غابة الضباب، وهو يحلق من تيجان شجر الأفوكادو البري، لثوانٍ فقط بطيران متماوج، ولينقض من ثم ويختفي. وطوال قرون كان منظره هذا يُغني الفنتازيا الهندية. كان شعب الأزتيك يزيّن، بريشه

الأفعى المجلجلة ويعزو إليها قدراتٍ خارقة بصفتها كتزال إلهي. ويحكى عن شعب المايا- كيشِه Quiché- Maya أن طائر الكتزال كان ذات يوم أخضر اللون فحسب، أخضر كلياً حتى ذلك اليوم، الذي قتَل فيه زبانية الغازي الإسباني بِدرو دي ألبارادو ألوفاً من مقاتلي الكيشِه، وكان بينهم ملكهم تيكون أومان، وذلك في المعركة التي دارت في سييرا ماذْرِه التابعة حالياً إلى غواتيمالا. فمن غيوم الحزن السوداء انقض سرب هادر مؤلفٌ من آلاف الكتزال، وحلق بأجنحة ممدودة فوق المقاتلين الموتى ولامسوهم ليساعدوا أرواحهم على الانتقال من هذا العالم، وهكذا تلوَّن ريش الكتزال بالأحمر الدموي.

وعندما عدنا في الضباب من حافة فوهة البركان إلى موقف السيارات، قال أحد الحجاج، وهو معلم مدرسة من ألاخويلا: يُحتمل أن يكون حظي لدى مراقبة الكتزال في وديان سان جيراردو مشابهاً لحظي هنا في الأعالي مع الإطلالة العظيمة على الباسيفيكي وعلى الأطلسي. ولكن لرؤية محيطين، كما لمراقبة طائر إلهي، يحتاج الإنسان في المقام الأول إلى وقت، ففي لحظة ما من جريانه سيتبدى ويتجلى حتى الأشد وجلاً ونفوراً. في لحظة ما سيتجلى كل شيء.

لمّا وصلنا إلى موقف السيارات، كانت قطعة القماش البيضاء، المتنازع عليها بين الكلبين الصغيرين، قد تم التنازل عنها لتطير في مهب الريح بين السيارات، ثم رفعتها هبّة ريح عالياً لترفرف فوق رمل اللافا الأسود، فتبدت للحظة مثل طيرٍ، أشار معلم المدرسة إليه مبتسماً وقال: كِتزال. وأخذت

فتاة عند باب الباص المفتوح تطعم الجروين خبزاً أبيض، وعندما ركبنا الباص رفع المعلم يده ثانيةً، وأشار أولاً إلى أصغر الجروين ثم إلى الأكبر قائلاً: **الباسيفيكي، الأطلسي.**

•••

حب بلا جدوى

رأيت جسراً خشبياً ضيقاً على الساحل الشرقي من سومطرة، يؤدي إلى سبخات أشجار المنغروف الاستوائية. وكنت مع بعض الركاب في الميناء النهري لعاصمة المقاطعة پيكانْبارو قد ركبنا قارب شحن أوصلنا إلى طريق مالاغا، كما وعدني قائد الدفة بأني بعد منعطف الجسر الخشبي سأعثر على الشاطئ وسأجد فندقاً عائماً على أوتاد.

مشيت على الجسر حتى خفتت ضجة محطة المرسى ورائي إلى حد أن طغت عليها أصوات اصطدام الموج بجذور أشجار المنغروف. كان مساءً قائظاً من كانون الأول / ديسمبر وجبال الغيوم البنفسجية ترسل أمطارها بكرم يكفي خلال لحظات لأن تبتل حتى الثياب المطوية في كيس الظهر.

لم يكن للجسر درابزين، وكان عليّ مع سرعة تقدم الغسق الاستوائي أن أركز كل انتباهي كي لا أتزحلق على دفوف الجسر المبتلة بماء المطر، فأنزلق مع حملي وأسقط بين جذور المنغروف، التي تنبثق مثل المخالب من الماء المالح ذي الرائحة الفاسدة. تجاوزت تفرعين للجسر ولم أعثر على أية لافتة تشير إلى شاطئ أو فندق. ولم يتبق لي على درب الدفوف مع سرعة هبوط المساء سوى قناعتي بأن التفرع المتجه غرباً هو الصحيح.

وفيما أخذت أشجار المنغروف ترتفع على جانبي الجسر متحولة إلى جدارين سوداوين، بقيت طبقات السحب أمامي تضيء بلون بنفسجي شاحب، إلى أن ظهر أخيراً ضياء أبيض وبارد على ذرى الأشجار، ضوء النيون: هناك إذاً يوجد شاطئ وفندق. وتناهى إليّ صوت موسيقا أيضاً. كان لها وقع الفرق الريفية في قرى بلدي، أثناء الأعراس وحفلات الرقص، والتي تقلد أغاني نجوم يصعب الوصول إليها، لكنها كانت بلا شك موسيقا معروفة ومألوفة بالنسبة لي: Love in vain. أغنية لفرقة Rolling Stones.

ولكن من ثم، في ضوء النيون لم أر حفلة رقص أو عرساً ولا أي شيء يدل على شاطئ. على فسحة بين أشجار غابة المنغروف كان هناك منبسَط مرفوع على أعمدة ومغطى بسقف من الصفيح لحمايته من زخات المطر، ويتفرع منه عدة دروب إلى ظلمة الليل، من دفوف خشبية أيضاً. توزعت على المنبسط نحو ثلاثين طاولة بلاستيكية فارغة، تحيط بمنصة يؤدي إليها درجٌ مزيّن بحبال ضوئية. وهناك على المنصة كان رجل، لم أستطع تقدير عمره، يغني أمام ميكروفون على حامل معدني، ترافقه موسيقا من مكبري صوتٍ مزينين كصندوقي كنزٍ أو صندوقي بحارة، كانت أقرب إلى القرقعة والطقطقة منها إلى لحن ما. مغني كاريوكي بلا جمهور.

بلا جمهور بشري، على كل حال، أما فوقه، على سطح الصفيح، فقد كان هناك مئات من العظاءات (أبو بريص) بمختلف الحجوم، تبدو كأنها ملتصقة بالسطح، تنتظر بلا

حركة طرائدها من الذباب وفراشات الليل والبعوض التي يجذبها الضوء لا محالة، كما في حالتي. فنحو عشرة أنابيب نيون مضاءة كانت محاطة بسحب كثيفة من هذه الحشرات الطائرة، مثل ندف الثلج. ذكرتني أسراب الحشرات في ضوء النيون الأبيض بندف الثلج في مهب الريح. فإذا ما اقتربت ذبابة أو فراشة... ندفةٌ، من إحدى العظاءات، تمسي ضحية انقضاض كالبرق، يعود الصياد بعده فوراً إلى وضعية السكون. وبين الطاولات كانت تُقعي قطة شعثاء، مرقطة بالأبيض والأسود، رافعة نظرها بلا حِراك نحو الأعلى، منتظرةً أن يسقط أحد صيادي الحشرات، من قليلي الخبرة على إثر محاولة انقضاض فاشلة، فيفقد توازنه، ويهوي من سطح الصفيح إلى مخالبها وأنيابها.

كان المغني ضئيل البنية وقصير القامة، إلى درجة أنه مع كثير من كلمات الأغنية، كان يتطاول على رؤوس أصابع قدميه نحو الميكروفون غير القابل للتقصير على ما يبدو، أو المستعصي على تحريك صامولته:

Well, I followed her to the station with a suitcase in my hand.

حسناً، لقد تبعتُها إلى المحطة وبيدي حقيبة.

لم يذكرني صوته على الإطلاق بصوت مثاله Mick Jagger، لكنه لدهشتي كان قوياً وواثقاً، وكانت الأغنية من نوع البلوز. كان حافياً، يرتدي بنطالاً أسود وقميصاً زُرِّرَ حتى الرقبة، جاهزاً للظهور أمام جمهور. والنظارات الشمسية الداكنة على

وجهه كانت على ما يبدو لإبرازه كأحد نجوم الروك.

Well, it's hard to tell, it's hard to tell, but all true love's in vain.

حسناً، يُصعب الاعتراف، يصعب الاعتراف بأن الحب الحقيقي بلا جدوى.

على شاشة إلى يمينه كانت أبيات الأغنية تنزل سطراً فسطراً كشريط أحمر مضيء. غير أن المغني كان بغنى عن هذه الخدمة. كان يغني برأس مرفوع فوق الكتابة المتتالية، وبدا أحياناً وكأنه يلتفت نحو مئات السحالي الساكنة فوقه والتي تتشمس بضوء النيون.

When the train left the staition, it had two lights on behind

Well, the blue light was my baby and the red light was my mind.

عندما غادر القطار المحطة كان على مؤخرته ضوءان

حسناً، الضوء الأزرق كان حبيبتي والأحمر كان عقلي.

كنت قد أنزلت حملي عن ظهري وجلست إلى إحدى الطاولات البلاستيكية، وتركت هذا المغني يعود بي إلى عصر يوم سبت شتائي بارد في قريتي. كانت فيه فرقة موسيقية موحدة اللباس، بجاكتات مخملية بنية وبناطيل تشارلْسْتون، ومع ذلك، كان ذلك القسم من المحتفلين بالعروسين، والذي حضر إلى المحطة باللباس الرسمي، متحمساً لها.

يبدو أن جهاز الكاريوكي كان يبث اللحن على نحو متكررٍ دون توقف، إذْ كان المغني قد وصل إلى المقطع الأول مجدداً،

عند لمع برقٌ يعمي البصر، تبعه بعد جزء من الثانية قصفُ رعد، فانقطعت الموسيقا وانطفأت جميع الأضواء. في الليل المباغت رأيت المغني كظل أسود، تابعَ مقطعين أو ثلاثة في هذا السكون غير المتوقع. ومن دون أن يرفع نظارته الشمسية عن عينيه توجه نحو برج الأجهزة الإلكترونية المنتصب تحت الشاشة المنطفئة. ورغم عدم إضاءة أية لمبة صغيرة في لوحة التحكم هناك، أخذ المغني يدير ويكبس الأزرار، وكأن عليه إيجاد الصيغة المناسبة للعلاقة بين الأزرار، كي يتمكن من الاستمرار في غنائه بلا توقف رغم البرق والرعد وانقطاع التيار الكهربائي.

ثم ظهر ضوء عند طرف المنصة، وشاهدت رجلاً نحيلاً لا يرتدي سوى السارونغ حول خصره، إما أني لم أنتبه إلى وجوده سابقاً، وإما أنه قد جاء في العتمة من إحدى تفرعات الجسر. رفع صوته مكلماً المغني، ثم أضاف شيئاً آخر وهو يتحرك نحو المنصة على ضوء مصباح الجيب الذي بيده، فضحك المغني. عندما وصل الرجل النحيل إليه، فأمسك بيده وقاده بحذر إلى درج المنصة نازلاً به نحو الكراسي والطاولات الفارغة وبينها إلى أحد تفرعات الجسر. وعندها أدركت أن هذا المغني الذي يتلمس طريقه بيده الحرة خشية المعوقات، ما كان ليرى التماع البرق، ولا انطفاء أضواء النيون ولمبات الأجهزة الإلكترونية، ولا هبوط الليل فجأة على أشجار المنغروف وابتلاعه سطح الصفيح ومئات السحالي الملتصقة به مع أسراب الحشرات. كاريوكي. مغنٍ أعمى من غابة منغروف في سومطرة أعادني بغنائه إلى قرية نشأتي.

الأحد الأبيض

رأيت حذاءً من الجلد اللمّاع الأبيض، حذاءً للبنات لطيفاً ورشيقاً، في علبةٍ أحذيةٍ مفتوحةٍ ومبطنةٍ بورق الحرير. وكانت هناك فتاة ذات شعر قاتم اللون، مع رجلٍ قصير القامة ويتصبب عرقاً، قد دخلا محل الأحذية في ساحة سوق شْڤيرتْبِرغ في جنوبي النمسا. قاست الفتاة فردتي الحذاء ثم وضعته بحذر في العلبة منتظرة، دون أن ترفع نظرها عنه، قدوم البائعة لتغلف لها هذه الدُرَّة، وتجعلها بذلك المالكة القطعية للحذاء اللمّاع الأبيض كالثلج.

كان باب المحل مفتوحاً على آخره، والوقتُ عصرَ يومٍ ربيعي مشمس من أسبوع الفصح الأول. الأحد القادمُ سيكون الأحد الأبيض، أي عيد العَنْصرة، وفيه سترتدي الفتاة البياض التام، وسيكون شعرها الطويل قد لُف في خصلٍ متماوجة تحت الخمار الأبيض، وستحمل في يدها شمعة مزينة بعلامةِ الصليب، وستسير إلى الكنيسة في موكبٍ احتفالي إلى جانب فتيات يلبسن البياض أيضاً، وفتيان ببدلاتِ الأعياد الضيقة. وهناك سيتلقى موكب الأطفال القربان المقدس أمام المذبح المغمور بالزهور البيضاء، وكأنهم أمام مذبح رئيسي غطاه الثلج. سيتلقون رقائق بحجم قطعة العملة المعدنية من

دقيق حبوب غير مخمر، ومعجونٍ بالماء، سيقوم قِسٌ في الذروة الغامضة من الطقس، الذي ترافقه موسيقا الأرغن وغناء الجوقة، بتحويلها إلى جسد المسيح. وجسد ابن الرب هذا، الرب الكلي القدرة، خالق السماء والأرض، والمحيطات، والشموس، والنُظُم الكوكبية، والمجرات، والكون الذي يبلغ عمقه مليارات من السنين الضوئية، وخالق الزمن. هذا الجسد سيوضع على ألسنة الأطفال في فتحات أفواههم بيدين منذورتين، كقربانٍ يذوب، فيتحول بذلك إلى جزءٍ منهم. فياله من تحولٍ، ويا له من سحرٍ بانتظار هؤلاء الأطفال يوم الأحد القادم. يا له من عيد.

ثمة شحروران في أشجار الكستناء، في ساحة السوق أمام محل الأحذية، كانا يغردان على نحوٍ ساحرٍ، بحيث غلّف غناؤهما أصوات ضربات المطرقة الهوائية، التي تهدّ جداراً أو أرضاً في البناء المجاور، وجعلَ وقعها ألطف. كما امتزجت رائحة الجلد مع عبق الليلك والنرجس المألوف في هذا الفصل من السنة، ومع رائحة التراب التي حملها تيار الهواء إلى داخل المتجر. فلم يبق نقياً غيرَ ممزوجٍ سوى رائحة عرق الرجل القصير، الذي خاطبته البائعة باعتباره والد الفتاة، وناولته منديلاً ورقيّاً لوجهه، الذي يتصبب عرقاً. يا له من حَر، قال الرجل، حَرٌ وكأن الربيع قد أُلغي: لم نكد نخلص من الثلج الذي بلغ ارتفاعه حتى مزراب السطح، حتى فاض القبو إلى الطابق الأول، وها هو القيظ الآن دون مرحلة انتقالية وكأننا في آب / أغسطس.

كانت الفتاةُ جالسةً على الكرسي الواطئ بلا ظهر، حيث جربت الحذاء اللماع، وهي تنظر كالمأخوذة إلى الحذاء الذي ما زال غير مغلف، في عشه المصنوع من ورق الحرير، فقد كانت البائعة مشغولة بمديح مادةٍ تحافظ على لمعان الحذاء.

سقطت أشعة الشمس عبر باب المتجر المفتوح على الرفوف المملوءة بالأحذية، وبدت في تلك اللحظات أن مهمتها الوحيدة هي إبراز حقيقة أنه لا يوجد بين الأحذية المعروضة زوجاً أجمل أو أروع من هذا الأبيض، الذي يمكن أن يحمل صاحبته من عالم مجبول بصفوف المدرسة وجلي أواني الطعام، والاستيقاظ باكراً على رنين المنبه، والحمى، والجلاءات، والواجبات، والتنبيهات، إلى ملكوت الحكايات، حيث تزدان بنات الملوك بمثل هذه الأحذية، أو الخادمات اللواتي ارتقت مكانتهن الاجتماعية مثل سندريلا فصرن أميرات ووليات عهد.

كنتُ في تلك الدقائق بانتظار عودة بائعة متدربة من المستودع حاملة لي أربطة مُشمّعة لحذائي الذي ألبسه في جولاتي، فسمعت والد الفتاة وهو يحاول التأثير في البائعة الممتلئة والجميلة. لكنه لم يلاحظ أن المرأة، دون أن تلفت الانتباه، كانت تبتعد عنه إلى الوراء لتتجنب رائحة عرقه. وفي انهماكه في محاولته لم ينتبه أيضاً إلى نفاد صبر ابنته التي كانت متلهفة لمغادرة المتجر منتصرة.

مناسبة تناول القربان الأول! قال، يا للمتطلبات والضجة التي تُثار حولها. على كل طفل أن يُكسى بثياب جديدة! حتى

الصبيان مؤخراً، قبل الحدث العظيم، باتوا يدخلون أَسرتهم وعلى رأس كلٍ منهم شبكة شعر لحماية تسريحته من تأثير الوسائد. ولكن لا يجوز أن نضن على الأولاد. في أيامه، كان الأولاد في أفضل الأحوال يلبسون ثياب أخوتهم الأكبر سناً مكوية. وفي حال كون الطفل وحيد أهله، كان يلبس ما يتوفر في صناديق ثياب أقربائه... إنها أيام الفقر. أما اليوم فلا بد أن يكون كل شيء جديداً، من الخمار إلى الحذاء. وكل هذا من أجل يومٍ واحدٍ. علماً بأن الفتيات في هذا السن يكبرن بسرعةٍ هائلةٍ، ويفضلن الحذاء الأسود بالكعب العالي والثياب الداخلية السوداء المخرمة على بياض العفاف والبراءة. منذ متى يلبس الناس أحذيةً بيضاء! أليس محقاً في كلامه؟ أليس محقاً؟ أليس الأمر كذلك؟ طبعاً، بالتأكيد، بإمكان البائعة أن تغلِف مادة التلميع مع الحذاء، إذ يمكن استخدامها لاحقاً للجزمات السوداء أيضاً، وضحك. أما البائعة فابتسمت بسرعة خاطفة.

رغم أن منديل الرجل الورقي قد تشرب بعرق وجهه وبدأ يتحلل مثل خبز الذبيحة الغارق في اللعاب، فإن البائعة لم تعرض عليه منديلاً آخر.

ويبدو أن الفتاة لم تسمع أي كلمة من الحوار الدائر. ولكن عندما تناول والدها فردة حذاء فجأة من عش ورق الحرير وأخذ يقلّبها بين يديه متفحصاً، جفلت من استغراقها: يا لها من أيام، يا لهذه الأيام التي يسعد الإنسان فيها بحذاءٍ من جلدٍ اصطناعي! لعبة سمجة سيتحلل لونها في المطر القادم ربما. لا

يمكن للإنسان في الواقع أبداً، الوصول إلى السعادة بالسهولة التي تحصل في عالم الأطفال. ومنذ ذلك الحين بات يعرف مناسبات أفضل لساعات من السعادة، أم أن هذه المناسبات غير مطروحة للعرض هنا! أم أنه مخطئ؟

هذا الحذاء، قالت البائعة، موديل إيطالي من جلد أصلي، والنعل مخيط باليد وليس ملصقاً فحسب. وقد باعت مؤخراً أربعة أزواج من هذا الموديل، إنه تحفة فنية.

تحف فنية؟ ربما بالنسبة لحجم المبيعات، قال الرجل، خائب الأمل على ما يبدو، لأن البائعة الممتلئة لم تستجب للحديث عن سعادته. إنه لأمر لا يصدق، قال الرجل، هذه الأسعار التي يضعونها اليوم لهذه الأشياء. وربَّت على شعر ابنته قائلاً: إن ملاكه الصغير قد تبرع بخرجيته، كيلا يضطر إلى لبس حذاء الأخت الكبرى يوم الأحد القادم. يا ليباس رأسها، هذه الصغيرة. كانت كل يوم تعود إلى البيت بخبر جديد عن معروضات ڤترينة متجر الأحذية، مضيفة بذلك سبباً لشراء هذا الحذاء اللماع تحديداً، لا غيره. حذاء لماع! هل هناك في الدنيا كلها ما هو أقل عملية وفائدة من حذاء أبيض لماع؟ إنه من سقط المتاع لا أكثر. وهو متشوق ليرى ما إذا كانت فرحة البنت به ستبقى بعد الأحد القادم. إنْ تعثَرتْ بحجر في صحن الكنيسة، أو داستْ في بركة ماء صغيرة، أو ظهر شرخ صغير في الطلاء اللماع لدى الركوع الأول عند المذبح، يضيع البهاء كله.

اسمح لي، قالت البائعة وهي تأخذ فردة الحذاء من يده

لتغلفه. فانتهز الفرصة ليمسك معصمها للحظة، ثم تركه وربت على كتفها كمن يستنكف عن محاولة ثانية لعناقها، وتمتم طبعاً بعبارة: تفضلي.

أنصتت الفتاة بفم مفتوح ذهولاً إلى إهانة حذائها اللمّاع، واتخذ وجهها تعبيرَ خيبة الأمل، كمن يعيش في هذه اللحظة لأول مرة حقيقة أن الأروع والأبهى، والأسمى بها لا يطاله أي شك، لا يصبح موضع ارتياب وإهانة فحسب، بل يمكن أن يُداس أيضاً. ومن لحظتها تلك، لم تلتفت إلى البائعة وهي تغلف فردتي الحذاء بورق الحرير، ثم تغلق العلبة وتدفعها بحذرٍ داخل كيس التسوق الضيّق قليلاً، بل بات الحزن الذي يملأ وجهها وهي واقفة في ضوء الشمس الساقط على سجادة الأرضية وقد امتد أبعد قليلاً، مثل كل الضوء عداه، رمادياً كالحاً، كهذه الأرض المليئة بالبقع.

كانت الشحارير قد سكتت، أما المطرقة الهوائية في البناء المجاور فقد بدت وكأن إزميلها في اللحظة التالية سيخترق جدار الرفوف في المتجر، وفي الوقت نفسه تحلل عبق الليلك والنرجس إلى رائحة عرق حامض. والبائعة التي تحولت الآن إلى امرأة شاحبة ومتعبة فردت ورقة نقودٍ وملّستها قبل أن تدفعها إلى الحيّز المناسب في صندوق الحساب الذي قفز درجه مفتوحاً مصلصلاً. سكت الوالد. وعندما أراد أن يناول ابنته كيس الحذاء اللماع، لم تمد يدها إليه.

●●●

صيادة السمك

رأيت فتاة تمسك سنارة من الخيزران، على نهر بَغْماتي في پاشوپاتينات، وهي منطقة المعابد في كتماندو. ربما كانت الفتاة في العاشرة من عمرها أو أصغر، وكانت تخوض في الوحل حتى كاحليها، وهي تسحب خيط السنارة عبر الماء الرمادي الذي تطفو على سطحه قطع خشب متفحمة، ورماد، ومزق صدئة، وكتل سوداء متأرجحة مع حركة الماء، ولا يمكن البت في شكل الأصل الذي كانت تنتمي إليه.

بين الآونة والأخرى كانت سحب دخان تغلف صيادة السمك والتي تنتصب وراءها من الماء صفوف من الدرجات الحجرية العريضة، تتوزع عليها مجموعة من المحارق المتأججة لإحراق الجثث تحت سماء ربيعية خالية من السحب. أحياناً كانت تسقط ذراع أو قدم من أحد هذه الأسّرة النارية، أو تكشف ألسنة اللهيب المجال لرؤية بطن منفجرة في هذه الحرارة وقد اندلقت منها كتلة رمادية من الأمعاء. عندها كان حراس النار في لباسهم الأبيض يرمون في النار حزماً من الأعشاب، لكي تغطي السحبُ المتصاعدة من هول مشاهد التدهور، ويعيدون بالمجارف والشوّك كل ما سقط من الأسّرة إلى النار.

عندما يصل اشتعال إحدى المحارق حتى نهايته، يُصب دلو من ماء النهر على الرماد وما تبقى من جمر، ويكنس كل ما تفحم ولم يحترق إلى النهر، بمكنسة من الأغصان اليابسة. بعد ذلك تُشطف الدرجة العريضة حتى تلمع، ثم تهيأ محرقة جديدة متقنة الصنع يشبه شكلها في النهاية تابوتاً يسجّى فيه الجثمان ويغطى من ثم بأغصان يابسة وقطع حطب، كي يكون في قلب النيران وليس عليها فحسب.

على ضفة النهر مددت جثث الموتى ملفوفة بأقمشة صفراء كالزعفران، وقد بُللت للمرة الأخيرة بماء النهر المقدس، قبل أن تُكشف وجوهها إلى الأبد، وتحمل من بين أفراد أسرها الحزانى النادبين، إلى إحدى المحارق على الدرجات العريضة.

أدارت الفتاة ظهرها للموتى والحزانى، أدارت ظهرها للمحارق والمعابد السامقة وراء الدرجات بلمعان ذهبي، كما أدارت ظهرها للمدينة وراء المعابد، ولسلاسل جبال هيمالايا البيضاء الشامخة حتى السماء ذات الزرقة الداكنة وراء المدينة، وانحصر نظرها فقط بحركة خيط سنارتها الذي يشق الماء. لمرة واحدة فقط التفتت الفتاة إلى الضفة، عندما قامت امرأة برش وجه زوجها بماء النهر، وغازلته لآخر مرة وقبلته، ثم أخذت تنوح بائسة إلى أن ارتمت أخيراً بين ذراعي إحدى المعزيّات.

وثمة كلب مبرقع بالأبيض والأسود كان نائماً بين الجثث المعدة للحرق، أيقظه نواح المرأة، فنهض وتثاءب وتمطى، ثم خاض في النهر قليلاً، وتشمم ما كانت تأتيه به المويجات، فأخذ شيئاً ما بفمه ورماه ثانية في الماء. لكنه اقترب كثيراً من

الصيادة التي صاحت به آمرة أو شاتمة، ثم انحنت وكأنها ستتناول حصاة من النهر لتقذفه بها.

فهم الكلب وقفز عدة مرات بعكس التيار، محركاً بذلك الوحل الأسود. ثم أخذ يتحرك هنا وهناك متشمماً، على مسافة رمية حجر، عندما التقى فجأة بمنافس قفز عليه مهاجماً دون تحذير مسبق.

راقبتُ الكلبين المتصارعين في الماء، بحيث فاتني رؤية اصطياد الفتاة غنيمتها. لكن صيحة فوزها أعادتني إليها، وكانت قد رفعت خيط السنارة من الماء. لم أر شصاً في نهاية الخيط، بل قطعة مغناطيس مثبتة، وقد التصقت بها غنيمتها. كانت قطعة معدنية، مشبك شعر، أو حلية يحتمل أنها كانت تزين إحدى الميتات، ثم كُنست مع رمادها إلى النهر.

فصلت الفتاة صيدها عن قطعة المغناطيس ونظرت إليه في ضوء الشمس، ثم أرته ضاحكة لامرأة كانت مقرفصة على الضفة. فحصته مرة ثانية ثم دسته في كيس قماشي كان يتدلى من كتفها، ثم رمت خيط السنارة في الماء ثانية.

ظَلّلتُ عيني بكفي لألتفت نحو الكلبين المتصارعين أعلى النهر. ولكن هناك حيث ارتفع ماء النهر كالنوافير، بسبب نزاعهما على كتلة بشرية، تلألأت مويجات النهر تحت شمس العصر الفضية على فراغ يشبه عن قرب دوامة مرحاض.

●●●

التهديد

رأيت حبل مشنقة على جدار الإعلان الذي تجاوز ارتفاعه بناء جمارك الحدود المسطح، والحافلة الذي جلست على إحدى مقاعدها الأمامية، كانت يسير نحو جدار الإعلان هذا بسرعة المشي خطوة فخطوة، حسبما ينص عليه القانون البالغ الصرامة، في الأرض المحايدة بين الحدود التايلاندية والحدود الماليزية. وفوق عقدة المشنقة المفتولة ست مرات، كُتب بالأسود على الأرضية البيضاء وبحروف تبلغ قامة رجل: Death for Drugs، عقوبة الإعدام لتجارة المخدرات.

ونحن المسافرون من مختلف الجنسيات، القادمون من جنوبي تايلاند إلى ماليزيا في قيظ الرياح الموسمية الشمالية الشرقية الرطبة، تم تنبيهنا قبل الانطلاق، إلى ضرورة إبقاء متاعنا دائماً تحت أنظارنا وإلى عدم إسداء معروف لأي كان، على الإطلاق! أي ألا نحمل لأحد علبةً أو قطعة ثياب أو دميةً ولا حتى كعكة عبر الحدود إلى ماليزيا. فقد حدث لبعض الركاب الطيبي النية أن صاروا بهذه الطريقة حاملي مخدرات. وفي ماليزيا يجب على المتهم بتجارة المخدرات أن يثبت براءته بنفسه، وليس من واجب المدعي إثبات ذنبه. يضاف إلى

ذلك أنهم في ماليزيا لا يعدمون فحسب بل يخضعون المتهم للتعذيب أيضاً.

إن منظر حبل المشنقة، الذي أخذ يكبر ويكبر ونحن نقترب منه خطوة فخطوة، جعلني- مع مسافرين آخرين أيضاً- أصاب فجأة بالشك: هل انتبهنا طوال الوقت حقاً إلى أمتعتنا؟ إن أكياس الظهر والحقائب الكبيرة والصغيرة والحزم كانت كلها على سطح الحافلة مشدودة بالحبال تحت الشوادر.

عندما توقفت الحافلة أمام جدار الإعلان، وأخذ السائق ومساعده ينزلون الأمتعة قطعة فقطعة، ويرتبونها في صف طويل على الإسفلت الممتلئ بالبرك بعد أن أمطرت، بدا محتملاً أن يوجد في كيس ظهرك أو حقيبتك بضاعة مهربة، تستعاد بعد عبور الحدود من دون لفت أي انتباه، مثلما دُسَّت في وقت ما قبل الانطلاق، في المحطة الصاخبة أو أثناء استراحة على الطريق، بشكل بيضةِ طائر وقوقٍ قاتلة، بين القمصان وقطع الثياب أو بين أكياس النوم وكتب الجيب.

وأخيراً بلغ طول صف متاع الركاب ما يعادل ثلاث مرات طول باصنا الملطخ بالوحل، والذي أخذ شرطيا حدودٍ بلباسهما الرسمي يتفحصان أسفله بمرايا مثبتة على قضبان متصلة بعجلات، وذلك قبل أن يجولا على صفوف مقاعد الحافلة الخالية مع كلب بوليسي (شيفر) أشقر، أخذ يتشممها مقعداً مقعداً. ثم جال الشرطيان مع الكلب المشدود إلى أحدهما بحبل قصير علينا، نحن المسافرين الذين وقفنا كالجنود وراء أمتعتنا. وقد صدر الأمر بذلك بثلاث لغات

من مكبري صوتٍ مثبتين على الإعلان المهدِّد. ولكن يبدو أن الكلب قد جال علينا وعلى متاعنا غير آبه بذلك.

عندما وصل شرطيا الحدود مع كلبهما إلى آخر الصف، خرج من مكتب الجمارك، كما حسب توقيتٍ مدروس مسبقاً، ثلاث نساء محجبات في أثواب طويلة حتى الأرض واتجهن نحونا. وفيما بقي الشرطيان واقفين في نهاية الصف مع كلبهما، إما لحماية النسوة أو لمراقبتهن، أشارت المحجبات، بصورة عشوائية على ما يبدو، إلى هذه أو تلك الحقيبة وإلى هذا أو ذاك من أكياس الظهر: افتح! افرد المحتويات!

تدريجياً بدأ يتشكل صف أمتعة ثانٍ، مواز للأول، لكنه أكثر تنوعاً وأكثر صغراً من حيث حجم القطع، وبصورة تذكر بسوق الخردة والثياب المستعملة. وفي حال ظهور علب صابون وحقائب تواليت صغيرة وأكياس بلاستيكية أو أكياس أحذية، كان لا بد من فتح هذه وما فيها، مثل الدمى الروسية حتى أصغر جزء غير قابل للتجزيء. وأثناء ذلك كله لم تنطق المحجبات بأية كلمة، بل كن يستخدمن الإشارات: تؤشرن، تكتبن في الهواء سطوراً ودوائر، أو ترفعن راحات أيديهن نافيات.

في أثناء هذه العملية كلها كان المسافرون يتبادلون أحياناً بعض الملاحظات لتهدئة الخواطر، أو للمزاح أيضاً، ولكن فجأة حل صمت كامل وتام، عندما نادت إحدى المحجبات الشرطيين، ورفعت يدها إليهما بصندوق مشغول بحفرٍ فني ومفتوح، وأخرجت منه قطعةً بحجم صابونة، مغلفة بكيس

بلاستيكي ملفوف بلاصق. عندما تشممها الكلب انتفض جسمه كله وكأن شيئاً حاراً أو كاوياً قد دخل أنفه.

توجهت جميع الأنظار الآن نحو صاحبة الصندوق، وهي صبية تايلاندية، يبدو أنها تفهم لغة البَهاسا الماليزية، فقد كانت تجيب، وإن بتلعثم، على أسئلة الشرطيين اللذين كانا يتكلمان بصوت خافت يلفت النظر. أحاطت المحجبات الآن بالمشتبه بها، لكنهن لم يطرحن أي سؤال، بل رُزْنها بصمت، عندما أخذت تلبية لأمر الشرطيين بجمع أغراضها المفرودة على الأسفلت المبتل، وهي راكعة على ركبتيها. ثم أمسك بها أحدهما من ساعدها وحمل الثاني حقيبتها واقتاداها إلى مكتب الجمارك. لحقت المحجبات بهما مع الصندوق المحفور، وتركننا وراءهن واقفين في الصف. ولم نجرؤ على الحركة إلا بعد أن ذهب السائق ومعاونه إلى مكتب الجمارك وعادا بالإذن لجمع الأمتعة وتحميلها. ولكن لم يُسمح لنا بعدْ بركوب الباص. وقال السائق، إن علينا الانتظار حتى يُسمح لنا بمتابعة السفر. مضت ساعة، ثم اضطرنا المطر الشديد إلى اللجوء تحت سطح محطة الحدود الممتد مثل جناح.

لا أحد منا تعرّف بادئ الأمر الهيئة الرقيقة التي خرجت من مكتب الجمارك تتبعها إحدى المحجبات، فيما تقذفُنا السماءُ بمطر يقرع جناح السطح مثل حبِّ البرد. كانت ترتدي واقياً مطرياً أزرق بقلنسوة تغطي رأسها، غادرتْ حمايةَ جناحِ السطح ومشت تحت المطر الشديد نحو باصنا المنتظر عند المشنقة. إنها التايلاندية المشتبه بها، ويبدو أن محتوى صندوقها،

مهما كان، لا يتعارض مع القانون. وقبل أن تعود المحجبة إلى مكتب الجمارك ثانية أشارت إلى سائقنا بمتابعة رحلتنا نحو كوالا لومبور.

كانت المرأة ذات الواقي المطري الأزرق الوحيدة أخيراً، التي ركبت الباص جافة، فمعاطفنا كانت في حقائبنا على سطح الباص. جلسنا في أماكننا ونحن نقطر ماء مطر. وأذكر أن الباص الذي غادر محطة الحدود دون ضجة تحت قرع المطر، قد كان مشغولاً حتى آخر مقعد عند الانطلاق من هَتْ ياي في تايلاند. حتى أنه قد حدث شجار لأن رجلاً أسترالياً لم يتمكن من الجلوس بجانب زوجته في هذا الضيق الخانق. أما الآن، بعد أن اختفت المشنقة وراء حبال المطر الكثيف، فإن الرعب، أو ظل الموت فحسب، قد أوجد لنفسه مكاناً. فالمشتبه بها عادت إلى مكانها السابق، لكن المكان المجاور لها بقي خالياً.

●●●

قيد الاشتباه

رأيت لوحة إعلانات جدارية على الطريق المتماوج بسبب تخلخل الهواء، والمؤدي إلى كليبْلات على أطراف سوزْبيرغِه في جنوب أفريقيا. كانت اللوحة محنية قليلاً إلى الخلف، إما بسبب عاصفة قوية أو لاصطدام شاحنة بها، وتحجب وراءها استراحة للمسافرين على طريق السفر ضعيف الحركة. إضافة إلى دعايات سيارات السفر والمثلجات والكازوز والمكيفات الهوائية، حملت اللوحة تحذيراً من قرود الپاڤيان الخطرة: فلا يجوز في موقف السيارات حمل أطعمة مكشوفة، فهذا يثير نهم القرود.

في ظل هذه اللوحة الجدارية المائلة كان هناك كلب أغبر مستلقياً وممدداً قوائمه بعيداً عنه، وكأنه قد نام مللاً من حراسة الإعلانات والدعايات الفاقعة الألوان. ولا شك في أن الخطاط الغاضب قد غلبه النعاس أيضاً، وهو يخط حروفه القرمزية بارتفاع قامة رجل، فوق جميع الدعايات والإعلانات والتوجيهات والتحذيرات، فسال طلاؤه على الكلب وهو يكتب رسالته التي تطغى على أي رسالة أخرى: Hang EM، اشنقوه.

كنت في ذلك اليوم راكباً في حافلةٍ سفر على الطريق إلى

بورت إليزابت على المحيط الهندي عبر براري وصحاري كارو الشاسعة، وكنت كمعظم ركاب الحافلة عارفاً مَنِ المقصود بلف حبل المشنقة حول عنقه، بهذه الحروف العملاقة. إنه رقيب في شرطة جنوب أفريقيا، شاب، أبيض، سمعته بلا شائبة، قد قتل زوجته وطفليه ببندقية كلاشنيكوف نصف آلية، في موقف سيارات على طريق السفر إلى أويتنْهاغِه في مقاطعة الكاب الشرقية، في موقف سيارات يشبه هذا، ولكن من دون كشك، أو مراحيض، أو كازية أو ماء. هذه كانت الصيغة الأكثر ترجيحاً، على كل حال، من وجهة نظر محكمة أويتنهاغِه، عندما أمرت بسجنه رهن التحقيق.

لا، لا، معاذ الله! قال الرقيب المشتبه به على أثر اعتقاله، ففي ذاك اليوم الأشد رهبة في حياته خرج مع عائلته في نزهة إلى الجبال. وقبل الانطلاق نسي أن يملأ خزان السيارة، بسبب نزاعِ حسدٍ بين طفليه. قبل الوصول إلى الاستراحة بقليل، أي في مكان حدوث الجريمة، فرغ خزان وقوده، فترك أحباءه في الظل، ومشى حاملاً صفيحة احتياطٍ فارغة، وآملاً أن لا يضطر إلى قطع المسافة كلها مشياً حتى محطة الوقود التالية. إذ يُحتمل أن يأخذه معه أحد سائقي السيارات القليلة. وهذا هو ما حدث فعلاً، ويمكن للسائق الرحيم أن يشهد على ذلك. وعند عودته... عند عودته وجد زوجته وطفليه ينزفون من جروح لا تحصى، كانوا جميعهم قتلى في الظل.

عملية القتل الدموية في موقف سيارات على طريق سفر، والرقيب الأول، وحشيته أو مصيره المأساوي، ذنبه أو براءته،

كانت طوال الأيام بعد اعتقاله موضوع جدالات إنفعالية في الصحافة والتلفزيون المحلي، على موائد الطعام وفي مواقف الحافلات، لا في منطقة أويتنهاغِه فحسب بل في مقاطعة الكاب الشرقية كلها. رأيت في بورت إليزابت سيارة شحن مكشوفة وقد كتب على جدرانها بالبخاخ وعدة مرات صيغة المطالبة بشنق القاتل.

كانت جنوب أفريقيا قبل سنتين فقط قد ألغت التفريق العنصري من دون استثناءات في كافة المستويات الاجتماعية، على الأقل في أوراق الدستور الجديد، وانتخبت نيلسون روليلالا مانديلا من شعب الخوسا، كأول رئيس أسود في تاريخها. ولكن، من الآمال الكثيرة التي تراكمت خلال عقودٍ من نضال حثيث، بدا غالباً بلا جدوى، في سبيل تحقيق المساواة بين سكان البلد كافة، لم يتحقق إلا أقلها. ففي أماكن العمل الشاق والصعب والمنهك، ما زال السود، دون استثناء تقريباً، هم القوة العاملة. ما زال البؤس كالسابق وحتى اليوم هو المهيمن في تجمعات السود السكانية، وحتى الأمراض، كنقص المناعة المكتسب، ما زالت سوداء. أما ذلك الجزء الضئيل من الحياة، الجميل الوضاء فقد بقي أبيض كالسابق. وفيها الأغاني الشعبية للخوسا والزولو والسوتو والتسوانا والنْديبْلِه والهرير والسوازي وغيرها من القبائل ما زالت تتردد بين فئات المجتمع الدنيا، وتُسمع في ورشات العمل والمستودعات والمناجم والمطابخ الكبرى وغيرها من الأماكن التي تحرك عجلة الحياة اليومية، أخذ الصمت يزداد واللون

يفتح كلما ارتفعنا في السلم الاجتماعي، إلى أن يصبح أبيض فحسب.

وفي هذا الوقت، مع إدراك قسوة بطء الإصلاحات في العالم المحيط، انتشر خبر جريمة القتل الثلاثي على طريق السفر، وطغى في المقام الأول الاتهام المتجني لمشتبه به أبيض، قال دفاعاً عن نفسه: لست أنا، لست أنا! بل إحدى عصابات السود الكثيرة، المسؤولة في منطقة أويتنهاغِه، كما في جنوب أفريقيا كلها، عن جرائم القتل بقصد السرقة والاغتصاب وغيرها من جرائم لا تحصى، هي التي اقترفت هذه الجريمة. السود. على السود ثانية تحمل الوزر الأسوأ.

بجهدٍ كبيرٍ تمكنت من متابعة الجدل المرتفع الصوت بين رجل وامرأة، ترجلا من الباص مع بقيةِ الركابِ ووقفاً إلى جانبي أمام لوحة الإعلانات الجدارية. لكنهما كررا بعض ما قيل، وما كتب في المنطقة كلها حول قضية الرقيب الأبيض. وهما ينتميان إلى ذلك الجزء من سكان البلد الذين كانوا يسمون حسب قوانين التفرقة العنصرية البائدة ملونين- لا بيض ولا سود- ويتمتعون تجاه الغالبية العظمى السوداء ببعض الامتيازات. وخلال جدلهما أمام اللوحة الجدارية، كانا يستدعيان تارةً مواقف بيضاء تقريباً، وتارةً أخرى مواقف سوداء تقريباً.

معك حق، هذا الخنزير يجب أن تعلق مشنقته، قالت المرأة التي كانت تلبس سارياً أصفر كالزعفران. فإنسان ينتمي إلى حماة القانون ويقتل طفليه وأمهم، لا يستحق أن تشرق عليه

شمس اليوم التالي بعد فعلته. ويجب أن تعلق جيفته على شجرة أو على رافعة بناء عالية حتى تنقر الطيور جميع أصابع يديه القاتلتين، ثم تنثر عظامه على حجارة وأشواك كارو الشاسعة.

وزوجها أو صديقها أو أخوها أو جارها في مقعد السفر صدفة، هز برأسه موافقاً على لعناتها، لكنه حاول من ثم أن يتصور موقف الرقيب الأبيض باعتباره بريئاً- فبالإمكان ومن المحتمل أن يكون بريئاً. يا له من مصير مريع أن تعود إلى موقف سيارات حاملاً صفيحة بنزين مليئة، لكي تتابع أخيراً نزهة يوم الأحد، فتجد عائلتك هناك غارقة في دماغها. أهناك ما هو أشنع من أن تودع أطفالك وزوجتك بهذه الطريقة. وأن تحتمل فوق ذلك تهمة قتلهم؟ وبدلاً من أن يقف الناس إلى جانبك ويواسوك، تجدهم يقابلونك بالاشمئزاز والكره، فتبقى وحدك تماماً معزولاً في حياة أظلمت في وجهك. ولو كان في مكان هذا الرقيب، قال الرجل ليس فقط للمرأة ذات الساري، بل لي أنا أيضاً، سواء أكان مذنباً أم بريئاً، لتمنى لنفسه الموت في كل الأحوال، سواء تكفيراً عن فعلته أو كخلاص من عبء التهمة بأنه قاتل أحبائه.

نسيت بأية طريقة أعطى سائق الباص الإشارة لمتابعة الرحلة، لكنني أذكر أن العجلة قد دبت فجأة بين الركاب للعودة إلى أماكنهم في الباص، من كشك الاستراحة ومن نبع ماء قابل للشرب الذي كانوا مصطفين بالدور أمامه، أو من المراحيض التي ما زالت تحمل آثار لافتات أزيلت وقد كان

مكتوباً عليها للبيض فقط، وحتى الرجل والمرأة اللذان ما زالا يتجادلان، التفتا وتحركا للركوب.

إلا أن الرجل الذي ظننته لتوي مدافعاً عن المشتبه في ارتكابه جريمة القتل في أرينتهاغِه، بدا فجأة غاضباً جداً، من كلامه بالذات، وبصورة غريبة، وكأن مجرد تصور ما وقع في موقف سيارات مثل هذا هنا يكفي لإثارة الغضب ضد عالم كان يُفترض أن يصلُح أخيراً من كافة النواحي، لكنه تركَ مثل هذه الجريمة تحدث. وربما كان الغضب المفاجئ والعاجز ناتجاًعن عدم إمكانية إدانة مذنب، لا شك في ذنبه، وربما تكشف له بصورة غير متوقعة أن حتى الكلب النائم في ظل اللوحة الجدارية تجسيد لنوع من الوحشية الغافية.

وبينما كانت المرأة ذات الساري تمشي في أزيز قيظ موقف السيارات عائدة إلى الحافلة، رجع الرجل الذي يرافقها فجأة إلى الوراء، وصار ببضع خطوات عند الكلب النائم، ورفسه بغضب هائل على قائمتيه الخلفيتين الممدوتين، بحيث قفز الكلب عالياً وهو يعوي، إلا أنه كمن اعتاد على الرفسات وسوء المعاملة مشى بعرج حتى نهاية اللوحة الجدارية، حتى نهاية الحروف الكبيرة الحمراء: Hang EM. وبما أن معذبه لم يلحق به، فإن الكلب المصاب بالجرب والمنهك حتى الموت، ترك جسمه يسقط مجدداً في الغبار.

●●●

القاز الصينية

رأيت حقولاً وضّاءة بين سُعف أشجار نخيلٍ لبستانٍ شاسعٍ في العاصمةِ التشيلية سانتياغو، كانت تلك هي المجاري الجليدية المتوهجة لجبال الآندِن عند الغروب، والمنحدرة من ذرى مرمى النظر من المدينة، ويصل ارتفاعها حتى ستة آلاف متر فوق سطح البحر. وعلى خلفية هذا اللمعان الفضي البعيد، بدت الخضرة شبه الاستوائية للبستان أشد دكنة: بين الپاپايا، وبرتقال الحليب، وأشجار أجراس أيار، والغار، والشجيرات الطاووسية، والسرخس. تجري التحضيرات هنا، على ما يبدو، لحفلة كبيرة، على مرجٍ مقصوص العشب كما بموس حلاقة، فبدا مثل سجادة، توزعت فوقها طاولات بيضاء، مُدت عليها أدوات طعام من البورسلان الأبيض بين باقات ورود وزهور بيضاء من الكالّه والخطمي والزنبق والخزامى، بشكل دائرة مفتوحة فوق خضرة المرج.

وكأن هذا التنوع الأبيض كان بقصد إبراز بهاء ألوان المركز، حيث انتصبت على منصة بيضاء، ڤاز صينية هائلة بارتفاع ثلاثة أمتار، مزينة بأسرابِ طيورٍ وأكاليل زهور من عصر مينْغ. وبدا أن أسراب الطيور تحلق في خط محدّد، لولبي

الشكل يرتفع من قاعدة القاز حتى حافتها العليا، مجدولاً من زهور بكافة الألوان ومن مختلف الفصول. أم هل كانت الطيور في تحليقها هي التي تنثر الورود متابعةً مسار ألوان الفصول؟ يبدو أن القاز تمثل العالم: عند القاعدة تتلاطم أمواج بحرية داكنة الزرقة، وعند الحافة العليا رُسم تاجٌ من غيوم تغطي قمم جبال، وفي الشريطِ الأسود الذهبي الذي يحيط بالحافة فوق ذرى الجبال كانت هناك نجوم تتلألأ.

يحتمل ألا تكون مناسَبة الحفلة عرساً أو عماداً أو عيد ميلاد، بل هذه الآنية الهائلة فحسب... ربما أراد جامع تحفٍ متحمسٍ أن يعرض أمام أصدقائه الغنيمة التي فاز بها من مزادٍ أو معرضٍ أو ورشة لصناعة الخزف الصيني يدوياً. ويحتمل أن يكون هذا الشيء الهائل قطعة إرث، ستُقدم في اجتماع احتفالي للأبناء والأحفاد. وأخيراً أقنعتُ نفسي بأن هذا أو ذاك هو سبب هذه المأدبة البيضاء في بستان بدأ يدهمه غسق المساء، فيما بقيت مجاري الآندن الجليدية وضّاءة في نور شمس الخريف غير المرئية.

أثناء بحثي عن عبّارة مباشرة بين حارتين متوازيتين من الدور، تهت إلى هذا البستان. تبعت في البداية سوراً، حافته مغطاة بشظايا زجاجية، وتجاوزتُ حارة مسدودة، ووجدت نفسي في معبر مغطى، فظننت أني على الطريق الصحيح. لكنني وجدت نفسي مجدداً في فسحة ذات كراجات مزوّدة بأجهزة إنذار، وأخيراً بين أبراجٍ سكنية شاهقة إلى درجة أن لاصقت نُقرتي رقبتي لكي أرى السطوح المشجرة للمباني. وفي نهاية

المطاف وصلت إلى بوابة حديقة مفتوحة ورأيت أسلاكاً شائكة مسمّرة على مصراعي البوابة. كانت الحديقة واسعة، تقارب حجم بستان، لكنها غير مذكورة على خريطة المدينة التي أحملها. وقلت لنفسي، أني إذا عبرت البستان فسأجد طريقاً إلى الخلاء، وسأعتذر عن تطفلي بجهلي المكان وسأقدم خريطتي كجواز مرور، وأسأل عن الطريق.

ولكن لم يكن هناك أحد في الحديقة. بين الطاولات المعدة لاستقبال سبعين وحتى ثمانين شخصاً، لم أر أحداً من المضيفين ولا من الضيوف. كما لم أر أحداً من الذين حملوا هذه الطاولات إلى هذه الغابة العذراء وأعدّوها، لا أثر لطباخين ولا لنذُل عند البوفيه المغطاة بشراشف بيضاء.

سكون رهيب في هذا المكان. الوقت قبيل المغيب بقليل، وقت تغريد الطيور. ولكن السكون هنا مهيمن وكأن الطيور، ليست في هذا البستان فقط، بل في كل المدينة، التي لا يصل صخب محركاتها إلا برتابة إلى هذه الخضرة العميقة، قد حولها رسامٌ إلى تزيينات على هذه القاز الهائلة.

لكن صورة هذه الحديقة الممتلئة في ضوء الغروب، والجاهزة لاستقبال حفل، فقدَت فجأة توازنها وكل تناغمها، لا بل أخذت تميل، عندما رأيت أن قاعدة القاز خارجة عن منصتها بعرض ثلاثة أكفٍ نحو الفراغ، بحيث يمكن للآنية أن تهوي في أية لحظة وتتحطم، وإذا كانت رافعةٌ قد حملت هذا الجسم الثقيل وأنزلته على المنصة، فقد فات سائق الرافعة- رأيت آثار عجلات سيارة على المرج- الانتباه إلى أن أكثر من

النصف بقليل فقط من قاعدة القاز قد رسا على منصتها.

يا لغرابة أن تكون وحيداً مع آنية هائلة يحتمل في كل لحظة أن تسقط وتتحطم. ولم أرغب في الاقتراب من هذا التوازن المهدّد بالاختلال. فإنْ سقط هذا الشيء، فالذنب في ذلك سيقع على الأقرب إليه لحظة سقوطه، أي أنا الدخيل، الغريب. ثم إن أية محاولة لإعادة القاز إلى وضعية آمنة ثابتة، تتطلب جهود عدة رجال بالإضافة حتماً إلى مساعدة تقنية، إن لم يكن إلى رافعة.

غمرني شعور، بدا معه وكأن البستان كله، وحتى الأسوار والأبراج السكنية من حولها، أخذت تميل تدريجياً في ذلك الاتجاه، الذي إنْ سقطت الآنية، وهي ساقطة لا محالة، فستتحطم فيه. كما بدأتُ أفقد توازني الخاص وأتمايل وأسقط لأتدحرج عائداً إلى ذلك المستوى المائل الذي جئت منه، خارجاً عبر البوابة ذات الأسلاك الشائكة، عبر الفسحات الخلفية وعلى طول سور مسلح بشظايا الزجاج. مائل!، كل شيء يميل، كل شيء كان مائلاً. إنّ أخفَّ هدير صادر من أحد براكين هذا البلد المتعددة، وإنْ لم يكن محسوساً مدركاً، بل أي رجة زلزالية لمجاري الجليد تجدُ صداها بين أشجار النخيل، يمكنها أن تُسقط القاز، بل لا بد أن تسقطها.

لكن الآنية بقيت ثابتة، عندما اندفعت هبة ريح عبر الأشجار، ومع حفيف الأوراق دوّت صفارةٌ فجأة ودخل البستانَ في رتلين طاقمُ خدمة الحفل بقمصان بيضاء وفراشات سوداء، وبلوزات بيضاء على تنانير سوداء: أربع عشرة رجلاً

وامرأة، ظننتهم من السكان الأصليين Indios، يرأسهم رجلٍ نحيل كمغزل في بدلة سموكينغ، يطوّح بذراعيه هنا وهناك مثل مدير مراسم، مرافقاً ذلك بإشارات من صفارته. كان أفراد الطاقم يحملون فوانيس ورقية وشمعدانات فضية بشموع بيضاء أُشعلت على الطاولات. لم يأبه لي أحد منهم. فبقميصي الأسود وجينزي الأسود أيضاً يحتمل أن أكون ضيفاً مبكراً. ولا شك في أن ضيوف السهرة باتوا على مقربة. ثم وقع نظر الرجل النحيل كمغزل، وهو يعدل وضعية شمعدان فضي، على القاز المهددة بالسقوط، فتحرك في التو واللحظة باتجاه قاعدتها، ولكن من دون عجلة، ومن دون أن يطلب مساعدة مرؤوسيه. اقترب من القاز، وكأن رجلاً نحيلاً كمغزل قادر على تحريك ثقل وزنها الذي يقارب الطن، وفرد ذراعيه ودفعها من دون جهد، بل بكل بساطة، إلى مركز قاعدتها. بخفّ ريشة! كان القاز بخفّ ريشة! مصنوعاً من لدائن كرتونية أو من بلاستيك خفيف، رغم أنه بدا من قرب وكأنه من الخزف الصيني المرسوم والمشوي.

وبين يدي مدير المراسم انزلقت فجأة، لا القاز وحدها، بل أيضاً سجادة المرج والشجيرات والطاولات والأشجار من درجة الميلان التي كانت عليها إلى توازنٍ آمن، وعلى نحو فجائي مشابهٍ، فقدت أيضاً وزنها، مثلها مثل القاز: فإذا كانت هذه الآنية الهائلة بخفٍّ ريشةٍ، فيمكن عندها لشجر النخيل والسرخس والأبراج السكنية، وحتى لسلاسل الجبال المتجلدة، أن تصبح ذات أوزان خفيفة. وأشجار نخيل

واشنطونيا السامقة كأبراج أخذت تتمايل مثل حشائش في مهب الريح والأسوار المغطاة بالطحالب والمسلحة بشظايا الزجاج صارت ترفرف مثل أوراق الزينة، كما أخذت الطاولات العامرة بأدوات الطعام الفضية والصحون الخزفية البيضاء ترتفع عن الأرض في ضوء الشموع بخفة أوراق الشجر المتساقطة. وحتى المجاري الجليدية التي انطفأ لمعانها الآن باتت تتراقص مثل ندف الرماد البركاني أو كورق الحرير في السكون الذي لم يخترقه حتى صوت طائر واحد، متهاوية مع أخف النسمات هنا وهناك، إلى لحظة أن تعرّفني مدير المراسم وسيد الخفّة كلها، كغريب دخيل- سيد الخفة النحيل كمغزل، ولكن من يدري. ألا يجوز أن يمتلك قوى عملاق- فتوجه نحوي من دون أن يطلق صفرة جديدة.

●●●

خطاطون

رأيت جزراً حجرية منبسطة في مياه بحيرة كومينغ الملساء كمرآة، في شمال غربي بكين. كانت الجزر أشبه بصوانٍ طافية قرب الشاطئ، بكثافة متقاربة، بحيث يمكن للسائر أن يصل إليها دون عناء. وعلى أكبرها جلس رجل تحت أشعة شمس الربيع، وإلى جانبه حقيبة كتانية بيضاء وعصا من الخيزران وقد ثبّت على رأسها قطعة إسفنج بحري على شكل درنة. كما أمسك بيده كتاباً وقد مد ذراعه أمامه على طريقة بعيدي النظر. عندما كان يخفض يده بالكتاب ويمد بصره فوق سطح الماء إلى الشاطئ البعيد، كان يرى أبراج وأجنحة قصر الصيف لقيصر الصين، فيما يقلِّب النسيم العليل صفحات كتابه. وإذا خفض نظره ثانية، كان الأمر كأنما تلبيةً لاقتراح النسيم بمتابعة القراءة حيثما توقف تقليب الصفحات للتو.

عندما وضع كتابه جانباً وأخرج من الحقيبة الكتانية مرطبان مخللٍ أو مرملادٍ مملوءاً بالشاي إضافة إلى فنجان، اقترب منه رجلان كانا قد حيّاه من بُعد. وهذان أيضاً حملا معهما عصياً من الخيزران ومرطبانين مملوءين بالشاي. لكنهما لم يحملا كتباً، بل مجموعتين من الأوراق فقط، أخرجاها من جيبي صدر

سترتيهما. احتل الرجلان جزيرتين مجاورتين، شربا شاياً وفردا أوراقهما وأخذا يتبادلان الحديث عبر الطرقات المائية الضيقة لمجموعة الجزر المصغرة، إلى أن جاءهما فجأة هاتف سري دعا جميع المسترخين على البحيرة إلى فعالية جادة، فأغلقوا مرطبانات الشاي ونهضوا. ثم غطسوا عصيهم الخيزرانية في الماء وأخذوا يكتبون على جزرهم بالماء الذي امتصته قطع الإسفنج. وعلى أرضية الجزر الملساء في ضوء الشمس تبدت حروف كتابتهم المتقنة كتخطيط بالحبر الصيني بالريشة.

وما نقله هؤلاء الخطاطون من أوراقهم أو من الكتاب على الحجر، كان على ما يبدو مألوفاً جداً بالنسبة إليهم، إلى حد أنهم لم يحتاجوا إلا إلى نظراتٍ خاطفةٍ على نماذجهم بين الحين والآخر. ويا للأناقةِ والثقة التي كانوا يرسمون بها علاماتهم المائية، ومع ذلك سرعان ما كانت الكتابة تبهت في الشمس وتتبخر. أحياناً عندما يصل خطاطٌ إلى نهاية سلسلة علامات، تكون البداية قد جفت وتطايرت مُخلية سطح الجزيرة للعلامات التالية. وأحياناً كان أحد الخطاطين يتوقف كي يلقي نظرة فاحصة على شغل جاره وليقيمه ببضع كلمات، أو ببساطة ليتابع تمثيلية اختفاء كتابته وكتابة غيره.

وعندما حجبت الغيومُ الشمسُ لمدة خمس عشرة وحتى عشرين دقيقة تباطأت عملية التبخر والاختفاء جداً، ما دفع الخطاطين بحثاً عن مسافات فارغة للقفز من جزيرة إلى أخرى، إلى أن تباعدوا أخيراً عن بعضهم. كان صاحبا الأوراق هما اللذان غادرا مودعين باتجاه الشاطئ. إلى ذلك

الجناح الرخامي التابع لأرملة القيصر تْسِه هْسي التي حكمت الصين قرابة خمسين سنة والتي أمرت بإنشائه في البحيرة على شكل باخرة مزودة بعجلات تجذيف، لتري شعبها أن الباخرة القيصرية لا تغرق حتى وإن كانت من حجر.

أما الرجل الذي بقي على الجزر، فقد وضع عصاه جانباً بعد مغادرة زميليه، وأخذ الكتاب بيده، وتابع القراءة إلى أن حررت السحبُ الشمسَ من إسرِها وأخذت العلامات تختفي واحدة تلو الأخرى. خفت أن أكون قد فوَّتُّ على نفسي الفرصة، فاقتربت منه عندما عاود عمله، ورجوته بإشارات السائح الساذجة والمفهومة في الوقت نفسه السماح لي بتصويره بكاميرتي أثناء تخطيطه العلامات السريعة الغناء. فأجابني بالإنجليزية وعرض علي مشاركته بشرب الشاي والجلوس على جزيرة مجاورة له. وأثناء سؤاله عن بلدي وهدف زيارتي تبخر ما كتبه. أجبته وصوّرته أثناء كتابته وسألته بدوري.

كان تقنياً في محطة مائية للطاقة الكهربائية في أعالي يانغ تسي كيانغ وقد عاد بعد تقاعده من مقاطعة هوباي إلى ابنته في بكين. وكان يكتب عندما يسمح له الطقس بذلك، يومياً في الهواء الطلق، لا بالماء على الحجارة الملساء فقط، بل أيضاً بفرشاة جافة وبالغبار أيضاً. غالباً بالغبار على أغطية محركات السيارات المتوقفة. وهكذا يمكن لصف طويل من السيارات المتوقفة أو لمرآب أن يتحول، حتى يهطل المطر ثانية، إلى كتاب أو إلى مكتبة.

سألني عما إذا كنت قد سمعت بالغسيل السماوي، وقال:

في الأسابيع الشديدة الغبار، تُقصف السحب المتجمعة فوق المدينة بمدافع سلاح المدفعية وقاذفات الصواريخ بمادة يود الفضة لتوليد تفاعل يؤدي إلى هطل مطر يغسل الغبار. في حال نجاح هجوم مُحاربي السحُب التابعين إلى مديرية التحكم بالطقس تهطل أحياناً سيول من السماء، بحيث تغرق شوارع بكاملها. وعندها لا يكتب الخطاط بالفرشاة أو بالإسفنجة بل يخط علاماته بعصاة في الوحل.

لقد فكر طوال سنوات بمشروع أن يتجول عبر البلد كلها ليخط على شواطئ كبريات بحيرات وأنهار الصين شيئاً فشيئاً، قصائد المجموعة الشعرية الشهيرة من عهد مملكة تانغ، والتي تضم ثلاثمئة قصيدة، يعتبرها كثير من الخطاطين مصدراً لا ينضب لفنهم- شعر من القرون السابع والثامن والتاسع. إلا أن زوجته توفيت، وباتت الصين كبيرة جداً قياساً بإمكاناته وقواه. فاستعاض الآن عن ذلك المشروع، بالشواطئ الشاسعة لبحيرة كونمينغ وشواطئ هوانغ هي والميكونغ ويانغ تسي كيانغ وقينغ هاي وپويانغ أو بحيرة نام كو.

قال الخطاط إنه لم يعدّ المرات المتكررة التي زيّن فيها هذا الشاطئ بأعمال مشاهير شعراء عصر تانغ، بكلمات لي باي، ودو فو، ومِنغ هاوران، وباي جويي. ولكن من القصائد التي كان يكرر تخطيطها على هذه الحجارة، هناك هذه، لمنغ هاوران، من القرن الثامن. وبصوت عالٍ قرأ الخطاط الآن مع إيقاع عصاه الخيزرانية ما خطه على الحجر:

كان البيتُ الأول قد امّحى، عندما تمكنتُ بمساعدته، التي بيّنت لي غنى معاني كل علامة من العلامات، من التوصل أخيراً إلى شبه ترجمة بصياغتي للقصيدة المتبخرة، ودونتها في دفتر ملاحظاتي:

نائماً فاتني الفجر ذات صباح في الربيع
رغم امتلاء الهواء بتغريد الطيور
وسكوت أصوات الليل فحسب
صوت المطر والريح
من يدري، كم زهرة سقطت.

قد يكون السبب هو أن أي كلمة فوق هذه الرسالة من عصر تانغ تعد فائضة، وقد يكون السبب هو أني قد بدأت بنفسي أكتب وأشخبط، بحيث بات حوارنا أحادياً، إلى أن سكت وربما لأن الخطاط أراد متابعة الكتابة فحسب، وأنا متابعة المسير فحسب، على طول الشاطئ لأتمكن أخيراً من مشاهدة السفينة الحجرية لامرأة كانت الأقوى في تاريخ الصين.

وهكذا ودّعنا واحدنا الآخر بود، ولكن من دون تبادل العناوين، ومن دون وعد بلقاء جديد عندما التفتُ إليه بعد أن قطعت بعض المسافة، رأيته وقد غرق كلياً في كتابته. غمس

عصاه في الماء، ضغط الاسفنجة الممتلئة على حافة الحجر، فبدا للحظات مثل نوتي على طوفٍ حجري محملٍ بعلامات الكتابة.

●●●

حجّاج

رأيت قرون البازلاء السيفية، والزهور المتسلقة الزرقاء التي تغطي أساسات البيت المخرب في خليج وِليغاما، وهي مدينة صغيرة تظللها بيارات أشجار جوز الهند، في أقصى جنوبي سري لانكا.

سميرا، سائق الريكْشا(1) التي استأجرتها لتنقلني من سوق السمك إلى حاجز الموج في ميريسا حيث ينتظرني قارب، أراد أثناء الطريق أن يريني ما تبقى من بيته ودار والديه بعد التسونامي المدمر عام 2004. كنت قد رجوته ذلك عند لقائي به في كشك للوجبات الساخنة وتبادلنا الحديث. حتى الآن، بعد مضي سبع سنوات على ذلك الطوفان، قال سميرا، ما زالت تعذبه الذكريات لمرأى هذه الأنقاض المغطاة بالنباتات الطفيلية، ولا تفارقه لساعات وليال مؤرقة:

آنذاك قتلت الموجة العظيمة أكثر من ألف إنسان من منتظري الحافلات في محطة غالّه القريبة من الشاطئ، وأكثر من أربعين ألفاً على جميع شواطئ البلد. كان من بين الموتى إحدى أخواته وحماته واثنين من أخوته، ممن اختفوا بلا أثر في

(1) ريكْشا: وسيلة نقل صغيرة، بمحرك وثلاث عجلات، تهيمن على شوارع سري لانكا، وتسمى هناك (طقطيقة) Tuk Tuk.

الطوفان مثل كثيرين آخرين. لقد رأى أخاه الأكبر ساميات من مسافة بعيدة وهو لا يزال يسبح بين أشجار جوز هند مقتلعة من جذورها وبراميل وحطام أخشاب. ولكن يبدو أن ساميات بعدئذٍ قد غرق، أو استمر يكافح ضد التيار الجارف باحثاً عما يتمسك به، ثم حمله التيار العائد إلى المحيط معه وسحبه نحو القاع.

لقد نشأ سميرا، مثل إخوته، على الشاطئ، لكنه كان دائم الخشية من المحيط. وكونه الوحيد الذي لم يصبح صياد سمك من بين أخوته الخمسة، فالفضل في ذلك يعود إلى إصابته الدائمة بدوار البحر،ما جعله لا يصلح للشغل في زوارق الصيد الضيقة. حتى أن تموج سطح البحر مع سكون الريح يجعله يتقيأ حتى الاختناق.

هنا، هذه كانت غرفة النوم، وهنا المطبخ، وهنا غرفة الطعام، حيث كان يوجد أيضاً تمثالٌ لبوذا محاط بإكليلٍ من الأضواء الغمّازة، والذي كان يصلي له كل صباح قبل خروجه للعمل على الريكشا.

لا، هذه الطقطيقة المزدانة بزهور بلاستيكية ولمباتٍ ملونةٍ صغيرة، وتسمح له بإعالة أولاده الثلاثة وزوجته ووالديه، ليست ملكه. كثير من السائقين باتوا مضطرين لاستئجار الريكشات من تجار، لأنهم منذ الطوفان ما عادوا يملكون المال، ولا ما يضمن قرضاً لتعويض عرباتهم التي حطمها أو جرفها الطوفان بعربات جديدة.

ولم يعد بوسع سميرا بناء دار جديدة، كتلك التي أخذت

أساساتها تختفي تحت هذه الخضرة الوضاءة، بل سيبقى لسنواتٍ طويلةٍ أسير البرَّاكة المغطاة بألواح التوتياء والتي لا نوافذ لها ولا ماء جارياً فيها، حيث يسكن مستأجراً على طرف طريق السفر إلى ماتارا منذ عام الطوفان. لا بد من الانتظار أولاً حتى يكبر الأولاد ويتعلموا مهناً أكثر دخلاً من صياد سمك، قبل مجرد التفكير بدار جديدة أو امتلاك ريكشا خاصة. لقد عرضت عليه إحدى أخوات زوجته بيتاً خالياً على ضفة النهر، وهو بيت جميل قريب من مصب النهر. غير أن مجرد التفكير باحتمال أن يغرق أحد أبنائه وهو يلعب على الضفاف الموحلة، مجرد تصور غرق أحد أحبائه، منعه من الانتقال للسكن فيه.

كانت ديموتو، زوجة سميرا، حاملاً بابنها الأول عندما اندفعت حينذاك موجة عالية كنذير مبكر، لم يفهم أحد مغزاه، فغمرت الشاطئ والحديقة وأرض البيت حتى الركبة. ثم تراجع الماء واستمر يتراجع، كما لا يشبه أي عملية جزر سابقة... من جميع سكان الشواطئ بين غالّه وماتارا لم يتذكر أحد حالة انسحاب وجفاف للمحيط كهذه، بات معها قعر المحيط فجأة مكشوفاً للسماء! والسمك الكبير الذي خلّفه الماء المتراجع وراءه وكان يلعبط ويخبط بزعانفه في الطين وفي الرمل، وأخذ الناس يجمعونه. كما بدأ الأطفال يلعبون بالكرة ويدفعون العجلات أمامهم على هذه الأرض البراقة والفضة التي لم يسبق أن رأتها عين بشر، عندما رأى سميرا في الأفق شيئاً داكناً يظهر، ويرتفع من البحر كشاطئ جديد، لا،

بل شيئاً يشبه كتلة هائلة من الغيوم... كان ذلك هو الموجة الثانية، أو الجدار المائي الشاهق الذي دمر كل شيء، مندفعاً بسرعة ستمئة كم/ سا باتجاه اليابسة. بالنسبة للأطفال اللاهين بعيداً، ولجامعي السمك فات أوان أية صيحة تحذير، لكن سميرا صاح بزوجته وجيرانه ولأولئك البعيدين عنه **اركضي، اركضوا!** وبأعلى صوته حتى آلمه صدره.

كانت ديموتو منهمكة بنشر الغسيل، ولم تحاول بادئ الأمر أن تهرب على الإطلاق، بل تسلقت الشجرة اللولبية العظيمة، وراء مستودع الكراكيب ورأت لحظة مداهمة الجدار المائي الشاطئ عبر بيارات جوز الهند. وفي أعلى الشجرة، في أعلى نقطة أمكنها وصولها مع الطفل الذي في بطنها، ربطت نفسها إلى الشجرة بقطعة قماش، بينما انجرف سميرا إلى سطح بناء قيد الإنشاء، حيث تمسك بقطعة من حديد تسليح الباطون، فمزقت قطعة الحديد أربطة أصابع الإبهام والسبابة والوسطى. لكن هذا البناء وشجرة ديموتو اللولبية صمدا في وجه ضغط الماء.

اثنان من أخوة سميرا كانا مشغولين بتفريغ زورقهما المقاوم للانقلاب، وظهراهما للبحر على ما يبدو عندما وصل الجدار المائي إليهما. لو أنهما بقيا في عرض البحر، في مناطق صيدهما، نائيين في قاربهما المطلي بخطوط سوداء وصفراء كالنمر، لكانت الموجة سترفعهما عالياً، سترفعهما فحسب، ولتركتهما للحظة معلقين في الهواء، ليهبطا من ثم من دون أذى إلى البحر الأملس وراءها.

كانت ديموتو لا تزال مربوطة إلى الشجرة اللولبية، خرساء ومتجمدة من الهلع، عندما شق سميرا طريقه زحفاً وتسلقاً، بيده النازفة التي لا يستطيع أن يمسك بها شيئاً، إلى تلك البقعة التي كان يوجد فيها بيته.

أكان ذلك في اليوم التالي؟ نعم، في اليوم التالي، عندما بدأ الناس البحث عن موتاهم ومفقودين بين الأنقاض والمجروفات والأوحال، وعن أولئك الذين كُتبت لهم حياة جديدة حزينة. عندها قرر سميرا وزوجته ديموتو الذهاب إلى سري پادا، إلى الجبل الأكثر قداسة في البلد. أناس من أربعة أديان مختلفة تسلقوا هذا الجبل ليعبروا عن شكرهم أو يأسهم لأربابهم، وليصلّوا لهم أيضاً في حال حدوث ما يقلب حيواتهم من أسسها، باحثين عما يعتصمون به، عن نصيحة، عن سكينة، وربما عن عزاء.

وهكذا انطلقا من الفوضى على الطريق، إلى الجبل في مقاطعة راتناپورا، حيث ينهض سري پادا من بين غاباتها العذراء، كتلة صخرية عارية منتصبة مثل هرم هائل. وعلى ارتفاع 2243 متراً فوق سطح البحر المميت يتوّج ديرٌ الذروة، التي لا بد من تسلقها ليلاً، كي تتزامن نهاية دربٍ منهك عبر الظلمة مع شروق الشمس. على الحاج إلى سري پادا أن يخرج من الظلمة، من ظلمته إلى النور.

البوذيون والهندوس والمسلمون والمسيحيون يقدسون هذا الجبل، ورغم أنهم يروون عنه أساطير مختلفة، متناقضة غالباً، فليس بينهم من يريد الاستئثار بسري پادا لديانته وحدها:

قيل إن بوذا قد خلّف على القمة طبعة قدم ثمينة، وأنه أثناء نزوله قد جمع الندى من الغيوم ليرطب به حياة البشر في فصل الجفاف، وهو ندى لألاءٍ تحول أخيراً إلى ياقوتٍ أزرق وأحمر وحجارة قمرٍ ما زال التنقيب عنها جارياً في مناجم راتناپورا حتى اليوم...

وقيل أيضاً إن الإله شيفا قد رقص على القمة، فداس وهو يرقص ليس على عمى البصيرة والجهل فحسب، بل خلق بذلك الظروف لولادة عالم جديد...

وقيل إن الرسول توماس الذي انتقل إلى الخلود في مدراس الهندية قد ركع عند ذروة سري پادا وشكر ثالوثه الرباني لأن منظر الوادي تحته قد تجلى له على نحو لا يختلف عن جنة عدن...

قطف سميرا بعض الزهور الزرقاء المتسلقة من أساسات ما كان بيته، والتي اسودّت بسبب الرطوبة، فيما هو يحدثني عن رحلة حجه مع ديموتو. وتوقف فجأة لظنه بتجلي إشارة قدرية له وأراد لاحقاً عند الوداع أن يعفيني من أجرة السفرة إلى حاجز أمواج ميريسا، وهي أربعمئة روبية، عندما أخبرته بأنه لم يمضِ ثلاثة أيام بعد على نزولي من سري پادا باتجاه الساحل، وأني هناك، مثله وزوجته، قد وقفت عند طبعة قدم بوذا، ولكن ليس كحاج، بل كواحد من كثيرين تسلقوا الجبل في ليلةٍ عاصفةٍ باتجاه شروق الشمس، وأمضوا ساعات على الأدراج المحفورة في الصخرِ والشديدة الانحدار، مثل سلالم مسنودة إلى جدران. وأني قد جلبت معي من هذا الطريق

حكاية أخرى من الحكايات الكثيرة المرتبطة بهذا الجبل، وهي حكاية لا يعرفها سميرا. فأنا في نهاية المطاف قادمٌ من عالم يسمي سري پادا قمة آدم ولا يورد له في معظم خرائطه سوى هذه التسمية:

قيل إن أول مكان وطأه آدم بعد طرده من الجنة إلى الأرض هو سري پادا. فهو إذاً لم يصعد الجبل من الوادي، بل هبط عليه من المجال الإلهي، من الجنة. وبسبب حزنه على هذا العالم المحكوم بالموت والفناء خرَّ على ركبتيه وأخذ طوال ألف عام يبكي الفردوس المفقود... وجميع الينابيع الشلالات والجداول التي تنحدر ساقطة من سري پادا هي دموع آدم.

على الرغم من الاختلاف الشديد بين مسارح حياتي وحياة سميرا حتى هذه اللحظة، فقد تشاركنا مباشرة وتحديداً بين بقايا داره المهدمة وعلى نحو مفاجئ ذكرياتنا عن جبلٍ تبدى لكلينا منذ اقترابنا منه كتلة سوداء هائلةً مُشرّبة بآثارٍ النور وعروق الضوء، مشيرة إلى النجوم.

ثمة شركة للكهرباء، قال سميرا، تبرعت بكافة سلاسل الإنارة واللمبات التي تضيء جميع الدرجات والسطيحات من الغابة حتى القمة ليلة فليلة كقربان كفارة، لإرضاء خواطر الأرباب والشياطين، وذلك بعد انهيار نفق حفرته الشركة على أرضٍ مقدسةٍ أسفل الجبل فتحول إلى قبرٍ جماعي لأكثر من مئة وأربعين إنساناً...

على الطريق إلى الجبل رأى سميرا، ورأيتُ، أعداداً لا تحصى من المعابد الصغيرة وزوايا الصلاة وتماثيل مختلف الأديان،

وأكواخاً وأكشاكاً، يقدم فيها الشاي الساخن للمنهكين. لكن جميع الأكواخ والأكشاك مع نهاية موسم الحج لا بد أن تُفكك وتُزال، لأن جبل سري پادا يخص البشر مدة نصف السنة فقط، أما النصف الثاني فيخص الأرباب وحدهم.

سألني سميرا عما إذا كنت أعرف المغارة المجاورة للشلال، وهي مغارة ليست أكبر من مساحة أي مطبخ منزلي هنا. يعيش فيها ناسك منذ أربعين سنة.

نعم، لقد رأيت إنسان المغارة، وهو رجل عجوز ضئيل الحجم، طلب مني الجلوس على مقعد منحوت في الصخر يستخدمه للنوم ليلاً، وقدم لي ماء عندما وصلت إليه وأنا أتصبب عرقاً من الصعود. شربتُ وسألته عن حياته في هذه المغارة، وعن دواعي قراره بالعيش تحت صخور سري پادا، وكدتُ لا أحتمل أجوبته: كانت رائحة فم الناسك فاسدة مثل رجل شديد المرض، وكنتُ مهموماً بالسيطرة على قرفي، إلى درجة أني بادئ الأمر لم أفهم شيئاً مما قاله.

ولكن بعدما استند إلى جدار المغارة وأخذ يتحدث عن حب والديه وعن أخته وإخوته بدأ فجأة يبكي. كم وددت أن أحيط الرجل بذراعي وأواسيه، لكني لم أحتمل رائحة أنفاسه الفاسدة.

لا، إنه لا ينقصه شيء هنا في المغارة، ولم يسبق له أن افتقد إلى شيء قط، ورغبته الوحيدة التي لم تتحقق بعد هي أمله بموت هادئ، قال وهو يرفع نظارتيه عن عينيه ويمسح دموعه عن خديه. وأضاف، إنه قد بكى لأنها المرة الأولى منذ

سنوات طويلة، التي يسأله فيها أحد عن عائلته وحياته.

هل بكى؟ سألني سميرا، وأضاف بأن الناسك قد أمضى حياتهُ وهو يصلي عند سري پادا ويتأمل محاولاً الخلاص من أعباء الدنيا، ثم يبكي لسؤال أحدهم عن تاريخه؟

أجبته، إني أحكي عما رأيته بنفسي وعما سمعته بنفسي.

لقد تسلق سميرا جبل سري پادا مرتين. كانت المرة الثانية بعد التسونامي بأربع سنوات ومن دون ديموتو. وقبيل هذه الرحلة إلى الأعالي أيضاً، قتل أحد أخوته: إنه هارشا الذي تخلى عن مهنة صيد السمك وباع زورقه، والتحق جندياً بالجيش في مقاطعة باتيكالوا، حيث مزقه لغم أرضي وضعه الانفصاليون التاميل. علماً بأنه، حسبما كتب لأهله قبل أسبوع، لم يطلق رصاصة واحدة على نمور التاميل الذين حاولوا طوال عقود، عبثاً، تأسيس دولتهم الخاصة بهم على جزيرة السينهاليين هذه، إلى أن أُبرمت معهم مؤخراً اتفاقية سلام.

الغريب في الأمر، قال سميرا، أنه أثناء تسلقه الجبل في المرة الثانية، لم يستطع التفكير بأخيه الذي قتله لغم ولا بأفراد أسرته الذين ابتلعهم الجدار المائي، بل كان يقارن خطوة فخطوة طريقه الأول إلى طبعةِ قَدَم بوذا مع صعوده الثاني هذا:

في المرة الأولى كان عدد الحجّاج على الطريق قليلاً، لأن موعد الحج العظيم يبدأ مع اكتمال البدر في شهر كانون الأول/ ديسمبر. أما في المرة الثانية فكان يشق طريقه بصعوبة في تيار من آلاف المتسلقين نحو القمة. فكان يتوقف معهم حيثما يتوقفون، ويقدم القرابين ويصلي حيثما يقدمون القرابين

ويصلون: في الكهف الصناعي الضبابي حيث يستلقي تمثال بوذا العظيم... وعند صخرة الإله سامان المنارة جيداً، وكذلك عند ذلك المنبسط على المنحدر الحاد، حيث استراح بوذا ورفا ثيابه الممزقة. وهناك أيضاً اشترى سميرا ككثيرين غيره إبرة وخيوطاً من الباعة الجوالين، وأضاف خيطه إلى جبلٍ متشكلٍ من خيوط آلاف الحجاج قبله ليصنع ضفيرة الأقدار.

يا للسكون الذي كان مهيمناً عندما وصل إلى هدفه، قال سميرا، فالدير كان شبه خال، والقمة يلفها الغيم، وشروق الشمس لا أكثر من ضوء شاحب من خلال الضباب. أما الآن، فقد كانت السماء صافية، والغيوم في الأسفل مجرد تلاطم أبيض، والهواء البارد مشحوناً بالأصوات والصلوات والطبول والأبواق والأجراس- إذ يحق لكل واصل أن يقرع الجرس بعدد مرات تسلقه الجبل- ومن ثم... ثم ارتفعت الشمس فوق سلسلة الجبال، وألقت الظل الهائل لسري پادا على الغيوم تحتنا، فبدا مثل عقرب ساعة شمسية ضخمة جداً.

وهذا أيضاً رأيته بنفسي، قلتُ لسميرا.

قد يكمن ما يقدمه هذا الجبل من عزاء، حقاً، في أن كل مَن يتسلقه، سواء في فترة الرياح الموسمية، أو في ليلة صافية مليئةً بالنجوم دونما ريح، بوسعه أن يتشارك في الذكريات والأجزاء والأحاسيس والحماسة مع كثيرين ممن ساروا معه في طريق الحج، ولربما للأسباب نفسها. فكل منهم، بعد أن يهبط من القمة إلى الوادي ثانية، يحتفظ لبقية حياته بشيءٍ احتفظ به آخرون أيضاً، فيحمل بذلك شيئاً من الآخرين عبر أيامه.

عندما غادرنا بقايا دار سميرا وتابعنا طريقنا إلى حاجز الموج في ميريسا، تجاوزنا على جسرٍ معلقٍ النهر الذي يصب في البحر، حيث يوجد على ضفته ذلك البيت الخالي الجاهز لاستقباله، والذي لم ينتقل إليه خوفاً على أبنائه. أثناء رحلة نهرية بالأمس رأيت على هذه الضفة طيور الرفراف وأسرباً من خفاش الفواكه وقطعاناً من القرود، ونسورَ البحر وطيور فلامنغو بين زهور اللوتس والأوركيد، وسحليات ناعسة على رمال ظليلة: ذكريات عن جنة عدن الخالية من البشر.

تحت قوس الجسر انساب الآن نحو ثلاثين زورق صيد، كانت تمضي نهارها محمية على ضفة النهر، متجهة إلى عرض البحر. لوّح سميرا بيده، دون أن يتوقف، لأحد الصيادين وصاح في خضم ضجيج المحركات: أخي! ربما سمعه وربما تعرّف الطقطيقة المزدانة بالزهور البلاستيكية، وهو جالسٌ على غطاء محرك الزورق الذي يحمل رسوم ألسنة لهيب، فرفع نظره إلينا ولوّح أيضاً.

على الرغم من تأخري، بحيث لم أعد متأكداً ما إذا كان القارب في ميسيرا ما زال بانتظاري، رجوت سميرا أن يتوقف عند سور الجسر. ومن هناك رأيت الزوارق، الواحد إثر الآخر، تنطلق من مصب النهر عبر الموج المتدفق، رأيت بعض الزوارق تتحرر من الأمواج المتقدمة فتبدو للحظة طائرة معلقة في الهواء شاقولياً في الرذاذ الهادر، قبل أن تهبط بانسياب على الجانب الآخر من ذرى الموج، رأيت أسطولاً باهر الألوان، جسوراً، منتصراً في طريقه إلى الليل.

عزاء المكروبين

رأيت مجموعة من المصلين أمام البوابة ذات القضبان لكنيسة مستشفى الأمراض النفسية **شتاينهوف** في فيينا. كان المصلون واقفين أو راكعين وأنظارهم موجهة إلى صحن الكنيسة المضاء فقط بمصباحين أسبغا عليه شعاعاً ذهبياً خافتاً. وكانوا يعانقون قضبان البوابة المغلقة وكأن المدى المسائي وراءهم، والغيوم الزاحفة بكسل، بل المدينة كلها، التي تبدو من مرتفع بوابة الكنيسة غارقة في أعماق زرقاء رمادية، كأنها مناطق من عالم محجوز وراء قضبان، فيما دغشة صحن الكنيسة الوانية التي يوجهون إليها صلواتهم وأناشيدهم وأدعيتهم همساً وترتيلاً، هي الحرية، مكان لا متناه ذو وميض نفيس.

مريم، يا ملكة الرحمة،
يا عزاء المكروبين،
تضرعي من أجلنا.

رغم أن كلاً من المصلين الستة أو السبعة كان يقدم محفوظاته، فقد ترابطت أصواتهم في جوقة متداخلة، يصمت

فيها كل منهم حسب قاعدة مختلفة، ليعاود تضراعاتِهِ متى شاء. والملائكة الأربعة العمالقة بأجنحتهم الذهبية المفرودة فوق البوابة الرئيسية، ومرمر الواجهة الأبيض الذي يذكر بالجليد القطبي المتكسر، وقبة الكنيسة المطلية بطبقة من رقائق الذهب، التي تشع تحت شمس الغروب أيقظوا، لربما، في نفوس المصلين إحساساً ببهاء تلك السماء التي يُفترض أن ترتفع إليها توسلاتهم وضراعاتهم عبر مصفاة قضبان البوابة.

ابقي معنا،
فالمساءَ آتٍ
والنهار قد مال.

في طريقي إلى مؤسسة مستشفى شتاينهوف اشتريت من كشكٍ دليلاً، يمتدح هذا الصرح المعماري الملبّس بالذهب، والذي صعدتُ إليه على درجات ملتفة وممرات مغطاة بالحصى، باعتباره أعظم بناء مقدس من طراز الفن الحديث: في السنوات الأولى من القرن العشرين شمخت الكنيسة كتتويجٍ ختاميٍ على أعلى مرتفع في أرض مؤسسة المستشفى مسبغةً تألقها، لا على المجمَّع داخل السور، الذي يشمل وحده ستين بناءً، من أجنحة مرضى وإدارة ومرافق خدمات، بل حتى على أبراج المدينة في العمق الشامخة نحو السماء. ثم إن المئة ألف شجرة (دلب، صنوبر سكوتلندي، طقسوس، كستناء، تنوب) التي زرعت خلال سنوات الإنشاء في أراضي

المؤسسة باتت تظلل الآن حتى أضخم الأجنحة، وتنسجم في هذه الأمسية الخريفية المبكرة مع نوايا المهندس المعمار: فقد بات الجو مليئاً بتغريد الطيور.

أثناء جلوسي على أحد مقاعد الحديقة أمام بوابة الكنيسة، قرأت في دليلي، أن هذا المهندس المعماري، أوتو ڤاغنر، أشهر مهندسي طراز الفن الحديث، على الرغم من بعد نظره بوضع مشروعه وسط غابة من الأشجار الورقية والإبرية، قد حصد غضب البلاط القيصري. فهذا البلاط كان يكره كل خروج عن القواعد المرعية، وكل جديد، وكل ما هو مختلف ومجنون. فأحد أولياء العهد الذي سيموت بعد بضع سنوات برصاصاتِ قاتلٍ في سَراييڤو، وفي كلمته الاحتفالية بمناسبة افتتاح أعظم مستشفى مجانين في العالم آنئذ، لم يذكر اسم المهندس المعماري إطلاقاً، وبعد أن تفقد الكنيسة غادر الحفل غاضباً مستاءً.

أسماء! كم من الأسماء قد نُسي أو كُتم في أجنحة المرضى وسيَّر أمراضهم التي لا تُحصى عدداً، منذ كلمة ولي العهد ذاك ؟! ففي ألفين وسبعمئة سرير، ثم في ثلاثة آلاف، وأخيراً في أربعة آلاف وثمانمئة سرير كان يُفترض بحالاتِ اليأس وكثير غيرها من أمراض النفس أن تتراجع، إن لم تُشفَ، ولكن عقب انفجار جنون الصليب المعقوف، اعتُبر معظم نزلاء الأجنحة لا يستحقون الحياة وسيقوا إلى معسكرات الإعدام حيث قتلوا، إما في غرف الغاز أو بحقن السم أو في سياق تجارب طبية. وكم طال السكوت داخل وخارج أسوار

مؤسسة المستشفى عن وقائع، مثل إجراء طبيب هنا تجارب مؤلمة وقاتلة على مئات الأطفال، وبقائه طوال عقود بعد انتهاء الجنون النازي خبيراً طبياً في المحاكم، وطبيب أطفال يمارس عمله في المدينة الرمادية في الأعماق الرمادية.

مريم، يا مرآة العدل،
وانعكاس العفو،
تضرعي من أجلنا.

عندما سمعتُ وأنا جالسٌ على المقعد عند بوابة الكنيسة ذات القضبان، الصلوات والأدعية، كان السكون قد كُسر، حتى بشأن هذا الطبيب وزمنه- فمن 5500 إحالة سنوياً تقريباً كانت تؤدي إلى نقل بشر من منازلهم ومن حيواتهم إلى أجنحة مستشفى شتاينهوف، نُفِّذ منها قسراً نحو 5000 إحالة، حتى أوائل ثمانينات القرن العشرين. علماً بأن ريحاً منعشة قد هبت على أرض شتاينهوف في ذلك الخريف المعتدل، قادمةً من جهة البحر المتوسط، مع طبيب نفساني اسمه فرانكو بَساليا Franco Basaglia- ولد في ڤينيسيا ويمارس مهنته في تريست- عندما دعا إلى رفع الحدود بين السواء والجنون وطالب حتى بإلغاء المستشفيات المغلقة، الأمر الذي لاقى صدى في كثير من مستشفيات المجانين والتي تشمل عيادات نفسية في أوروبا الغربية.

من الطبيعي في شتاينهوف أن الأبواب، حتى بعد مطالب

واقتراحات تريست، لم تفتح ببساطة بل كانت تفتح في مناسبات خاصة وأيام الآحاد، كما في حال بوابة الكنيسة ذات القضبان التي أجلس أمامها. ولكن كخطوة أولى لتجاوز الحدود القديمة، يُفترض إعادة الروابط بين الناس على طرفي أسوار مؤسسة المستشفى.

وبهذا القصد نصبت خلال إحدى نهايات الأسبوع خيمة سيرك زرقاء على أحد مروج شتاينهوف، ليشترك النزلاء والزوار معاً بشعور الخشية على مروضي الحيوانات ولاعبي البهلوانيات على الحبل العالي، أو يتشاركون في الضحك على مهرج يتعثر بحجارةٍ غير مرئية في حفرةٍ غير مرئية. لكنني في هذه الخيمة الزرقاء رأيت أيضاً أناساً يبكون لسوءِ حظِّ المهرج.

مئات من سكان المدينة، من أعماقها، أتوا لحضور عرض السيرك، وكذلك من نزلاء الأجنحة، وفي اليوم التالي لحضور محاضرة مع شرائح ضوئية عن هاواي في صالة مسرح المؤسسة. وتنهدات وآهات الإعجاب بقمم الأمواج المندفعة، وشواطئ اللافا السوداء المسوّرة بأشجار النخيل الملكي، أو بالسحب المتراكمة مع حمرة المساء فوق بركان بارتفاع أربعة آلاف متر، لم يكن من السهل تحديد مُطلقيها، أكانوا من النزلاء أم من الزوار؟ وحتى عند جلوس مُشاهدٍ بالبيجاما أو بروب الصباح متابعاً المناظر البركانية على الشاشة، لم يكن مؤكداً أنه ينتمي إلى المرضى، فقد ساد بين الجمهور نوع من الارتياح لانتشار حرية أكبر بين أسوار شتاينهوف، على الأقل، فيما يتعلقَ باللباس واللعب بتعابير الوجه والنداءات

والصيحات، مما هو سائد خارجها. ولأن كثيرين هنا لم يعودوا يسيطرون على ما يمور في دواخلهم، فينسجون شرانق حول أنفسهم أو يتحجرون، فقد بات مسموحاً لأولئك الذين يحق لهم أن يأتوا و يغادروا كزوار، أن يتصرفوا هنا بحرية أكبر من أماكن أخرى. فإذا كان أحدهم لا يحتاج إلا لعبور الشارع ليجلس في مسرح المستشفى بين المرضى، فلماذا لا يحق له أن يفعل ذلك بالبيجاما أو بروب الصباح؟

ولكن كم كانت نائية لا تُطال أسماء جزرْ هاواي بوقعها الخاص بين صفوف المسرح المزدحمة بكثافة: مولوكاي، كاواي، أُواهو، ماوي، كاهولاوي، لاناب، نيهاو... كانت مناظر شواطئ منحنية سوداء، وغابات استوائية داكنة الخضرة تتوالى أمام جمهورٍ، تمتدُ أحياناً أيدي بعض أفراده لقطف فواكه وأزهاراً. حلق طائر فاقع الحمرة بريشٍ ذيلٍ طويل عبر صحراء اللاڤا، فاستدعى في ذاكرته رجل أشيب يرتدي سترة مطرية صورةً من جنة عدن، إلى درجة أنه أخذ يصيح مكرراً: آدم وحواء! آدم وحواء! حتى بعدما أخذ المحاضر يقود جمهوره بسهم مضيء عبر شوارع هونولولو.

لم يعد السكون إلى الصالة إلا بعد انتهاء عرض جميع الشرائح الضوئية وإنارة الصالة مجدداً. وبعض مَن أصروا على انتظار صورة أخرى، وانتظروا وانتظروا، راغبين في الانتظار، نُبِّهوا من قبل بعض الزائرين- ولربما من جيران السرير أيضاً- إلى أن رحلة اليوم قد انتهت. ثمة رجل يقوده ممرض إلى خارج الصالة، كان يريد التوقف والركوع لقطف

أشياء غير مرئية: حشائش وزهوراً بحرية، من أرضية الصالة الخشبية. وفي الردهة رجتني امرأة شابة السماح لها بالاستناد على كتفي، لأنها تريد القفز إلى أعلى ما يمكنها. وأمام مرآة طويلة تابعة لقسم تسليم المعاطف قفزت عالياً، وكررت القفز حتى انقطعت أنفاسها وهي تهتف: أنا صبية! أنا صبية! انظروا إلى شعري كيف يطير.

مريم، يا نجمة الصباح،
يا بوابة السماء،
تضرعي من أجلنا.

وأخيراً كان هناك بين العائدين من هاواي بعد انطفاء آخر جزيرة، بعض مَن لا يريدون الرجوع إلى أجنحتهم ولا إلى منازلهم، بل الصعود إلى الكنيسة أو الذهاب إلى المروج الشاسعة وراء القبة الذهبية، إلى الأرض الهضبية التي تبدو متداخلة مع غابة ڤيينا، لأن أسوار المؤسسة هناك تسير متخفية بين الأشجار.

انضممتُ إلى الذاهبين إلى الكنيسة، وكان بعضهم قد بدأ بالإنشاد في الطريق، ثم جلست على مقعد الحديقة وأخذت أقرأ في دليلي، وكتبت في دفتر ملاحظاتي أسماء مريم، مديراً ظهري إلى عمق المدينة، ملتفتاً بوجهي إلى الملائكة فوق البوابة الرئيسية وإلى المصلين، ولهذا فإني لم أنتبه إلى ما حدث في السماء. سمعتُ بادئ الأمر وشيشاً بعيداً، صار من ثم هديراً،

وكأن جحافل جيوش السماء قد لبت الأدعية، ملائكة بأعداد غفيرة أظلمت أجنحتها السماء.

ثم ضاعت جميع الأصوات وجميع الأسماء في هذا الهدير: كانت حقاً أجنحة، خَفْقُ أجنحة آلاف وآلاف غربان القيظ الباحثة هذاالمساء، ككل مساء آخر، عن أشجار نومها في أراضي شتاينهوف. أشجار مهندسٍ معماري مغضوب عليه، لم يزرعها بسبب ظلالها وتغريد طيورها فقط، بل أيضاً بقصد تقديم مثال يتكرر يومياً في تيجان الأشجار، عن مغادرة الطيور الأرض، متى شاءت، والتحليق فوق السطوح والأجنحة والأسوار أو إلى أماكن لا تتزحزح قيد أنملة تحت سماء سيّالة، متى شاءت، ثم الهبوط والتغريد أو النعيق أو السكوت، متى شاءت، ثم التحليق مجدداً، فرادى أو أسراباً، والرفرفة أو السباحة في الهواء إلى أي مكان كان. لكن المهم دائماً هو الانطلاق.

●●●

التينور أو ذو الصوت الصادح

رأيت شارعاً قبيحاً يختفي في زوبعة ثلج
في منطقة قطبية ذات ضغط منخفض: أبنية مسبقة الصنع بفتحات نوافذ سوداء، ومستودع بضائع بجدران باطونية متشققة وبوابة جرارة منبعجة رُسم عليها جماجم وشخصيات من أفلام كرتون، وحفرة بناء مهجورة، امتد فوقها ذراعا رافعتين مغطاتين بالثلج، وبراكات وهياكل أشجار بتولا، وعلى تلة وراءها تمثال بارتفاع اثني عشر طابقاً يمثل جندياً على الجبهة مصبوباً من الباطون... كانت زوابع الثلج الكريستالية لا تني تُغرِق الدور والتلال والتمثال البرجي الذي يُفترض أن يذكر بالمعارك الدموية دفاعاً عن منطقة القطب، والريح تعوي مزوبعة الثلج حتى نافذتي في الطابق الخامس، حيث لم يعد يُرى في جميع الاتجاهات سوى الثلج المندفع كالأمواج.

كنت جالساً في غرفتي المدفأة مركزياً بشدةٍ في الطابق الخامس، من فندق في مورْمانسك، في شبه جزيرة كولا الروسية، أحدق في هذه الفوضى البيضاء. بسبب سوء الأحوال الجوية ألغيت رحلتي بالطائرة إلى موسكو وازداد ضغط الهواء انخفاضاً. نتيجة هذا الإلغاء فاتتني أيضاً الطائرة الذاهبة من موسكو إلى لندن وكورك، وبالتالي سيفوتني

اليوم عرس صديقي في بلتيمور الإيرلندية. لكنني علمت من المكالمة الهاتفية التي كانت تقطعها تشويشات باستمرار، أن الطقس هناك خريفي معتدل والشمس مشرقة والمحيط الأطلسي ساكن، كمرآة تحت الشاطئ الجرفي.

ليتني طرت قبل يومين حسب الخطة في أفضل حالة طقس! لو أنني، لكنتُ... لكنني، اللعنة بعد رحلة بحرية إلى أعالي القطب الشمالي، مددت إقامتي في مورمانسك يوماً، بسبب جولة في الميناء الرئيسي لبحر الشمال الروسي وأسطول كاسحات الجليد. وركبت سفينة صيد سمك بشبكة الترولة وقد أعيد بناؤها لأغراض سياحية، تجاوزنا بها سفناً حربية في خليج كولا، وهو زقاق بحري بطول 60 كم من بحر بارنت، حيث رأيت في هنغارات مهجورة لتصليح السفن وأحواض أكلها الصدأ أعداداً لا تحصى من الطرادات، والفرقاطات، وزوارق الطوربيد، والغواصات من جميع المراتب صدئة وجانحة أو شبه غارقة.

ومن السفن القليلة غير المتروكة لعوامل الزمن في المراسي المهجورة هنا وعند مصدات الموج بل التي يفترض أن تفكك هياكلها، كان يُرى أحياناً برق اللحام الأزرق، وتسمع طرقات المطارق، وحركات أذرع الرافعات على سطح الماء. وحتى إن كان قد مضى وقت طويل مع هذا الخريف على انهيار الامبراطورية السوفييتية، فإن دلالات التفسخ وآثاره ما زالت حاضرة جلية في كل مكان، في الموانئ والمدينة:

نصف سكان المدينة تقريباً، نحو مئتي ألف نسمة هجروها

عقب الانهيار في نهاية القرن العشرين: فقد أغلقت المسافِن والأحواض والمعامل والمتاجر الحكومية وانفرط عقد أجزاء كاملة من أسطول بحر الشمال وأحيلت سفنه على التقاعد. أما من بقي فقد أمل بازدهارٍ جديدٍ عن طريق استغلال منطقة القطب، وحفر آبار نفط وغاز جديدة حتى القطب الشمالي، أو كحد أدنى، بنمو الحركة السياحية في منطقة بحر الجليد التي كانت مناطق عسكرية محظورة.

ولكن، تساءل قائد السفينة المعدلة سياحياً، هل ترك الشيوعيون في عهدهم وعداً إلا وقدموه لسكان مورمانسك، ثم الروس بعد اندثار الاتحاد السوفييتي؟ قديماً كان عُشْر صيد السمك السوفييتي يصب في مورمانسك. والآن؟ لم يعد هناك في روسيا مياه سالمة من الغواصات ذات المفاعلات النووية المفككة والسفن الحربية بزيوتها وموادها الكيميائية الملوثة، وأسوأها هي مناطق الصيد في خليج كولا وشواطئ بحر بارنت. لا، إن الوعد الوحيد الذي سيتحقق نهار اليوم هو انقشاع طبقات الضباب التي تجاوزناها منذ قليل.

ولما انقشع فعلاً ضباب الصباح خلال الساعات الأولى من الجولة البحرية في منطقة الميناء، وإن كان بكسل فهو دخان متصاعد مع انعدام الريح، تبدت هياكل السفن من السديم، كما من حلم قيامي: سفن مستلقية على جوانبها، مدافعها مرفوعة نحو السماء الصافية أو منكسة باتجاه القاع، وغواصات بين الكتل الصخرية أشبه بحيتان منجرفة، ثمة مدمرة لم يظهر منها فوق الماء الذي يلمع الزيت على سطحه،

سوى الجسر وأبراج المدافع. وبعض الفرقاطات التي باتت بُنِّيةً من الصدأ كانت العواصف قد خبطتها ببعضها فتراكمت مثل أكوام هائلة من المجروفات في أحواضٍ مهملةٍ. لم يكن هناك في الماء سوى قليل من السفن التي تتأرجح مثبتتة بالحبال أو المرساة، أما معظمها فكان منقلباً أو جانحاً أو غارقاً.

عند عودتي من مطار مورمانسك الذي أقفل للتو، قال لي موظف الاستقبال في الفندق: يفترض بي أن أكون سعيداً لحصولي في هذا الطقس على غرفة شاغرة ومدفّأة، وإذا رغبت، فيمكنه أن يعطيني الغرفة السابقة نفسها. يفترض أن أكون سعيداً!

بعد دخولي الغرفة التي أخليتها قبل بضع ساعات، وضعت منشفة مبلولة على جهاز التدفئة الشديد السخونة. وعندما توقف هطل الثلج لفترة قصيرة، أخذت أتابع بمنظاري المقرّب أسراب النوارس حول أليوشا، تمثال الجندي البرجي الباطوني، والأبنية المسبقة الصنع المرئية من نافذة الفندق: تحت معظم نوافذ هذه الأبنية المهملة كانت تتأرجح أكياس نايلون مملوءة بمواد غذائية، وعلب وصناديق مؤونة، ربما لعدم توفر البرادات، وربما لضيق المكان، أو للحماية من اللصوص. ففي أماكن التخزين الموزعة على واجهات عريضة من هذه المباني، رأيت أيضاً دراجات هوائية، وكراسٍ، وأكياسَ حفظِ ثياب. وبذلك كانت واجهة الوحدة السكنيةً تشبه معرضاً معلقاً لمواد حياةٍ ينقصها الكثير من آمال عبثية. غير أن كثيراً من السكان، حسبما تشير صفوف النوافذ الخالية، قد اضطروا إلى التخلي

عن هذه الآمال.

عندما وضعت منظاري جانباً عاد الثلج يهطل، وبشدة أقوى، فرأيت كواليس الفقر تتلاشى من أمام عيني المجردتين. عدت إلى الجلوس في مقعد ذي مسند، مصنوع من المطاط الزبدي، وقد ثَقَبَتْهُ آثار السجائر، وأخذتُ أبحث بجهاز التحكم عن بعد عن أخبار طقس تشرح النفس قليلاً. لم أر بادئ الأمر سوى شوارع ومدارج في مهب الثلوج، ومقاطع خاطفة من برامج منوعات ودعايات تجارية وأخبار سياسية مبلبلة، ومرّ بي أثناء ذلك رجل مكتنز ذو أسنان عوجاء يرتدي بدلة مكتب صغيرة على مقاسه نسبياً، واقفاً تحت أضواء باهرة في مسرح مكتظ بالجمهور.

لم أعد أدري، ما الذي دفعني إلى التوقف عند هذا الرجل، بدلاً من متابعة تقليب المحطات. هل هو تعبير وجهه الخجول المتردد، أم ابتسامته الخجول المترددة، أم النظرات المستخفة والتكشيرات المستمرة التي قوبل بها هذا الرجل من طرف الجمهور وهيئة التحكيم المصمودة وراء منبر؟ لا شك في أني قد تورطت في برنامجِ مسابقاتٍ، من النوع الذي كانت تبثه محطات عدة بلدان، بلغاتها، في الوقت نفسه، ويمتد على مدى أسابيع من خلال التصفيات، حتى يفوز أحد المتسابقين أو إحدى المتسابقات بأسلوب الضربة القاضية، إما في الغناء أو في الرقص أو في عرض الأزياء بمشيةٍ غريبةٍ وسحنةٍ جادةٍ مضحكةٍ. باختصار: بعرضه قدرته على أداء ما جعل النجوم المعبودين، نجوماً مشاهير عالمياً. والهدف هو تقليد هؤلاء

النجوم أو الحذو حذوهم أمام هيئة تحكيم لا ترحم، ولتسلية جمهورٍ يصل حتى الملايين يشارك في التصويت هاتفياً.

أوبرا، قال الرجل المكتنز، رداً على سؤال أحد المحكمين، بماذا يريد أن يقنع الجمهور هنا والآن فقال إنه يريد أن يغني أوبرا. ابتسم الجمهور وأعضاء لجنة التحكيم.

ولكن عندما بدأ الرجل المكتنز ذو الأسنان العوجاء بأغنية إفرادية من أوبرا توراندوت لجياكومو پوتشيني: Nessun dorma، لا أحد ينام، وهي أغنية أحد الأمراء في مدينة القيصر المؤرقة، تراجعت جميع علامات الشك والاستعلاء المتبسم من وجوه المستمعين، وحل محلها تعبير اندهاش كامل، ثم تأثر، وأخيراً إعجاب وتحمس. مع نهاية أغنية الأمير أخذ الجمهور ينهض واقفاً ويصفق مع صيحات براڤو، وثمة امرأة في لجنة التحكيم مسحت دموعها عن وجهها خفية، كما لم يستطع زملاؤها إخفاء مشاعرهم إلا بجهد.

بعد ذلك بمدة طويلة، بعد تراجع المنخفض الجوي القطبي ووصولي إلى بلتيمور متاخراً يومين حيث بدأ الطقس يبرد ويمطر خريفياً، عرفت من أصدقاء إيرلنديين، أن ما رأيته في غرفة الفندق في مورمانسك لم يكن بثّاً حيّاً إطلاقاً، بل تسجيل قديم بات أسطوريّاً، يمكن طلبه من الإنترنت في أي وقت:

كان الرجل المكتنز، هاوي أوبرا من مواليد ويلز، درس الفلسفة، وعمل كمنسقِ رفوفٍ في سوبر ماركت ووكيل مبيعات هواتف جوالة. داوم لسنوات طويلة على دروس

غناء خاصة، وعانى أمراضاً وعمليات جراحية وعقابيلها، كان قد فقد كثيراً من أمله عندما تقدم إلى برنامج المسابقات هذا، كآخر فرصة لتحقيق حلمه في أن يِصبح مغني تينور، وفاز في المسابقة.

لم يكن قد مضى عام على فوزه عندما سُمح له بالغناء أمام ملكة إنكلترا، وكسب الملايين، وكان لا بد من أن يدفع ثمن حظه. فبعد الاحتفاء الأولي بالمفاجأة والترحيب المتأثر، وجدت أصواتُ النقد أن الموجةَ الثانية من غنائه أقل براعة وسحراً، وأن أموال الجوائز والأجور التي تقاضاها عالية جداً، وأن أمسياته أقرب إلى الهواية منها إلى الاحتراف. وحقيقة أن الخاسر الآن، بعد فوزه الأول في حياته كلها، قد قوَّم أسنانه العوجاء، واستبدل بدلته الرخيصة والضيقة نسبياً ببدلة سموكينغ على مقاسه تماماً، بدت فجأة تحت الأضواء الكاشفة الجديدة كدلالة مؤسفة على فقدان التواضع.

ولكن في ساعة العاصفة الثلجية، لم يكن هناك أي أثر لحسدٍ أو غيرة. بل لقد تأثرت بعرض الرجل المكتنز، بابتسامته الخجلى وبغنائه، مثل معظم جمهوره غير المرئي والموزع في أنحاء العالم. وفي غرفة فندقي في مورمانسك دعمت أغنيته الإفرادية الأملَ بأن ثمة طريقاً للخروج من اليأس، وأن كل إنسان، حتى الضائع المكتنز ذا الأسنان العوجاء يمكن أن يجده ويمشي فيه. وفيما كان ذلك الأمير يغني الحب والسهاد باتت غرفة فندق جرداء ملاذاً مريحاً، وبات الانتظار المتحرق لنهاية المنخفض الجوي العاصف هدية زمنية، وهطول الثلج

خارج نافذتي يستدعي أجواء عيد الميلاد المسالمة كما في سنوات الطفولة، حين كان كل شيء مأمولاً وبحق.

●●●

رجل بلا شمس

رأيت خمسة رجال ضاحكين جالسين إلى النُضد، في حانة اسمها قارب الرمل، رغم اختفاء قوارب الفحم ومواد البناء من المنطقة منذ مدة طويلة، وذلك في باليديهوب Ballydehob، وهي قرية في دوقية كورك Cork جنوبي إيرلندا. كان الوقت عصرَ يوم أحدٍ رمادي من شهر تموز/ يوليو. وكان الهواء في الحانة التي كان التدخين مسموحاً فيها حينذاك، حليبياً عَكِراً مثل سماء دريزل المشحونة برذاذ مطر ناعم كحبيبات الغبار.

كان أحد الرجال يروي قصةً بين التعليقات والضحكات المعترضة. كان سكيراً أصيلاً ذا وجهٍ أحمر، وإلى جانب كأس البيرة شبه الفارغة كانت أمامه كأس مملوءة ثانية. كان يروي بين التعليق والآخر، مضيفاً في كل مرة تفاصيل تغني الحكاية. وفي الختام أطلق مستمعوه على القصة عنوان الرجل الذي لم ير الشمس تشرق وانفجروا في ضحكة مصهصلة.

في الحانة رُويتْ الحكاية واستُمع إليها وضُحِكَ لها وعُلِّق عليها. كانت حكاية حجّار من قرية صغيرة على الطريق المؤدية إلى ميزِن هيد، حيث يسكن وحده في بيت مع كلب ضخم منفوش الوبر من نوع الشيفر الإيرلندي. كان الحجار

واحداً من مجموعة تزيد على عشرين عاملاً يدوياً إيرلندياً يديرها معلم بناء مهاجر من ألمانيا قبل أكثر من ثلاثين سنة. وقد أقسم الحجار مراراً وتكراراً أمام أصدقائه، وأمام العذراء أيضاً على حد قوله، ألا يشرب قطرة كحول ثانيةً. لكنه عند كل منعطف كان يتعرض إما إلى الضغط أو الغواية ليسير في الاتجاه الخاطئ، فيحنث بِقَسَمِهِ.

رفع الراوي كأسه، قياسَ نصف لتر، أفرغها في جوفه وأتبعها في صحة مستمعيه بجرعةٍ من الكأس الثانية المملوءة، فضحكوا وشاركوه الشرب.

هذا الشرب، بل هذا السُّكر الشديد، الذي يصل به إلى بيته وهو يغني أو يشتم، حيث يُلَحْوِسَهُ كلبه ويشاركه أحياناً في الغناء عواءً، أدى على نحو متكرر إلى إعاقة الحجار عن الوصول في الوقت المناسب إلى موقع البناء هذا أو ذاك. وأخيراً بعد تسريحه من عمله في هذه الشركة أو تلك، لم يبق أمامه من يمنحه فرصة عملٍ، سوى معلم البناء المهاجر من ألمانيا، والذي أشرف حتى الآن على بناء أكثر من مئة منزل بأسلوب العمارة الحجرية الإيرلندية التقليدية، منتشرة على هضاب ومنحدرات الدوقية كلها، أكثر من مئة منزل! وقد شارك الحجار في بناء أكثر من نصفها. وكونه في حالات صحوه يشتغل اثنتي عشرة ساعة، بل أربع عشرة وأطول إن دعت الحاجة، كان أحد الأسباب التي دفعت هذا الألماني، لدهشة البعض في باليديهوب، إلى غض النظر عن أمور كثيرة، ولكن ليس عن كل شيء...

ذات أحدٍ ماطر وبارد من فصل الشتاء، دعا معلم البناء عماله اليدويين إلى كأس بيرة في حانة قارب الرمل، وكان الحجار من بينهم أيضاً. ولكن حتى ساقي البار لم يعرف كم كان كل منهم قد شرب قبل كأس الضيافة، فهنا وفي جميع حانات إيرلندا يُدفع ثمن كل قدح فوراً. ولكن لا شك في أن عدد الكؤوس في ذلك الأحد كان كبيراً.

في وقت متأخر من عصر ذاك الأحد غادر معلم البناء الحانة بعد أن أخذ وعداً من عماله بالحضور غداً صباحاً من دون تأخير إلى موقع العمل في جبل جبريل! فصاحب البناء هناك، وهو طبيب أسنان من دبلن يمضي جميع إجازاته الصيفية هنا في الجنوب، وسيطالب بتعويض إو غرامة إن لم ينته بناء دار حلمه في منتصف أيار/ مايو كحد أقصى.

والتأكيد المتشدد على الحضور في الموعد، كان معلم البناء يقصد به الحجار تحديداً. فهو في هذه المرة لن يبدي أي رحمة وسيسرحه، بل سيضطر إلى تسريحه، حسبما قال. إن التأخر عن الموعد ثانية سيكون المرة الأخيرة، عنده على الأقل، في مجموعته. إذاً إلى اللقاء في السابعة من صباح الغد في موقع البناء، دون أدنى تأخير. أعدك بذلك، قال الحجار. أما الآخرون فهزوا برؤوسهم موافقين فحسب.

كان المطر قد انقطع والغيوم تسرع غرباً مع هبوب الريح، والجزر الجرداء هناك في خليج رورينغ تتمدد سوداء هادرة في الليل، عندما سمع معلم البناء في داره التي تطل نوافذها على الساحل العاصف والسماء الممزقة بالبروق، قرعاً على

بابه الخارجي، انتزعه من جلسته أمام أخبار التلفزيون. كانت الساعة نحو الثامنة مساء والظلام دامس.

كان الحجار واقفاً بالباب، كمن جرفته عاصفة. لا شك في أنه قد انطلق قبل انقطاع المطر من حيث كان، ربما من كوخه، وهو بعيد. كان يرتدي ثياب العمل ويحمل في كيس بلاستيكي، على ما يبدو، زوادة استراحة الغداء، وأخذ يتلعثم معتذراً: الحق كله على المنبه. مع أنه قد ضبطه قبل أن ينام، لكن هذا الشيء اللعين، هذا الشيء الحقير، خذله. وحتى لاكي الكلب، الذي يوقظه كل صباح، قبل المنبه بتوسله الحصول على وجبته من لحم المعلبات، لم يحرك ساكناً. كل شيء، كل شيء تآمر عليه في هذا الصباح تحديداً. يا لهذه الحياة اللعينة المليئة بالفخاخ.

لاكي. الوحش العجوز. قبل بضعة شهور كان معلم البناء قد التقط صورة لهذا الكلب مع سيده الحجّار الذي وجده سكراناً في باليديهوب، فأوصله إلى كوخه، وساعده في خلع حذائه وثيابه المتسخة، وحتى في الوصول إلى سريره. آنذاك استغل الكلب عجز سيده السكران وقفز إلى نصف سرير الزوجية الفارغ وغير المكشوف، فتمدد وتثاءب وأغمض عينيه. ولم يقاوم معلم البناء غواية أن يغطيهما كليهما حتى العنق، ثم أحضر من سيارته آلة التصوير التي يستخدمها لتوثيق التفاصيل الكثيرة في مواقع البناء، والموضوعة جاهزة دائماً في درج القفازات، وصور الاثنين معاً، حتى أن الكلب قد استدار على ظهره عند التقاط الصورة الثانية، فبدا بجمجمته

الكثيفة الشعر على الوسادة إلى جانب سيده وكأنه العشيقة التي تحولت إلى ذئب في ضوء القمر البدر. بقيت هذه الصورة طوال شهور مثبتة بدبوس على اللوح الأسود، في مكتب معلم البناء المملوء بلفافات خطط البناء والملفات ونباتات الزينة، وحيث يدفع المعلم لعماله أجورهم الأسبوعية. وعندما كان الحجار يشق طريقه بين نباتات الصبار وزهور الآلام ليستلم أجره، كان معلم البناء يقول له: لقطة عرس، فمن يدخل السرير مع القنينة، سرعان ما سيشخر إلى جانب الكلب.

وها هو السكير الآن أمامه، وقد استيقظ من غفوته، حيثما كان، دون أن يلاحظ أن اليوم لا يزال الأحد، مساء الأحد. ففي هذا الفصل من السنة لا تختلف عتمة المساء كثيراً عن عتمة الصباح. وكتلك المرة في غرفة نوم الحجار، لم يستطع معلم البناء مقاومة الغواية ثانية، فقال له:

– الساعة الثامنة مضت. أنت متأخر أكثر من ساعة. أنت مطرود.

تنحنح الحجار وأبعد خصلة الشعر عن جبهته كما يفعل دائماً قبل أن يقول شيئاً، لكنه صمت بضع لحظات ثم قال: ألن يتعطف معلم البناء، ويمنحه فرصة أخيرة، إكراماً لعائلته. فهو في نهاية المطاف كان أول من غادر بالأمس قارب الرمل، ودخل سريره باكراً، كما لم يفعل في حياته سابقاً، وكل هذا، كيلا يفوته الموعد ويتأخر.

عائلة؟ قال معلم البناء: هل نسي الحجار أن زوجته ديردي قد هجرته قبل سنوات هرباً من سكره، وأن ابنتيه قد تزوجتا

إلى روسلار ووترفورد هرباً، ولم تعودا حتى بمناسبة عيد الميلاد لزيارة خرابته؟ فأية عائلة؟ عائلته الوحيدة هي التي في الصورة المثبتة على اللوح الأسود: سكير عتيق وكلبه العجوز.

- فرصة، قال الحجار.

الآن كان معلم البناء هو الذي صمت طويلاً وكأنه في حالة نزاع مع نفسه، ثم قال: لقد ذهب الآخرون جميعهم، أرسلتهم إلى سكيبّرين. فقبل أن يُنقَل الغرانيت إلى جبل جبريل لا يمكن لأي منهم أن يفعل شيئاً.

- حتى المساء سأكون قد أنهيت عملي، قال الحجار.

- إنها فرصتك الأخيرة والنهائية، قال معلم البناء.

انتظر الراوي حتى انتهى الضحك على النضد، كي يتابع كلامه.

آخر فرصة! فرصته الأخيرة!

في هذا الصباح المعتم، المساء الدامس، أوصل معلم البناء الحجار إلى موقع البناء في جبل جبريل، فبدأ هذا شغله مع بداية الليل بصقل الغرانيت وقطعه ونقل الحجارة في الظلام. وكم كان مرور الوقت بطيئاً مع بذل هذا الجهد، والظلام لا ينقشع.

ثم لم يعد يحتمل غياب دغشة الصباح، فانحنى فوق حجر كبيرٍ لزاوية شرفةٍ، يفترض أنها ذات إطلالة واسعة على الأطلسي، ورفعه، وكان على درجة من الثقل بحيث فار الدم في رأسه، وعندها سمع غناء الجوقة التالي: **صباح سعيد، صباح سعيد، يا أشعة الشمس، لقد انقضى الليل!** وبصوت

متراخٍ، سرعان ما تحول إلى صيحة انتصار. كان الذين غنوا وصاحوا هم زملاؤه في العمل. لقد التقط معلم البناء بعضهم من قارب الرمل وحانتين أخريين، وانتشل أحدهم حتى من سريره، واقترح عليهم أن يغنوا جماعة على جبل جبريل احتفاءً برجل نشيط في عمله هناك.

إنه الرجل الذي لم ير الشمس تشرق... يا للنحس، قال الراوي كعادته دائماً عند هذه المحطة قبل أن يشارك زملاءه في الضحك: لقد التصق به اللقب الساخر مرة وإلى الأبد.

- ومن يكون هذا الحجار؟ سأل مساعد ساقي البار الجديد من غْلِنغاريف، الذي لم يسمع الحكاية بعد.

- إنه يقف أمامك، أجابه الراوي.

- ومعلم البناء؟ سأل مساعد ساقي البار.

- إنه يقف إلى جانبي، قال الراوي.

●●●

بالحركة البطيئة

رأيت الكسلان[1] ذا الأصابع الثلاث، على شرفة دار خشبية مطلية بالأزرق على ساحل المحيط الهادي في كوستاريكا. كانت الدار وحيدة على شاطئ شبه جزيرة أوسا المغطى بأشنيات نحاسية اللون وحشائش بحرية مجروفة، وبدت بين أمواج المحيط وسور الغابة المطرية الداكنة الخضرة على طول الشاطئ، ضئيلة وضائعة، بحيث لن تمضي بضعة أيام ولربما ساعات فحسب، حتى تبتلعها أمواج المحيط المتكسرة على الشعاب المسطحة أو الغابة العذراء، مع مرآب القوارب والحديقة المهملة ولاقطِ بثِ الأمواج القصيرة معاً.

كانت حركات الكسلان تشبه حركات سبّاح كراول بالتصوير البطيء، وهو يرفع بالتناوب إحدى ذراعيه ببطء شديد، ثم يخفضها ببطء شديد أيضاً، على ألواح أرضية الشرفة المسودة بفعل الرطوبة الاستوائية، ليسحب نفسه إلى الأمام بقوة مخالبه الطويلة. مترين في الدقيقة كحد أقصى يمكنه أن يزحف بهذه الطريقة. ومخالبه المنحنية تمكنه من التدلي ورأسه للأسفل على أغصان أشجار الغابة العذراء كالمَسَرْنَم، لكنها كانت تنزلق هنا بسبب الرطوبة مخلفةً خربشات متداخلة،

(1) الكسلان: حيوان ثديي من رتبة الدرداوات، يتصف ببطء حركته.

وهو يزحف سنتمتراً فآخر، بين شظايا الزجاج الليفي ذي اللون الكهرماني المتساقطة من سطح الشرفة المتقدم والذي سقط عبره قبل قليل. بدا الكسلان سليماً لم يصب بأذى وهو يحاول الهرب ببطئه الذي لا مثيل له.

ماريا، زوجة الصياد، الذي أراني بالأمس مناطق صيدٍ خفية لسمك المارلين الأزرق، رغم هياج الموج، كانت منشغلة في ظل الشرفة، تكوي البيّاضات، عندما هوى الكسلان عبر السطح المتقدم بصوت مدوٍ طغى حتى على صوت الموج، فقلب طاولة الكوي وانخبط على ألواح أرضية الشرفة.

رغم أن طول الحيوان من قائمتيه الأماميتين إلى الخلفيتين، المسلحة بالمخالب، لا يتجاوز المتر، إلا أن ارتفاع السقطة من تاج شجرةِ نملٍ تشكل أوراقُها الغذاءَ المفضل للكسلان، كان كافياً لاختراق سطح الشرفة. لكن لوح الزجاج الليفي المتآكل بفعل موجات الحرارة والأمطار الاستوائية قد خفف من أثر السقطة وتكسر. ثمة غصن هش بطول ذراع، حززته طيور نقّار الخشب، انكسر في الأعلى وهوى مع الكسلان لكنه علق في ثقب السطح مثل سهم يشير إلى زوجة الصياد.

كانت ماريا قد وضعت بالملقط المعدني حشوةَ المكواة على مضرم غاز مشتعل، لتحميّها وتعيدها من ثم إلى قلب المكواة، عندما سقطت بين قدميها كومة الوبر هذه، أشيطان أم روح شريرة! فأفلتت من يدها حشوة المكواة الملتهبة، والتي تسميها بسبب شكلها سمكة، وأطلقت صيحة رعب مع إحساسها بشظية من السطح المتقدم تلامس كتفها.

لكن حزمةً من أشعة الشمس سقطت من ثم عبر ثقب السطح على الكائن المرمي أرضاً، وعلى الكسور المغطاة بالطحالب، فدفعت ماريا حشوة المكواة بالملقط بعيداً عن وبر الكسلان الرمادي. فحتى لو وُجد تشابهٌ ما بين ظهور شيطان أو روح شريرة وبين رائحة احتراقٍ كريهة، فإن ما تغلغل في خياشيمها لم يكن سوى رائحة وبر الكسلان المحروق. لقد سقط كسلانٌ من السماء! وزوجها بونيفاكيو لا بد من أن يفي الآن بوعده المتقادم بتجديد سقف الشرفة. وأخذت تضحك.

إلى جانب كومة من سلالِ صيد السمك كان هناك كلب صغير ينام ملتفاً على نفسه بشعره الأجعد. ولا شك في أن ما أيقظه من أحلامه كان ضجيج سقطة الكسلان، أو صرخة الرعب التي أطلقتها ماريا، وربما ضحكتها التي أعقبت ذلك. والكلب بوبره الأجعد الأشعث، كان يشبه إلى حد ما فروة الكسلان، وكأن ثمة قرابة لصيقة ومبهمة بينهما، فهجم على الدخيل الهابط من السماء، قافزاً على درجات الشرفة الأربع دفعة واحدة، ليجد صعوبة من ثم ليضبط نفسه أمام هذا الهارب ببطء مريب ملغز.

أخذ الكلب يعوي عليه بل ينبح من الغضب أو الغيظ، ويقفز حوله محافظاً طوال الوقت على مسافةِ أمانٍ تعادل طول جسمه. فبالرغم من كونه لا يأكل سوى النباتات وحسب، ومصاباً على ما يبدو بوداعةٍ ناعسة متجذرة، يمكن للكسلان بمخالبه المنحنية كالمناجل أن يهاجم، وسبق لفهودٍ وطيور جارحة وأناكوندا أن حملت ندوباً عميقة منه. إن ما كان

يجعل الكلب الصغير يحافظ على مسافة الأمان، لم يكن تلك المخالب، وهو ما زال صغيراً جداً ليعرف تأثير هذا السلاح، وإنما بطء الهروب غير المفهوم. فالأعداء الهاربون والطرائد الناجية والمهاجمون المنهزمون يركضون ويطيرون ويقفزون بسرعة! أما هذا الكائن الرمادي فبوسع حلزون أن يلحق به، وبدا بسبب الطرش أو العمى أو كليهما، غير آبه بالنباح ولا بضحك ماريا.

خرج الكلب عن طوره أمام هذا اللغز المحير، حتى أن ضحك سيدته لم يهدئه، واستمر في التقافز نابحاً حول الكسلان الذي وصل الآن إلى درج الشرفة، وأخذ يسقط من درجةٍ إلى أخرى، إلى أن لا مس أخيراً التربة الحمراء التي ساعدته مخالبه على التعامل معها والتشبث بها، فالتفت عن المحيط متوجهاً إلى الغابة المطرية. وعبر الدوائر المجنونة التي رسمها الكلب حوله، بدت كل حركة من الكسلان أشد بطئاً وغرابة.

ولكن عندما كان هذا الحيوان الغريب يرفع رأسه ليرمي مُلاحِقه بنظرة جانبية من عينيه المحاطتين بشريط من الوبر الأسود، كما عبر قناعٍ، كان الكلب يتراجع. وعندما كاد الكسلان يسقط جانباً بعد حركة متعثرة، فمدَّ لا إرادياً ذراعه المخلبية باحثاً عن متكأ باتجاه الكلب، توقف هذا فوراً عن النباح مرعوباً حتى الموت، وعندها سكتت ماريا أيضاً. وكما قبل السقطة، لم يعد يُسمع الآن سوى صوت الموج من جهةٍ، وصوت الريح في تيجان الأشجار من جهة أخرى. وفجأة

سَمعت جوقة من أصوات القرود، آتية من مكان غير محدد، وكأنها ترحب بالعائد وتحمّسه.

كانت الشجرة التي سقط الكسلان قبل حين من أغصانها، والمغمورة بالحشرات ونمل النار والجعلان مدببة البوز، منتصبة في الظل، غير مرئية من قبل الكسلان الهارب. فكان لا بد لدرب الفرار إلى حماية الغابة العذراء أن يمر عبر مساحة مكشوفة من التربة الحمراء المحاطة بنبات بقلي بري. وقد امتدت ظلال أشجار حافة الغابة، مؤشرة إلى الاتجاه.

إن هذا السور الداكن الخضرة من الأوراق والجذوع والأجمات، القريب جداً، ولكن النائي في الغرب بالنسبة للكسلان الزاحف، والذي ينبعث منه التغريد والصياح، والصفير والصرير، ونداءات التحذير، أصوات قرود وطوقان وضفادع وببغاوات وجنادب وأصوات أخرى كثيرة، بعضها مغوٍ وبعضها مهدِّد، لا مبالٍ أو ساخر أو متيم. هذا السور كان المنقذ، بل يجب أن يكون المنقذ.

ومثل سبّاحٍ في غبارٍ أحمر، زحف الكسلان باتجاه السور المنقذ، يرافقه كَلبٌ صغير أجعد الشعر، صامتاً، وإن لا يزال مستثاراً، لكنه سرعان ما سيعود إلى مكانه المألوف، حيث يعرف كل شيء، كل صوت وكل ظل.

●●●

صياد الوَرَل[1]

رأيت حشداً من الناس يسد طريقاً مملوءاً بالمطبات في مقاطعة تيرتو- مويو في جاڤا الشرقية. يبدو أن حركة المرور الضعيفة على هذا الدرب من الرمل البركاني الأسود أخذت تتجمع منذ مدة طويلة، فعلى طرفي الحشد كانت هناك عربات متوقفة بمحركات مطفأة: شاحنات صغيرة، عربات صغيرة، باصات، وحتى طنبر بجاموسين وليموزين بألواح زجاجية معتمة. وكانت أبواب جميع العربات مفتوحة، والدراجات الهوائية والنارية الصغيرة مسنودة على أشجار كاوتشوك ونخيلٍ زيتي على جانبي الطريق. وكل ما كان يجر وراءه سُحبَ غبارٍ في الاتجاهين، توقف الآن. وتجمع السائقون والركاب في حشدٍ هادئ على نحوٍ غريبٍ، وكأنهم مستغرقون في صلاة، فلا تُسمع سوى صيحات طفل.

حاولت بالأمس تسلق مَهاميرو، وهو أعلى جبل بركاني ساكن في جاڤا، بارتفاع 3700م لكنني تراجعت بسبب تدفق الأمطار سيولاً، وكنت على الطريق إلى الساحل قرب

---

(1) ورَل: عظاءة عملاقة من رتبة السحالي. جلدها ثمين يستخدم في صناعة المحافظ.

لوماجانغ لأنتظر هناك ريثما تتحسن الأحوال الجوية، ولم يعد بوسعي الآن سوى إيقاف دراجتي النارية المستعارة، كالآخرين، في ظلِّ شاحنةٍ صغيرةٍ محملةً بالفواكه، والانضمام إلى الحشد.

كانوا نحو ثمانين حتى تسعين رجلاً مزدحمين حول مكان حادث مرور، متفرجين ومساعدين وشهوداً متحلقين حول رجل مستلق بعينين مفتوحتين، كان ينزف من جرح في رأسه ومن يديه. وإلى جانبه جلس مساعدان يضغطان على صدره بلطف ليبقى على ظهره، كلما حاول الاعتدال مع صرخة ألم، قائلين له: لا تتحرك! فظهره مصاب، وربما مكسور، والإسعاف قادم على الطريق، حسبما ترجم لي رجل وجهه مليء بآثار ندوب عملية جراحية أو حريق، يرتدي زي شركة الهاتف الرسمية، وهو على الطريق في سيارة جيب إلى منطقة جبال تِنغِر.

أمام المصاب فقد وقف رجل بإزار حول خصره فحسب، إنه عامل زراعي يشق أثلاماً في لحاء أشجار الكاوتشوك، بشكل يذكّر بحسك السمك، ويربط تحتها إلى الجذوع طاسات لاستقبال حليب اللاتكس، فصار بذلك شاهداً على الحادث. كان يهدهد بين ذراعيه طفلة باكية، لا تتجاوز السنة من عمرها في ثوب أبيض، ويحرك يديها وقدميها إلى الأعلى والأسفل كأنها دمية، وكأنه يريد أن يفحص سلامتها وقدرتها على الحركة، أمام المصاب غير القادر على الحركة، والذي لم يرفع عينيه عنها.

في وسط مسرح الحادث، ولكن من دون أن تلفت نظر أحد، كانت مركبة الحادث على الأرض، دراجة نارية (موبِد)، وقد حُزِم على حامل البضائع بالحبال والأسلاك ورلٌ ضخم بطول متر، مخطط بالأصفر والأسود، وينزف. لكن الجراح على رأسه وقائمتيه الخلفيتين القويتين لم تكن نتيجة للحادث فحسب، بل بسبب الحزم بالأسلاك وعملية اصطياده قبل ذلك. وكانت الدلالة الوحيدة على بقائه حياً هي حركة عينيه. كان لسانه الأسود متدلياً جانباً من فمه المفتوح والدم يقطر منه. لا شك في أن الحيوان قد صيد بالطريقة المعتادة: ضفدعٌ كطعم يغطّي كلابةً تمزق الشفتين والحلق عندما تسحب الطريدة خيط الطعم. كان الورل في طريقه إلى الذبح فجلده ثمين، وكذلك لحمه.

كان صياد الورل وابنته- الطفلة الباكية بين ذراعي الشاهد- التي ربطها إلى ظهره بقطعة قماش، على الطريق إلى السوق عندما اعترضه غصن شجرة جاف أو أفعى أو مطبٌّ وحسب، فقد اختلفت الآراء بين الحشد، ما اضطره لتجنبه أو لتجنبها، فانزلق وسقط. قال العامل الزراعي، إن ما اعترضه كان أفعى، حمراء، من أفاعي النخيل. وقد أراد أن يضربها بالعصا، لكنها اختبأت بين الحشائش ثم تسللت إلى الطريق، إلى طريق الذي تدهور، متجلية له كشيطان أو روح شريرة.

ترى ما هي المسافة التي كانت تفصل بين الورل وصياده، أو في أي بقعة كثيفة السكان في جاڤا الشرقية، أو في أية برّية كانا يعيشان حتى هذا اليوم؟ إذ لربما احتاج الأمر حقاً إلى قوة

شيطانية لتوريط الطرفين في علاقة القربى والقرب المكاني التي هما أسيراها الآن. فلو كان الحادث بالنسبة إلى الورل لا أكثر من تأخير زمني على طريقه إلى الذبح، فقد بدا من خلال جروحه وقيوده وعدم قدرته على الحركة، فجأة وبصورة فريدة، مرتبطاً بصياده النازف، والعاجز عن الحركة مثله الآن. ولكن فيما الصياد، وإن بألم ودون طاقة، يريد النهوض والمشي ولربما الهروب، بدا الورل قانعاً بلا جدوى أية محاولة للفرار، مبقياً عينيه ثابتتين على الطفلة الباكية، على الشيء الوحيد في مجال نظره الذي يتحرك أو يُحرَّك بصورة لافتة. والصياد أيضاً لم يرفع نظره عن ابنته، فيما كان أحد المساعدين بجانبه يحاول لف ضماد حول رأسه.

عيناه وعيون المتفرجين وعينا الورل كانت موجهة كلها نحو الفتاة السالمة السليمة، عندما رفعها العامل الزراعي فجأة فوق رأسه، وتركها تسقط، ليلتقطها مجدداً، ما جعلها للحظات تطير. توقفت الفتاة الطائرة فوراً عن البكاء، وأخذت، عندما كرر العامل الزراعي اللعبة، تضحك، وبدت حقاً في لحظة التقاء النظرات عندها، عالقة في الهواء، مثل إله طفل ورمزاً للحشد لا يُطالْ، من الصحة والسلامة، بل الخلود.

وفجأة امتدت أياد أخرى نحو ابنة الصياد راغبة في الإمساك بها وأرجحتها، وكأن شيئاً من صفائها وطاقتها سينتقل إلى كل من يلامسها. وهكذا أخذت الفتاة تدور في مسرح الحادث متنقلة من ذراع إلى ذراع، ضاحكة غالباً، ولم

تعد إلى البكاء. وفي خضم هذا الانشراح الذي ولدته اللعبة، لم يلاحظ سوى قلة من الحشد أن الصياد النازف أيضاً قد أخذ يرفع ذراعه نحو الفتاة ببطء، وكأنه مرهق حتى الموت، فيما توقف النزيف من فم الورل المقيد وأغمض عينيه.

●●●

أضرار العاصفة

رأيت ذراعين رشيقتين تمتدان إلى حبل غسيل لتنشرا عليه قميصاً أبيض ليجف. في دغشة العليّة، حيث امتدت ثلاثة حبال غسيل مزدحمة بالبيّاضات، كان هناك أيضاً قمصان مبلولة وشراشف وأغلفة وسائد كصفٍّ منتظم من الأشباح. مع عويل الريح التي كانت في الخارج تقصفُ أغصان أشجار الفاكهة وتجعل دعامات السقف تصدر صريراً مهدّداً، كان يحتمل أن يتملكني الخوف من العتمة وأشباحها، لولا ذراعَي أمي الرشيقتين.

كان الأمر مكافأة بالنسبة إلي، أن أصعد مع أمي إلى حيز العليّة، الذي يُعد خطراً من ناحية، وأرضَ أحلام فوق جميع غرف دارنا من جهة أخرى، وأن أناولها الغسيل المبلول قطعة فقطعة من سلة الصفصاف. لأن الصناديق والسحارات وقطع الأثاث المدثرة بالأغطية وكل الكراكيب المتروكة هنا للنسيان والغبار، كانت ملكيتها تعود إلى أطرافٍ عدة، لذلك لا بد من حمايتها من فضول أطفال الدار واندفاعهم إلى اللعب. كانت العليّة بمغرياتها وعتمتها اللانهائية مكاناً محظوراً، لا يجوز دخوله إلا برفقة الكبار.

إنه الثلاثاء، لا بد أنه كان يوم ثلاثاء، لأنه كان يوم غسيل

البياضات في دار المعلمين المكرسة لذكرى القيصر فرانتس يوسف في قرية رويتهام على سفوح الألب في النمسا العليا. كان النهار ماطراً، ورغم أن الريح المتزايدة الشدة من ساعة لساعة كانت تهب من الجنوب، فقد كانت باردة. الغريب في هذا المكان الذي تلتقي فيه الدغشة بالعتمة، أن يفيض فجأة بنور النهار مثل طوفان غامر، أفزعني أكثر من جميع ما تلى ذلك من أحداث.

مدت أمي ذراعيها نحو حبل الغسيل، لكن حبل الغسيل هذا بدا فجأة مع كل ثقل قطع الغسيل والمشابك الخشبية التي تثبتها عليه وكأنه ينسحب من أمامها ويرتفع، مثل ستارة لا تخفي وراءها سوى الظلمة. لا إرادياً نهضت أمي على رؤوس أصابع قدميها باتجاه حبل الغسيل، لكنها لم تمسك في نهاية المطاف سوى الخواء. وقطع الغسيل التي كانت لتوها بلا حراك، وكأنها متجمدة في هذه الظلمة التي لا يسري فيها تيار هواء، ارتفعت فجأة نحو الأعلى بصورة لا تُطال، وأخذت ترفرف بل تصفق في هبات الريح التي أمسكت بي أنا أيضاً. وفجأة ساد المكان نور، كالنهار.

اركضْ، اركضْ! في خضم صخب الأصوات المندفعة، لم أفهم صيحات أمي، عندما أحسست بيدها تمسك بيدي بقوة، وكدت أسقط أثناء الركض لو لم تسحبني عالياً ثانية. ومع الضياء الهادر الذي صاحَبه سقوط بَرَد، سُحبتُ إلى فتحة سلم العليّة وجُررتُ نحو الأسفل، فيما استمرت ريح الجنوب في رفع سقف العلية الهائل عن الدار وقلبه جانباً بصوت

كقصف الرعد ليهوي من ثم على الأرض بين المدرسة ودار المعلمين. وتطايرت دعامات العلية في الهواء وكأنها بلا وزن، مثلما طارت أيضاً السحارات والصناديق وقرميد السطح مثل أوراق الشجر، وأثناء ذلك زوبعت بعض أشباح الغسيل الأبيض.

أذكر أن أول فكرة خطرت في بالي على الطريق إلى السلم وعلى درجات السلم، لم تكن الخوف على حياتي وحياة أمي، فقد كنتُ آنذاك في منأى من الموت، وكذلك أمي، وكان الموت شيئاً لا يصيب من حيث المبدأ إلا الآخرين. بل أدركت فجأة أن العاصفة القادرة على اقتلاع سقف علية أكبر دار في القرية، يمكنها أن تكشف الستر أيضاً عن أشد أماكني سرّية، بل أن تدمره، وهو الحجرة الصغيرة المسمّرة في العلية، والتي تحمل على بابها الخشبي الملَّبس بالصفيح لوحةً كُتب عليها **ملك لإدارةِ البلدية**، وعليه مزلاجان حديديان إضافة إلى عدة أقفال. يبدو أن الحجرة قد نسيها نزلاء دار المعلمين ومن تبقى من إدارة البلدية، إذ كنت وأخي الأصغر الوحيدين اللذين يزورانها بكل سرّية، ودائماً بكل حذر من الأشباح وكائنات الظلام الأخرى، فقد كانت محشورة في زاوية لا بد من تجاوز عدة دعامات سقفية للوصول إليها في مجاهل الظلام، دون حتى بصيص نور من إحدى فتحات السقف.

ومن كان بعدُ طفلاً صغيراً، قادراً على تسلق دعامات سقف العلية والتسلل من ثم عبر فتحة ضيّقة متبقية بين دعامة عرضانية وإطار باب الحجرة، كان سيرى في ضوء مصباح

الجيب مملكة خرافية، عالمَ فرسانٍ سحري، يمكنه النزول إليه على الجانب الآخر من الباب: ثمة باقة كاملة من الأعلام والحراب مستندة على جدار مدفأة صدئة، وسيفان في غمدين أسودين ببريق كابٍ معلقين على كلابين حديديين طويلين في الدعامة الخشبية، وعلى نسر ذهبيٍ مفرودِ الجناحين بالحجم الطبيعي استندت لوحة لفارس بكاملِ دروعهِ وأسلحته، فارس!

إنه كنز، اكتشفته مع أخي أثناء إحدى حملاتنا السرية المحظورة إلى مملكة الظلام فوق دارنا، وكتمت سره الدفين منذئذٍ حتى عن رفاق اللعب. ولكن في يوم غسيل البياضات هذا، بعد أن هدأت العاصفة، بات كل ما كانت تخفيه الحجرة مكشوفاً في العراء، بين قرميد مكسر وحطام سقف العلية على أرض باحة المدرسة. وأثناء أعمال رفع الأنقاض، التي سُمح لي أتابعها من وراء نافذة المطبخ، سمعت لأول مرة أسماء النفائس التي ضاعت إلى الأبد: الشعار الذي كانت تحمله الأعلام الحمراء- البيضاء، اسمه صليب معقوف والنسر الذهبي على قاعدته اسمه نسر الرايخ وكان من الجص، والحراب كانت بيارق الجيش النازي والسيوف القصيرة في أغمدتها السوداء كانت خناجر زينة لوحدات الصاعقة SS، أما الفارس في دروعه الفضية فكان اسمه أدولف هتلر.

والنجارون الذين غطّوا العلية بالشوادر بعد العاصفة، ثم بدؤوا ببناء هيكل سقف جديد لها، خلال أسابيع طويلة من الطرق والنشر والخرط فوق رؤوسنا، وضعوا مكان حجرة

الكنز الذي كان يومض في العتمة، فتحة نافذة في السقف المائل، تُرى منها إذا كان الجو صافياً سلاسل جبال زرقاء بعيدة. وفي الوقت الحاضر، عندما تُفرد الخرائط على الجدار في درس جغرافية الوطن بات يُقرأ اسمان بحروفٍ ممدودةٍ بين ذروتين تجمعان بينهما كل تلك القمم والجروف والوهاد التي تشاهَد من فتحةِ نافذةِ الحجرة المحظورة: الجبل في الجنوب الغربي سُمّي جبل الجحيم، والآخر في الجنوب الشرقي سمي جبل الموت.

●●●

هلاك عالم

رأيت البرج الأزرق لـ Bank of China يحترق. كان ينتصب مثل مؤشر ساعة نارية من غيمة حمراء ملتهبة، ثم مال نحو البحر وتحطم وغرق واللهب يتصاعد منه. بعد بنك الصين تهاوى أيضاً في بحر جنوبي الصين حصن Hong Kong & Shanghai Banking Corporation المحاط بغيمة من الدخان والضباب الاستوائي تحت شلال من الشرر. وسرعان ما انتقلت النيران إلى Standard Chatered Bank وإلى Citibank والـ Hopewell Center والـ Wan Chai Tower وأخيراً حتى إلى ناطحة سحاب Bank of America ذات الوميض الحريري. هونغ كونغ تحترق. معْلَم تلو الآخر من معالم الجزيرة احترق وغرق ملتهباً في خليج جوس هاوس. إنه صباح اليوم الثالث والعشرين من الشهر القمري الثالث وفق التقويم الصيني، نهار حار في أواخر نيسان/ أبريل. إنه عيد ملكة السماء تين هاو Tin Hau، ربة بحر جنوبي الصين.

كنت في هذا الصباح جالساً مع صديق نتناول الفطور، على سطح مؤخرة سفينة شراعية صينية، تخفق أشرعتها الحمراء بارتخاء في حُجب الدخان، فيما تلامَح أفق هونغ كونغ المشتعل بين أفواج الضباب ليغيب ثانية. وحتى من

هذه المسافة البسيطة، التي كنا نرى منها انتقال النار من برج إلى برج، صَعُب علينا تمييز أن ناطحات السحاب المشتعلة لم تكن سوى نماذج من رقائق خشبية وورقية، تقليد بألوانِ ولمعانِ الأصول الشاهقة مئات الأمتار: بنك الصين من رقائق لا يتجاوز ارتفاعها مترين، وبنك أمريكا بارتفاع قامة إنسان من الورق، يتأرجحان على سطح الماء مثل بقية أبراج وقصور المال والسياسة والتجارة. كل شيء يشتعل، حطام ملتهب كقربان ناري يتوسل رحمة ربه وهو البحر.

تين هاو، ملكة السماء التاوية: إكراماً لها خرجنا هذا الصباح كأسطول من السفن الشراعية والأطواف وبواخر النزهات ورمينا مراسينا في خليج جوس هاوس. على هضبةٍ وراء خليج المناطق الجديدة **New Territories** هذه، وإلى شرق هونغ كونغ ينهض في الشمس منذ سبعمئة سنة معبد ربة البحر، هيكل معبدٍ متعدد الأدوار من الخشب الأحمر، يبدو معلقاً فوق الضباب وفوق أسراب الذباب التي تئز محوِّمةً حول القرابين المنثورة على شاطئ الخليج، من لحوم خنازير مدخنة، وخبز حلو، وطاسات عسل وغيرها. نسمع قرع طبول فرقةٍ موسيقية في زي أحمر، مع صلصلة آلات نحاسية، ونرى على سطوح سفينة هيدروليكية قصاصات ورقية حمراء، مطبوعة بلون ذهبي ترفرف في الهواء: إنها نقود موتى، تريد بها الأرواح شراء السلام. وعندما تشتعل ناطحة سحاب ورقية أخرى، تعلو موجات من التصفيق والهتافات على سطح مياه الخليج الملساء. وفي مواكب متتالية بكثافة، أخذت طواقم

سفن تخوض على الشاطئ أو تنزل في قوارب نجاة مزدحمة لتضع قرابينها على الرمال، أو لترفعها بالحبال صعوداً إلى المعبد تحت أعلام حريرية، ولتشعل في دغشة الحَرم أعواد البخور، ولتنحني إجلالاً أمام تمثال الربة المغلّف بالضباب.

بينما كنت مع صديقي نتناول المعجنات الخفيفة مع الشاي، بانتظار أن يُدعى طاقم سفينتنا الشراعية الصينية بدوره لتقديم الأضاحي على الشاطئ، روت لنا شاعرتان من تشونغ وان، وهو مركز مدينة هونغ كونغ، جالستان معنا إلى طاولة الفطور، حكاية الربة تين هاو. شاعرتان! على الأعلام واللافتات المعلقة على السفن المجاورة لنا، كُتبت أسماء كبريات البنوك والشركات التجارية ذات الوزن في البورصة المالية، أما على سفينتنا فلم يوجد سوى شاعرات وشعراء، قصاصين ومترجمين، في رحلة عبر متاهة الجزر في دلتا مصب نهر اللؤلؤ: لامّا، لانتاو، تشيونغ تشاو، پينغ تشاو، تونغ لونغ، مَكاو...

يفترض برحلتنا البحرية أن تكون ختاماً احتفالياً لندوة، حضرنا إلى هونغ كونغ بسببها؛ ندوة حوارية بين شعراء وقصاصين أوروبيين وأدباء جزئي الصين. كان هذا الربيع بمنزلة ربيع الأمل، فقد أخبرنا أديب من بكين عن عشرات ألوف المتظاهرين الذين احتشدوا في ساحة تييناًنْمِن بعد موت المصلح الكبير هو ياو بانغ وطالبوا بالهتافات واللافتات بصينٍ جديدة وبإزاحة زعيم طغمة الأقلية الحاكمة دينغ كسياو پينغ، كما طالبوا بحرية التجمع والكلام وحرية التعبير عن الآراء الفكرية. لم تُرفع في وجوههم هراوة ولم تطلق رصاصة واحدة،

قال الضيف القادم من بكين متحمساً، وبقيت الهتافات والأناشيد تُسمع حتى الليل في ساحة السلام السماوي. وكما قيل، كان ربيعاً للأمل، إنها أعياد تين هاو حامية جميع من يخشون الهلاك.

روت الشاعرتان القادمتان من تشونغ وان، بالتناوب وبأسلوب غنائي، أن تين هاو كانت ابنة صياد سمك، عاشت في القرن العاشر الميلادي حسب التقويم الغربي. وفي أثناء إعصار أنقذت سفينةً وطاقمها من الهلاك وأوصلت الجميع سالمين إلى الشاطئ شرقي مكاو الحالية: لقد أمرت تين هاو أمواج البحر بالتخفف من غلواء سلطانها والركون إلى الهدوء، كما أمرت الضباب بأن ينقشع وجعلت صارية السفينة تزهر. وأخيراً، في القرن الثالث عشر، بعد وقت طويل من ارتفاعها إلى مراتب الخلود، أعلنها ملك المغول قبلاي خان، الذي كان يسيطر على الصين كلها آنذاك، أعلنها في احتفال رسمي كبير، ملكةً للسماء إلى جانب قيصر اليشم، رب التاوية القدير.

وذكرّتنا الشاعرتان بأن اسم مَكاو ما زال يستدعي إلى الذاكرة مرفأ قديماً، مررنا به أثناء رحلتنا البحرية التي دارت بنا من مصب نهر اللؤلؤ العظيم حتى البر الصيني، وأن الاسم Macau ينطوي على لفظة A Ma Gau باللهجة المحلية، وهو لقب تين هاو، ويعني خليج آما. ومكاو كانت مسرح أحداث أولى معجزات تين هاو الكثيرة، ويعني مكان الإنقاذ.

في الأيام التي سبقت ركوبنا السفينة الشراعية الصينية وأثناء الاستراحات التي تخللت الندوة تجولت مع صديقي

في الأسواق الواقعة وراء حاجز صد الإعصار في كولوون Kowloon واشتريت أقلام رصاص من خشب الورد ودفاتر ملاحظات من ورق الرز وأدوات كتابة في صناديق من خشب الكافور... ورأينا في شارع جرڤوا Jervois في شيونغ وان، وهو شارع بائعي الأفاعي، إحدى أفاعي الكوبرا وهي تُذبح. ففي هونغ كونغ يباع سنوياً عشرات الألوف منها، باعتبار لحمها يبث الدفء في الجسم. وفي ياو ما تَي Yau Ma Tei شرح لنا أحد الصيادلة التأثير الشافي للدبابير المجففة وعظام النمور المحمَّرة واللآلئ المطحونة وقرون الخرتيت المهروسة، وأروع الأدوية إطلاقاً: ذُرور اليشب معجونةً بندى الصبح كدواءٍ ضد الموت.

ولكن الآن فحسب، فيما يغرق عالم ورقي مشتعلاً في مياه خليج جوس هاوس كقربان ناري لفتاةٍ من القرن العاشر، فقدَ كثير مما قلناه في الأيام الماضية، وما رأيناه واشتريناه وجمعناه وفعلناه، من وزنه ومعناه، وكأن هذه الجولة البحرية فحسب، قد كشفت لنا الهدف الحقيقي والوحيد لرحلتنا كلها:

كنا متحلقين حول طاولتنا الخيزرانية على سطح مؤخرة السفينة الشراعية الصينية نشاهد احتراق وغرق ناطحات سحاب وقصور من ورق الحرير وحصون سلطة المال وهي تناطح السماء بدخان احتراقها، فيما تسبح سفينتنا الشراعية الصينية سالمةً فوق الأعماق. وقد جاز لنا أن نتابع هلاك هذا العالم كتمثيليةِ تقديم قربانٍ ناري فحسب، وربما كذكرى للمستقبل، من دون أَن نتعرض بأنفسنا للهلاك، لأن تين هاو، الخالدة، تمد ذراعيها فوقنا لتحمينا.

كلب الراعي

رأيت كلب راعٍ، ترك وراءه قطيعه المؤلف من نحو ثلاثين عنزة، في أطلال المدينة الجبلية الليكية بينارا Pinara، وأخذ يقفز نابحاً على الجدار الصخري الهائل، الذي يسامق السماء في غرب المدينة مع الغروب. كان نباحه يرجع كالصدى من سكونٍ هيمن على حقول الأطلال منذ أكثر من ألف سنة. بعد قرون طويلة من التألق والازدهار ضرب زلزال مدينة بينارا، فتخلى سكانها عنها، وتراجعت مكانتها إلى مدينة أطلال على السفوح الغربية الوعرة لجبل طوروس، لا يحميها سوى موقعها النائي. وليس هناك إلا طريق حجري ضيق يؤدي من حقول خانْثوس Xanthos الخصبة إلى مرتفعات منطقة أنتاليا التركية.

كان الجدار الصخري الماثل الذي يهاجمه الكلب، منتصباً مثل سدٍّ متشققٍ بارتفاع مئات الأمتار في وجه عاصفة رعدية مقتربة. وكان على اتساع عرضه مثقّباً بفتحاتٍ سوداء لا تحصى من القبور المحفورة في الصخر. وفي مساكن الموتى هذه المنحوتة في الكتلة الصخرية الهائلة والمصطفة بصورة غير متناظرة فوق بعضها بعضا، لم تستمر الراحة الأبدية الموعودة إلا خلال المرحلة التي كان الأحياء فيها قادرين

على الدفاع عن موتاهم. بعد انقضاء هذه الأبدية نُهبت هذه الأضرحة ثم باتت أعشاشاً للصقور. وحيث وُجِدت ذات يوم أبوابٌ حجريةٌ تفصل عالم الأحياء عن عالم الأموات، وقد نُحتت عليها بفنية متقنة كتاباتٌ وتزيينات، تتثاءبُ اليومَ فتحاتُ مغاور سوداء حطّم الجشع بواباتها حتى ارتفاعات مُدوّخِة.

قبل ألفين وخمسمئة سنة كانت بينارا واحدة من أقوى ست مدن في مملكة ليكيا المحاطة بالغموض في ظلال جبل طوروس. وحسب أناشيد هوميروس ناضل أبطالٌ من بينارا في حرب طروادة ضد أوليس وأخيل، ولكن عبثاً.

حملت الريح إلى أذني أصوات اصطفاق قماش خيام الجيش في المعسكر أمام طروادة، وفرقعة البيارق عندما أمسكت هبّات العاصفة الرعدية بتيجان أشجار الصنوبر المنتصبة بين أعمدةٍ جبارةٍ متساقطةٍ. سمعت عزف الريح في حامل نعشِ مقاتلٍ ليكي صرعه أوليس.

أعادني نباح كلب الراعي إلى الزمن الحاضر. كان نباحه أعلى من صخب جيش الأشباح في رأسي. لم أسمع صفرةً أو نداء راعٍ يستدعيه، فاندفع في الدغل، الذي يغطي معبداً متهاوياً وساحة سوق متهاوية وأساسات أبنية كالمتاهة، نحو جدار الموتى الصخري، وكأنه قد اكتشف في أعلاه ما يشكل تهديداً لقطيعه، فكشف لي بذلك الدربَ الأكثر مباشرة من حقول الأطلال إلى حجرات القبور.

كنت منذ دخولي المدينة أبحث عن مثل هذا الدرب،

فلحقت بالكلب، ولكن ضد حافزٍ يدفعني إلى الهروب. هل ثمة خطر فعلي يكمن هناك في الأعلى؟ بتردد، حررت نفسي من حماية الدغل وتقدمت إلى فسحة مغطاة بالحصى المتساقط من حجرات القبور إلى أقدام الجدار. ثمة تابوت حجري ينتصب من سيل الحصى مثل سفينة حجرية غارقة. وعند نهاية السيل رأيت الكلب أمام حجرةٍ مكسورةِ البوابة، أمام فم أسود مفتوح. ثبّت الكلب يديه على عتبة الحجرة المنحوتة وأخذ ينبح في الظلمة أمامه، كمن تأكد من وجود عدو ولا يجرؤ على مهاجمته.

اعتاد الليكيون على دفن موتاهم دائماً في أماكن عالية فوق البشر، مكشوفة للشمس والقمر، ذات إطلالة على المدينة وأراضيها والبحر. فكانوا يدفنونهم في توابيت إما فوق كتل صخرية عالية تشبه المسلة أو السهم، وإما في قبور منحوتة في الصخر العالي، بحيث يتمدد عالم الأحياء أمامهم بكل بهائه، كبشارة للأموات بأنهم سيحظون مستقبلاً بمثل هذه الإطلالة، أي في حجرات مثل هذه التي ينبح كلب الراعي عند مدخلها، كمن تملكته نوبة من الجنون: فكان ينبح ويعوي، دون أن يتحرك من مكانه. أما قطيعه فكان يرعى بهدوء في الأرض المنبسطة، يلتهم الأعشاب الناعمة التي تنمو بين بقايا التحصينات الحجرية التي قاومت أجيالاً من الأعداء، لكنها لم تصمد في وجه عوامل الزمن. نهضت بعض العنزات على قوائمها الخلفية بين هذه البقايا، وقفت لتأكل مستندة على أسوار دفاعية محطمة، وكأن غضب الأرباب قد

مسخها إلى حيوانات محاصِرة، ثم قفزت لتلحق ببقية القطيع المتحركة بهدوء هبوطاً مَن علياء الأكروبوليوس إلى أسفل المدينة، متجاوزة قبور الملوك في مركز المدينة، ومتجاوزة بقايا مجلس الشعب وقاعة الموسيقا والرقص، إلى المسرح الكبير الذي لم يعد يجلس على مدرجاته الواسعة سوى النباتات الشوكية، ولا يُسمع على منصته سوى نباح كلب الراعي الراكض بجنون.

بدأت القطرات الثقيلة الأولى للعاصفة الرعدية تبلل الحصى الخشن الحواف، والذي كنتُ أدوسه لاحقاً بالكلب. وهذه البقع المائية هي ما جعلني أحس بالمطر. ورغم أن قصف الرعد ما زال خافتاً قادماً من البعيد، هبطت عليّ من الجدار هبة ريح باردة، تكاد تكون جليدية بالنسبة لأمسية في أوائل الصيفِ، ومع ذلك كان العرق ينضح من جبهتي وخديّ. أردت أن أعود، أردت أن أعود، لكنني تابعت الصعود متعثراً نحو الأعلى.

كان جدار الموتى منتصباً أمامي الآن حالكاً مبهماً، وقد غابت حجرات الموتى العليا في الضباب وزخات المطر، لكنني عندما توقفت لألتقط أنفاسي والتفتُ إلى الوراء، رأيت العالم الذي ما زال ضياؤه يبث العزاء في النفس، العالم الذي كان مكرساً لأعين الموتى: المدينة، المدينة الجميلة، التي تنحدر على مصاطب متدرجة بجرأةٍ نحو وديان خانثوس، التي تنهض وراءها هضابٌ غابيةٌ داكنة الخضرة، ترتفع مجدداً باتجاه الشرق إلى سلاسل جبلية ما زالت بمنأى عن العاصفة الرعدية، وما

زالت ثلوجها النائية تومض عاكسةً شعاع شمس المساء إلى ملكوت الظلال في پينارا.

بصورةِ ليكيا ورائي كفردوسٍ مسالم وصلتُ أخيراً إلى الكلب وإلى حجرة القبر المفتوحة. وبنظرة جانبية سريعة نحوي سجل الكلب وجودي إلى جانبه وتوقف فجأة عن النباح، وكأنه قد أدى واجبه وأشار إلى الخطر، تاركاً الأمر لكائنٍ من عالم البشر مسؤول ويخشى الموت، وصار بإمكانه العودة إلى قطيعة ثانية.

إرجع! صحت به عندما قفز نازلاً على سيل الحصى نحو الأرض الجميلة، نحو عالم الأحياء. إبق هنا! إرجع إلى هنا! لم أبغِ البقاء وحدي هنا في الأعلى، لكنني توقفت عند عتبة حجرة القبر. سقط نور المطر الرمادي عبر الفتحة على ثلاثة حوامل نعوش حجرية، يُفترض وجود موتى فوقها، إلى أن يأمرهم ربٌّ ما بالنهوض ويباركهم ويواكبهم مشياً مع نفائس هدايا الأحباب للعودة إلى عالم الأحياء.

على حوامل النعوش الحجرية وعلى الزوايا والجدران والأرض التي سيمشون عليها خطواتهم الأولى للخروج من عالم الظلال رأيتُ آثار أزاميل النحاتين، الذين ناموا لا شك قبل آلاف السنين بانتظار عودتهم إلى الحياة. ولكن مهما كان ما دفع الكلب إلى الجنون خوفاً على قطيعه، لم يكن بالتحديد مخصصاً لأعين وآذان البشر.

مبللاً بالمطر والعرق وقفتُ هناك عند العتبة المنحوتة وأنا أحدق مأخوذاً، من دون حركة، كما الكلب قبل قليل، إلى

داخل مسكن موتى غارق في دغشة المساء. الأرض والزوايا والحوامل الحجرية كانت جافة وخاوية.

●●●

في ظل الرجل الطائر

رأيت صليباً من أنابيب النيون على شاطئ تلك الجزيرة في جنوبي المحيط الهادي، التي يسميها سكانها رابا نُوي Rapa Nui، بينما يسميها معظم زوارها جزيرة الفصح. ومثلما يعلو رمز الإرسالية الدينية أو الصومعة مثبتاً على عصي ومرئياً من بعيد، فإن دار المزرعة المهجورة تتصدر فوهة بركان خامد منذ آلاف السنين. والفوهة نصف المتساقطة بعوامل تشكل الصخور والتعرية باتت تشبه قِدْراً مائلاً، يتألف محتواه من دار صغيرة مسقوفة بالصفيح واصطبل ومستودع، وفي مقدمة ذلك كله مجموعة من الأبقار الضامرة التي تخور وهي ترعى في أرض حجرية سوداء، ومجموعة من الخيول التي برزت عظامها لشدة نحولها. وهذا المحتوى يفترض أن يُسكَب في البحر. حافة القدر السفلية تكاد تلامس الموج، ولهذا فهي مبلولةٌ دائماً بالرذاذ والزبد، فيما تشمخ حافته العليا فوق الموج الهادر ويغيب جزءٌ منها بين حجب الضباب.

وصلت إلى هذه الدار على رأس الجزيرة الشمالي بعد تجوال امتد نحو ساعة على منحدرات اللاڤا والهضاب الصخرية، وأردت من هنا عبر شريط شاطئي بلا دروب متابعة طريقي إلى خليج آناكينا Anakena. فحسب إحدى أساطير الأصول

المتعددة المروية في الجزيرة، يوجد هناك هوتو ماتوا Hotu Matua، وهو ملك أسطوري وأحد مؤسسي شعب رابا نوي، وقد هبط من كتَمَرانِ طائرٍ فوق ذرى الأمواج، ليؤسس هنا أول ملاذ للبشر. البراكين هي التي رفعت هذه الأرض نحو السماء من أعماق البحر السوداء، لكن أول من بعث فيها الحياة كان هوتو ماتوا، الذي حمل معه على ظهر الكتمران الطائر، حسبما يُحكى، براعم نخيل العسل وتوت ورق الفم وثمار الخبز والبطاطا الحلوة وشجرة توروميرو المقدسة ذات الأزهار الفراشية الصفراء. ويقال إن العشائر العشر أو الاثنتي عشر هي التي أدخلت جذور كافة الأشجار المحلية إلى خليج أناكينا، ونحتت تمجيداً لأسلافها عبر القرون ما يزيد على ألف تمثال عملاق موآي- تلك التماثيل الضخمة ذات الأنوف الطويلة والتي تدير ظهرها للبحر واقفة على منصات احتفالية، وعيونها المنحوتة من الزجاج البركاني الداكن لا تنظر مطلقاً نحو المدى البعيد ولا إلى أفق البحر، بل دائماً إلى داخل الجزيرة. وهي بأكتافها البازلتية أو الطَفَّوية تمنع البحر من الطغيان على بر الجزيرة. ووجوهها ذوات التعبير الرواقي، تعكس الرزانة التي يقابل بها الأموات وصول أخلافهم إلى ملكوتهم. وأيديهم المضمومة إلى أجسامهم بعجزٍ تُظهر لا جدوى الوقوف في وجه عوامل الزمن الذي يربط السلف بالخلف.

قبيل الغسق، وعلى شاطئ أناكينا الذي هجره منذ مدة طويلة زعماء العشائر والملوك وحاشياتهم، ولم يعد يحرسه

سوى رجال التماثيل الحجرية الذين فقدوا عيونهم، كنت بانتظار سائقة تكسي، امرأة من شعب راپا نوي لتعود بي على طريق ساحلي كثير المنحنيات إلى هانغا روا Hanga Roa المكان المأهول الوحيد المتبقي في الجزيرة.

عندما اقتربتُ من دار المزرعة على دربٍ محت الدواب معالمه، حملت إليّ فجأة هبةُ ريح رائحةَ رمم منتنة، بحيث لم أستطع أن أقي نفسي منها، إلا بوضع قماشة جبهتي المبللة بعرقي على أنفي وفمي: أمام حوض ماء مقلوب تمدد حصان نافق، كان الدود يعج في منخريه وفجوتي عينيه. كما بدأت الحيوانات التي تفترس الجيف بعملها. فجأة هب عن الأحشاء المندلقة سرب من الذباب الأزرق عالياً، وحط ثانية بسرعة. على مسافة عشرين متراً من حوض الماء المقلوب رأيت جيف بقرتين وحصان آخر أمام سور خشبي متحرك ومربوط بالحبال.

إني معتاد منذ طفولتي على التعامل مع حيوانات المراعي، ومع ذلك فقد اضطررت إلى كبت ما دفعني للهروب، عندما اندفعت نحوي فجأة عشر بقرات وأكثر، كانت موزعة في فتحة البركان الخامد. كانت الحيوانات على درجةٍ من النحول بحيث باتت كقطيع من الأشباح: بقرات مبرقعة بالأسود ترافقها سحب من الذباب، التي تبدو لاصقة بالأماكن المحكوكة حتى النزف، وبجراحها المتورمة حاصرتني وهي تخور بألم، فقد اكتشفت وجودي عند حوض الماء، وإلى جانب بحرة لاَ يوجد فيها سوى حصى ورمل وزرق طيور.أدركت

أخيراً أنها تخور عطشاً، وظنتني منقذها.

لحق بي القطيع وأنا أبحث عن صنبورِ ماءٍ في حالة جيدة. عثرت على اثنين وفتحتهما فلم أحصل إلا على الهواء. لم أجد بئراً ولا خزاناً ولا حتى إنساناً في أي مكان. كان باب الدار مقفلاً بسلسلة معدنية وعدة أقفال، فيما تخبط الريح باب المستودع الفارغ.

في المحيط القريب من الدار عددت أخيراً خمس جيف في درجات مختلفة من الإنتان: ثلاث بقرات وحصانين. هبت من الجنوب ريح سحبت معها الضباب المجتمع في فتحة البركان فوق المراعي الجرداء ومزجت رائحة التعفن الرمي برائحة جوافة ناضجة، وروث خيول متروكة في البرية عبر الجزيرة كلها. بإمكان الحيوانات أن تلعق المطر عن الصخور السوداء أو تشرب مياه البرك التي سرعان ما تغور بعد هطل سريع، لكن هذه الطريقة ليست ناجعة في حال وجود قطيع.

طبعاً خطر ببالي أن أفك حبال السور وأحرر الحيوانات، ولكن بما أن الأرض وراء الأسوار والجدران جافة لا ماء فيها، تخليت عن الفكرة وعقدت الحبل ثانية. لا يمكنني أن أقدّم هنا أي نوع من المساعدة، سوى أن أحكي لسائقة التكسي التي تنتظرني عن بؤس حال القطيع المتروك في هذه المزرعة المهجورة، والوصول بمساعدتها إلى أحد المسؤولين في هانغا روا. لا شك في أن صاحبها قد تعرض لحادث ما.

عندما تَسلَّقتُ فوق الجدار المجاور للسور المتحرك لأتابع طريقي، رأيت فجأة رؤوس شياطين أو آلهة، رأيت

أيادٍ حجريةٍ ومخالب وأجنحة طيور: ففي هذا الجدار المبني بالحجارة الجافة ركبت قطع لا يحصى عددها من منحوتات أصلية، كما طلي حجرا زاوية كبيران بعلامات رونغورونغو Rongorongo وهي الرموز الكتابية الوحيدة التي وجدت في البحار الجنوبية، ولم تعد مقروءة بعد هلاك مبدعيها. ثمة كرة لافا مكسورة على تاج الجدار تظهر حفراً نافراً لهيئة كائن يجلس القرفصاء، جذعه لرجل ورأسه مع المنقار لطائر بحري استوائي. إنه تجسيد لذلك **الرجل الطائر** الذي هيمن على تاريخ جزيرة الفصح لقرون طويلة.

في ساعات قراءتي المسائية في مكتبة السفينة التي جئت بها قبل يومين، رأيت صوراً لرجال طيور، ولرموز كتابة رونغورونغر وللأساسات المنحوتة بإتقانٍ في الحجر لبيوت من القصب بيضاوية الشكل، بلا نوافذ، تشبه زوارق مقلوبة. ثلاثة من الرموز الكتابية الغامضة التي نقلتها عن الكتاب المصور إلى دفتر ملاحظاتي، رأيتها هنا ثانية على حجري الزاوية، وإلى جانبها كسور بخطوطٍ انسيابيةٍ لأساسات بازلتية:

وكأن سيد الدار الغائب قد ركب هنا على الجدار شذرات فقط من تاريخ أسلافه، بمثابة أرشيف حجري. ومواد ذلك متوفرة حوله بكثرة. فمن يتجول هنا عبر الأرض العارية من الشجر، بين البراكين الخامدة، لن يحتاج إلى البحث طويلاً عن بقايا. فقد عاش هنا، كما يقال، أكثر من خمس عشرة ألف إنسان، وربما ثلاثون ألفاً. أما الآن فإنهم لا يتجاوزون أربعة

آلاف. ومرت أوقات عاش فيها هنا أقل من مئتي إنسان بين الأطلال والتماثيل المقلوبة أو المقطوعة الرؤوس وفي أماكن مقدسة يبحثون عن غذاء ويحاربون من أجل الغذاء.

كانت سفينتي تحاول الخروج من منخفض عاصفة وكنت أثبت الكتب أحياناً على طاولة مكتبتها فقرأت أثناء ذلك عن التسميات الكثيرة التي حملتها رابا نوي عبر القرون، ثم تخلت عنها. أسماء لكل منها قصة مختلفة. فطوال أجيال سميت الجزيرة Kahukahu O hera، أي أرض العشب غير الخصبة والمقفرة، وسميت في أزمان خاصة Te pito te henua، أي سرة العالم، لاقتناع سكانها مدة طويلة من الزمن، نظراً لخواء الأفق المائي حولهم، بأنهم البشر الوحيدون تحت الشمس وأن أرضهم هي الأرض الوحيدة كذلك. ولكن بعد إدراكهم هذا الخطأ حملت أرضهم طوال أجيال اسم Mata kit e tangi، أي نظرة إلى النجوم لتذكرهم بزمن الرعب، عندما جرجر تجار العبيد البيروفيين معظم سكان الجزيرة إلى جزر تشينتشا على مسافة 4000 كم لجمع زرق طيور البحر، وحيث حشروا في حظائر دون سقوف، فباتوا يمضون الليالي باكين وهم ينظرون إلى بروج السماء التي يقع وطنهم تحتها.

ولكن على كثرة التسميات المتناقلة شفاهياً فحسب، أو المدونة في يوميات السفن، إضافة إلى الاسم المعمول به رسمياً حتى الآن رابا نوي أي الجزيرة الكبيرة، بقيت خرائط السفن تحتفظ بالاسم المنسوب إلى المكتشفين أو المحتلين، ولا سيما في ذكرى أحد الفصح ذاك من عام 1722 عندما وصل تاجر

هولندي مسافر، كأول شخص بين صف طويل من المحتلين الإسبان والإنجليز والفرنسيين وأخيراً التشيليين أيضاً، وذلك عندما نزل بقاربه على الشاطئ ليثبّت عليه بالمسامير اسم شركة الهند الغربية التجارية بالعلم والصليب على أرض الرجل الطائر. كان صليب أنابيب النيون المطفأة بمثابة تذكير بتلك المصادرة في السماء الرمادية.

سائقة التكسي التي كانت تنتظرني في خليج أناكينا، سبق أن أخذتني في يوم وصولي، إلى أطلال تلك القرية التي كانت تقام فيها المراسم الاحتفالية، حينما يجتمع زعماء العشائر بعد مباراة تنافسية، مميتة غالباً، لتنصيب واحد منهم **رجلاً طائراً**، أي سيداً على البشر. تقع القرية على حافة بركان خامد، تجمعت في فتحته بحيرة ينبت القصب على أطرافها، وتنعكس على سطحها سماء الصيف، إلا أن جناحها الجنوبي الغربي يميل بما يعادل مئتي متر عمودياً تقريباً نحو البحر. أما البيوت الحجرية التي لا نوافذ لها فقد التصقت بحواف الفوهة مثل أعشاش فوق القاع الصاخب.

سنوياً في موسم حضانة بيض سنونو البحر شبه المقدس، كان يتجمع هنا أفضل سباحي ومتسلقي العشائر. وباعتبارهم يمثلون زعماء العشائر، ومن ثم بأمر منهم ينحدرون هبوطاً على جدار الفوهة شبه الواقف والكثير الشقوق إلى البحر، حيث يرمون أنفسهم على حزم من القصب ويجذفون بأيديهم، عبر مضيق بحري مليء بأسماك القرش، إلى **موتو نوي Motu Nui** وهي جزيرة صخرية جرداء قريبة من جرف الشاطئ. إذا

نجحوا في ذلك، يتوجب عليهم الانتظار على هذه الصخرة المغطاة بزرق الطيور لعدة أيام، ولعدة أسابيع أحياناً، حتى وصول الطيور المهاجرة والحصول على أول بيضة من سنونو البحر.

من يحالفه الحظ بالحصول عليها، فإنه يربطها من ثم حول رأسه بقماشة ويسبح باتجاه الجدار الذي تتكسر عليه الأمواج. وإذا تمكن من تثبيت أقدامه على الجدار في هذا الرذاذ الكثيف، فعليه تسلقه صاعداً إلى القرية في الأعالي المدوخة، ليسلم زعيم عشيرته بيضة سنونو بحر سليمة. فيصبح بذلك رجلاً طائراً ويحكم الجزيرة حتى الموسم القادم. عملية التسليم هذه يحتفل بها طوال أيام على نحو صاخب ماجن، يتخلله حسبما قيل شعائر أكل لحم بشري. إن بيضة سنونو البحر التي غنمت في موتو نوي، لا تمتلك القدرة فحسب على تحويل زعيم عشيرة إلى رجل طائر يسود الجميع وكل شيء، بل هي أيضاً دلالة ومؤشر، لا لبدء سنة جديدة فقط، بل لبدء زمن جديد.

أثناء السفرة على حواف البركان، وبينما ابنة السائقة جالسة على المقعد الخلفي منهمكة في دفتر رسم، بحيث تتجاوز رؤوس أقلامها الملونة حدود الزهرة أو الحصان وعند كل مطب ومع كل مناورة بالمقود، تتنهد بصوتٍ عالٍ، قالت لي السائقة، إن هذا الرجل الطائر اللعين كان، على ما يبدو، بداية النهاية لعبادة الأسلاف وأصنامها الحجرية، نعم، إنه هو الذي نعَب حضارتها.

حتى ما قبل سنتين كانت السائقة تعمل بائعة تذاكر

ومرشدة في صالة سينما في سنتياغو دي تشيلي، وقد عادت إلى جزيرة الفصح كي تكبر ابنتها التي هجرها أبوها، بين شعبها على الأقل وهي تعرف تاريخ راپا نوي، ليس فقط من كتاب قراءة ابنتها، بل أيضاً من فيلم هوليودي رأته في سنتياغو أكثر من عشر مرات.

طبيعي أن تختلف الآراء حول الأفلام، لكن القصة الأقرب إلى الحقيقة من القصص الكثيرة حول تاريخ راپا نوي، تبقى أنه في سياق هذه المنافسات الشعائرية الحمقاء من أجل السلطة، والتي لم يسمح للنساء حتى كمشاهدات بحضورها، تحولت أصنام الموآي تدريجياً إلى مجرد رموز للسلطة والقوة، كما هو حال الرموز كافة في عالم الذكور، ضخمة، أضخم، فأكثر ضخامة ما أمكن، وهكذا دواليك!

وهكذا من أجل الضخامة المتنامية للعمالقة الحجرية تمت التضحية بكلِّ شيءٍ، بالقدرات والطاقات، بغابات النخيل، بالبشر، بثروة الأرض كلها، إلى أن تحولت الجزيرة إلى صحراء قاحلة، وإلى أن أدرك الرجال الطيور، غير الصالحين للطيران، أن الحجارة لا تؤكل.

هل أرغب في رؤية مكسر الحجارة التي نحتت منها غالبية أصنام الموآي، ثم دُحرجت في مواكب مضنية لا نهاية لها، على جذوع النخيل عبر الجزيرة كلها إلى منصاتها الرسمية؟ عرضت علي سائقة التكسي لقاء مبلغ إضافي زهيد أن تأخذني إلى هناك، إلى رانو راراكو Rano Raraku.

بعد نحو نصف ساعة رأيت هناك عمالقة حجرية إلى جانب

بعضها وفوق بعضها، يصل ارتفاعها حتى عشرين متراً، ما زالت ملتحمة بالكتلة الخام، لأن طاقات راپا نوي المتلاشية لم تعد كافية لإنجازها. وأيضاً على طول طرق المواكب والتي غطّاها عشب طويل انتصبت أو ارتمت أصنام موآي، وكأن خالقيها قد تخلوا عنها بين ليلةٍ وضحاها وإلى الأبد، لتتحول من رموز قوة وسلطة إلى مجرد دلالات على الفناء والتلاشي.

عندما لم يعد الرجال الطيور قادرين على التفوق على بعضهم بعضاً في نحت وحوشٍ حجريةٍ أعظم، قالت السائقة، بدؤوا بإسقاط وحوش العشائر المجاورة وقطع رؤوسها، ووصلوا حتى إلى قتل الجار نفسه، وفي معظم الحالات افترسوه أيضاً، إلى أن قضوا على أنفسهم. وبقية الشعب التي باتت ضعيفة جداً وغير قادرة على القتال بعد، فوجئت بظهور سفن من المحيط، من عالم أقوى، رست في راپا نوي. فجرجر تجار العبيد الشعب الذي انتقلت إليه أمراض يجهلها، وتسللت إلى أرضه مع المحتلين والمكتشفين حيوانات وحشرات غريبة قضت على محاصيله، كما سُجن السكان في معسكرات اعتقال على جزيرتهم، لأن مربي الأغنام الأوروبيين يحتاجون إلى المراعي الحرة من أجل قطعانهم.

إن وجود أربعة آلاف نسمة حالياً في راپا نوي- نصفهم من المهاجرين التشيليين- يعود الفضل فيه إلى الاحتلال التشيلي الأخير للجزيرة، ومؤخراً تحديداً إلى الجنرال أوغستو پينوشيه، نعم، نعم، إلى هذا الديكتاتور السفاح، عميل الولايات المتحدة الأمريكية. فهو شخصياً قد أحب شعب

رابا نوي وزار الجزيرة مرتين، وأمر ببناء مدرج للطائرات وطرق سفر، واهتم قبل كل شيء آخر بأن يصبح أحد أبناء رابا نوي لأول مرة حاكماً للجزيرة. وما زال هنا في الجزيرة عدد كاف من الناس الذين يشكرون للجنرال فضله.

كان الوقت قد تجاوز العصر، وكان بوسعي تقدير المسافة على خريطتي من دار المزرعة تحت صليب أنابيب النيون حتى أناكينا، ولكن ليس الوقت الذي سأستغرقه على مساحة بلا دروب، مليئة بالمنحدرات والحفر، فقد قالت السائقة: قبل هبوط الغسق.

ساد السكون في المراعي وكفت الدواب عن الخوار والصهيل، وعادت لتسير ببطءٍ على الأرض اليابسة وكأنها قد استسلمت إلى مصيرها، الموت عطشاً.

راودتني للحظات فكرة أن أنتزع من الجدار منقاراً حجرياً، كسرة من تجسيدٍ للرجل الطير، وأن آخذها معي. فهذه البقايا كانت هنا مجرد مواد بناء لا أكثر. ثم فكرت بالموآي المزدان بجميع رموز ديانة الرجل الطير، الذي غُنِم في غزوة آثارية، ونقل إلى المتحف البريطاني في لندن، فأدرت ظهري للجدار ومشيت في طريقي.

صليب أنابيب النيون لم يعد مرئياً، لكن المسافة حتى خليج أناكينا كانت لا تزال طويلة، عندما صادفت أساسات بازلتية لثلاثة بيوت قصبية تعفنت منذ مدة طويلة. وعلى مسافة غير بعيدة عن هذه الأساسات التي تشبه ثلاثة زوارق مصبوبة في العشب، وعلى حافة الجرف تقريباً، رأيت على منصة تغطيها

الأعشاب والجوافة تمثال موآي بين أطلال ضخمة وقد شوهته الريح المالحة وعوامل الحت والتعرية خلال قرون طويلة.

في أثناء رحلتي عبر الجزيرة رأيت صفوفاً طويلة من الأصنام المنحوتة من البازلت والصخر البركاني والتي تعرضت لكوارث داخلية وخارجية ما زالت غامضة، وقد أعاد المكتشفون والباحثون والمعجبون بحضارة راپا نوي نصبها على منصاتها بعد جمع أجزائها وكسورها البالغة الثقل. أما هنا فقد كان كل شيء على حاله، متروكاً لعوامل الزمن. هنا تدخّل القفرُ برحمةٍ ليمحو آثار عنف البشر وجنوحهم إلى التدمير، فغطاها بالأوراق والأغصان المجدولة، وترك عوامل الحت تفعل فعلها بحيث بات رأس الصنم يشبه صخرة خام.

وهذا الموآي الذي يستلقي رأسه المقطوع على وجهه، مشكلاً مع الجسد الساقط خطاً متصلاً، مشيراً عبر المنحدرات السوداء نحو البحر، كان بمثابة مثال على أرباب خابت آمالهم فالتفتوا عن البشر وجزيرتهم نحو مدى المحيط وغيوم السماء وأبراجها.

●●●

مشاهد صيد

رأيت طيراً بحجم عصفور، كان مبتلاً بلعاب صيّاده، وهو قطة ذات فروة حمراء، بحيث لم يكن من الممكن التعرف على ألوان ريشه الأصلي، إلا بتخمينٍ إلى أي نوعٍ من أنواع طيورِ الپراغواي الثلاثمئة ينتمي. رغم إنهاكه حتى الموت، كان يحجل بحركات تجبره القطة عليها، عندما تأخذه بين مخالبها وترميه عالياً. ولعدم قدرته على الطيران، كان يسقط مجدداً على أسفلتٍ متشقق مليء ببقع الزيت في محطة وقود، ويحجل قليلاً: يحجل بحثاً عن مخبأ أو مهرب، لكنه بعد كل محاولة هروب، تبدو ناجحة، كان يسقط ثانية بين مخالب صياده المتدرب جيداً على طرائق الصيد.

وفي لعبتها المثيرة للحماسة كانت القطة تدفع الطير إلى البحث عن إمكانيات هروب أصعب بالنسبة للطريدة والصياد معاً: في فراغاتٍ تحت درجٍ منهارٍ، في الشقوق بين ثلاثة دلاء مملوءة بتربة سوداء وفحم ناعم وزيت مستخدم، أو بين النباتات المتسلقة على الجدار، أو بين عجلات سيارات متشققة ومرمية فوق بعضها. وكانت تنجح كل مرة في إحباط محاولة ضحيتها للفرار.

وكلما بات خفق جناحي الطير أبطأ وأوهن كانت القطة

ترميه إلى مسافة أعلى أو تدفعه عنها بعزم وكأنها تريد بذلك إحياء قواه مجدداً، ليس فحسب، بل تعويضها أيضاً. كانت تحمله أحياناً بفمها لتضعه عند منطلق محاولة هروب جديدة. لكنها في نهاية المطاف لم تعد ترمي في الهواء أكثر من كومة ريش دبقة وغير متناسقة، بحيث لم يعد يقاوم السقوط، ولو بعض الريش، ما يذكّر بأن هذه الكومة كانت قادرة على الطيران مع الريح بعيداً عن مطال الأعداء الأرضيين وترفرف بجناحيها وتسبح أو تهوي فجأة لتعاود الطيران قرب رأس الصياد بحيث يُضطر لا إرادياً إلى الاختباء.

جرت لعبة الموت هذه في وقت مبكر من الصباح تحت السقف المتشقق لمضختيّ محطة وقود قرب شاطئ نهر پَرانا في ثاني أكبر مدينة في الپراغواي، التي غيّرت اسمها بعد سقوط الديكتاتور ألفريدو شْتروسْنَر، من Puerto Presidente Stroessner أي: **مرفأ الرئيس شتروسنر** إلى ما يرتبط بإحدى الجهات الأربع فحسب: **مدينة الشرق**. وصاحبة البنسيون المجاور، حيث قضيتُ بضعة أيام من مايو/ أيار مع الفطور، أخبرتني بقصة صاحب هذه المحطة المهملة الذي اختفى، وهو رجل من شعب الغواراني Guarani عُرف في الجوار بفخره بنقائه من أي قطرة دم أوروبي: إسباني أو برتغالي، كحال الكثير من سكان البراغواي، ولا قطرة من دم الغزاة.

أسهم هذا الهندي المحلي Indio في بناء سد إيتايپو Itaipú العظيم. وبالمال الذي وفّره من سنوات العمل الشاق استقل بعمله الخاص على قطعة الأرض المجاورة. غير أن الجميع في

منطقة النهر كانوا يعرفون أن محطة الوقود قد تحولت تدريجياً إلى مركزٍ لتفريغ وتوزيع البضائع المهربة التي يتم تداولها في شبكة أسواق مدينة الشرق، والتي تُهرّب من البرازيل عن طريق نهر پرانا في زوارق وقوارب مطاطية: إلكترونيات رخيصة، نسخ مقرصنة موسيقية وسينمائية، بضائع ذات ماركات مزوّرة خيطت أو حيكت أو طبعت عليها في أقبية أو كراجات. ولكن مع إيجاد السوق المشتركة الكبرى سقطت الحواجز الجمركية الواحد تلو الآخر، وجف كثير من حقول التهريب.

وقيل إن مالك محطة الوقود قد تحول إلى تهريب الكوكائين الذي يدر ربحاً أكبر، والأكثر خطورة بما لا يقاس، إلى درجة أن الرجل قد اختفى، ويحتمل حتى أنه قُتل. ذات يوم على كل حال جاءت سيارتا شرطة إلى محطة الوقود المغلقة. لكن الطير، حسب تعبير صاحبة البنسيون، كان قد طار.

خلال الأسابيع التالية كانت بعض السيارات تنتظر عبثاً عند مضختي الوقود. ثم جاءت الأيام التي حُطمت فيها النوافذ ونهبت رفوف زيت المحركات، وسوائل التنظيف، وورق مسح الزجاج، وخرائط الطرقات وما إلى ذلك من لوازم محطة وقود. وفي نهاية المطاف اختفت الرفوف الفارغة والطاولة والكراسي وحتى اللمبات الكهربائية، وتسللت النباتات المتسلقة والمعرشة دون عوائق إلى كل مكان، حتى إلى حيث يرتمي الآن الطائر المبلول بعد انتهاء جميع تمارين صيد القطة تحت سقف المضختين، وكأنه كان جزءاً من عملية جردِ

محتوياتٍ منسيّة من عهد الازدهار وقد اتخذ شكله الحالي في عملية تدهور بطيئة، وعلى نحو لا يختلف عن النوافذ المكسرة والباب المحطم أو تمديدات البنزين والزيت التي مزقتها نباتات دغلٍ لا أزهار لها.

على الرغم من كون القطة شعثاء ونحيلة وبالغة الجوع، فإنها لأسباب عصية على الفهم، لم تفترس طريدة صيدها، بل رمتها عالياً وقد ملّت اللعب وتركتها وراءها حيث سقطت، على بلاطات زرقاء كإطار فتحات الآبار عادة، مصفوفة هنا حول حفرتين سوداوين كان ينتصب فيهما مضختا وقود.

كنت متكئاً بكوعي على نافذة غرفة البنسيون أراقب بمنظاري المقرب الضحية الهامدة في ثوب ريشها المبلول الداكن، الذي لم يتحرك منه سوى ريشة واحدة أحياناً، في هذا الصباح الرطب والحار من شهر أيار/ مايو.

ثمة موكب من **نمل أوراق النبات** كان يعبر مسرعاً على مسافة بضع سنتميترات من الجثة الصغيرة غير آبه لها. لا شك في أن طريق النمل، قبل السقوط الأخير للطير، كان يمر بجانب مكان السقوط مؤدياً إلى مكان ما، خفيٍ ومتاهي البنية، في قفر محطة الوقود. فهذه الحشرات كانت تحمل فوق رؤوسها أجزاء مقصوصة بعناية من أوراق النبات متوجهة بعزمٍ وإصرارٍ إلى ذلك المكان مثل أسطول صغير بأشرعة خضراء، غير مبالٍ بالطير القتيل.

●●●

الكاتب

رأيت انعكاس صورة سيلٍ متجلدٍ في مياه بحيرة جبلية بلونٍ أخضر فاتحٍ في مقاطعة خام Kham شرقي التيبت، ومع هبوب نسائم خفيفة محمّلة بروائح الصمغ والطحالب على الجروف الواقفة والمنحدرات الخالية من الدروب، كانت الصورة على سطح الماء تتكسر إلى شحطات ظلّية، لتعود فتتشكل مجدداً من مويجاتٍ ناعمة بعد همود الريح. يطلق بدو الوديان الجبلية في سلسلة جبال تسولا Tsola على هذه البحيرة اسم **يلْهون لْهاتسو** Yilhun Lhatso، وفسروه لدى السؤال عن معناه، بأنه اسم لبحيرة مقدسة ذات جمال خاص، بحيث أن كل من يراها ويقف على ضفافها مرة، لا يفارقها إلا بحسرة.

إن ارتفاع قمم الجبال المحيطة بيلْهون لهاتسو حتى خمسة وستة آلاف كيلومتر لم يجعل السماء فوقها تبدو أصغر، وخيامنا التي نصبناها على ضفافها المغطاة بالرمل والحصى كانت أيضاً على ارتفاع أربعة آلاف متر فوق سطح البحر. ومن هذه الضفاف بدت حتى أعلى القمم، التي ما زالت مكسوة بالثلج، قريبةً بصورةٍ غريبةٍ ويسهل الوصول إليها. ثمة مجموعات من شجر أرز الهيملايا ذي اللحى المجدولة

ومن أشجار التنوب والصنوبر الباكي، كانت تُسبغ على المروج الشاطئية منظرَ حكاية خرافية، على الرغم من خواء المراعي الجبلية من البشر والمواشي، ووصول حدود أشجارها إلى ارتفاعات عالية فوق سطح البحر.

كانت خيامنا ذات القباب المساكن الوحيدة على ضفاف البحيرة، وقريبة من المياه إلى حد أننا، مع قرقرة الموج، كنا نغفو ونستيقظ على الشعور، وكأننا ركاب طوفٍ سيجنح بنا على أعلى جبل في الدنيا. كانت مجموعتنا مؤلفة من ثلاثة رجال وثلاث نساء ربطت بينهم الصداقة أو الحب، وكان هدفنا عبور أرضٍ خام، أي شرقي التيبت، الذي ضم المحتلون الصينيون معظمه إلى ولاية سِتْشوان: من مدينة يآن Ya'an الواقعة على سفوح هضبة التيبت عبر أعالي يانغ تسي كيانغ وميكونغ حتى وسط التيبت ولهاسا Lhasa، أي نحو 1500 كم مشياً على الأقدام مع قوافل بدو الياك Yak أو في شاحنات مكشوفة من التي دخل بها العصر الحديث حتى إلى أشد الوديان بعداً هنا.

ومنطقة شرقي التيبت التي نادراً ما يطرقها الرحالة، باتت في وقت انطلاق رحلتنا محظورةً بل ويُمنع الدخول إليها، ولا سيما بالنسبة لرحّالة الجبال الغربيين. ففي الأديرة الكبيرة في وسط التيبت، مثل دريبونغ وغانْدِن وسْيرا، انتفض الرهبان مجدداً ضد جيش التحرير الشعبي القوي، الذي كان جنرالاته على قناعة بأنهم قد حرروا شعب التيبت من عبء السلطة الاقطاعية الكهنوتية ومن أسوأ أمراض التخلف. وحيثما

تصطدم هذه العملية بمقاومة أو اعتراض فلا محيد عن الاستمرار فيها. وهؤلاء الجنرالات لا يريدون شهوداً عند قضائهم على انتفاضة ممثلي الماضي.

ولكن ما أن نشرت بعض الصحف الغربية على صفحاتها الرئيسية أولى صور الأزقة التي يغلفها الدخان وقوافل نقل القوات العسكرية والكهنة المقيدين، حتى أُلغيت جميع تراخيص الدخول إلى التيبت ورُفضت الطلبات الجديدة رفضاً قطعياً، وأغلقت حواجز طرق السفر. ولكن عندها كان قد مضى علينا أسبوعان بتراخيص ما زالت صالحة، على طريقنا في أرض البدو، وفي منأى عن مطال مسؤولي الحدود. كان يرافقنا حمالان من شعب خامپا ودليلٌ منه أيضاً يتقن بعض اللهجات المحكية الكثيرة على طريقنا. ولم تعد تصلنا الأخبار إلا باعتبارها شائعات: لقد سلَّح الرهبان أنفسهم، قال سائق شاحنة كان ينوي نقل مناشِر آلية وآلات تقشير جذوع الشجر إلى غابات خام الجبلية، التي صدرت أوامر جيش التحرير الشعبي باقتلاعها، لكن انهيار جزء من الطريق منعه من متابعة مهمته. وقال: تصوروا! رهبان يحملون السلاح! وفي لهاسا هناك اعتقالات وقتلى.

في مانيغانغو، وهي قرية مغبرة، تتقاطع فيها ثلاثة دروب رملية وحصوية لنقل الإمدادات والبشر، يقوم حولها عدد من الأبنية الخشبية المطلية بذوق فني، كان كل من سألناه يخبرنا عن حوادث واشتباكات مختلفة عن الآخر: حسب أحد الأخبار عاد الهدوء ليسود المنطقة، وحسب آخر، أُضرمت

النيران في أديرة ومعابد. قال شاهد إنه رأى بعض المدرعات تنطلق، أما الآخر فرأى قطعان الياك ترعى. أما دليلنا الجبلي تارشين فقد كان يترجم لنا كل خبر من هذه الأخبار بابتسامة رزينة.

على جانب الطريق، والثلج يهطل خفيفاً، تجمع بعض البدو المسلحين بالخناجر، حول طاولة لعبة بلياردو، مليئة بالبقع، وهم يلعبون ويتراهنون. وعند سماعهم الأخبار ضحكوا من تناقضها، واستغربوا: انتفاضة؟ أليست خام في حالة حرب ضد الصينيين منذ عشرات السنين! فليبنوا ما شاؤوا من الطرقات والسكك والجسور، فخام كانت وستبقى قلب التيبت النابض. ثم إن الحراس الشخصيين للدالاي لاما، هم دائماً من خام.

استل أحد اللاعبين خنجراً من معطفه الفرائي، وحركه إيمائياً عند رقبته مشيراً إلى كيفية ذبح الغزاة، وكان يضفر شرائط براقة مع شعره الطويل حتى حزام خصره. وقبل أن ينحني فوق الطاولة استعداداً لضربته القادمة، رفع عصاه وسدّد بها مثل بندقية، ثم أطلق النار على عدو مجهول. كان دليلنا تارشين يعرف التاجر الصيني الذي يؤجر طاولة البلياردو في العراء: أجرة كل لعبة بثلاثة يوان Yuan، يدفعها الخاسر. لم يسمع الصيني شيئاً عن توسع الانتفاضة، لكنه نصحنا بتجنب حواجز الرقابة التابعة للجيش في ديغه وكامدو.

يا للسكينة التي كانت سائدة، عندما وصلنا بعد ظهر اليوم التالي إلى يلهون لهاتسو! تقع البحيرة في وادٍ جبلي على مسافة

ثلاثة عشر كيلومتراً فقط جنوب غربي مانيغانغو. أنزلتنا الشاحنة عند مسربٍ واختفت في سحابة من الغبار، فاختفى معها أي أثر للضجيج، حتى حفيف الهواء في أشجار الصنوبر الإبري وخرير ماء المسيل، مفسحاً في المجالِ لسكينةٍ بدت وكأنها تنبعث من سطح الماء الأخضر، بل كأنها ستنفصل عنه لتملأ منطقة الأشجار وتمتد صاعدة إلى منطقة الجليد.

ثمة قضبان خشبية مغروسة في التربة بشكل دائري ومربوطة ببعضها بشبكةٍ متداخلة من الخيوط، وترفرف على رؤوسها مئات من جياد الريح، من بيارق الصلاة، بدت وكأنها الدلالة الوحيدة على أن هذا المكان يُزار على نحو منتظم من قبل البشر، حجاجاً ورعاة. وهذا الشكل المكوَّن من خشب وخيوط وقماشٍ كتبت عليه أقوالٌ مقدسة Mantra بدا على درجة من الخفة وانعدام الوزن، وكأنه مع النسمة القادمة سيرتفع إلى السماء مع مئات البيارق المرفرفة، مخلفاً وراءه الشاطئ الخالي من الدروب بلا أي أثر بشري.

لكنني رأيت من ثم أثقالاً عملاقة يصعب تحريكها، أحجاراً هائلة، كتلاً صخرية، إما في المياه الضحلة وإما على رمال الشاطئ، وقد امتلأت بحروف منحوتة، بحجم الكف أولاً، ثم بصفٍ ثانٍ يبلغ ارتفاع حروفه متراً، بحيث تشكل حول شواطئ البحيرة القريبة والبعيدة ما يشبه سوراً، لم تنحته أيادٍ بشرية، بل عوامل الحت والتعرية من مياهٍ ورياحٍ تركت آثارها تنمو في الحجارة مثل الضفائر. ألقيتُ نظرة بمنظاري المقرب، فتبين لي أن هذه البحيرة التي تبلغ على خرائطنا ثلاثة

كيلومترات طولاً وكيلومتراً واحداً عرضاً، محاطة بشريط من الحجارة المكتوبة نحتاً، بآيةٍ تملأ جميع الأديرة والمعابد على نحو متكرر، والتي قرأها لنا تارشين عن الصخر: **أوم ماني پادمِه هوم**، وفيها حسب عقيدة المؤمنين المصلين يكمن الصوت الأصلي للكون مقروءاً أو منطوقاً، وكل تكرار لهذا المقطع، سواء همساً أو بتحريكِ كرّارٍ ورقيٍ مكتوبٍ في طاحون صلوات بشكل دائري، يُعد خطوة من خطواتٍ لا تحصى لتحرير النفس من أخطاء وأشكال وصيغ العالم المدرَك.

في طريقنا عبر خام، رأينا جدراناً بطول كيلومترات عديدة، تُساير ثنيات السلاسل الجبلية، جدران آياتٍ مشيّدةٍ من الحجارة فحسب، وقد حُفرت عليها الآية أو نُحتت... كما عبرنا مخاضات شاهدنا فيها مئات آلاف من الأحجار الشبيهة، بحجم الدحاحل أو القبضة أو الرأس مكتوبة ومسقطة في الماء في سياق مئات السنين، كي ينساب تيار الماء فوقها مكرراً بذلك الآيةَ إلى ما لا نهاية. وتسلقنا منحدرات منسكبة نحونا من الغيوم، فرأينا عليها آلاف البيارق المرتبة كحقول مثلثية الشكل، تخفق مصليةً. وفي أعالي نهر يانغ تسي كيانغ رأينا رهباناً يحملون ألواحاً خشبية وفخارية، حُفرت عليها هذه الآية وهم يضربون بها سطح الماء، **فيطبعون الآيةَ** بذلك على أطول أنهار آسيا، ليحملَ الكلماتِ إلى البحر، حيث تتحول كل ضربةٍ موجةٍ وكل تبدلٍ بين المد والجزر إلى صلاة.

إن هذا الوادي الجبلي ببحيرة مسيلاته، قال تارشين، قد صار بكتابة شواطئ البحيرة طاحون صلواتٍ عملاقة مكونة

من سلسلة جبال وسماء وماء، يمكن للإنسان المتجول أن يحرك شريط مقاطعها دائرياً، بأن يقرأ الآية همساً مقطعاً فمقطع: **أوم ماني پادمِه هوم. أوم ماني پادمِه هوم...**

وفجأة كُسرت السكينة، لا، بل ربما قد تعمقت أكثر من خلال وضوح صوتٍ معدني خفيف. كنا قد نصبنا خيامنا وجمعنا حطباً وأشعلنا ناراً، عندما تناهت إلينا من الزرقة البعيدة على شاطئ البحيرة الجنوبي طرقات خفيفة، يذكّر وقعها وإيقاعاتها المتبدلة بصندوق الموسيقا.

- إنه الكاتب، قال تارشين.

- الكاتب؟ سألته.

- إنه يكتب بإزميل ومطرقة، قال تارشين. إنه ينحت هذه الحروف على الشاطئ منذ قرون.

- منذ قرون؟ هو يكتب منذ قرون؟

- منذ قرون، قال تارشين.

كنت أعرف أن هناك رهباناً يغادرون أديرتهم ليعيشوا سنة أو لبقية حياتهم متنسكين في مغاور أو صوامع سَوّدها الدخان. وحينما يموت أحدهم يخلفه راهب آخر ليلتقط خيط الحياة الذي انقطع، فيتابعه مديراً طواحين الصلوات وضامّاً جياد الريح في خيوط لا نهاية لها... لكن تارشين قال كل شيء أراد قوله أو تمكن من قوله: الكاتب الذي ينحت حروفه في الحجر، يقوم بذلك منذ قرون.

وطبعاً حاولنا في الأيام التالية أن نرى الحجّار، وتتبعنا صوت شغله، الذي كان يوقفه كلما اقتربنا منه أكثر مما يجوز.

بالمنظار رأيت مرةً، بين كتل صخرية وأشجار شوكران، ظلاً، ربما ظله، ولكن قبيل أن أتعرف ما إذا كان ظل إنسان أم حيوان، رأيت في المكان الذي انسل عبره، لا أكثر من أرض غابة تضيئها الشمس.

لقد حققت يلهون لهاتسو حسرة الوداع التي يشي اسمها بها، إلى درجة أن بقينا ستة أيام على ضفافها وأجّلنا الرحيل مرتين. كنا نسمع يومياً إيقاعات الكاتب، وأحياناً غناءً آتياً من البعيد، غناءً طفلياً غريباً وطروباً. لكننا توقفنا عن محاولة الالتقاء به أو مفاجأته. غير أني عشية مغادرتنا، وفيما كنت نازلاً من المسيل عبر منحدرٍ معوشبٍ إلى الضفة، واضطررت إلى تجنب معبرٍ بسبب انهيار جبلي حطّم الصخور فوقه، توقفتُ فجأة وراء ذلك الرجل الذي، حسب كلمات تارشين، يكتب على شاطئ البحيرة منذ قرون:

كم كان صغير الحجم. كان يرتدي ثوب رهبان أحمر مهترئاً وبطانية على كتفيه الضيقتين. وكان منهمكاً جداً وهو يحدّد بمسمار أو بشوكة حديدية، الخط الذي سيحفره الإزميل لإبراز ميلان الحرف في الحجر، بحيث أنه لم ينتبه لاقترابي منه عبر متاهة الصخور التي أخفتني عنه وأخفته عني. توقفتُ في مكاني متفاجئاً، بل مرعوباً تقريباً، وأردتُ الرجوع عبر الصخور والبحث عن درب آخر، تاركاً هذا العجوز الضامر لكتابته، عندما التفت نحوي:

كان طفلاً، صبيّاً، ربما في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، وأنفه يسيل. رفع ذراعه ومسح أنفه بكم ردائه. كان

في خديه تلك الحمرة ذات الزرقة العميقة التي يخلفها الصقيع في وجوه الكثيرين من سكان هذه الجبال. بدا وكأنه يتوقع قدومي، فنظر إلي طويلاً بحذر، من دون كلمة أو ابتسامة، ثم التفت إلى الحجر ثانية وتابع الكتابة.

●●●

خرق قانوني

رأيت سبَّاحة في بركة زرقاء، مضاءة جيداً،
في وسط بستان نخيل، ليلاً. كان موقع البستان على سفح بركان غونونغ أغونغ Gunung Agung في جزيرة بالي Bali في إندونيسيا. ثمة جدار بارتفاع المنزل ومغطى بنبات البوغَنْفيلية Bougainvillea المعرّش يحمي كل ما يحدث داخل البستان من أعين مدينة تولامبين Tulamben على ساحل الجزيرة الشمالي. ولكن في هذه الليلة كانت شوارع وساحات المدينة خاوية من الناس وشديدة الظلمة، مثل حقول الرز وبساتين النخيل والمعابد، معتمة وساكنة. كانت السبّاحة تسبح جيئة وذهاباً بكل ارتياح في البركة الواسعة كفايةً لمثل هذه الحركات.

كانت الجزيرة في هذه الساعات تخضع لقوانين عيدها الأكبر نوْيِبي Nyepi أي رأس السنة، الذي يُوَّقت حسب التقويم القمري الهندوسي ويُحتفل به هنا إلى جانب كثير من أعياد التقاويم الغريغورية والإسلامية والبوذية والصينية. بالأمس خرج في تولامبين أيضاً موكب ضخم ترافقه ضجة آلاف الأجراس والطبول والصنوج، مؤلف من شياطين عملاقة وأبالسة مصنوعة من ورق مقوى وستيروپور وپلاستيك وخيزران، سارت عبر الشوارع بألوانها الغامقة.

وقُدمت للأرباب والأرواح أضحيات رائعة بشكل تيجان وأهرامات وأبراج من الفواكه واللحوم والحلويات والزهور لاسترضائهم، ولحثّهم على دعم الجزيرة في وجه التهديدات القادمة من عالم الرعب. لكن اليوم الذي تلا المواكب الصاخبة والمقرقعة والألعاب النارية كان لا بد من أن يكون يوماً للصمت والعتمة: نويبي. ففي رأس السنة يُفترض أن تسود سكينة تأملية مستفيضة، وطمأنينة، وأخيراً عتمة.

في رأس السنة يجب أن يبقى حتى مطار العاصمة دِنْپاسار مقفلاً، وكذلك محطات القطارات والباصات والمتاجر والأسواق والورشات والمدارس يجب أن تبقى مغلقة وخالية من البشر. وتجوب الشوارعَ دورياتٌ من حراس المعابد الذين يرتدون السارُنغ الأسود والأبيض، للحفاظ على التقيِّد بوصيّة السكينة والعتمة، والتي تسري أيضاً على الغرباء والمسافرين. ومدراء الفنادق غير القادرين على ردع نزلائهم عن القيام بالمشاوير والنزهات والغناء والصياح، تُفرض عليهم غرامات مالية، وكذلك على كل مَن يخرق قانون الساعة:

في رأس السنة لا يغادر أحد داره وبستانه. ولا يشعل أحد لمبة أو مشعلاً أو ناراً، ولا حتى عود ثقاب. وعلى كافة الأنشطة الحياتية أن تبقى مخفية وراء الدرفات والستائر في البيوت المعتَّمة، كي يوهَمَ الشياطين الصاعدين من أعماق المحيط ومن فوهات البراكين ومن متاهات الكهوف تحت الأرض، بأن بالي، أخصب جزر إندونيسيا المأهولة والبالغ عددها ستة آلاف، وغير المأهولة والبالغ عددها إحدى عشرة

جزيرة، لم تعد مأهولةً ولم تعد صالحة للعيش، فقد باتت قفراً، لا يستحق أن يزورَه الشياطين والأرواح الشريرة.

والويل لمن يسلب هذه الخديعة مفعولها، بأن يشعل في هذا الليل مشعلاً أو يغني وهو سكران أو يصيح أو يضرب الصنج، فيدل بذلك على أن الجزيرة في واقع الأمر مأهولة بأعداد من البشر تفوق كل ما سبق في تاريخها، وعلى أن أرضها تُسمَّد برماد البراكين فتعطي ثلاثة محاصيل من الرز سنوياً، وعلى أنها تزدهر، وقد باتت محبوبة يزورها المسافرون بكثرة، أي أنها أرض مباركة.

من منظورِ شيطانٍ يحلّق في الجو، خارجاً من البحر وراجعاً ليغطسٍ فيه، لا بد أن تبدو البركة المضاءة أشبه بقطعة سماء صافية أُنزلت على هذه الأرض المباركة، فكشف نورها الباهر عن أوركيديا وأشجار نخيل وپاپايا وشرفةٍ وطاولةٍ مغطاة بمفرش أبيض أجلس أنا إليها، إضافة إلى زجاجات وكؤوس نبيذ، وكذلك عن السور المموّه بالعريشة والذي يحجب على الأقل عن أعين دوريات حراس المعبد خرقَ السبَّاحة للقانون في يوم السكينة والعتمة هذا.

ثمة ريح تهب يومياً في الساعة نفسها من المساء، فتتلقفها سعف النخيل وتطغى بصوت حفيفها على صوت حركات السبّاحة بين الحين والحين، ما يموّه خرق قانون السكون إضافةً إلى الضوء الزاحف في قعر البركة. وها هي الريح الآن تقطف بعض زهور البوغنڤيلية والخطمي من أغصان البستان وتحملها إلى الماء المضيء وتنثرها على مويجاته التي تتمدد من

حول السبّاحة، التي رفعت نظرها للحظة وتابعت السباحة.

إلا أن ما رفرف من ثم إلى الماء، لم يكن زهوراً، بل فراشة، وأخرى، من كثيرات تبحثن عن النور في العتمة المهيمنة على البلد، تبحثن عن النهار، وأردن الغوص إلى الأعماق، إلى شموس الكواشف الضوئية. وفي تلك اللحظة المشؤومة التي لامست أجنحتهن فيها الماء بجانب السبّاحة بدأن تغرقن وهن تخبطنَ بأجنحتهنَّ برعبٍ. فوق النور الباهر القادم من عمق البركة بدت أجنحتهن سوداء مثل السبّاحة أيضاً التي كان شكلها يشبه المقص، والتي وقفت من ثم في الماء الذي غطى صدرها، ومدت للفراشة الأولى ثم للثانية ذراعها لتنقذها. قبلت الفراشات العرض، فخاضت السباحة في الماء حتى حافة البركة، وسندت ذراعها عليها، وتدريجياً استعادت الكائنات الهوائية وعيها، فأخذت السبّاحة تهمس لهن، شيئاً ما، تحذيرات ربما، أو تنبيهاتٍ إلى عدم الخلط بين الكواشف الضوئية وأشعة الشمس، أو أسماء تدليل حتى. وانتظرت مستمرة في الهمس إلى أن شرعت الفراشات المنقَذات بالطيران، بتخبطٍ أولاً، مرفرفاتٍ إلى الحياة المجددة.

ولكن ما أن تابعت السبّاحة دوراتها حتى أرادت الفراشات، وقد صرن الآن نحو سبع، الخروج من الليل إلى النهار، واندفعن أخيراً مرفرفات بعجزٍ في مويجات البركة.

ومرة ثانية خاضت السباحة وراء الغارقات، وصارت بالنسبة لهذه، وهذه وتلك بمثابة جزيرة إنقاذ تَطِرنَ منها مرفرفاتٍ وقطراتِ الماء البراقة ما زالت عالقة بهن، فيما تعاود

السبّاحة دوراتها.

إلا أن مَن خدعتهن شموس قاع البركة كن الطليعة فحسب لسرب كبير من الفراشات اللاتي كن، قبل أن تتم السبّاحة دورتها قد غطسن بالعشرات وراء العشرات باحثاتٍ عن النورِ، عن النهارِ. فكيف يمكن الآن إنقاذ سرب غارق؟ وكيف سيُتخذ القرار بإنقاذ هذه وترك تلك لتموت؟ فالمساعدة المنقذة لا يمكن أن تصل إلى الجميع في الوقت المناسب.

هذا السرب الهابط من ليل اليوم الأول في السنة الجديدة، ألا يذكّر بهطل الحصى المتوهج الساخن الذي يمطر به بركان غونونغ أغونغ المدينةَ عند سفحه في اندفاعات دورية، دلالة على كراهية الشياطين للبشر، بسبب استيطانهم الأرض وجعلها قفراً لا مثيل له؟

وتولامبين اسم المدينة، ألم يُشتق من كلمة بتولامبيه التي تعني هطلُ وابلِ الحجارة، للتذكير بما حدث هنا سابقاً، وبما سيتكرر حدوثه حتى يغطي الرماد الأسود كل شارع وبستان وبيت ويدفنه تحته؟

إذا كانت هذه الفراشات حقاً رموزاً للأرواح، حسبما ورد في الكتاب المفتوح أمامي بعد قراءته في أواخر ضوء النهار قبل التعتيم المفروض، فقد تحولت البركة الآن بزرقتها المضيئة كالسماء وبمويجاتها الناعمة، إلى آخرةٍ جيّاشة.

رأيت السبّاحة في وسط السرب المتساقط الذي خسر قسمٌ كبير منه معركته من أجل البقاء. كانت الفراشات

سوداء، تتحرك هامدةً فوق الضوء، تؤرجحها المويجات شماتة بمحاولة البشر خداع الشياطين، وكأن من المفترض خداع البشر الآن- مثلي أنا الجالس إلى الطاولة ذات المفرش الأبيض على الشرفة والسبّاحة في الماء- بأن ما تتقاذفه مويجات البركة ما زال حياً.

ولكن يبدو من ثم أن السبّاحة قد تذكرت، أن القوانين التي يسنها البشر، لا يخرقها البشر وحدهم، ورفعت رأسها ناظرة إلى تيجان الأشجار المتمايلة مع الريح بحفيفها الصادح، الذي يكسر وصية الحفاظ على السكينة، ورأت من خلالها سماءً سوداء، لكنها مرصعة بنجومٍ متلألئةٍ.

●●●

ليلة هادئة

رأيت قطيعاً من الفيلة في المياه القريبة من الشاطئ المحاط بغابة عذراء غير كثيفة لإحدى بحيرات الساحل الشرقي في سْري لانكا. نحو ثلاثين فيلاً بين ذكر (عَيْهَم) وأنثى (عَيْثوم) وطفل (دَغْفَل) كانوا واقفين حتى بطونهم وأكثر، في الماء الداكن الهادئ، وهم يضمون بخراطيمهم باقات كبيرة من حشيش **الفيلة**، أو الحَلفاء، يسحبونها من القاع الطري، وينفضون عن جذورها الوحل والتراب، بهزها ثم خبطها بالماء مثل قطع الغسيل. وفي هدأة المساء، رغم المسافة، كان يُسمع صوت أسنان الفيلة وهي تطحن جذوع القصب المتخشب. حاول بعض صغار الفيلة تقليد أمهاتهم، فسحبوا من هنا وهناك في الماء عيدان قصب أطول من قدرات خراطيمهم، وحاولوا جاهدين تنظيفها، ولكن بلخمةٍ، ثم تخلوا عنها بعد مقارنة طعمها بنكهة حليب الأم، ليحملها الماء بعيداً في الغسق.

لا شيء في المكان يدل على أن هذه البحيرة الواسعة، التي لا يلفت وجود قطيع أفيال فيها إلا بعد تدقيق النظر، هي من صنع البشر، واحدة من الخزّانات الصيفية التي أمر الملوك السِنْهاليون منذ قرون بإنشائها وتزويدها بسدودٍ حجريةٍ

غطتها الطحالب، لحجز سيول موسم المطر، ولسقاية حقول الرز في أشهر الجفاف، أو لتزويد نوافير البرك والألعاب المائية بدفقٍ يرطب السماء الملتهبة.

أما الآن فتنعكس على صفحة مائها، الذي تشتد دكنته تدريجياً، صور جبال الغيوم التي انسكبت منها قبل قليل سيول مطرية لا تميز بين الأفيال والبشر وسدودهم. كان الوقت هو ذلك المساء من كانون الأول/ ديسمبر الذي تتلوه ليلة هادئة مقدسة يُحتفل فيها بميلاد ربٍ، بوجود أشجار مضاءة وجوقات غناء، في ذلك الجزء من العالم، المغطى بالثلوج والذي يبدو نائياً، من حيث أتيت... أما هنا، على شاطئ هذه البحيرة وفوق المستنقعات وراء خليج أروغام فيسود الهدوء وحسب. وهذا الهدوء بدا الآن مهدَّداً بأصوات غسل باقات الحلفاء، ولكن على نحو أشد، بالكركرة المستمرة لمجموعة من الأطفال الحفاة الذين أرشدوني عبر الأدغال والأجزاء الموحلة من الغابة إلى الشاطئ، إلى مشرب قطيع الفيلة الذي وصل قبل يومين فقط لاجئاً من الشمال الشرقي.

هدوء! هدوء! بينما كنت أعالج غصناً كمسندٍ لآلة التصوير لأصور القطيع في ضوء الغسق المتلاشي، كان الأطفال إلى جانبي ينفخون في أيديهم أو قبضاتهم المرفوعة أمام أفواههم، أو يضغطون أصابعهم بالتبادل على أفواه واحد تلو الآخر. ولكن على خلافي، لم يبدُ على أي من مرافقيّ علائم الخشية من أن يشعر أحد الفيلة، سواء ذكراً أم أنثى، بما يزعج حياته

العائلية كزائر متطفل من جهة الغابة فيعتبره عدواً لا بد من القضاء عليه.

الذكر الأقرب إلى مخبئنا في الدغل، كان على ما يبدو متهيجاً عاطفياً ويتمايل في وحل الشاطئ. وكان الأطفال يتنازعون ضاحكين للحصول على أفضل الأماكن التي يتيحها مخبؤنا لمشاهدة الفحل المتمايل والمتأرجح.

كان هذا القطيع جزءاً فقط من قافلة كبيرة تضم أكثر من مئتي فيل بري، افترقت عن بعضها في عدة اتجاهات، هاربة قبل بضعة أيام من نيران الصواريخ والألغام والقنابل والأرض المحروقة، في معمعة الحرب الأهلية بين شعب السنهاليين، شعب الدولة القائمة، وشعب التاميل، أو نمور التاميل، الذين يريدون تأسيس دولتهم الخاصة بهم في شرقي الجزيرة. في مناطق واسعة على الساحل الشرقي يهيمن الجيش السنهالي من شروق الشمس وحتى مغيبها، أما في الليل فيسود الخوف من النمور.

حتى وإن كان انفصاليو التاميل قد بدؤوا خلال الأسابيع الأولى من كانون الأول / ديسمبر، بالانسحاب من مناطق أدغال يالا Yala أمام تفوق الجيش، فإن صوت العيارات النارية ما زال يُسمع في القرى كل ليلة: إن أصداء ضجيج الاشتباكات النارية يشبه أصوات هذه العيارات التي ترافق ضجة الطبول والسلاسل والحجارة، التي يولّدها زارعو الرز لإبعاد قافلة الأفيال البرية عن حقولهم.

كانت حقول الرز تتلألأ في انعكاسات نارِ فيلةٍ عظيمة،

توقد في الليل على منصات عالية لإخافة الفيلة وإبعادها. ولكأن الفيلة تلحق النمور إلى أدغال يالا، راغبة في أن تخلف وراءها أثاراً توازي غضب البشر المدمِّر، فتدوس في طريقها الحقول والأكواخ والبشر. في جريدة Daily News، إحدى أكبر صحف البلد، تردُ يومياً صباحاً أخبارٌ عن موتى ومصابين. وقبل يومين خرج قطار عن سكته بعد اصطدامه بفيل ذكر. وكان كل ركاب القطار من العمال الزراعيين.

قبل أسبوع انضممتُ إلى تاجر شاي من كولومبو، أراد أن يزور عائلته على الساحل الشرقي وكان التاجر على علاقات متينة مبنية على الهدايا والرُشى المالية، سواء مع النمور أو مع ضباط الجيش: وسبق له أن قام بعدة رحلات إلى الشرق، وقد طُمْئن الآن بأن غالبية الطرق باتت آمنة. ولكن بعد أن سافرنا طوال يومين واضطررنا لأخذ طرق جانبية لتجنب حواجز الطرقات، وبلغنا مقصدنا في منطقة بحيرة لاهوغالا والمستنقعات وراء خليج أروغام، وقعت اشتباكات ليلاً، تعطلت بعدها جميع الاتصالات الهاتفية في دائرة قطرها 60كم. كما أن الطرقات بين لاهوغالا وكيتولانا وپوتوڤيل وبين قرى تاميلية نائية أحرقتها الصواريخ، سُدت منذ المغيب، ومع شروق الشمس بدأ البحث عن الألغام. وقد نصَحنا ناغوس بالانتظار ريثما تهدأ الأوضاع، وهو طباخُ فندق احترق في القصف، كنتُ قد نُصحتُ به في كولومبو، باعتباره مريحاً: فهنا في رأيه لا توجد آثار حرائق للمشاهدة وحسب، بل حيوانات برية أيضاً تمر بالمنطقة في طريق هربها

من الحرب، وتُظهر نفسها للعيان في هذه الأيام أكثر من أيام السلم، في مشاهد قد تذكّر المسافر بأن هذه الجزيرة كانت ذات يوم جنة عدن، كانت الفردوس الأرضي.

كان ناغوس يعرف ارتفاع الأمواج في كل خليجٍ على الساحل الشرقي بالمترِ والقدم، وفي أوقات السلام كانَ يُري ضيوفه، كيف أن بمقدور الإنسان، بجسمه فحسب، ودون لوح الركمجة، أن يركب أعتى الأمواج. إنه ينام الآن مع عائلته تحت أربع طاولات مضمومة إلى بعضها، مغطاة بسعف النخيل وبعض الأقمشة مما تبقى من نزله. وعندما يخرج صباحاً بعربته التي يجرها جاموسان إلى شواطئ بعيدة نوعاً ما، ليُحضر رملاً ناعماً لبناء دار جديدة، فإنه يُضطر أحياناً لدفع ضريبة طرقات للجيش، وللنمور أحياناً أخرى.

ولكن في أيام عيد الميلاد هذا، الحارة والرطبة، يبدو أن الحرب ليست وحدها ما يتجاوز كل أشكال الحدود المتعارف عليها، بل الماء أيضاً، الفيضان: فالرياح المطرية الموسمية، الشمالية الشرقية لم تأت بهذه الشدة منذ سبع سنوات- وحسب صيادي خليج أروغام منذ عشر سنوات- فدمرت بعدَ الهضاب الشمالية، مناطق واسعة من الساحل الشرقي. أمطار غزيرة وعواصف عاتية وكسور في السدود: خلال الأيام الأخيرة بلغ عدد المشردين بلا مأوى سبعين ألفاً، إضافة إلى كسورٍ في اثنين وسبعين سداً، منها بعض سدود البحيرات الصنعية القديمة من عصور الملوك السنهاليين. وقيل إن كثيراً من الموتى ما زالوا مدفونين تحت الوحل.

بعد انقطاعٍ لنصف ساعة تقريباً، عاود المطر الهطل. كان صوته يملأ الجَو ويخترق مخبأنا بين أوراق الشجر على شاطئ البحيرة. وعلى طول الشوارع التي غطتها السيول وقفت مجموعات من طيور الفلامنغو في استعراض زهري، فيما كانت الأفاعي تبحث عن ملاجئ في البيوت. وعندما يتوقف المطر لفترة وتشرق الشمس بين جبال الغيوم كانت تشاهد تماسيح أشبه بزوارق صغيرة مجروفة إلى تيجان السد الذي ما زال صامداً في وجه الفيضان. تحت الأسرّة الأرضية والمعلقة كانت تهرع مواكبٌ من النمل في أرتال مضطربة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

خلال سفرتنا من كولومبو إلى منطقة لاهوغالا وپوتوڤيل أوقفنا عدة مرات جنود يقطر المطر من لباسهم الميداني، عند حواجز لا تحصى مموهة بالشِباك، وكانوا يتركوننا ننتظر مرفوعي الأذرع تحت المطر، ريثما يدققون في وثائق سفرنا تحت أسقفهم المؤقتة، فيما قطعان قرود هولمان- تجسيد الإله هانومَن- تلعننا من ذرى الأشجار. شاهدنا مئات من أشجار النخيل مكسورة من شدة القصف بالقنابل أو مفتحمة، ورأينا قِرَم أشجار متقوسة مثل المخالب في رذاذ أمواج المحيط الهندي. كما شاهدنا على طول الطريق كثيراً من تماثيل بوذا التي قام التاميل الهندوس بقطع رؤوسها وأذرعها. وعلى سيارات مدرعة وناقلات جنود محترقة على جانب الطريق كانت طيور من الجوارح تزعق بغضب.

هدوء! هدوء! توقف المطر فجأة مثلما هطل، وباتت

كركرة الأطفال إلى جانبي مسموعةً على نحو عالٍ، لا يمكن تجاهله. لكن الفيل الفحل بقي أسيراً لتهيجه، وبدا كأنه لم يعد يدرك شيئاً من الدنيا حولَه سوى العيثومات. ولكن ما الذي قد يحدث إنْ اكتشف في لحظة صحوٍ واحدةِ المتطفلين عليه في الدغل؟

هدوء! لقد كان الأطفال يتصرفون وكأنهم حقاً غير مرئيين. أما أنا فعلى نقيض ذلك، إذْ انتابني إحساس بوجودي في العراء دون أية حماية. فعلى الطريق من كولومبو نحو الساحل الشرقي رأيت فيلاً أضخم من هذا هنا، وقد فتح أذنيه فجأة في زاوية قائمة بعيداً عن جمجمته ليهجم من ثم بغضب نحو سيارتنا الجيب والتي اقتربت منه جداً على جسر خشبي يهدده الفيضان. حاول سائقنا النجاة بالرجوع إلى الوراء، لأن الوقت لم يعد كافياً لمحاولةِ التفافٍ، ولا المكانُ يسمح بذلك. لو أراد الفيل حقاً أكثر من دفعنا إلى الهروب، للحق بنا بسهولة على الطريق الموحل. لكنه بعد نحو مئتي متر تباطأ ثم وقف ونظر نحونا طويلاً حتى اطمأن حقاً إلى اختفائنا.

هدوء! سحبت من جيبي منديلاً حريرياً أحمر، فسكت الأطفال فوراً. إنه السحر. كنت أحمل معي دائماً أثناء سفري هذه القماشة الحمراء الناعمة كنسمة، وأستخدمها أحياناً عندما أريد لفت أنظار الأطفال إلي، فإنْ كسِبَ الإنسانُ طفلاً من قرية إلى صفه، فسيبتسم له الكبار أيضاً. وهذا المنديل الحريري هو أحد عناصر حيلةٍ رخيصة، لكنها مؤثرة جداً، وقد اشتريتها من متجر للألعاب في ڤيينا. وهي تعتمد على

إخفاء المنديل دون أثر في قبضة اليد المغلقة، وبعد فتحها وإظهار فراغها تماماً، أعود فأظهره من القبضة مجدداً.

كنت قد عرضت هذا السحر على جمهوري من الأطفال قبيل انطلاقنا معاً إلى شاطئ بحيرة الفيلة، وكررته لأزيد سرورهم. وها أنا الآن أكافأ بصمتٍ مطبقٍ فجأةً، لمجرد التنويه إلى تكرار اختفاء وظهور المنديل.

ولكن عندما جَعَلْتُ المنديل المُجَعْلك يختفي ثم يظهر بمجرد حركتين من يديّ، نتيجة خوفي من غضب الفيل الفحل، حدثَ وكأن السحر لم يلفت فحسب انتباه رفاقي الأطفال، بل الفيل أيضاً: رفع الفيل المتهيج رأسه، وكنتُ واثقاً من أنه ينظر باتجاهنا، وأنه قد رأى أعيننا ووجوهنا المبللة بالمطر، تتلألأ في الدغل.

والآن؟ هل سيهاجمنا؟ توقف عن التمايل، ووقف ساكنا في البحيرة الساكنة والتفت، وإنْ كان ما زال مستثاراً، نحو الماء الذي تتكسر على سطحه صور الحلفاء.

●●●

فتاة في عاصفة شتوية

رأيت فتاة في السابعة، بل في الثامنة من عمرها، فقبل ثلاثة أيام كان عيد ميلادها. رأيتها في حقل مغطى بالثلج، غير بعيد من مراعي نهر الحدود إن Inn، الذي يفصل بين ألمانيا والنمسا في منطقة هضبية في مجرى داكن يبلغ طوله ستين كيلومتراً. أمس في عيد **الغطاسْ** تراجع أخيراً البرد الذي يشل الحواس، والذي ساد في الأيام الماضية والتي كان الهواء فيها مفعماً بلمعان الإبر الثلجية. ولكن مع ذهاب الصقيع اختفت معالم كل شيء أيضاً. اختفت جبال الألب في الجنوب، واختفت بيوت المزارع على الهضاب، كما اختفت سماء الشتاء الداكنة الزرقة، التي أخذت تمخرها أساطيل الغيوم. حتى معالم وأطراف الأماكن القريبة غرقت في الضباب. ومن هذا البياض الذي يفتقر إلى هيئة، كان يهطل أحياناً ثلج شحيح.

بحثت الفتاة عن يد أخيها الذي يكبرها بثلاث سنوات، والذي انطلقت معه في صبيحة أول يوم بعد عطلة عيد الميلاد، على الدرب الطويل من دار العائلة نحو مدرسة القرية. لكن أخاها دفع يدها عنه. أراد أن يبقى اليوم وحده، لم يرغب في الكلام ولا في سماع الأسئلة. إنها ذكرى مساء الأمس ما جعله

يدفع يد أخته عنه. وهي ذكرى المساء نفسه، ما جعلها تمد يدها بحثاً عن يد أخيها.

بالأمس طال جلوس أبيهما في الحانة البعيدة ولم يعد إلى الدار، فكان يُفترض بابنته الكبرى، المفضّلة لديه، أن تسحبه من طاولة الحانة، فيما تنتظر الأم في السيارة الصغيرة تحت السماء الشتوية الصافية، ولكن دون أن تطفىء المحرك، لأن الزجاج الخلفي مغطى بزهور الجليد. ولكن بالأمس رفضت الإبنة أن تسمع ضحكات لاعبي الورق على طاولتهم المعتادة وغمزاتهم وسخريتهم من أبيها اللاعب الخاسر أبداً، والذي تُسيّره زوجته كيفما شاءت، وتجره ابنته من كرسيه مكافأة له على أوراقه الرديئة. بكت الفتاة أثناء الذهاب بالسيارة، وعند بلوغهما الحانة لم تتزحزح من مكانها لا بالتهديدات ولا بالوعود، ورفضت دخول الحانة المرهوبة التي بدت لها مثل سفينة مضاءة، وسط حقول ليلية جرداء. وهكذا قادت الأم السيارة وقد أخرسها الغضب عائدة إلى الدار، حيث دفعت ابنتها خارج السيارة، وسحبت الأخ الأكبر من لعبه مع أختيه الصغيرتين. فكان عليه أن يفعل ويحتمل ما رفضت الأم والابنة فعله واحتماله. كان عليه أن يشق طريقه وسط صخب وضحك زبائن الحانة، وأن يشد أباه من كمه مرة وأخرى وأن يرجوه مراراً وتكراراً للمجيء معه، إلى أن نهض أخيراً، ودفع عنه يد ابنه المغلفة بقفازٍ نصفي صوفي، والذي أراد أن يجره إلى خارج الحانة، إلى البرد. وفي خضم ضحك شركائه في اللعب دفعَ بقدمه باب الحانة المغطى بإعلانات دائرة المطافىء واتحاد

صندوق التوفير ومربي الأبقار، وذلك قبل أن يفتحه، فداس على ابنه خارجاً قَبْلَهُ إلى الليل.

لا، لم يضرب الأب ابنه، فهو لا يضرب أولاده، لكنه لم ينبس بأية كلمة طوال طريق العودة إلى الدار، وكذلك الأم. ولكن في الليل استيقظت الفتاة على أصوات والديها الغاضبين، على اتهامات أمها لأبيها وتبريرات أبيها ثم شتائمه في نهاية المطاف، عندما صاحت أمها في وجهه: اعتبر نفسك محظوظاً يا ابن الحرام، الملعون، السكير، يا ابن الخادمة، لكون وريثةِ دارٍ قد قبلت بك زوجاً.

حظ؟ دار؟ هل كان هذا الكوخ الآيل للسقوط يسمى داراً؟ مَن الذي حَمَّل السيارات شحنةً وراء شحنة بالحصى من مروج نهر الإن إلى هنا لتحويل هذا الكوخ المتداعي إلى ما هو عليه الآن؟ مَن الذي اشتغل كالدواب لتحويل ما سمي إرثاً إلى دار قابلة للسكنى؟ ومَن الذي كان يذهب قبل وبعد شغل الاصطبل وجمع الدريس والتحطيب، وحتى ليلاً بعد أن ينام الناس، ليشتغل ساعي بريد عبر المراعي، وفي ورشات بناء الآخرين بالمجرفة والإزميل، ليجمع القليل من النقود ليسد رمق عائلته المؤلفة من ستة أفواه، إضافة إلى والديكِ المريضين اللذين لا يكفي مدخول بقرات هزيلة في هكتار من العشب الحامض لإطعامهما.

في هذا الصباح الضبابي المعتدل بعد عيد الغطاس، لم يتبادل الوالدان أي كلمة معاً. لا اتهاماً ولا تحية. حتى سؤال الوالد، ما إذا كان عليه إعلام الطبيب البيطري بشأن بقرة

أصابها إسهال، بقي دون جواب. ثم قام الأخ بملء المعالف في الاصطبل عبر الفتحات الأرضية، وقامت الفتاة بمساعدة أختيها الصغيرتين بالتغسيل والتلبيس، ثم تعاونت الأخوات معاً في إعادة ترتيب الخراف والرعاة المنحوتين من الخشب على مراعي بيت لحم المصنوعة من الورق المقوى الملون، والتي يظهر عليها الملوك الخشبيون الثلاثة راكعين أمام ربٍ خشبي حديث الولادة مع والديه الخشبيين أيضاً. وعلى طاولة الإفطار كذلك ساد هدوءٌ مشحون بالتوتر، حاولت الفتاة في أثنائه بتعدادٍ سري جداً، تحديدَ عددِ مراتِ طقطقة الحطب في الفرن، لكنها قطعت محاولتها لأن إحدى أختيها أخذت تبكي لضياع دميتها.

في طريق المدرسة عبر الثلج وعالم الضباب الأبيض لم يرغب الأخ أن يذكّره أحد بالأمس ولا بالصراخ الليلي ولا بالهدوء المشحون أثناء الإفطار. لكن الفتاة كانت تتوق إلى كلمة مواسية مطمْئنة، فبحثت عن يده مرة أخرى. صارت ندف الثلج أكثف، وكان الحقل الذي يعبرونه عادة في إثر خطوات الأمس، خالياً من آثار الأقدام، بسبب هطل الثلج المتوالي خلال أيام الأعياد. حتى حدود الحقل، وهي صف من أشجار البتولا العارية وصف من أشجار الكرز البري العارية وصف من أشجار البندق العارية، كانت غارقة في الضباب. أخاديد الحقل وحدها، التي كان ثلجها يخشخش تحت خطواتهما، كانت تشير إلى الجهة التي أتيا منها وتسبقهما إلى القرية، إلى غرفة صفٍ لا شك في أنها ستكون باردة أيضاً

في هذا الصباح.

من مكان ما في هذا البياض اللا متناهي كان يُسمع نباح كلب، عواء غاضب مبحوح، قريب بصورة غريبة، أقرب من الأيام الأخرى. كان ذلك كلب بيت أحد الجيران البعيدين، وهو سبب مرور طريق المدرسة دائماً عبر هذا الحقل. إنه الكلب. ليس ثمة ما تخشاه الفتاة سوى الكلاب، وتحديداً هذا الكلب. بل ثمة شيءٍ آخر، لكنه لا يشكل خطراً كبيراً في الشتاء: العاصفة الرعدية، قصف الرعد ولمعان البرق الذي يعمي العيون ويفجر جذور السماء... هذا هو ما تخشاه أكثر من الكلاب.

لا شك في أن الجار يربط كلبه الشيفر هذا بسلسلة. لكن هذه السلسلة تحديداً التي نتفت فروة رقبته وخلّفت مكانها حيزاً متقرحاً هي ما يجعله حاداً وغاضباً. حتى والدها لم يتمكن من حماية نفسه من أنيابه، عندما اضطر، بصفته ساعي بريد رسمياً، إلى أنْ يوصل للجار كتاباً مسجلاً من محكمة البلدة، فلم يحتط للأمر واقترب منه أكثر مما يجوز. كان تبرير الجار، في حينها، أن الكلب يكره اللباس الرسمي.

ولكن هل الوحش اليوم مربوط حقاً بالسلسلة؟ أم أن الجار قد تركه يتحرك حرّاً ثانية، ليهجم على متجاوزي الحدود المختبئين في الضباب؟

الأخ لا يخاف، لا من هذا الكلب ولا من غيره. إنه قادر على مخاطبة الكلاب بحيث يتوقفون عن النباح، كما أنه قادر على تهديدهم بحجر أو بعصا بطريقة تجعلهم يخافون منه

هو، بل لا يحتاج الأخ حتى إلى رفع حجر، يكفي أن ينحني بتصميم فوق الكلب، ما يجعل الأخير يولّي الأدبار. ولم يكن يخوض في هذا الحقل يومياً على الطريق إلى المدرسة، حباً بأخته طبعاً، وإنما تنفيذاً لأوامر والديه. وفي هذا الصباح أغضبته إطاعة الأوامر. فطريق البضائع الذي يمر بجانب المزرعة المجاورة لهم، أخلته الجرّافة من الثلج، في حين أن الثلج هنا بلا أية آثار وسميك.

اتركيني لحالي! اتركيني لحالي! قال لأخته وكررها: اتركيني لحالي. لكنها كانت صامتة تماماً، تنظر طوال الطريق بلا انقطاع في الضباب الأبيض، الذي يأتي منه نباح الكلب. هل اقترب الآن أكثر؟ أكثر؟ هل قطع الكلب سلسلته؟ مدت الفتاة يدها نحو يد أخيها. يفترض بالأخ أن يأخذ بيدها، فهي خائفة، خائفة جداً.

لكنه الآن لم يدفع يدها عنه فحسب، بل ضربها عليها. كان غاضباً ومغتاظاً. ما عاد يريد أن يطيع الأوامر، ولا أن يكون بعد الآن حامياً لأخته وللبنات. هذا يكفي. وفجأة أخذ يمشي بسرعة، وبسرعة أكبر، إلى أن بات يركض، يركض... متخلياً عنها في هذا البياض، الذي يأتي منه النباح.

حتى من دون هذا النباح، ما كان بوسع الفتاة أن تلحق بسرعةِ أخيها الأطول منها بما يقارب حجم رأس. ولكن في الاتجاه الذي أخذه في ركضَهُ الآن، ما كانت الفتاة لتتبعه. ولو كانت بطوله. لن تتبعه مهما كان الأمر. فتخلفت عنه، اضطرت إلى التخلف عنه وهي ترى أنها قد فقدت أثره وتسمع تلاشي

صوت خطواته. ثم بقيت وحيدة في بياض كتيم. وحيدة مع النباح.

وقفت ساكنة في مكانها، لا تجرؤ على خطوة أخرى. هل يمكنها العودة من حيث أتت؟ حتى من هناك كان يأتيها النباح في هجرانها. وكأنها محاصرة بقطيع من الكلاب المسعورة، في دائرة ترغي وتزبد عواءً، وهي في وسطها كالمشلولة.

أما الآن... ما هذا النور الباهر؟ يا له من نور مرعب!

مثل شعلةٍ قذفها النباحُ التمع فجأة نور برق، وتبعه التماع ثانٍ! كيف يلمع برقٌ من النباح في هذا البياض الثلجي؟ برقٌ صبيحة عيد الغطاس! برقٌ في عز الشتاء! وهذا النور اللُّمعي الذي انتزعَ من هيئتها ظلّاً سريع التلاشي، مع انقلابِ هطل الثلج إلى حبات بَردٍ كبيرةٍ كالحصى، تبعه قصف رعد يصمُّ الآذان، حوَّل خوفها إلى حالة تنتمي إلى الموت أكثر منها إلى الحياة.

مع العاصفة الشتوية في هذا الصباح عرفت الفتاة لأول مرة في حياتها، أن الأمور المفزعة لا تتقيد بفصول السنة ولا بأمكنة محددة، بل تنقضُّ على ضحاياها في أيةِ لحظةٍ كانت. لم تعد الفتاة تسمع صوتها ولا بكاءها، بل النباح وقصف الرعد فقط. وإضافة إلى ذلك قذفها برقٌ آخر بكراتٍ حمراء وصفراء في عينيها، وتابعت تدحرجها حتى بعد أن غطت الفتاة عينيها بكفيها. كما لو كانت تقف الآن أمام خريطة مفرودة على سبورة المدرسة رأت الفتاة أن ليس أمامها، من حيث هي، إلا أثراً واحداً يؤدي إلى حماية بيت العائلة الصعبة المنال، وأثراً

آخر إلى حماية القرية الصعبة المنال أيضاً، ووجدت نفسها في نهاية الطرق جميعها، وليس هذا فحسب، بل في الثلج.

وفجأة أحست على كتفها الذي يرتجف من البكاء بلمسةٍ دافئةٍ ناعمةٍ، رقيقة وقوية في الوقت نفسه يمكن أن تبثها نوعاً من المواساة تتغلغل في جسمها كله. وأحست خلال لحظة واحدة بالشلل واليأس يفارقانها، فالتفتت ورأت على كتفها يد أخيها.

لقد رأيتُ الحقول والمروج التي خاض الأخ والأخت عبرها في ذاك الصباح الشتوي، في جميع فصول السنة: مزهرةً، متماوجةً مع النسيم، قاحلةً في أواخر الخريف، ثم مغطاةً بالثلوج ومع المرأة التي صارتْها تلك الفتاة، والتي شاركتني تسعة عشر عاماً من حياتي، مشيتُ الطريق الشتوي ذاك مراراً في نزهات متعددة. وأثناءها، عندما كانت تحكي عن الصخب في الحانة، وعن الأصوات الغاضبة في الليل، وعن كلب الجار المقيد بالسلسلة، وعن غشاوة عينيها في البرق، أو عن هطل الثلج وقصف الرعد، كانت لا شعوريّاً تمسك بيدي.

بعد انفصالنا وموتها المبكر، لم أطرق ذلك الدرب أبداً مشياً. ولكن عندما كنتُ أمر وأنا في السيارة بهذه الحقول والمروج، مهما كان الفصل، كنت أخوض عبر ندف الثلج والأرضُ كلها مغطاة بالبياض.

●●●

الوصول

رأيت ثلاثة رهبان يهمسون في كهفٍ عالٍ
فوق شاطئ بحيرة جبلية مغطى بالثلج على ارتفاع أربعة آلاف متر فوق سطح البحر في هيملايا الغربية. وقد شكّل هبوب الريح عبر فتحة الكهف لساناً ثلجياً طويلاً، امتد إلى قرب تلك النار التي جلس الرهبان قربها متلاصقين تقريباً، وهم يتمايلون بجذوعهم مع إيقاع صلاة يهمسونها. وعندما يصلون أخيراً إلى نهاية مقطع في صلاتهم المكررة، ليلتقطوا أنفاسهم، كان يُسمع صوت اصطكاك أسنانهم من البرد. كانت وجوههم وأيديهم مسودة من السخام، وشعورهم الطويلة حتى الأكتاف مشعثة ومتيبسة من السخام، وحمرة أرديتهم مغطاة بطبقة سوداء بحيث يصعب تعرفها. لم يكن الثلاثة قد بلغوا العشرين بعد، وربما كانوا أصغر من ذلك بكثير، لكن السخام لم يسمح إلا بتكهنٍ تقريبي. كان الكهف واسعاً جداً، بحيث تولّد طقطقة الأغصان المشتعلة أصداء ترددها الجدران وهذا النوع من النار لم يكن كافياً لتدفئتها.

كان هدف طريقنا الشاق هو بحيرة فوكسوندو Phoksundo وقرية رينغمو Ringmo على ضفتها، والتي تبدو من مدخل الكهف العالي مثل تجمع لظلال متناثرة في العمق

تحتنا. وقد انطلقتُ مع صديق لي في هذا اليوم الشتوي متسلقين منحدرات مغطاة بالثلج أو متجلدة تحت ضغط الهواء في وادٍ جبلي متيبس من الصقيع. كنا خلال الأسابيع الماضية قد تجولنا في المنطقة الحدودية بين نيپال والتيبت، باحثين عن أديرة وصوامع نساك تعود إلى ديانة بون Bön القديمة التي سادت هنا طويلاً قبل البوذية. ومنذ بضعة أيام وجدنا لأنفسنا مأوى يحمينا من الثلج في أكواخ وكهوف إمارة قبيلة دولپو، ومن الوديان المحيطة بنا كانت تصلنا باستمرار أصوات الانهيارات الجليدية.

أمضينا الليلة الماضية في مخيم لجماعة شبه بدوية تقيم في أكواخ حجرية يغطي السخام جدرانها، بانتظار أن يحرر الربيع المعابر فيسمح لهم بالانتقال مع قطعان الياك Yak إلى البحيرات المالحة الكبرى ومراعي التيبت. بقي أمامنا مسيرة يوم واحد، إذْ قيل لنا في هذا المخيم، إن بحيرة فوكسوندو يُفترض أن تكون في الجوار، في الغيوم الثلجية، وإن ثمة قرية على ضفتها وديراً أيضاً. لكن مضيفينا لا يعلمون ما إذا كانت هذه التجمعات السكنية في الأعالي، ما زالت مأهولة أم مهجورة في هذا الوقت من السنة. وقبل الظهر، عندما تجلى لنا فوق السحب المسرعة وفي نور أشعة الشمس، أحد المسيلات الجليدية يتحرك كجبل جليدي، غادرنا المخيم وانطلقنا.

كان الثلج الكثيف يغطي معالم أية دروب في اتجاهنا، وبما أن كيسي ظهرينا كانا ثقيلين فقد غصنا في الثلج حتى الركبتين وأحياناً حتى الوركين. وحتى على هذا الطريق بقي

الاتفاق فيما بيننا ساري المفعول، بأن على كل منا أن يتسلق أو يخوض حسب قواه، في حال غياب عوائق تتطلب جهدينا معاً، أو في المعابر الصخرية المتجلدة، حيث على أحدنا حماية الثاني على حبل التسلق. وهكذا سرعان ما تسلق وخاض كل منا في طريقنا لوحده. بعد مرور ساعة غاب صديقي عن مرمى نظري. كان يظهر أحياناً كهيئة تصغر وتصغر في أعالي المنحدرات إلى أن غاب في الغيوم. عندما كنت أتوقف لألتقط أنفاسي كنت أرى منحنيات آثارانا تذروها الريح، فتضيع ورائي في أعماق زرقاء. وفوق رأسي وعند قدمي كانت تعبر جذاذات غيوم، دلالة على جبهة طقس رديء قادم.

كانت آثار صديقي تؤدي إلى سفح شلالات متجلدة ومتدلية من جدار صخري، يزداد وقوفاً نحو الأعلى إلى أن يؤدي أخيراً إلى مدخل منبسطٍ لوادٍ جبليٍّ مليء بأشجار الصنوبر المائي، بين ذرى شاهقة، كأنه بين جدران سد.

كمْ بدت بحيرة فوكسوندو، هدفُنا، مطمْئنةً ومبشِّرةً بالخير أخيراً، رغم كونها لا تزال بعيدة في نهاية الوادي: سطحها الأخضر المسود يعكس صورة سلاسل جبلية في سماء شارفت على المغيب، ولا يوجد حول شاطئها سوى بضعة دورٍ حمراء بلون الدم، صوامع عبادة مزدانة بأعلام الكتابات المقدسة على سطوحها، وبأعلام أخرى، أخف وأجمل، ترفرف تحتها. دخان! هل القرية وديرها ما زالا مأهولين!؟ رأيت خيوط دخان فوق كل دار على شاطئ البحيرة.

استهلكت ساعة أخرى تقريباً حتى وصلت إلى هضبة

الشاطئ أخيراً. لكن البيوت الأولى التي مررت بها كانت بيوت موتى، مواضع للذكريات، جراراً لحفظ رماد جثامين الرهبان المقدسين، أو غبار الأرواح الجوالة. وبين هذه الدور اكتشفت أن صديقي منهمكاً بأخذ قياسات إحداها وبرسمها. أحس بالارتياح لرؤيتي أخيراً. لو أني تأخرت ساعة أخرى لبدأ بالبحث عني. ستكون هذه الليلة أكثر صفاء وأبرد من سابقتها.

من سقوف بيوت الموتى كانت تمتد، مثل حبال الخيام، خيوط ملبّسة ببيارق صغيرة، ومشدودة إلى الأرض الثلجية، وقد كتبت عليها آيات الصلوات، أي أسماء وأهداف ونهايات الدنيا. كان الصقيع قد يبّسها وبقيت ترفرف بالمئات في مهب الريح. ثم التفتنا إلى الدخان في سطوح البيوت المسطحة، فكان ثلجاً ناعماً مثل ذرور الكريستال تذروه الريح مثل أوشحةٍ دخانية. كانت الدور باردة ومقفلة. لا بشر، لا ملجأ. كانت القرية مهجورة.

ثمة باب وحيد من الأبواب التي حاولنا فتحها، لم يكن مرتجاً، وقد أدى بنا إلى قاعة بلا نوافذ، يوجد فيها ما يسمى طاحون صلوات، بارتفاع مترين تقريباً، والتي يُفترض بالحجاج والرهبان أن يديروها إلى الأبد. لكنها كانت ساكنة هامدة.

قررنا قضاء الليلة على أرض هذه القاعة المدكوكة، وبدأنا نجمع الأغصان لإيقاد نار للطبخ من شجرة صنوبر ساقطة من ثقل الثلج عليها، عندما اكتشفنا في أعلى منحدرٍ يشرف

على شاطئ البحيرة بوابة كهف. وبالتدقيق عبر المنظار المقرب، تأكدنا أن ما يخرج من فم الكهف لم يكن وشاحاً كريستالياً من الثلج الناعم، وإنما دخان حقاً.

كنت على درجة من التعب بسبب ساعات التسلق الطويلة، إلى حد أن اضطر صديقي إلى إقناعي بالتخلي عن معسكرنا الليلي عند طاحون الصلوات، وبضرورة تسلق هذا المنحدر الخالي من أية آثار حتى الكهف.

لم يكن قد تبقى من الشمس في أعالي الجبال أكثر من انعكاس يميل إلى الحمرة، عندما كنت في منتصف المسافة، تحت ثقل كيس الظهر وثيابي المبللة بالعرق، على وشك أن أغرق في الثلج، وأن أبقى في مكاني بانتظار عودة صديقي: فقد عانينا من عقبات في التسلق كانت تسد الطريق أمامنا، ولم تكن مرئية من شاطئ البحيرة، مثل نتوءات صخرية لا بد من الالتفاف حولها، ثم حقل جليدي مختفٍ تحت الثلج المتراكم لم نتمكن من تجاوزه إلا بصعوبة بالغة بمعونة الكلابات وفؤوس الجليد... بدا لي مدخل هذا الكهف الآن مثل قمةٍ تسلقها يستنزف جميع القوى دون القدرة على بلوغ الذروة المتلاشية أمامي باستمرار.

أمر غريب، فذاتَ لحظةٍ رأيت صديقي فوقي في الأعلى عند فتحة الكهف. كم بدا ضئيلاً أمام هذا الفم الأسود المتثائب. لوّح لي بيده، أما ما صاح به فلم أفهمه بسبب هبات الريح. بعد جهد جهيد جعل الدم يغلي في رأسي، بلغتُ أخيراً الكهف، لأجده جالساً إلى جانب الرهبان الثلاثة عند النار،

وهو يحاول أن يطرح أسئلته ببعض الكلمات التيبتية والبنغالية.

كم من الوقت مضى على الثلاثة هنا؟ أهناك رهبان أو حجاج آخرون هنا في الأعالي؟ وهل الطريق العالي المؤدي إلى دير شاي غومپا ودير تساكانغ ما زال مفتوحاً؟ هل ثمة مَن يُمضي الشتاء هناك؟

لم يتضح ما إذا كان الثلاثة قد فهموا الأسئلة الموجهة إليهم. لكنهم لم يقطعوا صلاتهم، كما لم يتوقفوا عن الهمس عندما نهض أحدهم وقدم لنا شراب زبدةِ الياك المملح وجذوراً مجففة وتسامپا، أي طحين شعير خشن، خلطه وهو مستمر في الهمس، مع شراب الزبدة المملح ليصنع منه عجينة رمادية اللون.

فيما كنا نأكل ونشرب تلمس الثلاثة ستراتنا وأغطية الساقين المقاومة للثلج، وقفازاتنا بإعجاب واضح، ثم تفحصوا وزن الكلابات وملحقاتها وكيسي الظَّهر، دون أن يتوقفوا عن همس صلواتهم وترتيل آياتهم وأسنانهم تصطك من البرد.

بعد أن تحررتُ من ثقل كيس ظهري أخيراً ومن آلام التسلق، جلست إلى جانب صديقي عند النار التي تخمد ببطء. وكنت منهكاً لدرجة أني لم أبدل ثيابي الغارقة في عرقي، بل وضعت كيس نومي على كتفي كغطاء ووهج النار يضيئني.

كان صديقي قد تخلى أخيراً عن محاولاته لطرح الأسئلة على المصلين وجلس صامتاً إلى جانبي يحدق في النار منصتاً لهمسهم. أثناء ذلك أخذت سماء الشتاء المرئية عبر فتحة

الكهف بالتلاشي. وسلاسل الجبال التي يصل ارتفاعها هنا حتى ستة آلاف متر عن سطح بحرٍ ناء بصورة لا نهائية، تحولت إلى جدرانٍ سوداء بزغ فوقها نجم يتلألأ.

نجم؟ بل كان غمّاز طائرة انسابت عبر الليل بلا صوت. حاولت أن أتصور، أين يمكن لضوء نار مخيمنا في كهف الرهبان أن يضيء كإشارة على السلاسل الجبلية المظلمة. يُفترض بضوئنا أن يتوهج في الأبعاد القصية مثل هذا النجم.

خمدت النار. ولم نعد نرى من الرهبان سوى ظلالهم، ومن وهج النار سوى رماد أبيض. شعرت بطمأنينة وسكينة كما في تلك الأزمان المفقودة عندما كنتُ كل مساء أقتاد إلى سريري ويُترك الباب مشقوقاً قليلاً، بسبب خوفي من العتمة، فأرى من خلاله حزمة نور، وأسمع أصوات الذين يقومون على حمايتي يتهامسون. وعندما انطلقتْ من الرماد الأبيض كالثلج شرارة وانطفأت أثناء طيرانها، نمتُ. وها أنا قد وصلت.

إنتهى

●●●

أطلسُ رجلٍ يتوخّى الدقة

يمتاز هذا الكتاب الأدبي للكاتب النمساوي كريستوف رانسماير بأنه فريد النوع في نموذجيته الأدبية ومحتواه وأسلوبه. جاء الكتاب في سبعين نص / قصة جرت أحداثها عبر القارات في أزمنة مختلفة، وفي أجواء وجدانية ونفسية رمت بظلالها على تلك القصص. يقدم رانسماير في هذا الكتاب، كونه شاهد على الحدث وقد عاشه بنفسه، خارطة نصية بصور أدبية تتحدث عن الحياة والموت، عن الحظ والقدر في حياة الإنسان، تثير حب القارئ بمتابعة القراءة. إنها نصوص أدبية جرت أحداثها في أماكن عديدة على هذه الأرض، قريبة أحياناً وبعيدة أحياناً أخرى، لكنها دائماً قريبة من القارئ. إنه عمل أدبي ربما يكون الوحيد من نوعه في اللغة الألمانية.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 173960